محمد اليعلاوي

ابن هانئ المغربي الأندلسي

[320/931 - 362/973]

شاعر الدولة الفاطمية

دار الغرب الإسلامي

ابن هانئ المغربي الأندلسي

[973/362 - 931/320]

ابن هانئ المغربي الأندلسي

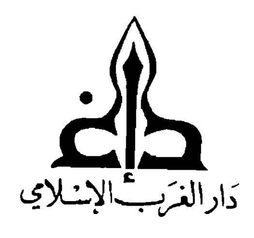
[320/931 - 362/973]

شاعر الدولة الفاطمية

تأليف

محمد اليعلاوي

أستاذ بكلية الآداب بالجامعة التونسية



١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

دار الغرب الإسلامي
ص. ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

ترتكز شهرة الشاعر المغربيّ محمد بن هانىء على أسس متنوّعة . فقد شهد له المغاربة ، ومن بعدهم أهل المشرق ، بالشاعريّة الفائقة ، بل رفعه أهل المغرب ، حسب عبارة ابن خلّكان ، الى المرتبة التي بلغها في المشرق معاصره المتنبي[1] .

هذا الجمع بين الرجلين لا يعني بالضرورة أنّهما صنوان ندّان متشابهان ، أو أنّ صاحبنا مدينٌ للآخر بالتبعيّة والتلمذة والتقليد . فالفروق بينهما كثيرة ، في السلوك وفي الطريقة الشعريّة ، كما سنُبَيِّنُ في الفصل العاشر من هذا الكتاب . بل الحكم ، هذا الحكمُ الذي جعل عبارة « متنبّي الغرب » لقباً لاصقاً الى اليوم بابن هانىء ، ناتج في رأينا عن أمرين : أولاً ، ميل الناس الى الاختصار ، وذلك بصوغ المقارنة السريعة في العبارة الوجيزة ، أو الجمع بين المتلازمَين في الواحدِ منهما ، فقالوا : العمران والحسنان والقمران . ثانياً ، ميل أهل الأندلس والمغرب قديماً إلى مطاولة المشارقة في ميادين الحضارة والفنون والأدب ، حتى يقارعوهم فرداً بفرد ، وعلَماً بعلم ، كلما افتخر المشرق بشاعر أو أديب ، اوِ أعتزَّ بملك مُظَفَّرٍ أو أمير ، أو تباهى بمغنى زاهر أو قصر منيف . على أن هذا التفسير لأسس المقارنة بينهما لا يمنع

---

(1) وفيات الأعيان ، ترجمة 640 : « وهو عندهم كالمتنبّي عند المشارقة » .

من التماس النواحي المشتركة في شعرهما ، كما فعل المستشرق إ. ڤارنيا ـ ڤوميت في تعليقه على القصيدة الحادية والعشرين[1] من ديوان ابن هانىء ، وهي بالذات القصيدة التي تعرّض فيها شاعرنا المغربي الى ديوان معاصره الكبير[2] .

فجدير بنا إذن أن نهتمّ بهذا الرجل الذي اعتبره ابن خلّكان « أشعر المغاربة على الإطلاق » ، فقدّمه على السابقين منهم والمتأخرين ، وأن نحلّل عناصر شاعريّته وعوامل ذيوع شعره ذيوعاً تشهد بـه كثرة النسـخ المخطوطة من ديوانه ، وقد بلغت فيما عرفنا ، الثلاثين .

وحتى تلك « المنافسة الثقافية » التي كانت تحرّك الأندلسيّين في وجه الأفارقة وإزاء الشرق ، والتي خفّت حدّتُها اليوم فصار كلّ إقليم يهتمّ بأعلامه أوّلاً وبالذات وأمجاده ، هذه الإقليميّة الثقافيّة قد تدعونا الى توضيح ما غمض من شخصيّة ابن هانىء ، وإنارة ملامح هذا الأندلسيّ الغريب الذي «تغرّب» إلى إفريقيّة وانبرى لخدمة الدولة الشيعيّة .

ذلك أن محمد بن هانىء لم يكن « أشعر المغاربة » فحسب ، فهو أيضاً شاعر متحزّبٌ للعقيدة الإسماعيليّة ، متطوّع لخدمة الأئمّة الفاطميّين ، يُعلي بشعره كلمتهم ويدحض احتجاج خصومهم ، فتصبح دراستنا له ، بفضل انتمائه هذا ، متجاوزة لحدود الدراسة الأدبيّة ، فتتعلّق بالجوانب التاريخية من القصائد ، وخاصّة بمقوّمات الدعاية الشيعيّة أثناء القرن الرابع ، ذلك العصر الذي أسماه لويس ماسينيون « القرن الإسماعيليّ للإسلام » .

وبالفعل ، يمتاز ابن هانىء عن شعراء البلاط العاديّين : فليس يحرّكه

---

(1) نعيّن القصائد من الآن فصاعداً ، بالأرقام الترتيبيّة التي أسندها اليها زاهد عليّ في شرحه للديوان .

(2) المتنبّي وابن هانىء ، بحث بالفرنسيّة ضمن مجموع فصول على شرف وليام مرسي ، باريس 1950 ص 147 .

رجاء الرفدِ ، ولا طمعٌ في جاه . بل تحدوه عقيدة دينيّة وسياسيّة قويّة جعلته يتعلّق بأحفاد المهديِ عبيد اللّه تعلّقاً تلقائيّاً نهائيّاً ، وميّزته حتى عن غيره من شعراء آل البيت ، سواء كانوا مغاربة مغمورين كعلي الإيادي التونسي وسعدون الورجيلي ، أو مشارقة مشهورين كالسيّد الحِميريّ أو دعبل الخزاعيّ .

وهناك ظاهرة أخرى تدعو الى الانكباب على شعر ابن هانىء : وهي « خفوت المغربيّة » عند هذا الشاعر المغربيّ ، نعني قلّة ظهور البيئة الأندلسيّة ، والإفريقية ، بل انعدامهما ، من شعره ، وهو الذي قُسمت حياته نصفَين بين الأندلس والمغرب : فلن تجد في كامل ديوانه ذكراً لمدينةٍ إفريقيّة[1] أو جبل مغربيّ أو نهر أندلسيّ . بل ، إذا مسّت الحاجة ، يتّجه الى الشرق البعيد ، ويفضّل النيل والفرات ، ويؤثر رضوى وثبيراً ، ويذكر بغداد وحلب ويعرض تماماً عن إشبيلية والقيروان ، فينصرف عن البيئة الحقيقية الى بيئة مجتلبة بالحفظ والتحصيل . وإن هذا الانعتاق من البيئة والنشأة لجدير أيضاً بالدراسة .

كما سنحاول أن نبدّد الغيوم التي لا تزال تكتنف شخصيّة هذا الشاعر وتغشّي ديوانه أيضاً : فهو شاعر « واقع » لا يشك أحد في وجوده ، وديوانه انتشر في العالم العربيّ الإسلاميّ منذ القرن الخامس ، ولا يخلو كتاب أدب من مختارات من شعره ، لكن ، بالرغم من هذا الذيوع ، فإنّ الضباب يغطّي فتراتٍ شاسعةً من حياته ، ولا سيّما الفترة الأندلسيّة ، فهي لغز محيِّر : سبعة وعشرون عاماً قضاها بالأندلس ولا نجد لها صدى في شعره ، ولا حتى بيتاً واحداً ! وكذلك وفاته ببرقة : فما هي ظروفها وأسبابها ؟ أكان ذلك اغتيالاً سياسيّاً أو انتقاماً شخصياً ؟ أم كان حادثاً عاديّاً وموتاً طبيعيّاً ؟

ثمّ هناك لغز آخر يختصّ بالديوان : فعلى الرغم من انتشار هذا الشعر

---

(1) ذكر مرّة رقادة وأحياناً إقليم الزاب دون قصبته المسيلة .

وشهرة صاحبه في حياته وبعد مماته ، وعلى الرغم من حظوته عند الأئمّة الفاطميّين ، لم يتطوّع الشرّاح لدرسهِ ولا المعلّقون لشرح غوامضه . كما نستغرب أيضاً أختلاف نسَخِه ، وتفـاوت مادَّتها : هذا مخطوط يتضمن قصائد ومقطوعات يخلو منها مخطوط آخر . وهذه نسخة اقتصرت على كبرى المدائح ، وتركت باقي شعره ، علاوة على التناقض الكثير في عزو المدائح الى أصحابها ، واختـلاف الترتيب من أبجديّة الرويّ الى التبويب على الممدوحين . وهي أمور تحتاج إلى محاولة تفسير .

هذه هي إذن الدوافع التي تدعونا للاهتمام بابن هانيء الأندلسيّ المغربي ، على قلّة « مغربيّته » وانعدام أندلسيّته ، وتحدونا للبحث في آثار هذا الشيعيّ الذي جعلته العاطفة الحزبيّة القويّة الصادقة مثالاً للشعراء المناضلين الذين يهبون للدعوة فنّهُمْ وعبقريَّتهم ، بَلْ أنفاسَهُم وحياتَهُمْ[10] .

---

(1) الكتاب الذي نقدّمه هو ترجمة منّا للرسالة التي تقدّمنا بها إلى جامعة السربون بباريس يوم 19 ماي 1973 فأسندت الينا بها شهادة دكتوراه الدولة . وقد طبع الكتاب سنة 1976 في لغته الفرنسية ضمن منشورات كلّية الآداب بالجامعة التونسيّة . وشرعنا في تعريبه منذ ذلك التاريخ وحالت مشاغل التدريس والمسؤوليات دون إنجاز الترجمة قبل اليوم .

الفصل الأول

مصادر ترجمة ابن هانئ

لو وصلتنا ترجمة مدقّقة لحياة الشاعر أو شرح مفصّل لديوانه ، لأمكننا أن نتتبّع كافّة مراحل حياته بدقّة وأن نتعرّف على مَمْدوحيه وعلى الأشخاص الذين ذكرهم في شعره ، قصداً أو عَرضاً ، ولأمكننا بالخصوص أن نقف على الظروف التي نظمت فيها القصائد والمقطوعات فنبدّد الغيوم التي تحول دون فهم قسم وافر من شعره .

وازاء هذا الفقر ، فسبيلنا أن نستعين بكتب الطبقات والتراجم ، المغربيّة والشرقيّة ، وأن ننظر في كتب التاريخ ، وبالخصوص في الأقسام التي تتعلّق بخلافة المعزّ الفاطميّ ، وأن نستقرىء أيضاً كتب الأدب والمختارات الشعريّة ، ولا سيّما المجموعات المغربيّة : فقد تنقل إلينا شيئاً من شعره ، وتردفه ، الى جانب الأحكام التقييميّة التي لا تهمّ ترجمته مباشرة ، ببعض المعلومات أو التعليقات التي تساعد على سدّ الفراغ في بنائنا لترجمته .

ونستعين كذلك بما قد يرد في مخطوطات الديوان من تعاليق وتوطئات . فبعض النسخ تتضمّن مقدّمة في حياته ، وتمهّد للقصائد أحياناً بتوطئة في ظروف نظمها ، فلعلّ هذه الإشارات تساعد على فهم شعره ، ولا سيّما القصائد العقائديّة النضاليّة .

ولا يخفى أننا سنضطرّ أخيراً ، بعد مقابلة هذه الجزئيّات ونقدها وقبول

بعضها وطرح بعض، الى الافتراض الشخصيّ في شأن فترة ما من حياته، أو في التعريف بأحد ممدوحيه أو تأويل إشارة غامضة في بعض أبياته . على أننا كلّما تجاسرنا على مثل هذا التدخّل ، نَبَّهنا اليه القارىء ، في انتظار أن يأتينا ما يخالف الرأي الذي ذهبنا إليه .

كتب الرّجال الأندلسيّة

لقد ألّف علماء الأندلس كُتباً كثيرة جمعوا فيها تراجم الأعلام وأخبارهم ، وتندرج هذه القواميس في سلسلتين من الكتب عمل أصحابها على متابعة مجهودات سابقيهم باصلاح خطئهم وتدارك سهوهم وإكمال نقصهم .

فالسلسلة الأولى تتركّب من كتاب ابن الفرضي (1013/403)[1] « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » وقد خصّصه للفقهاء ورجال الدين أوّلاً وبالذات ، وتتواصل بقاموس ابن بشكوال (1182/578) ، الذي سمّاه « كتاب الصّلة » لأنّه صاغه كـ « صلة » ، أي متابعة ومواصلة لتاريخ ابن الفرضي ، ويأتي بعدهما ابن الأبّار (1260/658) فيؤلّف « تتمّة » لصلة ابن بشكوال ويسمّيها لهذا الغرض « التكملة لكتاب الصّلة » .

وهذه الكتب الثلاثة تهتمّ برواة الحديث وعلماء الدين وأهل الجاه والسلطان أكثر منها بأهل الأدب والشعر ، لذلك لا نجد ذكراً لابن هانىء عند ابن الفرضي ، رغم قصر الفاصل الزمنيّ بينهما ـ أقلّ من خمسين عاماً ـ ولا عند ابن بشكوال ، وأوّل من يذكره هو ابن الأبّار فيخصّص له ترجمة من تراجم التكملة[2] .

---

(1) نذكر سنة الوفاة بالتاريخين الهجري والميلادي .

(2) الترجمة رقم 350 .

أمّا السلسلة الثانية فتتركّب من كتاب الحُميدي (1095/488) « جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»، ومن تكملته « بغية الملتمس في رجال الأندلس » للضبّي (1203/599) ، وهما كتابان يتضمّنان أخبار الشعراء والكتّاب أيضاً ، الى جانب الولاة وأصحاب السلطان ، كما يصرّح به كلا المؤلّفَيْن في التوطئة ، إلّا أنّ الضبّيّ أتى مواصلاً لتراجم الحميدي ، وقد وقفت عند حدود سنة 450 للهجرة ، فلذلك لا نجد فرقاً كبيراً بين الكتابين فيما نقلاه من أخبار محمد بن هانىء ، رغم ما صرّح به الضبّي من أنّه « زاد ما أغفله الحميدي وغادره » .

ومهما يكن موقف الضبّيّ من الحميدي ، فانّه اكتفى ، فيما يخصّ ترجمة شاعرنا ، بنقل نصّ الجذوة بحذافيره ، حتى المختارات الشعريّة لم يزد عليها شيئاً . وهذه الترجمة وردت في غاية الاختصار : « محمد بن هانىء شاعر أندلسيّ ، خرج عن الأندلس فشهر شعره في الغربة ، وصحب المعزّ صاحب المغرب ومدحه وغالى . . . » . فما هو سبب هذا الاقتضاب ؟

ألأنَّ الحميديّ لم يعتبره أندلسيّاً بحقّ ، نظراً لهجرته الى المغرب ؟

لكنّ الحميدي صرّح في خطبة الكتاب بأنه يعتزم الحديث عن كل من نَبه له ذكر بين الأندلسيّين ، حتى من وفد عليهم أو خرج عنهم .

أم لأنّ الحميدي ـ وقد ألّف الجذوة وهو مهاجر ببغداد ـ لم تكن لديه معلومات أخرى ، بسبب انقطاعه عن المصادر الأصليّة ؟

هذا التفسير ، ان صحّ في شأن الحميديّ ، فانّه لا ينطبق على الضبّي ، لأنّ صاحب البغية ألّف كتابه بعد قرن تقريباً من كتاب الحميدي ، فكان لديه من المادّة في خصوص الأعلام الذين ترجمت لهم الجذوة ، ما لم يكن لسابقه ، كما تدلّ عليه ترجمة ابن درّاج القسطليّ[1] وقد زاد فيها الضبّي على

(1) في البغية ، ترجمة رقم 342 . وترجمة ابن هانىء تحمل رقم 301 .

ما وجده في الجذوة[1] .

فلا نبعد ، والحال هذه ، إن نحن عزونا هذا الاقتضاب في نقل أخبار محمد بن هانىء ، الى شيء من التحفّظ لدى كتّاب سنّيّين ، إزاء شاعر اعتبره الأندلسيّون مارقاً عن الدين ، نظراً لخروجه عن سلطان الأمويّين ودخوله في خدمة العبيديّين ، وهو في نظرهم خروج عن عقيدة السنّة والجماعة الى فرقة كافرة ضالّة .

هذا ، بقطع النظر عمّا نُسِب اليه من تحدّ للقيم الأخلاقيّة في شبابه بإشبيلية ، وانسياق مع نزوات الهوى وتجرّؤ على الدين في شعره آنذاك .

ومعلوم أن الإفراط في التعصّب العقائدي قد يؤدّي الى مثل هذه العداوات الفكريّة ويجرّ إلى تضييق الخناق على حريّة الفكر والمعتقد ، ولقد كبت السلطان الفاطميّ كافّة خصومه وأرهق هل السنّة بالخصوص وحملهم على اتّباع طقوس ضالّة في نظرهم ، فلا نستغرب أن يردّ أهل السُّنّة بالمثل ، بعد انهيار الدولة الشيعيّة ، بل أن يضاعفوا النقمة والنكال ، بقدر ما صَبَرُوا على التعذيب والإرهاق طيلة السنوات والأجيال : انفجرت نقمة أهل القيروان بعد قطع الولاء الفاطميّ بافريقية ، فانقلبت تقتيلاً ذريعاً للـ « مشارقة » ، وسنتعرَّض اليها بشيء من التفصيل في الفصول القادمة[2] . وانفجرت نقمة المصريّين بعد قهر الأيوبيّين للحكم الفاطميّ ، فامتدّت الأيدي ، لا الى الأرواح والمال فحسب ، بل الى المباني والمكتبات ، فهدّمت القصور وأحرق الأثاث ، وأتلفت المكتبات الفاطميّة ومزّقت أسفارها لتصنع من جلدها النعال للعساكر ، يقول المقريزي (1441/845) راثياً مستنكراً : « . . . وأحرق ورقها تأوّلاً منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعزّ اللّه أنصاره ، وأن فيها كلام المشارقة (الشيعة) الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحُمِل الى

---

(1) في الجذوة : ابن درّاج : ترجمة رقم 186 . وترجمة ابن هانىء : رقم 157 .
(2) انظر الفصل الخامس .

سائر الأقطار . وبقي منها ما لم يحرق وسفَت عليه الرياح التراب ، فصار تلالاً باقية الى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب »[1] .

فلا غرابة ، إزاء تصاعد العداوات أن ننسب الى هذا أو ذاك شيئاً من التحفّظ إزاء شاعر المعزّ ، فهذا مؤرّخ الأيوبيّين ، العماد الأصفهاني (1201/597) تحدّثه نفسه بـ « تطهير » كتابه من تراجم شعراء الفاطميّين أمثال ابن الضيف[2] فيقول : « . . . وكنت عازماً لفرط غلوّه على حطّه ، لأنّه أساء شرعاً وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحقّ لإساءته كَفراً ولا غفراً » .

وهو ، إن لم يطرحه برمّته ، فقد « طهّر » الأبيات التي نقلها له من كل إشارة إلى الخلفاء الفاطميّين .

وقد تعرّضت بعض النسخ المخطوطة من ديوان الشاعر الى عمليّة التطهير هذه ، فالنسّاخ يطرحون القصائد التي تبدو لهم مغرقة في الإشادة بفضائل المعزّ ، وخصوصاً القصيدة الرابعة والعشرين .

وبعد ، قد لا نستغرب من الحُمَيدي تحفّظه إزاء ابن هانىء ولا استنكاره لمغالاته في أوصاف المعزّ التي « أنكرت واستعظمت » كما يقول ، فهو فقيه سنّي ، وربّما ظاهريّ ، اليه يُنسبُ كتاب « الجمع بين الصحيحين » في التوفيق بين مسلم والبخاري ، فلا ينتظر منه أن يكون من محبّذي الشعر الشيعيّ !

ومثل هذا الاستنكار نجدهُ عند أندلسيّ آخر ، وهو الفتح بن خاقان (1334/529) . فقد خصّص لابن هانىء إحدى تراجم كتابه « مطمح

---

(1) المقريزي : خطط ج 2 ص 254 ، انظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطميّة ص 29 .

(2) العماد الأصفهاني : الخريدة ج 1 ص. 285 (القسم المصري) .
محمد كامل حسين : في أدب . . . ص 138 .

الأنفس»، فمزج فيها، وراء بهرج اللفظ وكلفة السَجع، بين الاستنكار لمروق الشاعر عن جادّة الدين وغلوّه في مدح المعزّ ، والاستحسان لبلاغته في نظمه الذي « تتمنّى الثريّا أن تتوّج به وتقلّد ، ويودّ البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولّد »[1] . ويفيدنا نصّ المطمح ببعض المعلومات ، كاشتراك ابن هانىء وأمراء المسيلة في الأصل الأندلسي ، كما يمدّنا ببعض مِن أسباب خروج الشاعر من الأندلس الى العدوة .

ولم يعُد الفتح بن خاقان الى شاعرنا في كتابه الثاني ، « قلائد العقيان » ، ولا غرابة في ذلك ، فالقلائد تكملة للمطمح ومواصلة له .

ونقل المقّري (1631/1041) نصّ المطمح بدون زيادة ولا نقصان في « نفح الطيب » .

أمّا ترجمة التكملة ، فهي أكثر تفصيلاً من سابقاتها ، وخصوصاً من نصّ الجذوة الذي صرّح ابن الأبّار بأنّه نقله ، فقد زاد عليه تفاصيل أخرى ، مثلاً في اتّصال نسب الشاعر بنسب آل المهلّب بن أبي صفرة ، ونزوح أبيه هانىء من المهديّة الى الأندلس واستقراره نهائيّاً بإلبيرة ، وتلقّي الشاعر « أكثر تأدّبه بقرطبة » ، ثم خروجه من الأندلس الى العدوة واتّصاله بأميري المسيلة جعفر ويحيى ابنَيْ الأندلسيّة ، ثم مصاحبته للمعزّ وأخيراً موته ببرقة سنة 361 هـ . ويظهر أن ابن الأبّار لم يرتح لهذا التاريخ فأضاف : « . . . وذكر أبو الحسن ابن رشيق في « قراضة الذهب » من تأليفه أنّه توفّي سنة 362 . . . » ولكنّ هذه الرسالة النقديّة لا تذكر ، في صورتها التي وصلت بها إلينا[2] ، سنة وفاة الشاعر .

وتلفت انتباهنا ، في كلام ابن الأبّار ، عبارة « غلب عليه ذلك » إثر لقب

---

(1) الفتح بن خاقان : مطمح الأنفس 84 .

(2) ابن رشيق : قراضة الذهب ـ الطبعة القديمة ضمن « الرسائل النادرة » ، القاهرة 1926 والطبعة الجديدة من تحقيق الشاذلي بويحيى تونس 1972 .

الشاعر « الأندلسيّ » ، فكأنّه لا يقرّ استحقاق ابن هانىء لهذا اللقب ، أما لخروجه عن الأندلس وامّا لانضمامه الى الدعوة الشيعيّة .

ونجد ترجمة قصيرة عند أندلسيّ آخر ، استقرّ مثل الحميديّ بالمشرق ، وهو ابن دِحْية (1265/663) في كتابه : « المطرب من أشعار أهل المغرب » ، ولكنها لا تمدّنا بشيء جديد ، حتى استنكارها لغلوّ الشاعر صار أمراً معروفاً معهوداً .

ومن الكتب المغربيّة والأندلسيّة التي ترجمت لصاحبنا ، نذكر أخيراً كتاب « المغرب في حلى المغرب[1] » لابن سعيد المغربي (1286/685) ، وكتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة »[2] للسان الدين بن الخطيب (1375/776) .

في « المغرِب » نجد ترجمة صالحة مفيدة في بعض التفاصيل التي لا يذكرها ابن خلكان ، وسنستثمر هذه المعلومات في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، حين نعيد بناء حياة الشاعر ، معتمدين أوّلاً وبالذات على نصّ « الوفيات » . ولكنّ ابن سعيد أفسد كلامه بما ارتضى نقله من خبر دخول ابن هانىء على أمير الزاب ، جعفر بن حمدون ، وهي حكاية سخيفة وضعت ولا شكّ للتفكّه على حساب الشاعر الفاطميّ كما وضعت خرافات مماثلة في شأن أبي نواس وغيره .

أمّا نصّ الإحاطة ، ففيه أوّلاً ترجمة وجيزة لا جدّة فيها إلاّ بما ينسبه ابن الخطيب الى شاعرنا من « المشاركة في العلوم والنفوذ في فكّ المعمّى » أي في علوم الطلاسم والألغاز . ثم ينقل لسان الدين نصّاً من رسالته المسمّاة « تخليص الذهب » وهي رسالة لم تصلنا ضمن آثار الأديب الغرناطي ، وهذا النّص المزخرف المسجّع على عادة ما يكتبه لسان الدين ، يتضمّن حكماً أدبياً

---

(1) ابن سعيد : المغرب ، ترجمة رقم 409 .

(2) ابن الخطيب : الإحاطة 212/2 .

في شعر ابن هانىء نقله ابن الخطيب من « مقامات » ابن شرف القيرواني التي تعرف بعنوان « مسائل الانتقاد » .

كتب الرجال الشرقيّة

ترجم لصاحبنا ، من المؤلّفين المشارقة ، ياقوت (1230/627) في معجمه « ارشاد الأريب »[1] وابن خلّكان (1262/681) في « وفيات الأعيان » ؛ الترجمة عندهما مفصّلة فيها معلومات جديدة بالنسبة الى نصّ ابن الأبّار في التكملة ، فقد ذكرا مسقط رأسه بتدقيق : اشبيلية ، وفصّلا الحديث عن علاقته المتينة بأمير المدينة ، واضطرار هذا الوالي إلى إقصائه لمّا تألّب أهل البلد على الشاعر بسبب مجونه واستهتاره بالدين في شعره . ثم لخّصا حكايته مع القائد جوهر بالمغرب وحاولا ضبط سنّ الشاعر عند وفاته ببرقة يوم 23 رجب 29/362 أبريل 973 : إمّا 36 سنة وإمّا 42 سنة (بحسب تاريخ ولادته إن كان سنة 320 أم سنة 326) .

ويقول ابن خلّكان انه خرج من الأندلس في سنّ السابعة والعشرين . وهو خبر سيذكره ابن الخطيب في ترجمته بالإحاطة . وقد صرّح ابن خلّكان أنه اعتمد على قراضة الذهب لابن رشيق لضبط تاريخ وفاته ، كما اعتمد على كتاب « أخبار القيروان » ، وهذا الكتاب النفيس يظهر أنه تاريخ ابن شدّاد (1186/582) أحد أمراء بني زيري ، المعنون بـ« الجمع والبيان في أخبار القيروان » ، وهو كتاب مفقود .

أمّا الكتب المتأخّرة كـ« مرآة الجنان »[2] لليافعي (1367/768) و « شذرات الذهب »[3] لابن العماد الحنبلي (1678/1089) فهي تنقل نصّ الوفيات ، وتزيد عليه خرافة مماثلة للحكاية التي نقلها ابن سعيد في شأن

---

(1) ياقوت : ارشاد الأريب ، 92/19 .

(2) اليافعي : مرآة الجنان مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس عدد 13443 ورقة 230 و ج375/2 من المطبوع.

(3) ابن العماد : شذرات . . . سنة 362 ، 42/3 .

اتّصال ابن هانىء بصاحب المسيلة : ويفهم من هذه الحكاية أن المتنبي (الشرقي) قصد أمير قابس بجنوب أفريقية لينال رفده ، فتصدّى له ابن هانىء فلقيه بجانب البحر فأحبط عزائمه بحيلة مضحكة ، ويرفض اليافعي الحكاية وينكر أن يكون وقع لقاء بين الشاعرين .

وبعد ، فمن تحليلنا لهذه المصادر المختلفة ، المغربيّة والشرقية ، يظهر أن أضفى ترجمة لشاعرنا ، هي ترجمة الوفيات . فهي لهذا السبب ، حقيقة بأن نتّخذها أصلاً ومنطلقاً في محاولة تخطيط حياة ابن هانىء : ولعلّها اكتسبت هذه التفاصيل من هذا المصدر النفيس المفقود الذي اطلع عليه كثير من المؤرّخين واستثمروه ونقلوا عنه : أخبار القيروان لابن شدّاد الصنهاجي[1] .

كتب التاريخ

قد تمدّنا كتب التاريخ ببعض الإرشادات الصالحة لاستكمال معلوماتنا عن حياة الشاعر ، وذلك بفضل الفقرات التي تخصّصها للأشخاص الذين اتّصل بهم ، كالمعزّ الفاطمي وكبار قوّاده وأمراء دولته ، أو للحوادث التاريخيّة التي نجد لها صدى في شعره ، كحروب الفتوحات في أرض الإفرنج أو في مصر ، أو الفتن التي تحدثها القبائل البربريّة الثائرة ضدّ السلطان الشيعيّ .

وهكذا يحدّثنا أقدم المؤرّخين الأندلسيّين ، ابن حيّان (1076/469) في كتابه « المقتبس »[2] عن خروج أمير المسيلة جعفر بن حمدون عن المعزّ وإعلان ولائه للخليفة الأمويّ ، الحَكَم الثاني ، ووصول موكبه إلى قرطبة ،

---

(1) ابن شداد : فيما يخصّ هذا المؤرخ ، انظر فصل الاستاذ محمد الطالبي بدائرة المعارف الإسلامية . وانظر كذلك : لويس ماسينيون : قائمة . . . عدد 31 . ويبدو أن الباحث خلط بين الأمير الصنهاجيّ وأمير زيديّ توفّي عام 1115/509 .

(2) المقتبس (حجّي) 32 .

وهذا الحديث يأتي عرضاً لأنّ كتاب المقتبس هو ملخّص لخلافة الحكم المستنصر ، فلا يتّصل بافريقية والمغرب إلّا بقدر مشاركة السياسة الأمويّة في شؤونهما .

وكذلك ابن الأثير (1233/630) في « الكامل »[1] ، يفيدنا عن ظروف مقتل الشاعر أثناء حديثه عن هجرة المعزّ الى مصر ، فيقول ، خلافاً لما سيذكره ياقوت وابن خلّكان ، انه لقي حتفه أثناء تشييعه للمعزّ في طريق مصر ، لا بعد توديعه للمعزّ ورجوعه الى افريقية لاستصحاب عياله ثمّ السفر نهائيّاً الى القاهرة ، العاصمة الجديدة .

أمّا المؤرّخ الصنهاجي ، ابن حمّاد (1230/628) فيفيدنا ، في كتابه « تاريخ ملوك بني عبيد »[2] ، ببعض الملاحظات في خصوص مراسيم البلاط الفاطميّ ، علاوة على الحوادث والفتن والحروب التي تخلّلت خلافة الأئمة الفاطميّين بداية من انتصاب عبيد الله المهدي الى خروج المعزّ الى مصر .

وكذلك ابن عذاري (1312/712) ، يلقي في « البيان المغرب » أضواء على بعض الأعلام الذين خالطهُم شاعرنا ، مثلاً ، أمير الزاب جعفر بن حمدون ، فيقصّ علينا بالتفصيل تقسّمه بين طاعته للمعزّ وصداقته القديمة للثوّار الزناتيّين وشقّه عصا الطاعة أخيراً في وجه المعزّ ، ثم دخوله في خدمة خلفاء قرطبة الى أن كاد له الحاجب ابن أبي عامر فدسّ له من قتله[3] .

ونجد لسان الدين بن الخطيب مؤرّخاً في كتاب « أعمال الأعلام » فتتّضح لنا بفضله بعض الجوانب من الصراع السياسيّ والحربيّ الجهاديّ الذي دار في جنوب إيطاليا وفي جزيرة صقليّة بين الفاطميّين والروم البيزنطيّين،كما يقدّم لنا الكتاب عرضاً لولاية الأمراء الكلبيّين على صقلّية ،

---

(1) الكامل 46/7 ، سنة 361 .

(2) ص 28 .

(3)242/2 و 280 .

وملخّصاً لخلافة المعزّ .

أمّا ابن خلدون (1406/808) ، فإنّ الفصول التي خصّصها في تاريخه ، للدول والإمارات التي قامت بالمغرب ، وبالخصوص إمارات صنهاجة وزناتة وإمارة بني حمدون بالمسيلة ، هذه الفصول تساعدنا كثيراً على فهم الحروب والفتن التي تغذّيها العصبيّات القبليّة ، والعداء السياسيّ بين الأمويّين والفاطميّين . وهي حوادث كثيراً ما يشير إليها الشاعر في مدائحه للمعزّ أو قوّاده .

وفي ما يتعلّق بخلافة المعزّ بالذات ، فإنا نجد عرضاً مفصّلاً لها عند مؤرّخي مصر : المقريزي (1441/845) وابن تغري بردي (1470/874) اللذَيْن يفصّلان كذلك أعمال القائد جوهر في سياسته لمصر بعد فتحها ، وأعمال بعض مساعديه من القوّاد الأفارقة ، مثل جعفر بن فلاح الكتامي[1] .

أمّا بقيّة المؤرّخين المشارقة ، مثل أبي الفداء (732 / 1831)[2] ، والذهبي[3] (1848/748) والصفدي[4](1363/764) ، فإنهم لا يفيدوننا إلاّ بما يدخلونه من تنقيحات على ترجمة شاعرنا كما أثبتها ابن خلّكان : فالصفدي مثلاً ، في « الوافي بالوفيات » ، رغم أنه ينقل نصّ ابن خلّكان ، يؤرّخ وفاة الشاعر بسنة 365 ، وهو تأريخ غريب لم نقف عليه عند غيره ، ولعلّه خلط بين تاريخ وفاة المعزّ (976/365) وتأريخ وفاة شاعره ، وعلاوة على هذا الخطأ ، فهو يسمّيه محمد بن ابراهيم بن هانىء ، وفي هذا أيضاً ، يخلط الصفدي بين شاعرنا محمد بن هانىء ، وشاعر مصري من أهل القرن السادس يرجع نسبه الى صاحبنا ، ويسمّى ابن هانىء الحفيد أو محمد بن ابراهيم بن هانىء .

---

(1) اتعاظ الحنفاء 134-136 . ـ الخطط 155/2 .
النجوم الزاهرة 28/4 .
(2) مختصر . . . 212/2 .
(3) تاريخ الإسلام ورقة 300 ب .
(4) الوافي ترجمة عدد 240 .

ويخبرنا الذهبي في « تاريخ الإسلام » أن عداء أهل اشبيلية لابن هانىء كاد يودي بحياته ، فلم ينج منهم الا بالهروب الى برّ العدوة .

بقيت الكتب المتأخّرة ، مثل « المؤنس » لابن أبي دينار (1110/1698) ، و « الحلل السندسيّة » للوزير السرّاج (1149/1736) ، و « كتاب الاستقصاء » للسلاوي الناصري المغربي (1312/1895) ، فمادّتها منقولة عن المصادر الأصليّة التي استعرضناها ، فلا نرتجي منها حينئذ اكتشافات جديدة .

ولنفس السبب ، فانّنا لا نذكر كتب المعاصرين ، من عرب ومستعربين ، لأنّهم يستمدّون مادّتهم أيضاً من هذه المصادر القديمة التي بنينا عليها معرفتنا بحياة ابن هانىء وبالبيئة التي عاش فيها . ولكن ، اذا ما احتجنا الى مقارنة المصادر ومقابلة المعلومات ، فاننا نعتمد على هذه البحوث المعاصرة ، حتى نغلّب فكرة على أخرى ونرجّح مصدراً على مصدر . وبهذا الصدد لا بدّ من الإشارة إلى الفائدة التي جنيناها من بحوث ثلاثة من العلماء الأوروبيّين : أوّلاً ، ج . شلمبرجي[1] في رسالته الضخمة عن الأمبراطور البيزنطي نقفور فقاس عدوّ الإسلام في الشرق والغرب ، فقد وصف بالتدقيق القتال بين أسطول الروم وأسطول الفاطميّين في مضيق مسّينا وبحر صقلية . ثانياً ، م . أماري[2] الذي جمع كل النصوص العربية القديمة المتعلّقة بجزيرة صقليّة واهتمّ خاصّة بالتطاحن بين النفوذ الإسلامي فيها والنفوذ المسيحي . وأخيراً ، ماريوس كانار الذي قادته بحوثه عن البيزنطيّين الى التنقيب عن كل من لاصقهم وقاومهم من أمراء الإسلام ، فألّف رسالته القيّمة في سيف الدولة الحمداني وجمع كل النصوص الخاصّة بإمارة حلب ، ثمّ اهتمّ بالخلافة الفاطميّة فكتب فصولاً عديدة في علاقاتها مع الروم ، ومراسيم البلاط ، وأحوال بعض الولاة الفاطميّين كأسرة بني حمدون بالمسيلة ، ويكفينا دليلاً

---

(1) شلمبرجي . . . G. Schlumberger: Un empereur .

(2) اماري : M.Amari: B.A.S. .

على سعة معرفته بالميدان الفاطمي ، ترجمته لـ « سيرة الأستاذ جوذر » مع ما تضمّنته من تعليقات وتوضيحات نفيسة .

كتب الأدب

قد نعثر في كتب المختارات الأدبيّة ، وفي كتب النقد ، على أبيات لابن هانىء ، ينقلها المؤلّفون للاستدلال على غرض شعري ما ، أو الاستشهاد بصورة بلاغيّة ، أو للمقارنة بينه وبين شعراء آخرين من الشرقيّين خاصّة . ولا تأتي هذه الشواهد منفردة جافّة ، بل تَصْحَبُها عادة تعليقات من المؤلّفين وأحكام تقييمية ، وأحياناً ، إشارات تتعلّق بترجمة الشاعر فتزيدنا تعريفاً مثلاً ببعض ممدوحيه أو بعض من عرفهم وذكرهم في شعره .

فالحصري (1061/453) مثلاً ، يقارن في « زهر الآداب »[1] بين شاعرنا وشاعر أفريقيّ آخر معاصر له يسمّى « عليّ بن محمد الإيّادي » ، في وصفهما للأسطول الفاطميّ ، كما يمدّنا بقسم مجهول من قصيدة لابن هانىء في مدح أمير الزاب .

كذلك ابن رشيق (1063/456) يروي لنا خبراً عن الإيادي هذا وابن هانىء، فيقول في «العمدة»[2] ان ابن هانىء دُعِي الى مهاجاة شعراء إفريقية ، فقال : لن أهجو الاّ الإيادي اذا هجاني فقال الإيادي : كيف أهجوه بعد أن رفعني على الشعراء كافّة ؟

وقد عرّجنا على ما كتبه ابن شرف (1067/460) في إحدى مقاماته الأدبيّة[3] في خصوص غلوّ شاعرنا وتنكّبه الجادّة القويمة، وهو الحكم الذي

---

(1) 133/1 .

(2) 111/1 .

(3) مسائل الانتقاد ، 40 .

نقله ابن الخطيب في الإحاطة وأضاف اليه ترجمة وجيزة لفتت انتباهنا بتأريخها لوفاة الشاعر بسنة 361 عوض 362 .

ولكن لا تَغُرَّنَا كثرة هذه المصادر وتنوّعها ، فالمعلومات التي نستقيها منها لا تمكّن من ترجمة صحيحة مدقّقة للشاعر ، نملأ فيها مثلاً فراغ الفترة الأندلسيّة من حياته ، وهي فترة طويلة دامت سبعاً وعشرين سنة ، ونقدّر فيها المدّة التي لازم فيها أمير المسيلة ، ونحقّق ظروف وفاته أو مقتله ببرقة ، كما لا تسمح هذه المعلومات بالوقوف على هويّة كثير من ممدوحيه .

فلذلك نتّجه الى الديوان نفسه ، والى نُسَخِه المخطوطة لنستمدّ منها ما قد يساعد على مزيد من الفهم والتعرّف ، وذلك ضمن ما نجده من مقدّمات للقصائد أو تعليقات عليها ، وأحياناً ضمن ما نكتشفه من قطع مجهولة لم يسبق نشرُها .

المخـطوطـات

نجد في الديوان المطبوع أو في النسخ المخطوطة منه تقديماً لبعض القصائد والمقطوعات ، ولكنه لا يفيد كثيراً لأنّه لا يذكر الشخص الذي أهديت اليه القصيدة ، وإن يذكرْه ، فلا يعرّفه بل يقتصر على اسمه ، مثلاً : أبو الفرج الشيباني ، ولا يتعرّض الى ظروف النظم الاّ نادراً ولا يذكر تاريخ النظم بتاتاً . وما دمنا لا نعرف من الشيباني الا اسمه ، ونجهل مهنته أو وظيفته ، والظروف التي مدحه فيها الشاعر ، والصنيع الذي استحقّ به هذا المدح ، وما دامت القصيدة نفسها مبهمة غامضةً لا يضبط فيها زمان ولا مكان ولا حادث معروف تاريخيّاً ، قلنا : ما دمنا في هذا الغموض ، فاننا مضطرّون الى الافتراض والتخمين في تقسيم حياته الى ثلاث فترات : أندلسيّة ومغربيّة وأفريقيّة ، وفي التعريف بممدوحيه ، وضبط علاقاته بالبلاط الفاطميّ . ولعلنا كنا نستفيد كثيراً من تاريخ ابن شدّاد المفقود ، أو من شرح الديوان الذي نسبه ح . ح . عبد

الوهاب[1] الى التيفاشي القفصي بعنوان : « الديباج الخسروانيّ في شرح ديوان ابن هانىء » ، ونستفيد على الأقلّ ظروف النظم ، كما نستفيد اليوم من شروح ابن جنيّ والواحديّ والعكبري على ديوان المتنبّي ومن تعليقات ابن خالويه على شعر أبي فراس الحمداني .

هذه النسخ المخطوطة تُفتَتح أحياناً بترجمة للشاعر منقولة عن ابن خلّكان غالباً ، الا أنها تنفرد في بعض المخطوطات بإشارات جديدة ، ممّا يدلّ على أنّ مادّتها أخذت من نصّ الوفيات ومن غير الوفيات . فهذه مثلاً مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس التي رقمناها بـ « تونس 1 » ـ وهي أوفر مادّة من جميع النسخ المعروفة ـ تفيدنا بأمرين :

1 ـ الإشارة الأولى تتعلّق بدخول الشاعر في خدمة أمير المسيلة : فتقول ، نقلاً عن فقيه يدعى « الزهراني » ـ الزهراني لا الوهراني كاتب الأمير ـ انّ جعفر بن حمدون سمح لابن هانىء بالانتفاع من مكتبته . فهذا يوهم بأنّ الشاعر قد استكمل تعلّمه عند ممدوحيه الأندلسيّين بالمسيلة ، ونحن نميل الى رفض هذا الخبر لأنّ المؤرّخين لم يلفتوا انتباهنا الى وجود مثل هذه المكتبة بعاصمة الزاب . غير أنّ الاشارة قد تدلّ على أن مُقام الشاعر بالمسيلة لم يكن قصيراً ، ممّا يفسّر كثرة القصائد التي نظمها هناك في مدح بني حمدون .

أمّا الإشارة الثانية ، ففيها تبرير لطيفٌ للغلوّ الذي تتّسم به مدائح الخليفة فيطبعها بطابع الكفر ، يقول صاحب النّصّ : « . . . وله فيه غلوّ عظيم كفر فيه ، اذ كان لا يجوز عند الممدوح الاّ به . . . » .

فنفهم أن ابن هانىء ما كان يرتضي هذا الإغراق في إجلال الامام ، وأنه كان يُدفع اليه دفعاً . وهي فكرة خاطئة ، فالمعاني والأساليب التي يعبّر بها شعراء الشيعة ـ ولا سيّما صاحبنا ـ عن احترام الأئمّة ومحبّتهم والتعلّق بهم ،

---

(1) الورقات ، تونس 1966 ,458/2 .

تبدو لجمهور السنّيين كفراً محضاً وإغراقاً في الضلالة ، فلذلك راح صاحب المخطوطة يلتمس له الأعذار حيث لا موجب للاعتذار .

هذا المخطوط الذي نحن بصدده ، يتضمّن كلّ القصائد والمقطوعات التي نجدها في الطبعات الثلاث للديوان ، ولا سيّما في الثالثة منها ، وهي أكملها وأتقنها ، ونعني بها الشرح الضافي الذي نشره الباحث الاسماعيليّ زاهد علي الحيدر آبادي بالقاهرة سنة 1933/1352 بعنوان : « تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء » . الاّ أنّ مخطوطنا يحتوي على مجموعة أخرى من القصائد والمقطوعات لم تبلغ الى علم الباحث الهندي ، وقد نشرناها بعددين من « حوليات الجامعة التونسيّة »[1] .

ونجد ، من بين هذه الأبيات التي تنفرد بها نسخة تونس 1 ، مقطوعتين غزليتين نظمهما الشاعر في « غلام فائق الجمال » يدعى عبد الله بن سليمان ، والمقطوعتان تسترعيان الانتباه من ناحيتين :

1 ـ فهما تصوّران جانباً مجهولاً من شخصيّة الشاعر ، وهو جانب الانحراف الجنسيّ والمجون والعربدة ، الذي يغاير تماماً الصورة « الرّسميّة » التي ألِفناها لشاعر المعزّ في تعلّقه بالدعوة الاسماعيليّة وانصرافه الى الدّفاع عنها بشعره الجدّي القويّ. هذا الجانب المجهول ، إن تحقّق وجوده ، لا يتنافى اذ ذاك مع الرأي القائل بأنّ موته ببرقة كان قتلاً إثر خصومة فاحشة : « . . . وقتل ببرقة في مشربة على صبيّ »[2] .

2 ـ هذا الغلام المخنّث كان يتعشّقه أيضاً الأمير تميم بن المعزّ ، وإنّما نظم ابن هانىء القطعتين ليغيظ الأمير . هذا ما تصرّح به المخطوطة . ولئن كان تميم معروفاً بفسوقه وميله عن شؤون الدولة الى الشعر واللهو والشراب ،

---

(1) العدد السادس 1969 ، والتاسع 1972 .

(2) ابن سعيد : المغرب ، ترجمة رقم 409 .

ممّا أدّى الى عزله عن ولاية العهد[1] فانّ خبر هذه المنافسة بينه وبين شاعرنا ، أي خبر منافسة غراميّة ، وربّما شعريّة ، لم يبلغنا الاّ عن طريق هذه المخطوطة ، وعن طريق أحد مؤرّخي الفاطميّين ، وهو الدواداري (1335/736) الذي يقول إنّ قتل ابن هانىء كان بإيعاز من تميم[2] .

ولا وجه لدفع هذه الصورة الماجنة عن شاعرنا ، فالمجّان والمُنحَرفون، من الشعراء ومن غير الشعراء، كثيرون، في القديم والحديث، عند العرب وغير العرب . ولعلّنا نرجّحها ونقبلها اذا ما دققنا النظر في قصيدتين من الديوان المنشور مدح بهما القائد الفاطميّ المجهول الذي يدعى « أبا الفرج الشيباني » . فقد استهلّ المدح على عادة القدماء ، بالنسيب التقليديّ ، الاّ أنّه خلط فيه بين المعاني الغزليّة والصور الحربية خلطاً يحمل القارىء على التساؤل في هذا الممدوح : أبطل مغوار هو ، أم عذراء خجول ؟

ففي الأولى ، بعد أن يستغرب من قدرة الممدوح على حمل الرمح ، مع رقّة قوامه ولين قدّه ، قائلاً : [كامل]

17/4 وَيُكَلِّفُ الأرماحَ لِينَ قَوامِهِ — فَيَذُمُّ ذَا يَزنٍ وَيَظْلِمُ قَعْضَبَا[3]

يتمنّى لنفسه سيفاً مثل لحظ الممدوح قاتلاً ، وقلباً مثل دلاله جريئاً فاتكاً :

24/4 . . . قُمْ فاخترِطْ لِي مِنْ حَوَاشِي لَحْظِهِ — سيفاً يكونُ، كما علمتَ ، مُجَرَّبَا

25 وَأَعِرْ جَناني فتكةً من دَلِّه — كيْ ما أكونَ بها ، الشجاعَ المِحرَبَا

أما استهلال الثانية ، فأمره أغرب ، اذ يبادر فيه الشاعر ، من البيت الأوّل ، الى تشبيه الممدوح بالغزال اللطيف الذي ليس من شأنه أن يحمل

---

(1) سيرة الأستاذ جوذر 115 و 123 . والترجمة الفرنسيّة 181 .

(2) الدّرة المضيئة (من كنز الدرر) 254 .

(3) ذويزن : أحد أقيال اليمن ـ وقعضب : جاهليّ يصنع الرماح .

الرمح ولا الحسام :[بسيط]

1/60 قُولاَ لمُعتقِل الرمحِ الرُّدَيْنِيّ والمُرتدِي بالرِّداءِ الهِنْدُوَانيّ
2 ضَعِ السِّلاحَ ! فهل حُدِّثتَ عن رَشإٍ في مَشْرَفيّ صقيلٍ أو رُدَيْنِيّ ؟

هذا المعنى الغريب ، وهذه المقابلة عند الغلام ، بين الجسم الناعم والحديد الصارم ، كثيراً ما يعود اليهما الشاعر ، كأنّه يتذوّقهما أو يساير بهما ذوق الجمهور ، ويستخدم لهما كل وسائل الصّنعة ، مثلما نراه في المقطوعة التالية ، وهي من زوائد مخطوط تونس 1 :[كامل]

كَمْ قلتُ اذ نزّهتُ في وَجَناتِه طرْفي ، فما رَجَعَتْ إليّ مَحَاجِري
ذا ـ وَيْحَكم ! ـ ماءٌ وجَمْرٌ مُحْرِقٌ فقدِ احترَقْتُ، وما تروّى ناظِرِي![1]

فاستعارة الروض للخدّ المورّد ، والمطابقة بين ماء البشرة الصافية والتهاب الوجنة ، كل هذا معروف ، انّما الطريف هو هذا التساؤل الكاذب ، أو ما يسمّى عند أهل البلاغة بـ « تجاهل العارف » : كيف يدوم الاحتراق مع توفّر الماء ؟ كيف يستمرّ الظمأ والماء متدفّق ؟

وفي مقطوعة أخرى من زيادات تونس 1 ، نراه يدافع ، في غير ما احتشام ، عن هذا المذهب الجنسيّ ، فيفضّل الصلة بالمذكّر على الصلة العاديّة بين أجناس مختلفة ، ويحتجّ لها فيعدّد مزاياها : لا حيض ، ولا نسل ولا حجاب ! وممّا يزيد الأبيات جرأة ، أنّها موجّهة الى امرأة :[سريع]

لا تَلْحِنِي يا هذه ! إنني لَمْ تُصْبِنِي هندٌ ولا زينبُ !
لكنّني أصبو إلى شادن فيه خصالٌ جَمّة تُرْغَبُ :
لا يرهَبُ الطمثَ ، ولا يشتكي حَمْلاً ، ولا عن مقلتي يُحْجَبُ ![2]

---

(1) حوليّات 1972/9 ص 84 .
(2) حوليّات 1972/9 ص 78 . وقد أورد ابن سعيد الأبيات الثلاثة ، وسها عنها زاهد عليّ .

وفي قطعة أخرى ، نراه يدعو صيقلاً يصنع السيوف الى الاثّئارِ له من « غلام مليح » قام بين يديه يَختبِرُ سيفاً ، ولكن يتوسّل اليه أن يصون مواطن حسنه الأربعة ، ولا سيّما العجيزة :[بسيط]

... خُذْهُ بثأري جزاءً بالذي فَعَلَا   واقتُلْه عَنّي ، فإنّي بعضُ مَن قَتَلا
أقِدْهُ بي ! وتجنَّبْ منه أربعةً :   الجيدَ،والخدَّ،والألحاظَ ،والكَفَلا!(1)

هذه القطع التي لم تنشر في الديوان تكشف لنا كما قلنا عن صورة مجهولة لابن هانىء : صورة شاعر له « غنائيّة » ككلّ الشعراء الحقيقيّين ، الاّ أنها غنائيّة خرجت عن الغزل التقليديّ الجافّ الذي لا يترجم عن واقع ، الى غزل تعوّدت التقاليد الأخلاقيّة أن تنبذه . فالشعور بالجمال ، والإحساس بالفتنة ، والانسياق مع العاطفة القويّة ، كل هذا اتّخذ في قلب الشاعر طرقاً شاذّة ، فلذلك عمل على إخفائها في جلّ شعره ، ولم يظهرها الا في بعض الاستهلالات الملتوية أو بعض المقطوعات شبه السريّة التي لم تتجاوز الندامى والخلاّن في مجلس الأنس ، فلذلك غابت عن جامعي الديوان ولم تظهر الا في نسخ قليلة ، كنسختنا هذه النفيسة التي فتحت لنا بفضل زوائدها ، هذه الآفاق المجهولة من شخصيّة ابن هانىء .

وكما وجدنا في الديوان هذه النماذج المكشوفة من الغزل بالمذكّر ، فانّنا نجد كذلك نماذج من الشعر الخمريّ ، تتمثل في مقدّمات خمريّة لقصائد المدح ، على غرار استهلالات الأعشى أو أبي نواس . هذه الاستهلالات توجد حتى في القصائد « الجدّيّة » مثل مدائح المعزّ، وتتمثل أيضاً في مقطوعات قصيرة تصف مجالس الطرب والشراب ، مثل هذه الأبيات التي يقترن فيها وصف الخمرة بالشرَه الجنسي : [وافر]

وليلٍ بتُّ أُسقاها سُلافا   معتّقة كَلَوْن الجُلّنارِ

---

(1) حوليّات 1972/9 ص 89 .

كـأنّ حُـبـابـهـا خَـرَزَاتُ دُرِّ عَـلَتْ ذهبـاً بـأقـداحِ النُضَـارِ
بـكفِّ مُـقـرْطَقٍ يُـزهـى بـرِدفٍ يـضـيـقُ بـحـمـله وُسْـعُ الإزارِ
أقمتُ لشُـربها عَبَثـاً ، وعنـدي بنـاتُ اللهـو تَعْبَثُ بـالعُـقـار
ونجمُ الليل يركُضُ في الـدياجي كـأنّ الصُبْـحَ يـطلبُـهُ بثـأر[1]

وقد نظم الشاعر أيضاً مطوّلة على غرار قصص أبي نواس الا أنها وحيدة من نوعها ، كأنها « تمرين » قلّد فيه أبا نواس وأمثاله[2] .

وكما لم ندفع عن شاعرنا صفة الشذوذ الجنسيّ ، لا يسعنا أن ندفع عنه تهمة التعلّق بالخمر ومستلزماتها : فالميل الى اللهو أمر طبيعيّ ، ولا سيما عند الشعراء ، وهذا الميل لا ينقص شيئاً من موقفه كشاعر رسميّ للبلاط الفاطميّ . فالجانب الرسميّ من شعره يتمثّل في القصائد السياسيّة النضاليّة . أما هذه المقطوعات وهذه المقدّمات ، فهي فرصة ينتهزها الشاعر ليعبّر عن غنائيّته المكبوتة .

ولا يخفى أن هذا الشعر الخمريّ يَدْعَمُ هو الآخرُ ما رُوِيَ عن شبابه الماجن باشبيلية أو عن ليلته الأخيرة ببرقة .

هذا ما استفدناه من مخطوط تونس 1 . أمّا بقيّة النسخ التي تحتوي على مقدّمة ، فلا نجد فيها ما يلفت النظر ، الاّ ما نقله مخطوطا باريس[3] ومدريد[4] في شأن سنّ الشاعر عندما قُتل : الخامسة والثلاثين ، ولكنهما ينقلان نصّ ابن خلّكان الذي لم يذكر الاّ امكانيتين : 36 سنة أو 42 سنة ؛ فهذا الرقم سهوٌ حينئذ أو غلط .

وتزيد مخطوطة مدريد على نسخة باريس ـ رغم تشابه نصّ المقدّمة ـ

---

(1) ص 334 من طبعة زاهد عليّ .
(2) القصيدة 34 .
(3) باريس رقم 3108 .
(4) مدريد رقم CCX 5271 .

بنقلها لخرافة اللقاء بين ابن هانىء والمتنبّي ، وروايتها لحكم المعزّ بين الشاعرين ، وهو يفضّل طبعاً شاعره على شاعر سيف الدولة .

*

وبعد ، فهذه هي المصادر التي نستقي منها معلوماتنا عن ابن هانىء وبيئته وممدوحيه ، وهي كما يلاحظ القارىء ، معلومات جزئيّة غير ثابتة ، ولا سيّما في القضايا الأساسيّة من حياته ، كنشأته الأندلسيّة وأحوال أسرته ، وتكوينه وتعلّمه ، وأحواله العائليّة ، وظروف وفاته .

بقي لنا أمل العثور على شيء من الإرشادات المفيدة خلال استعراضنا لشعره ، في محاولةٍ لضبط تاريخ القصائد والتعريف بالأعلام المذكورين فيها وبالأحداث التي تشير اليها : فاذا تمّ لنا ذلك ـ وهو محور الفصل الثاني والثالث من هذا الكتاب ـ فاننا سنقترح بعد ذلك ترجمة مفصّلة للشاعر .

الفصل الثاني

ديوان ابن هانىء

يبلغ عدد النسخ المخطوطة من ديوان ابن هانىء ثماني وعشرين نسخة ، بين كاملة وجزئيّة . هذا العدد يضبط المخطوطات المعروفة ، أي المحفوظة في كبريات المكتبات في العالم ، أو الباقية على ملك بعض الخواصّ من رجالات الشيعة الاسماعيليّة في بلاد الهند .

ولا يخفى أن هذا العدد قد يرتفع بما قد يكشف من مخطوطات مخبّأة مجهولة .

وقد اطّلعنا منها على نحو عشر نسخ ، بما فيها مخطوطات دار الكتب الوطنيّة بتونس وهي خمس نسخ . أمّا البقيّة ، فعرفناها بالوصف : إمّا من الفهارس التي تسجّل فيها المكتبات الوطنيّة كنوزها ، وإمّا من نقل الدارسين ، كوصف ناشر الديوان ، زاهد عليّ ، للنسخ الهندية التي يحتفظ بها رؤوس طائفة البهرة في سرت وحيدرآباد بالهند[1] ويغارون عليها ويضنّون بها على عامّة الدارسين ، ولئن تمكّن المرحوم زاهد علي من الاطّلاع عليها ، فلأنه كان

---

(1) انظر فصل « البهرة » في دائرة المعارف الإسلاميّة 2 ، كتبه آساف فيضي وهو أيضاً اسماعيلي ، وانظر كذلك ما يقوله المرحوم محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطميّة . . . المقدّمة ص 8 .

اسماعيلياً ، بل كان أحد رجالات هذه النحلة في بلاده[1] .

وسنتحدّث في هذا الفصل ، عن النسخ التي عرفناها بالممارسة الفعليّة ، ثم نقابلها بالتي عرفناها بالوصف والرواية ، وبعد ذلك ، نحاول أن نرتّب كافّة النسخ ترتيباً زمنيّاً ، أي بحسب تاريخ نَسخها . وفي قسم ثان نتحدّث عن طبعات الديوان .

النسخ المخطوطة :

مخطوط (ب)

يظهر أن أقدم النسخ المخطوطة هي النسخة المحفوظة بالمكتبة الوطنية بباريس تحت رقم 3108 . ويرجع تاريخ صنعها الى سنة 858 للهجرة/ 1455 للميلاد ، حسب ما يذكره الناسخ في نهاية المخطوطة .

يتركّب المخطوط من 189 ورقة ، والقصائد مرتبة فيه بحسب حرف الرويّ ، الهمزة ، الألف ، الباء ، التاء . . . ويتضمّن مقدّمة نجد فيها ، بعد الحمدلة ، ترجمة للشاعر يظهر أنها ، كما قلنا ، نقلت عن نصّ الوفيات ، وان كانت تختلف عنه ببَعض الجزئيّات ، كحكاية اللقاء بين ابن هانيء والمتنبّي ، تلك الخرافة التي نقلها اليافعي ، وينقلها ابن العماد الحنبليّ ، ممّا يبعث على الاعتقاد بأن كلاًّ من مؤلف هذه المقدّمة وهذين المؤرّخين قد أخذوها من مصدر واحد .

ونلاحظ أخيراً أن القصيدة 24 من ترتيب زاهد عليّ ـ وهي مدحة للمعزّ لا يزال الناس يستنكرون غلوّها ـ قد طرحت أصلاً من هذه المجموعة ، فكأنّ أيدي « التطهير » قد امتدّت الى هذا المخطوط فحذفت منه ما قد يُستعظم .

---

(1) زاهد علي : تبيين المعاني . . . ص 14 من المقدّمة ، وراجع ما ذكره عنه فيضي في الفصل المذكور عن « البهرة » .

مخطوطة (م) النسخة الثانية توجد بالمكتبة الوطنيّة بمدريد تحت رقم 210 ج 233 . تفتتح هي أيضاً بمقدمة مماثلة ، ولكنّ ترتيب القصائد مختلف : فهو ترتيب بحسب الممدوحين : القصائد الأولى هي مدائح المعزّ ، بدون أن يكون ترتيبها خاضعاً لنظام ما : فالقصيدة الأولى لاميّة ، والثانية نونيّة ، والثالثة يعود فيها اللام الخ . . . ولم يذكر تاريخ النّسخ ، على أنّه ذكر تاريخ التملّك باسم شخص يدعى عبد الرحمان الحسيني . التاريخ متأخّر : 1668/1080 ، ونسبة « الحسيني » توهم بأنّ صاحب المخطوط هذا ، كان من نسل فاطميّ أو كان على الأقل شيعيّاً .

وهذه النسبة نفسها ، يتّصف بها صاحب مخطوط الاسكوريال الآتي الذكر ، وهو رجل يدعوه الناسخ باسم « زيد ابن أمير المؤمنين المنصور بن أحمد الحسيني » ، فهل كان هؤلاء أمراء وملوكاً ، أو أفراداً من أسرة مالكة ؟ لعلّها إحدى الأسر العلويّة التي حكمت البقاع المقدّسة قبل حركة الوهّابية[1] .

واسم الحسيني هذا أكثر انتشاراً في الزمان والمكان من أن نستطيع معرفة عبد الرحمان الحسيني معرفة صحيحة .

ومهما يكن من أمر المالك ، فإنّ المخطوط لا يجمع كامل شعر ابن هانىء ، بل تنقصه أربع قصائد ، علاوة على القصيدة 24 التي أشرنا اليها ، ولا يمكن هذه المرّة ، أن نتّهم « المحافظين » بتطهير المجموعة : فمن هذه القصائد المطروحة ـ وهي المرتّبة عند زاهد علي تحت أرقام 21 و 26 و 32 و 35 ـ ما لا يتّصل أصلاً بالمذهب الشيعي ولا بالحكم الفاطمي ، كالقصيدة 21 التي يتعرّض فيها الشاعر الى ديوان المتنبّي . ونجد على هامش القصائد الأولى من النسخة ، بعض الشروح اللغويّة المقتضبة .

Zambaur: Manuel de chronologie et de généalogie, Hanovre 1927 (1)

مخطوط (م. ب) أمّا نسخة المتحف البريطاني[1] ، فلئن ذهبت منها ورقتا البداية والنهاية ، فهي تزيد على النسختين السالفتين بالقصيدتين 61 و 62 من ترتيب زاهد علي ، اللتين تخلو منهما جلّ المخطوطات : فلذلك لم تَرِدا في الطبعات الأولى من الديوان، وأوّل ظهورهما كان في طبعة الباحث الهندي الذي اعتمد هذا المخطوط فيما اعتمد .

ويقول زاهد علي ، معتمداً على نوع الورق ، ان تاريخ نسخها يرجع الى القرن السابع / الثالث عشر ، وبذلك يكون مخطوط المتحف البريطاني أقدم نسخ الديوان ، ولكننا نحتفظ بفكرتنا في أسبقيّة نسخة باريس التي ضُبِطَ تاريخ نسخها .

في هذه النسخة ، لا نتبيّن ترتيباً واضحاً للقصائد ، فلا هو بحسب الممدوحين ، ولا على الأبجديّة : فالقصيدة الأولى قافيّة وهي في مدح ابن أمير المسيلة ، والثانية ثائيّة في مدح جعفر ، والأخيرة فائيّة في مدح المعزّ .

مخطوط (ا س) وكذلك الأمر بالنسبة الى مخطوط مكتبة الاسكوريال باسبانيا[2] ، فهو يبدأ بالقصيدة رقم 13 الداليّة ، ولا نعرف كذلك تاريخ انجاز هذه النسخة التي لا تتضمّن مقدّمة ولا خاتمة .

النسخ التونسيّة

مخطوط (ت 1) ونصل بعد هذا الى نسخ دار الكتب الوطنيّة بتونس التي لم يطّلع عليها زاهد علي . هذه النسخ الخمس تتفاوت قيمتها ، فأهمّها هو المخطوط رقم

---

(1) عدد B. M. 3767 .

(2) عدد 443 .

13746 الذي لقبناه « تونس 1 » ويتألّف من 124 ورقة رتّبت عليها القصائد ترتيباً أبجدياً على حرف الرويّ .

ولهذا المخطوط ميزتان : قدم العهد أوّلاً ، فقد نسخ سنة 1594/1004 ، وهو تاريخ قريب نسبيّاً ، إلاّ انّ الأصل الذي نقل عنه يرجع تاريخه الى سنة 1211/608 ، وهو أقدم تاريخ يشهد بوجود ديوانٍ مصنَّف لشعر ابن هانىء . فالمخطوط يعتمد على نسخة قديمة جداً ، وان كانت مفقودة ، من ديوان ابن هانىء .

والميزة الثانية هي اشتماله على 8 قصائد و 18 مقطوعة غير مذكورة في بقيّة النسخ المعروفة . فالقصائد مهداة الى ممدوحين ، منهم المعروف كالخليفة المعزّ وأمير المسيلة، ومنهم المجهول كالكاتب «أحمد بن زائدة » . أمّا المقطوعات ، فقد لفتت انتباهنا بما كشفت لنا من مخبّآت ميول الشاعر وطباعه . هذه الزيادات التي ينفرد بها مخطوط تونس 1 تضيف الى طبعة زاهد علي ـ وهي أكمل من سابقاتها ومن لاحقاتها كما سنرى ـ 368 بيتاً من شعر ابن هانىء .

وقد صرّح ناسخ المخطوط بأنّه نقل هذه القطع الاضافيّة « من غير الأصل المنقول عنه » : يعني هذا أنّه اعتمد أصلين : الأصل العاديّ إن صحّ التعبير ، وهو مخطوط سنة 608 الذي نتوقع أنّه لا يختلف عن النسخ الموزّعة اليوم في العالم ، والتي كانت مصدراً لطبعات الديوان ، ثم الأصل المجهول الذي فُقِدَ هو الآخر ، وبقينا نجهل في شأنه هل كان يتضمّن كلّ شعر ابن هانىء أم هو يقتصر على هذه الاضافات لا غير ، والأقرب الى الظنّ أنّه كان نسخة كاملة من الديوان ، أو على الأقلّ نسخة أكمل من نسخة سنة 608 .

هذا ، وقد أشرنا الى المعلومات الطريفة التي أفادتنا بها الترجمة الواردة في ذيل المخطوط ، ممّا يبعث على الاعتقاد بأنها ترجمة سابقة حتّى لنصّ ابن الأبّار في التكملة ، نظراً لقدم الأصل المعتمد .

وخاتمة القول في مخطوط ت 1 ، أنّه صالح ، بفضل هذه الزيادات أوّلاً ، وبفضل وجوده في تونس أي افريقية موطن الشاعر ثانياً ، أن يكون أصلاً يعتمد لطبعة جديدة للديوان ، تجمع كامل الشعر المعروف حتّى اليوم . وسنحاول تحقيق هذه الأمنية ان شاء الله .

مخطوط (ت 2)

المخطوط الثاني ـ ونسميّه ت 2[1] ـ نُقل سنة 1847/1264 عن ت 1 ، الذي كان قد حبّس على مكتبة الجامع الأعظم ، أي جامع الزيتونة ، ابتداء من سنة 1839/1256 ، كما يشهد به عقد التوقيف المثبت في صدر نسخة ت 1 . غير أن هذه النسخة ت 2 تنقطع عن نقل ت 1 ابتداء من ورقة 74 وجه ، فلا تنقل اضافات ت 1 الواردة ابتداء من قافية اللام ، وقد أهمل الناسخ كذلك المقدّمات التي تعلو القصائد ولم يحسّن خطّه ، كأنّه أتقن العمل في أوّل النسخ ، فاعتمد نسختين ، منهما ت 1 ، ثم أعجله أمر فطرح النسخة الطويلة ـ ت 1 ـ واكتفى بنقل الأصل القصير الذي لا يتضمّن اضافات ، بهذا يمكننا أن نبرّر وجود بعض زيادات ت 1 في هذه النسخة وفقدان الأخرى .

مخطوط (ت 3)

ثم نجد ، في مخطوطات دار الكتب التونسيّة ، نسختين متشابهتين وان اختلفتا عن السابقتين: أولاهما ـ ونسمّيها ت 3[2] نقلت سنة 1695/1107 ، وقد كانت على ملك الفقيه التونسي الشيخ ابراهيم الرياحيّ (ت 1849/1266) ، ولعلّه كان اقتناها بالشرق أثناء احدى سفراته ـ أو سفاراته ـ لأنّ خطّ النسخة مشرقيّ واضح أنيق مطعّم بالمداد الأحمر ، وان كان ناسخها ـ واسمه محمد الشرائبي ـ نُسِب في المقطوعة التي نظمت بمناسبة اختتام النسخ ، الى المغرب . ويبدو أنّ المخطوطة كانت ، قبل وصولها الى الشيخ ابراهيم الرياحي ، على ملك رجل يدعى « أحمد الدلنجاوي » ، تقول المنظومة إنه

---

(1) ت 2 : رقم 2231 قديم .

(2) ت 3 : رقم 15850 .

هو الذي قام بتزيين المخطوطة بالتزاويق الحمراء . وأحمد الدلنجاوي هذا ليس مجهولاً تماماً ، فقد كان على ما يقول بروكلمان ورضا كحّالة[1] ، شاعراً مصريّاً ، عاش حتى سنة 1711/1123 ، وخلّف ديوان شعر طبع ببولاق سنة 1885/1303 .فتكون المخطوطة مرّت بأيدي شاعرين ، الدلنجاوي والشيخ الرياحي الذي كان ينظم الشعر في المناسبات ، ولا سيّما السفارات لدى الباب العالي .

مخطوط (ت 4) **النسخة الأخرى - ت 4 -** نقلت بحذافيرها عن ت 3 ، سنة 1834/1250 ، فقد نقلت حينئذ في حياة الشيخ ابراهيم الرياحي صاحب النسخة المنقول عنها ، وأوقفت هي الأخرى على مكتبة الجامع الأعظم ابتداء من صفر 1873/1291 ، ويفهم من الاشارة الواردة في ذيل المخطوطة أنها كانت على ملك المؤرّخ التونسي أحمد بن أبي الضياف المتوفى في شعبان من نفس السنة / اكتوبر 1873 ، فيكون صاحب الاتحاف قد تخلّى عنها لغيره أو جعلها من أحباس الزيتونة خمسة أشهر قبل وفاته .

مخطوط (ت 5) أمّا بقيّة المخطوطات التونسيّة ، فهي جزئيّة لا تجمع كامل الشعر ، بل مختارات منه ، فالنسخة التي ورثتها دار الكتب عن العلاّمة التونسي ح . ح . عبد الوهاب قبيل وفاته سنة 1968 ، وتحمل رقم 18624[2] ، هذه النسخة تنقل بعض المطوّلات فقط برمّتها، أمّا بقيّة القصائد، فتشير إليها بالبيت الأوّل منها الذي يصبح هكذا عنواناً لها ، فالقصيدة 24 مثلاً لا يعرف وجودها الا ببيتها الأوّل : [كامل] .

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحْكُمْ فأنتَ الواحدُ القهّارُ

ورأى صاحب النسخة في خصوص هذه القصيدة بالذات أن يبرّر

---

(1) بروكلمان 260/2 والملحق 388/2 . كحّالة : 220/1 .
(2) انظر قائمة المخطوطات المهداة الى دار الكتب الوطنية في الحوليّات 1970/7 .

اقتصاره على هذا المطلع بما يوجد في القصيدة من شرك ، فنقل لنا حكماً قاسياً لابن شدّاد صاحب تاريخ القيروان على كفر ابن هانىء . فهذه فرصة أخرى نتحسّر فيها على فقد هذا الكتاب .

ونسخة ح . ح . عبد الوهاب هذه ـ ت 5 ـ صنّفت سنة 1859/1275 : وتشتمل على 102 ورقة تتقدّمها بعض الاشارات في ترجمة الشاعر وبعض الأحكام في شعره ، منقولة عن مطمح الأنفس لابن خاقان ، وعن الوفيات ، وعن « عيون التواريخ » لابن شاكر الكتبي (764 /1362) .

أمّا النسخ الموالية ، فتكتفي بنقل بعض القصائد المختارة ولا تنقلها كاملة، وهكذا نجد في مخطوط (ت6)[1] فقرات من القصائد: 31 و 40 و 48 و 53 ، جمعت مع فقرات أدبيّة أخرى مختلفة المناهج والأغراض ، ضمن « كشكول » نسخه أو انتسخه سنة 1862/1279 الفقيه التونسي محمد بيرم الثاني . والقصيدة الأولى من هذه المجموعة اشتهرت عند القدماء والمحدثين بوصفها للنّجوم الذي يستهلّه الشاعر بقوله : [طويل]

أَلَيْلَتَنَـــا إِذْ أَرْسَلَتْ وَارداً وَحْـفــاً وَبِتْنَا نَرَى الجَوْزَاء فِي أُذْنِهَا شَنْفَا

فصاروا يتناقلونها ويتمثّلون بها .

فلا بدع حينئذ أن لا نجد في ثلاثة كنانيش إلاّ هذه القصيدة « الفلكيّة » من شعر ابن هانىء ، الى جانب مختارات مختلفة من شعراء وأدباء آخرين[2] .

وشبيه بهذه المجموعات التونسيّة ، مجموع تحتفظ به مكتبة

---

(1) ت 6 : رقم 436 .

(2) ت 7 وت 8 وت 9 : رقم 3920 و 18768 و 18458 .

الأمبروزيانة بميلانو[1] ، الا أنه لا يتضمّن الأبيات الفلكيّة ، بل فقرات من القصيدتين 20 و 26 ، مع منتقيات لغير ابن هانيء .

النسخ الأخرى

هذه هي النسخ التي تسنّى لنا أن نطّلع عليها بِنَفسنا ونمارسها ممارسة فعليّة . ولم نتمكّن من الاّطلاع على بقيّة المخطوطات التي بنى عليها زاهد علي طبعته للديوان سنة 1933/1352 ، فاضطررنا إلى الاكتفاء بما نقلته عنها الفهارس المختصّة كفهرست أهلوارت أو روزين ، أو ما وصفها به زاهد علي في مقدّمته[2] . هذه الأصول الأخرى تتوزّع كما يلي :

- نسخة بالمتحف البريطاني ، وهي غير التي عرفناها .
- نسختان باكسفورد .
- نسختان بالمتحف الأسيوي بليننغراد .
- نسختان ببرلين .
- نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

هذا الى جانب النسخ الأربع التي يملكها جماعة من البهرة بسُرت وحيدرآباد ، ومنهم بعض أقارب الناشر .

ولنذكر أخيراً مخطوطاً آخر تحتفظ به المكتبة الوطنيّة بباريس ، مع كنّش يتضمّن قطعة مختارة من شعر ابن هانيء[3] .

ترتيب القصائد في المخطوطات :

هذه النسخ كلّها حديثة العهد نسبيّاً ، وقد رتّبت القصائد في معظمها

---

(1) رقم 118 من فهرست قريفيني ج 1 ص 593 .
(2) تبيين المعاني . . . ص 12-16 من المقدّمة .
(3) رقم : 6031 و 6034 من فهرس Blochet .

بحسب الممدوحين ، ولا نجد ترتيباً أبجديّاً مثلما هو الشأن في (ت 1) و (ب) غير أن بعض النسخ تفتتح بالقصيدة الثالثة عشرة : [طويل]

1/13 أَلَا طَـرَقَـتْنَـا وَالنُّجُـومُ رُكُـودُ وفي الحَيّ أيقـاظٌ، ونحنُ هُجُودُ

على غرار مخطوط (م . ب) .

هذا ونحاول ، في الجدول الذي نقدّمه في آخر هذا الفصل ، أن نرتّب المخطوطات ترتيباً زمنيّاً تقريبيّاً ، بالاعتماد على تاريخ التصنيف كلّما ذكر ، أو على تاريخ الوقف أو التملّك ان وجد : في الوادي الأولّ والوادي الثاني ، نعرّف المخطوط بمصدره وعلامته ، ونذكر التواريخ في الواديَيْن الثالث والرابع ، ونشير في الوادي الخامس إلى أنواع الترتيب ، وهي في الواقع متباينة لا تجمع بينها وحدة . أما الوادي السادس فخصّصناه للملاحظات : نلفت الانتباه الى كون المخطوط كاملاً يجمع كل الشعر ، أو جزئيّاً يقتصر على مختارات منه ، والى وجود مقدّمة مثلما في (ب) و (م) . وانّ وجود هذه المقدمة لا يشكّل حجّة على تشابه المخطوطات وانحدارها من أصل واحد : يشترك (ب) و (م) مثلاً في المقدّمة ولكنّهما يختلفان في الترتيب .

وحتى الترتيب لا يشكّل حجّة : فـ « ب » و « ت 1 » يتّبعان الترتيب الأبجديّ ، ولكنّهما يفترقان بالنقص والزيادة . والترتيب بحسب الممدوحين لا يخلو نفسه من بعض الفوضى : هناك نسخ تبدأ بمدائح المعزّ ، ثم تتركه الى مدائح بني حمدون ، ثم تعود الى الخليفة في أواسط الديوان او حتى في نهايته . وكذلك الأمر بالنسبة الى أمراء المسيلة : بعض مدائحهم يرد في المرتبة 20 من الديوان ، (أي القصيدة العشرون من النسخة تكون في مدحهم) ، ثم تنقطع فتعود في المرتبة 51 ، وتنقطع من جديد ، فتعود في القصيدة 63 . فلا نتميّز بين هذه الأنواع من التنظيم ، ترتيباً يراعي مثلاً أفضليّة الخليفة فيقدّم مدائحه على مدائح ولاته وقوّاده . ولئن توسّمنا في بعض النسخ مثل هذا الترتيب ، فسرعان ما يخيب الظنّ فنلاحظ الخلل .

ولا نتميّز كذلك ترتيباً ما ، أبجديّاً أو تاريخيّاً ، ضمن القصائد الموسومة باسم الشخص الواحد : نعني أن مدائح المعز مثلاً ، اذا وردت مجموعة متتابعة ، فإنّها لا تتوالى بتوالي حرف الرويّ ولا بتوالي الأحداث والزمان ، بل ترتّب كما يطيب للناسخ أن ينقلها أو يرتّبها .

غير أننا نجد أحياناً ، ضمن الترتيب الأبجدي المتّبع في (ت 1) و (ب) تبويباً ثانويّاً يعتمد الاشتراك في الممدوح ؛ نعني أنّ القصائد الهمزيّة ، أو البائية ، أو الداليّة ، اذا اجتمعت في نسخة ، فقد تتقدّمها مدائح المعزّ ، ثم تليها مدائح جعفر بن حمدون ، وهلمّ جرّا ، ولكن هذا التبويب سرعان ما يختلّ فتعود الحريّة المطلقة ابتداء من قافية الرّاء .

وواضح ، إزاء هذا الاختلاف في الترتيب ، أنّه يتعذّر علينا أن نعيّن للقصائد وللمخطوطات تاريخاً صحيحاً ولا مصدراً ثابتاً ، فنجزم بأن قصيدة كذا نظمت في بلد كذا وفي تاريخ كذا ، وأن المخطوط الفلاني نسخ في تونس أو في مصر . وانّما نضطرّ ، في كل هذا ، الى الافتراض والتخمين ، وغاية ما نتجاسر عليه ، في البحث عن أصول المخطوطات ، هو أن نرجّح أنّ النسخ التي تفتتح بمدائح المعزّ هي نسخ فاطميّة أو منقولة عن أصل فاطميّ ، لأنّها تقدّم الخليفة فتجعله في الديوان ، أوّل الممدوحين ، وان لم يكن في الترتيب التاريخيّ الا ثالثهم أو رابعهم .

طبعات الديوان :

لقد طبع ديوان ابن هانىء ثلاث مرّات قبل الطبعة المحقّقة التي قام بها زاهد علي سنة 1933/1352. طبع أوّل مرّة ببولاق سنة 1857/1274 ، ثمّ طبع ببيروت سنة 1886 ، وظهرت الطبعة الثالثة ببيروت أيضاً سنة 1907/1326 .

طبعة بولاق :

تتألّف من 160 صفحة مسبوقة بترجمة للشاعر منقولة عن ابن خلّكان ،

ويقول الناشر انه رأى من الصالح أن يرتّب القصائد ترتيباً أبجديّاً ، ممّا يبعث على الاعتقاد بأنّ الأصل الذي بنى عليه طبعته لم يكن مرتّباً بمثل هذا الترتيب : ولعلّه انطلق فعلاً من النسختين المحفوظتين اليوم بدار الكتب بالقاهرة : فهما مختلفتا التبويب بعيدتان كلّ البعد عن الترتيب الأبجدي .

والأبيات فيها غير مشكولة ، وقد تكلّف الناشر نقل بعض الشروح اللغويّة في الهوامش ، الّا أنّ الطباعة رديئة جدّاً لا تكاد تتّضح حروفها ، والديوان بعد هذا خال من كل فهرسة .

طبعة بيروت الأولى :

ظهرت سنة 1886 في 232 صفحة ، والطبع أقلّ اختلالاً منه في السابقة ، وبالرغم من إلغاء التعاليق الهامشية ، فإنها منقولة عن طبعة بولاق : فالترتيب هنا أيضاً أبجديّ وعنونة القصائد مماثلة وكذلك القراءات الخاطئة . إلا أنها تزيد عليها بفهرس للغلط المطبعيّ .

وقد صرّح ناشرها « شاهين عطيّة » بأنه طَبَعَ الديوانَ على نفقة « لطفي الزهّار » و« عمر هاشم » وهما رجلان يحترفان تجارة الكتب بدمشق ، ولا شيء في الاشارة يبعث على الظن بأنّ هذين الكتبيّين كانا شيعيّين وأنّ طبع الديوان كان بدافع مذهبيّ .

طبعة بيروت الثانية :

طبعت سنة 1907/1326 على مطابع جريدة « الإقبال » وهي إحدى الصحف الاسلاميّة الثلاث التي كانت تصدر آنذاك ببيروت[1] ، ولا تختلف عن السابقتين الا برُجوعها الى الشروح اللغويّة القليلة التي كانت نقلتها طبعة بولاق .

---

(1) ف . طرّازي : تاريخ الصحافة العربيّة . . . ص 8-9 من الفهرس العامّ .

هذه النقائص المنجرّة عن فقدان كل عمل تحقيقيّ من الطبعات الثلاث وبالخصوص عن انعدام المقابلة بين المخطوطات حملت أحد أساتذة المعهد النظاميّ بحيدرآباد بالدكن في القطر الهندي ، على الشروع في تحقيق الديوان وشرحه ، والتقديم له بمقدّمة ضافية . أنجز هذا الباحث ـ واسمه زاهد علي ، وهو سليل أسرة شيعيّة اسماعيليّة بحيدرآباد ـ عمله ، فشفعه بترجمة انجليزيّة للديوان ، تقدم بهما سنة 1932/1350 لنيل شهادة الدكتوراه البريطانيّة من جامعة اكسفورد . ثم نشر الديوان بالقاهرة سنة 1933/1352 تحت عنوان : « تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانیء » ، فالعمل ليس ضبطاً للنصّ فحسب بل هو أيضاً شرح وتقديم .

بنى الشارح تحقيقه على طبعات الديوان الثلاث ، وعلى عدد كبير من المخطوطات ، واعتمد منها خاصّة نسخة المتحف البريطاني التي تحدّثنا عنها (م . ب) : فقد اتّخذها أصلاً لضبط النصّ نظراً لما ارتآه فيها من قدم العهد واكتمال المادّة . واعتمد أيضاً النسخ المحفوظة في الهند عند طائفة البهرة بسُرت ، وعند بعض أفراد عائلته ، واستخدم بالخصوص شرحاً للقصائد المعزّيات ـ أي مدائح ابن هانیء للمعزّ ـ صنّفه على النهج الباطنيّ أحد أقاربه ، الشيخ حميد الدين عليّ ، فقال انه اعتمد عليه كثيراً لفهم الأبيات المتعلّقة بالعقيدة الاسماعيليّة وبألقاب الأئمّة وصفاتهم ، ثم شرحها[1] وأضاف الى مادّة الديوان بعض المقطوعات وأبياتاً منفردة اكتشفها في مطمح الأنفس لابن خاقان وفي نفح الطيب .

وبهذا كانت تكون طبعتُهُ أكملَ طبعات الديوان وأجمعَهَا لشعر ابن هانیء ، لولا اغفاله للمخطوطات التونسيّة ، ولا سيّما (ت 1) بزياداتها

(1) زاهد علي : تبيين ـ ص 9 من المقدّمة .

الهامّة ، وانا لنستغرب هذا السهو من زاهد علي ، وقد كان رحمه الله باحثاً رصيناً وأديباً عارفاً ، اذ كان عليه ، أثناء استقرائه للنسخ المخطوطة ، أن يتجه أوّلاً وبالذات الى تونس وارثة الحضارة الافريقيّة التي زانها مجد الشاعر . ونستغرب كذلك أن يسهو أستاذه المشرف على بحثه - وهو المستشرق مرغليوث المعروف بحملته على الشعر الجاهليّ - عن النسخ التونسيّة فلا يدعوه الى التحقّق من وجودها .

هذا الشرح الضخم يتألّف من 818 صفحة من الحجم الكبير ، مصدّرة بمقدّمة ذات 61 صفحة . في هذه المقدّمة ، يشرح الناشر أوّلاً دوافعه الى هذا العمل ، ثمّ يصف الطبعات الثلاث التي سبقت الديوان ، وكذلك المخطوطات التي حقّق بها طبعته ، وهي ثمانية عشر مخطوطاً ، تأتي بعد ذلك ترجمة للشاعر مستوحاة من كلام ابن الأبّار وابن خلّكان وابن الخطيب ، وتليها جملة من الأحكام في قيمة الشاعر للقدماء وبعض المستشرقين يشفعها زاهد علي برأيه هو في ابن هانىء مع مقارنته بالمتنبّي .

وفي قسم ثان من هذا التصدير ، يترجم الناشر لأهمّ ممدوحي الشاعر ويبسط أبرز الأحداث التي تخلّلت خلافة المعزّ . ثم يشرح عناصر العقيدة الإسماعيلية مستشهداً بأبيات من الديوان، مبرِّراً ما اعتبره السنّيّون غلوّاً من الشاعر ومروقاً عن الدين ، ومُبَرّئاً ساحته من تهمة الكفر .

ولا يخفى أنّ هذا الباحث الاسماعيليّ معجب بابن هانىء ، فهو يعادله بأعظم الشعراء ، ولا سيّما المتنبّي .

ويختم المقدّمة بقاموس قصير جمع فيه ثلاثين كلمة من غريب الديوان ، ممّا لا يخضع حسب رأيه لمقاييس اللّغة ، وينقل أخيراً نصّ المقدّمة التي تتصدّر نسختي (ب و (م) .

أمّا الشرح ، فقد صرّح الناشر نفسه بأنّه احتذى فيه حذو العكبري (1219/616) شارح ديوان المتنبّي . هذه المجاراة تظهر من عبارة العنوان :

« التبيان في شرح الديوان » عند العكبريّ ، و « تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء » ، أي في مشابهة « تبيان » و « تبيين ». غير أن المشابهة لا تقف عند هذا الحدّ : فهو يتّبع منهج العكبري في الاهتمام أوّلاً بـ « الغريب » أي باللفظ الذي يحتاج الى شرح معجميّ ، غير أنّ شرح المادّة يجرّ ، كما هو الشأن عند العكبري وغيره من الشرّاح القدامى ، الى الاستشهاد الكثير على معانيها واستعمالاتها بشواهد من القرآن والحديث والأمثال والشعر القديم ، وبالتالي يتضخّم هذا القسم الأولّ من الشرح ، على حساب القسم الموالي الذي يبدو هزيلاً أحياناً .

في هذا القسم الثاني يأتي بسط الفكرة والتعليق عليها ، ويقدّمه الشارح بعنوان « المعنى » : هذا الشرح المعنوي كثيراً ما يقتصر على تلخيص الفكرة او إعادتها بعبارة أخرى ، دون ما تعمّق ولا إفهام حقيقيّ : وربّما غاب المعنى عن فطنة الشارح تماماً ، فينبّهنا تارة الى تعذّر التأويل متّهماً التحريف في البيت ، وتارة يسكت عن المعنى أصلاً ويكتفي بالغريب ، ويلتجىء أحياناً الى الشرح الإجمالي ، ولا سيّما في القصائد الأخيرة ، فيجمع خمسة أبيات وحتى ستة فيقدّم تأويلاً لها إجماليّاً . واذا وقعت في البيت قراءات مختلفة ، فهو يذكرها مع الرمز الى مظانّها من المخطوطات ، ويثبتها على سطر خاصّ بين نصّ القصيدة والشرح . ولم يحاول الشارح تأريخ القصائد ، وانّما اكتفى بنقل الاشارات القليلة الواردة في المخطوطات . فلا تنفعنا هذه الطبعة في تبويب القصائد بحسب تاريخ نظمها ، ولا تغنينا عن محاولة الترتيب الزمني التي نُقْدِم عليها في الملحق الثاني من هذا الفصل . الترتيب في هذا الديوان أبجديّ والأبيات مشكولة كلّها ، والطباعة حسنة واضحة أنيقة . وينتهي الكتاب بفهارس ثلاثة : للأعلام ثمّ للأماكن ثمّ للمراجع ، ولكنها تقريبيّة لا تفي بكلّ الأسماء المذكورة في المقدّمة أو في الشعر وشرحه . أمّا فهارس المقدّمة وفهارس الديوان فتتصدّر الكتاب ، على الطريقة الانجليزية ، عوض أن تذيّله .

ولكن ، بالرغم من هذا النقص المتمثّل في انعدام الترتيب التاريخي للقصائد أوّلاً ، وفي استمرار الغموض في شأن بعض الممدوحين والأشخاص وبعض الأحداث التي تشير اليها الأبيات ، ثم في إغفال الشعر الإضافيّ الذي تضمّنه مخطوط (ت 1) ، بالرغم من كلّ هذا ، فإنّ طبعة زاهد علي هي أتقن طبعة ظهرت حتى اليوم .

ولعلّ محاسنها الكثيرة هي التي أغرت الناشرين المتأخّرين بنقلها مع شيء من الحيطة ، دون ما إشارة الى الناشر الهندي فضلاً عن الاعتراف بجميله : وهكذا فإنّ طبعة بيروت التي ظهرت سنة 1952 ثمّ تكرّرت كما هي مراراً ، لئن احتفظت في الظاهر بالترتيب المتّبع في طبعة سنة 1886 ، واقتصرت على المادّة المنشورة فيها ، بدون استيلاء على إضافات زاهد علي ، فهي في الواقع تستثمر مجهوداته ، في شكل الأبيات وفي تصحيح القراءات وحتى في الشروح ، على قلّة غنائها هنا ، دون أن تذكر اسمه ولو مرّة واحدة .

محاولة ترتيب القصائد ترتيباً زمنيّاً :

لا نتوقّع من هذا العمل أن يفضي بنا إلى نتائج ثابتة يوثق بها . ذلك أن ندرة الاشارات التاريخيّة في ديوان ابن هانىء وفي مقدّمات النسّاخ ، تحول دون معرفة تاريخ القصائد بصفة مضبوطة . ولكنّ هذه القلّة لا تصدّنا عن الاجتهاد في استنطاق الأبيات والتعليقات المبثوثة هنا وهناك ، ومقابلتها بما عرفناه في مصادر أخرى عن الشاعر وبيئته ، لنتمكّن من وضع هذا الشعر في المراحل الثلاث أو الأربع التي مرّت بها حياة ابن هانىء القصيرة .

ولنقرّ أوّلاً حقيقة لا مناص منها، لتتّضح لنا الأمور في محاولة ترتيب الشعر وتبويبه بحسب مراحل حياة الشاعر . هذه الحقيقة هي أنّ جميع شعر الشباب ، أي الشعر الذي نظم بالأندلس قد ضاع وتلاشى أو أهمل وألغيَ ، ولا أدلّ على هذه الحقيقة من سكوت أصحاب التراجم ، وجامعي الشعر ،

ومؤلّفي المختارات الأدبيّة ، سواء كانوا أندلسيّين أو مشارقة : فلا أحد منهم يروي بيتاً وينسبه الى الفترة الأندلسيّة ، فكأنّ حياة ابن هانىء الأدبيّة قد بدأت بأرض المغرب ، حوالي سنة 958/347 ، عند بلوغه السابعة والعشرين من عمره .

وعندما وطئت قدماه أرض العدوة ، شرع في التنقّل عبر أقطار المغرب ، فمرّ بفاس حيث كان جوهر الصقلّي يحاصر آخر الأدارسة ، ثم انتقل الى المغرب الأوسط فاستقر مدّة بالمسيلة عاصمة الزاب ، ثم دخل افريقيّة في خدمة البلاط الفاطميّ ، وانتهى به المطاف فجأة ببرقة قرب بنغازي الحاليّة .

فإذا اتّضح لنا هذا الخطّ المنطلق من الغرب نحو المشرق ، وتعيّنت لدينا منه نقط الاستقرار أمكننا أن نقدّر تقديراً أوليّاً تاريخ بعض القصائد :

فتكون أولاها في التاريخ، أي أولى قصائد الديوان إن رتبناه ترتيباً زمنيّاً، هي القصيدة رقم 10 التي مدح بها جوهراً أثناء حملته بالمغرب الأقصى بين سنة 347 و 348 /59 - 958 . ذلك أن أصحاب التراجم يتّفقون على أن أوّل من مدحه الشاعر عنه وصوله الى المغرب هو القائد الفاطمي . ثمّ انّ هذه القصيدة تذكر الثوّار الذين قهرهم جوهر ، وتسمّيهم بأسمائهم فمنهم « ابن واسول » الذي تمرّد على المعزّ وأعلن استقلاله بسجلماسة : [طويل]

33/10 وأدركْتَ سَوْلا في ابن واسولَ عَنوةً وَزحزحْتَ منه يَـذْبُلا فتزحْزَحـا

ومنهم رئيس قبائل مكناسة حليف الأمويّين ، موسى بن أبي العافية :

56/10 وفي آل موسى قد شننْتَ وقـائعا أهبْتَ لهم تلك الـزعـازعَ لُقَّحـا

ثمّ تأتي فترة الزاب ابتداء من سنة 959/348. الى هذه الفترة يمكن أن نعزو نحو 29 قصيدة تتّصل كلها بأمراء المسيلة ، ولكن لا يمكن أن نجزم بأنها نظمت كلّها بالمسيلة : فالقصيدة 16 يبدو أنها نظمت سنة 967/356 ، أي بعد

انقطاع الشاعر عن خدمة بني حمدون بثلاث سنوات ، فلعلّ الشاعر نظمها بالقيروان وأرسلها الى جعفر : ثمّ إن أمير المسيلة ، حسب ما تنقله توطئة القصيدة 15 ، كان يتردّد على عاصمة الخلافة : فالاتّصال بين الشاعر وممدوحه السابق ممكن اذن ، ولعلّ ابن هانىء نفسه كان يتردّد على المسيلة وربّما كان له بها مقرّ ثابت كما سنرى .

كنّا نخاطر اذن لو وضعنا كل هذه القصائد في فترة المسيلة ، خصوصاً وأنه يصعب علينا أن نضبط حدود هذه الفترة ، فلئن أمكن أن نعرف بدايتها بفضل لقاء الشاعر مع جوهر بالمغرب الأقصى ، فلا يمكن أن نحدّد نهايتها الا بالافتراض والترجيح .

وكان من المنتظر أن تدلّنا هذه القصائد على أزمنتها ، لما تتضمّنه من إشارات الى الحروب التي يخوضها الأَخوان جعفر ويحيى ضدّ القبائل المتمرّدة ، ومن تفصيل للحوادث السارّة أو المؤلمة الّتي تقع بالبلاط الحمدونيّ ، ولكنها إشارات ، لئن تدخّل فيها خيال الشاعر ، فعظّم الحقير وفخّم التوافه ، وصعد بالعادي المبتذل الى أجواء الزلازل والخوارق ، فهي لا تملك من التدقيق ما يسمح بتحديد زمانها : فلا المكان يُذكَر بالضبط ، ولا الزمان يدقّق ولا حتى اسم الخصم .

ولا نلوم الشاعر في إبهامه هذا : فوظيفته حين يمدح ، أن يزيّن ويضخّم ، لا أن يعلّم ويحقّق ويتبسّط كما يفعل المؤرّخون .

على أنّ هؤلاء - وحتى المختصّين منهم بأخبار الفاطميّين مثل ابن حمّاد - لم يعيروا بلاط بني حمدون اهتماماً كبيراً حتّى يفصّلوا نشاطهم العسكري أو يتفجّعوا على وفاة أمّهم أو يبتهجوا بتشييد قصر لإبراهيم ، كما يفعل ابن هانىء .

فكيف نحدّد اذن نهاية إقامة الشاعر بالزاب ؟ قد نحدّدها ببدء اقامته بافريقية عند المعزّ ، أي ببدء نظم المدائح في الخليفة . ولكن من مدائح

المعزّ ما نظم على ما نرجّح سنة 961/350 . فهل نقول انّ الشاعر انتقل الى افريقيّة سنة 350 ، أي بعد سنتين فقط من دخوله في خدمة أمراء الزاب ؟ لو قبلنا هذا التاريخ ، لحصرنا هذه القصائد التسع والعشرين في فترة لا تتجاوز العامين ، أي بنسبة 15 قصيدة في العام ، وهي نسبة ضخمة لا تتّفق مع ما نعرفه من عادات الأمراء ومادحيهم .

فالأغلب على الظنّ أن اقامة الشاعر بالزاب تواصلت أكثر من سنتين ، ولعلّه ترك المسيلة في غضون سنة 964/353 كما سنرى ، ولكنّه مهّد لدخوله في خدمة المعزّ بأن أرسل اليه من المسيلة مدحتين : القصيدة 9 التي تتّفق النسخ المخطوطة على أنها « أوّل شعر مدح به المعزّ » دون أن تصرّح بأنّه أنشدها بين يديه ، والقصيدة 11 ، والمرجّح عندنا أنّه نظمها سنة 961/350 .

وسيقع مثل هذا المدح بالمراسلة بعد أن يستقرّ الشاعر ببلاط الخليفة ، فينظم في أميري الزاب القصيدتين 15 و 16 .

ولئن تعذّر علينا أن نحدّد تاريخاً لهذه القصائد الحمدونيّة ، فقد يمكن أن نرتّبها بالنسبة الى بعضها بعضاً ، وذلك باستثمار ما يرد فيها من اشارات ، كالأخبار بالوفيات مثلاً : نفهم من القصائد 14 و 19 و 59 أن أمير الزاب أصيب ، أثناء اقامة الشاعر عنده ، في حفيد له ، ثم في والدته ، ويسهل أن نقدّم القصيدة الرابعة عشرة على الأخريين ، أي وفاة الطفل على وفاة الجدّة ، ذلك أن الشاعر يشير في الأولى الى فقيدَيْن : والد الأميرين ، علي بن حمدون ، ووفاته قديمة نعرفها من المؤرخين (945/334) . ثمّ الطفل ، ابن إبراهيم بن جعفر : [رمل]

58/14 أيّ مفقودَيْك تبكيهِ : أب هِبرِزِيٌّ أنتَ منه ، أم وَلَدْ ؟

في حين أنه يذكر في القصيدة التاسعة والخمسين ، ثلاثة أموات ، لأن الجدّة التحقت في الأثناء بزوجها وبالحفيد : [متقارب]

الى هذا المقياس الممكن في ترتيب القصائد ، يمكن أن نضيف معياريْن آخَرَيْن : الأوّل يعتمد أصداء العقائد الشيعيّة فيها ، والثاني ينظر الى ما قد تتضمّنه من اشارات شخصيّة خاصّة بالشاعر .

فالمعيار الأوّل يمكن أن نلخّصه كما يلي : اذا بدت تعاليم الشيعة ضعيفة خافتة في قصيدة ما ، فهي من أوّل ما نظم ، وان تبـدُ لنا القصائد مفعمة بالمعتقدات الاسماعيليّة مغالية في تقديس الأئمة الفاطميّين ، فهي متأخّرة في الزمن ، وهو معيار يفترض فكرة قد تُقبل وقد تُدفع : وهي أنّ ابن هانىء أوّل دخوله المغرب كان خاليَ الذهن تقريباً من المبادىء الشيعيّة ، وانّما تعلّمها شيئاً فشيئاً أثناء اتصاله بولاة المعزّ وقوّاده أوّلاً ، ثم أثناء خدمته المباشرة للخليفة . فإذا قبلنا هذا الافتراض ، يمكن أن نؤخّر القصائد 50 و69[1] و 28 فنعتبر أنها نظمت في آخر اقامته بالزاب ، لأنّ العقيدة الشيعيّة فيها أظهر منها في القصائد الأخرى .

أما المعيار الثاني ، فليس أكثر ثباتاً من السّابق : لا نجهل أنّ الشكاوى التي يضمّنها الشاعر أبياته ، من تحسّر على الشباب الضائع ، وتذمّر من الدهر القاسي ، وتألّم من الحسّاد الكثيرين وبكاء على الحبيب القليل ، قد لا تترجم عن حالات واقعة ، وانّما تكون أغراضاً تقليـديّة يستـرحم بها الشعـراء ممدوحيهم ، كما يفعلون في النسيب التقليديّ بالبكاء على الأطلال والتفجّع على فقد الأحبّة ، والتعظيم لمتاعب السّفر نحو الممدوح . نعلم هذا ولا ننكره ، ولكن ما دمنا مضطرين الى الافتراض ، فاقدين للوسائل الثابتة ، فلنتبنّ هذا المقياس أيضاً ، ولنقل انّ القصيدتين 50 و 52 قد تؤخّران أيضاً الى

---

(1) إنّ الأرقام 63 إلى 70 تعيّن القصائد الإضافيّة التي نشرناها سنة 1969 بالحوليّات ، وهي مواصلة لترقيم زاهد عليّ الذي انتهى الى 62 . هذا ، ونفصل بين رقم القصيدة ورقم البيت بخط مائل [/] .

آخر المُقام بالمسيلة ، لأنّ الشاعر يبدو متألّماً شاكياً من الجفوة التي أقصته عن بلاط الأمير : [متقارب]

73/ 50	وإنّـي وان تَـرَنـي قـابـضـا	جنـاحي الـيَّ ، كـظيمـاً وَجِـمْ
74	أقـلّلُ مـن هـفـواتِ الـمـزار	وأبـدي الـغَنـاء وأخفي الـعَـدَمْ
75	فـإنـي من الـعَـرَب الأكـرمـين	وفي أوّل الـدهـر ضـاع الكـرم

وما دمنا بصدد تأريخ شعر ابن هانىء ، فلا يفوتنا أن نتعرّض الى فكرة أبداها منير ناجي في دراسته عن الشاعر[1] : توقف عند القصيدة الرابعة والثلاثين ، وهي قطعة لا مدح فيها ولا هجاء ، بل هي تصف رحلة ليليّة الى بعض الخمّارات على طريقة أبي نواس ، فرأى أنها قد تكون من بقايا إنتاجه الأندلسيّ ، ودعم رأيه بما لاحظه في بعض مدائح يحيى بن حمدون من هذه المعاني الخمريّة ، كأنّ هذه القصائد الحمدونيّة ، لقرب عهدها بالفترة الأندلسيّة من حياته ، لا تزال متأثّرة بأغراض الشباب والغَوَاية .

ويظهر أن هذا الباحث قد حيّره هو الآخر السؤال الذي طرحناه وما زلنا نطرحه في خصوص مصير شعره الأندلسيّ ، كيف امّحىٰ هذا الانتاج الذي حمل عليه الرواة والمؤرّخون ؟ أين ذهب هذا الشعر الذي استعظم الأندلسيون زندقته فأطردوا صاحبه من أجله ؟ فراح يبحث في الديوان فاتخذ هذه المقطوعة الباهتة شاهداً على شعر اللهو والبهتان . وانّما هي في نظرنا « تمرين » نواسيّ قلّد فيه محمدُ بنُ هانىء الحسنَ بنَ هانىء ، كما يقلّد اللاحقون السابقين فيما يعرف بـ « المعارضات » .

ثمّ ان المعاني الخمريّة لم تنقطع فيما بعد من انتاج شاعرنا. فلا يمكنُنا أن نرى في هذه الفقرات من قصائد المسيلة صدى بعيداً لسلوك ابن هانىء باشبيلية ، بل الحديث عن مجالس اللهو يتواصل الى ما بعد فترة المسيلة ،

---

(1) منير ناجي : ابن هانىء ص 56 .

حتى قصائده الى المعزّ تستهلّ أحياناً بمقدّمة خمريّة ووصف لآلة الخمرة مثلما في القصيدة الخامسة والثلاثين . أليس الأصوب حينئذ أن نعتبر هذه المعاني غرضاً تقليدياً يطرقه الشعراء ، كما يطرقون باب النسيب أو الوصف أو الشعر الحكميّ ؟

يتّضح بعد هذا ، أنّه يتعذّر على الباحث أن يؤرّخ لهذه القصائد الحمدونيّة ، فيوزّعها على السنوات الخمس التي قضاها ابن هانىء ببلاط المسيلة . وانّ أقصى ما يمكن أن نقرّره في شأنها ، يتعلّق بالقصيدة الأولى التي ألقاها الشاعر بين يدي جعفر بن حمدون : لقد عيّنها لنا ابن سعيد[1] وغيره ، فقالوا انها القصيدة الحادية والثلاثون ، أي القصيدة « الفلكيّة » .

فلذلك ، لئن أقدمنا على ترتيب هذه القصائد التسع والعشرين في الجدول النهائيّ ، فمع كامل الحذر والاحتياط .

القصائد الافريقيّة[2]

هذه اثنتان وعشرون قصيدة نظمها الشاعر بالبلاط الفاطمي ، منها ما يمكن تأريخه بفضل ما يتضمّن من اشارات الى أحداث كبرى معروفة في التاريخ كوقعة الخليج سنة 965/354 بين الاسطولين الفاطمي والبيزنطي ، أو فتح مصر على يد القائد جوهر سنة 969/358 أو انتقال الخلافة الى الشرق سنة 973/362 . ومنها ما يتعذّر معرفة تاريخه لخلوّه من مثل هذه الاشارات أو لأنّ الشاعر يصف فيه أعياداً ومواكب تتكرّر كلّ عام فلا تختصّ بها سنة دون سنة . هذا القسم المبهم يبقى على غموضه ، مثل أغلب قصائد المسيلة .

وقبل استعراض الانتاج الافريقي بالتفصيل ، يجدر بنا ان نبرّر تأريخنا

---

(1) ابن سعيد : المغرب ترجمة 409 .

(2) نعني بافريقيّة مقرّ الخلافة بالقيروان أصلاً وما يليها مباشرة ، وان كانت ولاية الزاب وولاية طرابلس داخلَتَيْنِ في حدود افريقيّة القديمة .

لدخول الشاعر في خدمة المعزّ بسنة 964/353 :

مستندنا في ذلك هو القصيدة الأربعون التي أشادَ فيها بانتصار الجيش الفاطمي برمطة بصقلّية[1] فذكر فيها موت القائد البيزنطي منويل فقاس[2] :

[كامل]

26/40 سَلْ رَهْطَ مَنْوِيـلٍ ، وأنتَ غررتَـه   في أيّ معـركـةٍ ثـوى مَنْـويـلُ ؟

وتاريخ موت القائد البيزنطي في هذه المعركة معروف في المصادر البيزنطيّة والاسلاميّة : سنة 964/353 . فلذلك قلنا ان الشاعر كان موجوداً بالبلاط الفاطمي في هذا العام ، وممّا يدعَم رأينا ، أنّه يصف بالتدقيق موقف الخليفة عند وصول بشير النّصر اليه : لقد خرّ ساجداً يحمد اللّه على نصره لجيوش الاسلام ، وقبّل الأرض تواضعاً وعبادة وعفّر وجهه بالتراب : [كامل]

13/40 لـلّهِ عَـيْـنَـا مَـن رأى إخبـاتَــهُ   لمّـا أتـاهُ بَـريـدُهَـا الإجْفِيـلُ

14 وسجـودَه حتى ٱلْتَقى عَفرُ الثّـرَى   وجـبيـنُـهُ ، والنـظمُ والإكـليـلُ

غير أنّا ، لئن أرّخنا هذه القصيدة بسنة 353 ، وأرّخنا بها وجود ابن هانىء ببلاط المعزّ، فلا يعني ذلك أنها أوّل مدحة نظمها في الخليفة، فقد سبقتها قصيدتان على الأقل : القصيدة التاسعة التي يذكر فيها الشاعر خَطْبا لحق بني أميّة بالأندلس ، ولا نخاله الاّ وفاة عبد الرحمان الناصر يوم 2 رمضان 15/350 أكتوبر 961 : [كامل]

43/9 لَبِسُـوا معـايِبَهُم وَرُزءَ فقيـدِهِم   كاللابِسَـاتِ على الحِدَادِ مُسُوحا

وكذلك القصيدة الحادية عشرة التي تبدو معاصرة للسابقة ، لأنّها تشير هي الأخرى الى هذا المصاب الذي قهر « أصنام » قرطبة ، أي بني مروان :

[طويل]

---

(1) رمطة Rametta قرب طبرمين Taormine في الجنوب الشرقي من الجزيرة .

(2) Manuel Phocas .

33/11 لقَدْ سارَت الـرُّكْبَانُ بـالنَبَإِ الـذي يَشِيبُ لـه طِفْـلٌ وينصـاتُ أَجْلَخُ
34 وضجّت له الأصنامُ إنَّ ضجيجَها صدىً من بني مروان حرّانُ يصرخُ

وقد رجّحنا أنّ نظمهما وقع بالمسيلة ، فتخلّصنا من المشكلة التي تجعل القصيدة التاسعة والقصيدة الثالثة والخمسين متنافستين في الأسبقيّة : ذلك أن النسخ المخطوطة تقول في احداهما انها أولى مدائح المعزّ ، وفي الأخرى انّها أوّل قصيدة أنشدها أمام الخليفة بالقيروان ، فقلنا انّ القصيدة التاسعة نظمت سنة 350 بالزاب وأرسلت الى المعز ، وأنّ القصيدة الثالثة والخمسين نظمت بافريقيّة بعد سنة 964/353 وأنّ الشاعر أنشدها بنفسه أمام الخليفة .

والذي نرجّحه في شأن القصيدة الثالثة والخمسين ينطبق أيضاً على القصيدة الخامسة والثلاثين ، نظمها بمناسبة عيد الفطر : [خفيف]

26/35 وَجَـلاَ الفِـطرُ منـه عن نَبَـوِيّ أبيض الـوجـهِ أبيض الأخـلاقِ

ولكن من أيّ سنة ؟ غير أنّ تردّد المعاني الاسماعيلية فيها ، واشارة الشاعر الى « مظلّة » الخليفة لأوّل مرة :

32/35 فـوقَـهُ خَيـطة اللجين تـهـادى بـيـديْ كـلّ بُهـمـةٍ مـصـداق

تحملنا على وضعها في بداية مُقامه بافريقيّة .

والى المدةّ نفسها نرجع المدحتين السادسة والعشرين ، والثالثة . في الأولى تهجُّمٌ على بني أميّة خلفاء قرطبة ، وفي الثانية تشنيع على العبّاسيّين ببغداد لأنهم لم يَحولوا دون احتلال « الجاثليق » ـ أي الدمستق البيزنطي ـ لحلَب ونهبها : [طويل]

32/3 ولـكنْ لـعـلّ الجَـاثُـليقَ يـغُـرُّهُ على حَلَبٍ نَهْبٌ هنـالِكَ مَنْهُـوبُ

---

(1) أنصاب (صوت) : استوى بعد انحناء ، الأجلخ : الضعيفُ الفاترُ .

ومعلوم أنّ وطأة الأباطرة البيزنطيّين على الثغور الشاميّة تفاقمت ابتداء من سنة 962/351 .

كذلك القصيدة رقم 1 ، تحمل هي الأخرى على بني العبّاس ، ولكنها تتضمّن اشارة شخصيّة من الشاعر : بحثه الطويل عن ممدوح أبيض الوجه والأيدي ، ونُصحُ الناس له بالتوجّه إلى المعزّ : [كامل]

27/1 وطفِقْتُ أسأَلُ عن أغرَّ مُحَجَّلٍ فَـإذا الأنـامُ جـبـلّةٌ دَهْـمَـاءُ

28 حتى دُفِعْتُ إلى المعـزّ خليفـةً فعلِمْـتُ أنّ المـطلَب الـخُلَفَـاءُ

فهي إذن من المدائح الأولى التي نظمها بعد اتّصاله بالمعزّ .

وتأتي بعد ذلك مدحتان ـ رقم 12 و 44 ـ يعرض فيهما الى وقعة الخليج ، أي معركة المضيق الذي يفصل صقلّية عن جنوب ايطاليا ، ويسمّى اليوم مضيق مسّينا . دارت هذه المعركة بين الأسطولين الفاطمي والبيزنطي سنة 965/354 ، أي بعد انتصار رمطة مباشرة ، فكان النصر حليف المراكب الافريقيّة ، ويتهكّم الشاعر بالامبراطور البيزنطي : [بسيط]

50/12 فَقُلْ له: حالَ من دونِ الخليج قَنا سُمْـرٌ ، وأذرُع أبـطالٍ منـاجيـد

ويجعل الموج حليفَ الأسطول الإسلامي في هذا النصر : [كامل]

88/44 والمَوْجُ من أنصارِ بـأسِكَ خَلْفَهـا فـالموجُ يُغْـرِقُها ، وسيفُـك يقتـلُ

أمّا القصيدة الحادية والأربعون ، فتصف مراسم عيد النحر ، ولكن بدون أن تعيّن العام ، مثلما في القصيدة رقم 35 . وهي ، ان لم تفدنا في ضبط تاريخها ، أفادتنا بشيء من المعلومات عن حياة البلاط الداخليّة . ونظراً لاستحالة تأريخها ، فاننا نضطرّ إلى وضعها ، مع كثير من المدائح الأخرى ، في الفترة بين 965/354و 969/358 ، أي في مدّة لم يسجّل فيها المؤرّخون حوادث هامّة في حياة الدولة الفاطميّة بالمغرب ، وهكذا نفترض ـ اضطراراً لا اعتباطاً ـ وجود مدّة خالية من الحوادث ، فنحشر فيها ما لا نستطيع له تأريخاً .

بيد أنّ بعض هذه القصائد ، على قلّة وضوح ظروفها ، تلوح لنا فيها إشارات إلى أحداث بعيدة كمصيبة بيضة الإسلام بالجيوش الروميّة في الشام . من هذه التلويحات ، ما نجده في القصيدة الثالثة عشرة من تلهّف على محاصرة الدمستق لأنطاكية وتوغّله في منطقة « العواصم » : [طويل]

61/13 غَضِبْتَ لهُ أنْ ثُلَّ بـالشام عـرشهُ وعادَكَ من ذكرِ العـواصِمِ عِيدُ[1]

أو في القصيدة رقم 58 التي يعود فيها إلى التشنيع على العبّاسيّين ، غاصبي الخلافة من مستحقّيها وتاركي الدفاع عنها ، فخمولهم هو الذي أطمع الأباطرة في الإسلام ، فكالوا له الضربات المتوالية ، وهكذا يفسّر سلسلة الانهزامات التي عرفتها الإمارة الحمدانيّة بين 355 و 357/68 -966 .

وقد نستنتج من إشارة وردت في هذه القصيدة ، أنّ الشاعر ، في هذه المدّة ، أي حوالي سنة 357 ، قد بدأ يحسّ بوطأة السنّ ، ولعلّه قارب الأربعين : [متقارب]

4/58 لبِسْتُ رداءَ المَشِيبِ الجـديـدَ ولـكـنّـهـا جِـدّةٌ لـلـبِـلَى

ونلحق بهذه الفترة أيضاً القصيدتين رقم 37 و 67 . في الأولى يتزلّف الشاعر إلى الأئمّة بتشيّع لهم قديم جعله عرضة لنقمة الأندلسيّين : [طويل]

49/37 ومـا نقَمـوا الا قـديمَ تشيُّعِي فنجّى هِـزَبْـراً شـدُّهُ المتـدارِكُ

وفي الثانية يحرّض الخليفة على اقتحام الأراضي العبّاسيّة ويتنبّأ له بالدخول إلى بغداد : [طويل]

27/67 بني الدولةِ الغرّاءِ شيمُوا سيوفَكم فانّي لها المُلْكَ العـراقيَّ شائمُ[2]

---

(1) العواصم هي منطقة الثغور بشمال الشامّ ، التي تعصم دار الإسلام من الخطر البيزنطي . والعيد هنا ما يعتاد الإنسان ويعاوده من همّ وفكر وخوف .

(2) حوليّات 1969/6 ص 103 .

فقد اقتربت اذن ساعة الفتح ، فهذه مصر مشتاقة الى المعزّ ، خصوصاً بعد وفاة كافور (21 جمادى الأولى 29/357 ماي 968)

37/67 بمصرَ صباباتٌ اليك ، وطالما صرمتَ ، ولهْفي من حبيبٍ يصارم

فلا مانع اذن من أن نؤرّخ هذه القصيدة بسنة 968/357 .

ونصل بعدها إلى سنة 969/358 ، سنة استيلاء جوهر على مصر . خصّص ابن هانىء لهذه الحملة أربع قصائد، بحسب مراحلها المختلفة : القصيدة 27 تصف مرحلة التعبئة للانطلاق نحو الشرق ، وقد شيّع الشاعر بنفسه هذا الجيش العرمرم وقائده حين تحرّك يوم السبت 14 ربيع الأوّل 5/358 فيفري 969 : [طويل]

1/27 رأيتُ بعيني فوقَ ما كنتُ أسمَعُ وقد راعَنِي يومٌ من الحَشْر أروَعُ

4 وكيف أخوض الجيشَ، والجيشُ لُجَّةٌ وانّي بمَنْ قد قاده الدَّهْرَ مُولَعُ

وقد عنونها رواة الديوان بـ « مدح جوهر » ، وهي في الواقع مدح مشترك للقائد الصقلبي والخليفة مولاه ، فلذلك اعتبرناها من المدائح المعزّيّات ، وهي ، على كلّ ، من الانتاج الافريقي ، بل هي من الشعر القليل الذي يمكن ضبط تاريخه بشيء من الدقّة .

ثم تأتي القصيدة رقم 46 ، يصف فيها للمعزّ تشييعَه للجيش الفاتح ويذكر له ما رآه فيه من بوادر النّصر .

وتليها مباشرة القصيدة رقم 22 التي تعلن عن تحقّق النّصر ، ونجاح جوهر في حملته ، إلا أنّ الشاعر يتلطّف فيجعل الهزيمة لا للمصريّين ، بل لحكّامهم العبّاسيّين : [طويل]

1/22 تقولُ بنو العبّاسِ : هل فتحَتْ مصرُ؟ فقل لبني العبّاس : قد قُضِيَ الأمرُ!

فهذه ثلاث مدائح تؤرّخ بسنة الفتح ؛ أما الرابعة ـ وهي القصيدة رقم

23 ـ فنؤرّخها بالسنة الموالية 970/359 ، لأنّ الشاعر يعدّد فيها الهدايا التي أرسلها جوهر إلى الخليفة بعد استقراره بمصر . هذا ترجيحنا لظروفها وتاريخها ، إذ لا عبرة في نظرنا بما تنقله توطئات القصيدة من أنه « . . . يذكر هديّة وصل بها جوهر الكاتب من المغرب إلى الحضرة»[1] أو أنّه « . . . يصف هديّة القائد جوهر ، وذلك بعد تسخير القائد بلاد المغرب ، وانتهائه إلى البحر المحيط سنة 348 »[2] .

ونبني رفضنا لهذه النسبة على حجج داخلية مستقاة من القصيدة نفسها ، وحجج خارجيّة تتّصل بما نقله لنا المؤرّخون والرواة عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الفاطميّة بالمغرب . فمن الحجج الداخليّة أمران :

1 ـ يظهر من البيت 42 أن هذه الهدايا قد نقلت إلى صاحبها بحراً وبرّاً ، وتمّ نقلها على أقساط نظراً لكثرتها :

42/23 وَلَوْ لَمْ يُعَجِّل بَعْضَهَا دونَ بَعْضِهَا لضَاقَ الثَّرَى والمَاءُ طُرْقاً وَمَعْبَرَا

وقد أفاض المؤرّخون في وصف هدايا جوهر من مصر ، ولا سيّما المقريزي الذي يقول[3] انها نقلت الى الاسكندريّة بحراً ، ومنها إلى القيروان برّاً ، وقد يكون عنى بالبحر نهر النيل الذي يسمّيه المصريّون « بحر النيل » كما هو معروف ، أو البحر الحقيقي ، فتكون المراكب أقلعت من الشام التي تمّ فتحها على يد جعفر بن فلاح ، أو من موانىء شرقي مصر ، إلى الاسكندريّة منتهى الخطّ البرّي بين افريقيّة ومصر ، كما سبق أن قرّره آبن هانيء في قصيدة الفتح :

2/22 وقدْ جاوزَ الاسكندريّةَ جوهَرٌ تطالعُهُ البشرى ويقدمُهُ النّصرُ

---

(1) ت 1 ورقة 46 ب .

(2) توطئة القصيدة 3 .

(3) اتعاظ 171 .

هذا ، وما علمنا لدى المؤرّخين أنّه كانت بين افريقيّة والمغرب الأقصى صلة بحريّة ، بل هذا جدّ مستبعد ، نظراً لتوفّر الخطوط البرّية أوّلاً وتيسّرها تحت النفوذ الفاطميّ الموحّد من المهديّة الى فاس ، ونظراً أيضاً إلى تسلّط الأعداء الأمويّين على جلّ المناطق الساحليّة من المغرب الأقصى ، وعلى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسّط .

2 ـ آهتمّ الشاعر ، من بين هدايا جوهر ، بالخيل خاصّة فخصّص لها فقرة من أبدع الوصف[1] وذكر النوق كذلك ، ويتّفق في هذا مع ما يذكره المقريزي .

أمّا الهدايا التي توّجت حملة سنة 347-8 بالمغرب ، فتمثلت على ما نقله المؤرّخون[2] في بضعة أسماك من المحيط الأطلسي أرسلها جوهر في جرّة من ماء البحر إلى الخليفة ، وهي هديّة رمزيّة بالمعنى الصحيح ، ترمز إلى وضع البحر المحيط أيضاً تحت نفوذ الإمام الفاطميّ . وأرسل معها أسرى من رؤوس الثوّار في أقفاص من القصب .

ولا نجد ذكراً في القصيدة للأسماك ولا للأقفاص ، فخرجت بذلك عن أن تكون من منظوم سنة 348 ، كما تقول التوطئات .

أمّا الحجّة الخارجيّة ، فهذه :

لو كانت القصيدة تصف هدايا المغرب لا هدايا مصر وهي مع ذلك تمدح المعزّ ، لترتّب عليها أن يكون الشاعر قد عرف المعزّ منذ سنة 348 ، أي تقريباً منذ وضع قدميه على أرض المغرب ، أو أن يكون على الأقلّ قد راسله بالمدح منذ ذاك التاريخ . وهذا يناقض تماماً ما علمناه من المترجمين والرواة ، من أنّ آتصاله بالخليفة كان خاتمة طوافه بأقطار المغرب ، لا بدايته .

---

(1) الأبيات 4 إلى 23 من القصيدة 23 .

(2) الناصري السلاوي : الاستقصاء 1/199 . وانظر كذلك : المقريزي : اتّعاظ 135 .

فلا شكّ عندنا إذن في أن هذه القصيدة 23 إنّما تصف هدايا مصر ، فتؤرّخ اذن بسنة 970/359 كما قلنا .

وبنفس هذا التاريخ ، 970/359 ، نؤرّخ القصيدة الثلاثين التي يشكو فيها الشاعر ذهاب الشباب ووصوله الى منتصف العمر ، أي الأربعين حسب المُتَعَارف : [كامل]

2/30 إنْ لَا أكُنْ بلغَتْ بيَ السِنُّ المَدَى فلقَدْ بَلَغْتُ من الطريقِ المَنْصَفَا

وليس معتمَدنا فيها على هذه الاشارة، بدعوى أنّه ان يكن بلغ الأربعين أو قاربها ، وهو المولود في سنة 320 ، فلا تكون القصيدة الاّ وليدة سنة 360 أو ما قاربها . ولكنّ معتمدنا هو اشارة أخرى : ففي البيت 17 ، نجد صدى لحصار أنطاكية وسقوطها بأيدي الروم في آخر سنة 358 / أكتوبر 969[1] :

17/30 فكـأنّمـا وقــع الصـريــخُ إليْهِمَـا بحِصَـــار أنـطاكيَّــةٍ فـاْسْتـرْجفَـا

ولا شكّ عندنا في أنّه لا يعني الحصار الأوّل الذي دار سنة 966/355 ، بل حصار سنة 358 ، لأنّ البيت 39 يشهد بأن احتلال مصر قد تمّ بعد ، إذ أصبح الشاعر يحرّض المعزّ على استبقاء جوهر بمصر ودفع جيوشه نحو بغداد :

39/30 فـإلىٰ العـراقِ! وذَرْ لمَن قــدّمتَـه مصرا، فهذا مُلكُ مصرٍ قد صفَا!

وتناسب السنة الموالية ، سنة 971/360 ، القصيدة رقم 43 ، لأنّ الشاعر يعرض فيها إلى نهاية القائد الزناتي محمد بن خزر ، الذي ظفر به بعد لأي زيري بن مناد الصنهاجي وابنه بلقيّن، ونعلم أنّ قتل ابن خزر تمّ في غضون هذا العام 360 : [بسيط]

22/43 لقَدْ قصمْتَ من ابن الخَزْر طاغيَةً صعبَ المقـادَةِ أبّاءً على الجَـدَلِ

---

(1) M. Canard: Hamdanides 832.

وكذلك القصيدة رقم 24 ، تلك التي استُعْظِم غلوُّها حتى طُرِحت من بعض نسخ الديوان . نضعها أيضاً في سنة 360 لأنّها تشير إلى غزوة بـ « فراقس » : ولا نخال فراقس هذه إلا تحريفاً لـ « فرقلس » وهي قرية بالشّام ، فتصبح الإشارة متعلّقة بحملات الجيش الفاطميّ في جنوب الشام ضدّ فرق القرامطة(1) : [كامل]

12/24 لِلَّهِ غَزوَتُهُمْ غداةَ فَرَاقِسٍ وقدِ آسْتُشِبَّتْ للكريهةِ نَارُ!

وقد يستغرب في البيت 61 منها ، ما يفهم من استقرار المعزّ بمصر ونحن نعلم أن الخليفة لم يدخل مصر إلا في رمضان 973/362 ، أي بعد شهرين من وفاة الشاعر ببرقة :

61/24 ها انّ مصرَ غداةَ صِرْتَ قَطِينَهَا أحرى لتَحْسِدَها بكَ الأقطَارُ!

ولا إشكال في البيت إذا فَهِمْنَا أنّ الشاعر انّما يتنبّأ بحلول المعزّ الوشيك بمصر ، بعد أن تمّ الفتح ، وأسّست العاصمةُ الجديدة ، فاستعمل صيغة الأمر المقضيّ لما لا يزال في النيّة .

ونصل أخيراً إلى القصيدة رقم 47 ، أطول قصائد الديوان اذ تبلغ مائتي بيت . يُجمع رواة الديوان على أنّها آخر شعر ابن هانىء ، وأنّه نظمها بالمغرب وبعث بها الى المعزّ بالقاهرة . لقد فارق الشاعر الخليفة ببرقة في رجب سنة 362 فواصل المعزّ سيرَهُ نحو مصر ، وعاد الشاعر إلى افريقيّة أو الى الزاب لأخذ عياله ومتاعه استعداداً للّحاق بمولاه في القاهرة ، هذا هو رأينا في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، كما سيتّضح من ترجمته . وعلى أساس هذا الافتراض ، يكون الشاعر قد فرغ من القصيدة وهوببرقة،إمّا في طريقه إلى افريقيّة، وامّا في طريقه إلى مصر، ولا نظنّه إلا راجعاً إلى الزاب حسب ما نجد في البيت 186 من احتجاج بالأهل « القطين في القصيّ من النوى » :

---

(1) المقريزي : اتعاظ الحنفاء 139. وفرقلس يجعلها ياقوت قرب سلميّة وكذلك البكري في معجمه . وانظر خطط الشام للمرحوم كرد علي ، 224/1 حيث ذكر أنّ جعفر بن فلاح وصل الى حمص .

186/47 وَلَوْلاَ قطينٌ فِي قَصِيٍّ مِنَ النَّـوَىٰ   لَمَا كَان لِي فِي الزَّابِ مِنْ مُتَلَوَّم

وعلى كل ، فانْ ارتبْنا في شأن شهر النظم ، فلا شك في سنة النظم : 362 ، وان في طولها المفرط لشاهداً على أنها دبّجت للقراءة المتأنّية لا للإنشاد أمام الخليفة .

وهكذا يتبيّن القارىء أنّ من بين هذه المدائح الثلاث والعشرين ما يستعصي كذلك على التأريخ المدقّق ، شأنه في الإبهام شأن جل قصائد المسيلة ، هذا بالرغم من أنها تتّصل بالخليفة وسياسته ، ووقائع دولته ، ممّا أطمَعنا في امكانيّة تعيين تاريخها بدقّة .

ويزداد الطين بلّة ويتكاثف الضباب في خصوص بقيّة القصائد التي مدح بها بعض رجالات الدولة ، المذكورين قليلاً عند الأخباريّين كأفلح الناشب قاضي برقة أو واليها ، أو المسكوت عنهم تماماً كالقائد أبي الفرج الشيباني والكاتب أحمد بن زائدة .

مـدحتا أفلـح الناشـب

هذا الممدوح يعرّف عند الاخباريّين بأنّه « والي » برقة ، وفي توطئة القصيدة 55 بأنّه « قاضيها » ، وفي متن القصيدة بأنّه قائد مغوار ساعد على توطيد النفوذ الفاطميّ بالصعيد المصري وبالدلتا ، أثناء حملة جوهر وبعدها ؛ وفي الحقيقة ، تتـضارب نسبة القصيدتين ، فالمدحة 55 منسوبة إليه ، أمّا المدحة 5 ، فمنسوبة إلى الشيباني ، غير أنّهما تصفان نفس الأعمال البطوليّة في مصر ، وتشيران الى نفس الرجل ، فلذلك أرجعنا القصيدة 5 إلى أفلح الناشب كذلك .

وبعد هذا ، لا نخالهما نظمتا في نفس الوقت ، فالنونيّة (ق . 55) تتحدّث عن فتح مصر بعد وقوعه واستتباب الأمن في وادي النيل ، أمّا القصيدة

البائيّة (ق . 5) ، فتتحدّث عن الفتح كأمر وشيك : [بسيط]

3/5 ولَوْ أشَرْتَ إلَىٰ مِصْرٍ بِسَوْطِكَ ، لَمْ تُحْوِجْكَ مِصرُ إلَىٰ رَكْضٍ وَلاَ خَبَبِ
4 ولَـوْ ثَنَيْتَ إلى أرضِ الشَّآمِ يَـداً ألقت اليكَ بأيدي الذلِّ عن كَثَبِ

فلذلك رَجّحنا أن تكون البائيّة نُظِمت سنة الفتح ، أي 358 والنونيّة في آخر حياة الشاعر ، أي عند مروره الأخير ببرقة سنة 973/362 .

مـدائح الشيـبانـي

القصائد 4 ، 20 ، 33 ، 42 ، 60 و 66 .

يظهر ، من المدائح الستّ التي نظمها الشاعر في هذا القائد ، أنّه كان مكلّفاً بإخماد الثورات الخارجيّة بالمغرب الأوسط ، وباستخلاص الجباية من المتلدّدين ، وهو عربيّ ينتمي إلى بكر بن وائل ، وقد فخّم الشاعر نشاطه العسكريّ وعظّمه وأطال في تفصيله . يشهد بذلك وفرة القصائد التي مدحه بها . فلذلك نتعجّب من سكوت جميع المترجمين والمؤرّخين عن هذا الرجل ، كأنّه لم يُوجَدْ قطّ . وبالتالي لا يمكن أن نؤرّخ لهذه المدائح ، وغاية ما نقدّره في شأنها ، أنها نظمت أثناء الفترة الافريقيّة ، لأنّ هذا الممدوح يتصل بالخليفة مباشرة ، على ما يبدو ، لا بواسطة أحد ولاته . ولا مانع أيضاً من تبنّي رأي معاكس : وهي أنّها نظمت في الفترة المغربية ، بين حائيّة جوهر (ق 10) وقصائد المسيلة ، كما سنرى في الفصل الثامن .

القصيدة 65 في أحمد بن زائدة

وهذا ممدوح آخر مجهول تماماً، نفهم من المدحة ومن المقطوعتين اللتين وُسِمَتَا باسمه[1] أنّه من أصل يمنيّ ، مثل بني حمدون ومثل الشاعر

---

(1) حوليّات 1972 . ص. 79 و 90 (مقطوعة 4 و 13) .

نفسه . ولا نعلم شيئاً بعد هذا . وهو مجهول حتى في الديوان المطبوع ، أي في كل النسخ المخطوطة ، عدا نسخة (ت 1) : فمنها استقينا الشعر الموجّه اليه .

القصيدة 48 في أبي عبد اللّه بن المهذّب

للشاعر مع هذا الموظّف مطارحة أدبيّة ، ويظهر أنه كان ساهراً على بيت المال ، وقد ذكر المقريزي موظفاً ببيت مال المعزّ ، اسمه ، لا أبو عبد اللّه ، بل « أبو جعفر حسين ابن المهذّب »[1] .

أغراض أخرى

استعرضنا في هذا الفصل خمساً وستين قصيدة من السبعين التي يتضمّنها الديوان الموسّع ، أي الذي تضاف إليه زيادات (ت 1) . وهي مدائح كلّها ، الا المراثي الثلاث . والمراثي عادةً تنشد أمام عظيم أو أمير . وحتى ان غلب فيها الحديث عن الفقيد ، فهو تعداد لمحامده ، أي مدح له .

أمّا القصائد الخمس الباقية فمنها واحدة ـ القصيدة 29 ـ في هجاء كاتب لجعفر بن حمدون يدعي الوهرانيّ ، ورغم تعلّقها بأمير الزاب ، ينبغي أن نؤرّخها بسنة 971/360 أي قبيل خروج جعفر عن طاعة المعزّ ، لأنّها تشعرنا بدبيب الشقاق بين الأمير والخليفة .

وتتوزّع الأربع البواقي بين أغراض مختلفة : المغامرة الغراميّة (رقم 49) أو الخمريّة (رقم 34) ، والوصف الساخر (رقم 56 ، في أكول) ، والنقد الأدبيّ (رقم 21 في ديوان المتنبّي) . وهي تخلو من كل اشارة زمانيّة ، فلا يمكن تأريخها ، فلذلك نضمّها ، في الجدول النهائي ، الى جملة الشعر الذي لم نتمكّن ، في الظرف الراهن ، أي فيما بلغ اليه علمنا بحياة ابن هانىء وبشعره ، من ضبط تاريخ نظمه .

---

(1) المقريزي : اتّعاظ . . . ص . 138 .

ملحق 1

مخطوطات الديوان مرتبة ترتيباً زمنياً تقريبيّاً

علامة المخطوط المدورس	مصدره ورقمه في الفهارس	تاريخ نسخه	تاريخ الوقف أو التملّك	نوع الترتيب أو أوّل قصائده	ملاحظات
1 ـ ت 1	تونس 13746	(1211/608)	1839/1256	أبجديّ	مقدّمة خاصة به
2 ـ ب .	باريس 3108	1495/858		أبجديّ	مقدّمة مشتركة
3 ـ م . ب	المتحف البريطاني 3767	(القرن 7/13؟)		قصيدة 32 بالقاف في ابراهيم بن جعفر	
4	أكسفورد 21	1592/1002		قـ. 40 لاميّة في المعزّ	ناسخها الجوذري شيعيّ ؟
5	لينغراد 280 (فهرست روزن)	1610/1020	1617/1027	قـ. 13 داليّة في المعزّ	ترجمة من الوفيات
6	برلين 212 (فهرست أهلوارت)	1621/1041		قـ. 40	مقدّمة مثل ب.
7	أكسفورد 527	1655/1067		ق. 40	مقدّمة مثل ب.
8	القاهرة دار الكتب 1870	1660/1072		ق. 12 داليّة في المعزّ	

علامة المخطوط المدروس	مصدره ورقمه في الفهارس	تاريخ نسخه	تاريخ الوقف أو التملّك	نوع الترتيب أو أوّل قصائده	ملاحظـات
9 ـ م .	مدريد 210 (فهرست روبلس)	1668/1080		ق. 40	مقدّمة مثل ب.
10 ـ اس .	الاسكوريال 443			ق. 13	ملكها زيد الحسيني
11 ـ ت 2 .	تونس 15850	1695/1107	1851/1268	ق. 40	
12	لينينغراد 281	1697/1109		ق. 40	
13	المتحف البريطاني 3161		1730/1127	ق. 13	
14	برلين 211 7585	1712/1147		ق. 40	مقدّمة مثل ب.
15	القاهرة دار الكتب 2204	1770/1185		ق. 40	مقدّمة مثل ب.
16 ـ ت . 17	تونس 15890	1834/1250	1291/1878	ق. 40	مقدّمة مثل ب.
17 ـ ت 4	تونس 2231	1847/1264		أبجدي	ينقل ت 1 إلى قافية اللام.
18 ـ عدد 14 من قائمة زاهد علي	حيدر آباد. الدكن		1852/1269	ق. 13	مقدّمة مثل ب.

19 ـ عدد 17 من قائمة زاهد علي	سُرّت بالهند		ملكها الشيخ عبد العليّ (ت. 1857/1274)	ق. 40	
20 ـ ت. 5	تونس 18624	1859/1275		ق. 13	تنقصه بعض القصائد منها ق. 24
21 ـ ت. 6	تونس 436	1862/1279	ملكها محمد بيرم 2	ق. 41 لاميّة في المعزّ.	فيه 5 ق. فقط: 41 -40 -31 -53 -48
22 ـ عدد 18 من قائمة زاهد علي	سرت (بهرة)		بشرح الشيخ حميد الدين عليّ (ت. 1880/1300)		يقتصر على المعزّيات
23 ـ عدد 15 من قائمة زاهد علي	سرت (بهرة)		ملكها محمد علي الحمداني (ت 1896/1315)	ق. 13	
24 ـ عدد 16 من قائمة زاهد علي	سرت (بهرة)		نفس المالك	ق. 47	
25 ـ ت. 7	تونس 3920				فيه ق. 31 فقط.
26 ـ ت. 8	تونس 18768				ق. 31 فقط.
27 ـ ت. 9	تونس 18458				مختارات فقط.
28 ـ ميلا.	ميلانو 118 فهرست ڤريفيني				مختارات من 10 و 26.

ملحق 2

قصائد الديوان مرتبة بالتقريب ترتيباً زمنيّاً

قافية المطلع	العدد الرتبي عند زاهد علي	طبعة صادر 1964	البحر	عدد الأبيات	الممدوح أو ما شاكله	التاريخ التقريبي ومكان النظم	ملاحظات
1 تُوضِحَا	10	75	طويل	67	جوهر الصقلبي	958- 9/347-8	أنشدها بالمغرب
2 شَنْفَا	31	207	طويل	71	جعفر بن حمدون	959/348 المسيلة	أولى مدائح جعفر
3 نُهَّدْ	61	/	منسرح	35	جعفر	959/348 المسيلة	توجد بـ «م . ب» و «ت 1 » فقط
4 رِكَابا	6	49	كامل	61	جعفر	960/349 المسيلة	شباب الشاعر بالبيت 7
5 نافِثُ	7	61	طويل	36	جعفر	960/349 المسيلة	
6 مُسْتَفْرِصِ	25	179	كامل	46	يحيى بن حمدون	960/349 المسيلة	
7 مُقَاوِلُ	64	/	طويل	60	يحيى	961/350 المسيلة	
8 عَجَمِ	51	335	بسيط	17	جعفر	961/350? المسيلة	مرض جعفر
9 غرّاءِ	2	18	كامل	11	يحيى	961/350 ? المسيلة	

10 كَوْثَرُ	62	/	طويل	90	جعفر	?961/350 الزاب (بعيد عن المسيلة)	الشاعر مع يحيىٰ؟ إشارة الى عيد الفطر. القصيدة في ت 1 و«ب .م .» فقط
11 صَفِيحَا	9	69	كامل	59	المعزّ	961/350 من المسيلة	اشارة الى موت عبد الرحمان الناصر
12 مُضَمَّخُ	11	82	طويل	64	المعزّ	961/350 من المسيلة	
13 مَشُوقُ	63	/	طويل	90	جعفر	961/350 (بعيداً عن المسيلة)	10 أبيات في «ب. م» . الباقي من «ت 1 »
14 البيدِ	17	110	كامل	50	يحيىٰ	962/351 المسيلة	قَصْدُ يحيىٰ
15 كتمانُهَا	57	361	كامل	100	ابراهيم بن جعفر	962/351 المسيلة	وصف قصر إبراهيم
16 دونِهِ	54	358	كامل	36	ابراهيم (وجعفر)	962/351 المسيلة	جعفر في حملة حربيّة
17 الشرقِ	36	228	سريع	76	يحيىٰ	?962/351 المسيلة	
18 فيكِ	39	252	كامل	43	يحيىٰ	?962/351 المسيلة	
19 حُلَاحِلُ	45	292	كامل	114	جعفر	?963/352 المسيلة	جعفر بالقيروان؟
20 نديمُ	70	/	كامل	13	ابراهيم	?963/352 المسيلة	من ت 1 فقط ، وبقية بزهر الآداب ج 1 ص. 312
21 يؤرِّقُهْ	32	222	طويل	62	جعفر (وابراهيم)	?963/352 المسيلة	إبراهيم في حملة بالمغرب؟ (أبيات 43 و 53-54)

قافية المطلع	العدد الرتبي عند زاهد علي	طبعة صادر 1964	البحر	عدد الأبيات	الممدوح أو ما شاكله	التاريخ التقريبي ومكان النظم	ملاحظات
22 تبلَّجَا	8	65	طويل	39	يحيى	963/352?	
23 منكِ	38	249	خفيف	29	إبراهيم	963/?352	
24 حَسَدْ	14	120	رمل	97	رثاء الحفيد	؟	
25 النُّذُرُ	19	166	كامل	61	رثاء الأمّ	؟	
26 مُنْتَهَى	59	27	متقارب	86	رثاء الأمّ	؟	تحريض الأخوَيْن على الوفاق.
27 الكُدْرِي	18	153	طويل	90	جعفر ويحيى	963/?352 المسيلة	يشفع في يحيى؟ (بيت 72-73)
28 نظمُ	69	/	طويل	14	جعفر	963/?352 المسيلة	يشفع في يحيى؟ من ت. 1 فقط
29 حاكمُ	52	337	طويل	65	يحيى	964/353 المسيلة	
30 البُهَمْ	50	329	متقارب	75	جعفر	964/353? المسيلة	شكوى الشاعر
31(أو 41م) رَدْعُ	28	188	طويل	35	جعفر	967/356? المسيلة أو القيروان؟	تحذيره من الأمويّين؟

32 العِينُ	53	350	كامل	87	المعزّ	964/353 المنصوريّة	أوّل شعر أنشده ايّاه
33 الأحداقِ	35	218	خفيف	41	المعزّ	964/353 المنصورية	
34 حُجُولُ	40	256	كامل	113	المعزّ	964/353 المنصوريّة	
35 محاريبُ	3	34	طويل	73	المعزّ	964/353 المنصوريّة	
36 يُلْتَقَطُ	26	184	بسيط	35	المعزّ	964/353 المنصوريّة	
37 السِّيَرَاءُ	1	9	كامل	99	المعزّ	964/353 المنصوريّة.	
38 يتهيَّلُ	44	283	كامل	110	المعزّ	965/354 المنصوريّة	وقعة المضيق أو الخليج
39 عباديد	12	89	بسيط	78	المعزّ	965/354 المنصوريّة	الخليج أيضاً
40 ذيولا	41	265	كامل	1122	المعزّ	355?/966 المنصوريّة	عيد الإضحى
41 الأسْدُ	16	105	طويل	60	جعفر	356?/967 من القيروان	ذكر قلعة كيانة
42 هُجُودُ	13	96	طويل	96	المعزّ	967/356 المنصوريّة	سفارة روميّة ؟
43 القهقرى	58	20	متقارب	86	المعزّ	356?/967 المنصوريّة	إشارة إلى العمر (بيت 1)
44 بَاتِكُ	37	241	طويل	78	المعزّ	968/357	
45 مَآتِمُ	67	/	طويل	44	المعزّ	968/357	من ت 1 فقط
46 أرْوَعُ	27	192	طويل	105	جوهر	969/358	انطلاق جوهر نحو مصر
47 الصَّوارِم	46	308	طويل	51	المعزّ	969/358 المنصوريّة	وصف جيش الفتح
48 الأمرُ	22	131	طويل	101	المعزّ	969/358 المنصوريّة	فتح مصر

قافية المطلع	العدد الرتبي عند زاهد علي	طبعة صادر 1964	البحر	عدد الأبيات	الممدوح أو ما شاكله	التاريخ التقريبي ومكان النظم	ملاحظات
49 القُضُبِ	5	54	بسيط	22	أفلح الناشب	969/358 برقة؟	يسلّيه عن عزله من قيادة الجيش؟
50 القتادْ	15	114	رمل	76	أخوا المعزّ	قبل محرّم 969	الأخوان ماتا بافريقيّة
51 أصْدَرا	23	140	طويل	68	المعزّ	970/359 المنصوريّة	هدايا مصر
52 أحْرُفَا	30	202	كامل	56	المعزّ	970/359 المنصوريّة	إشارة إلى حصار أنطاكية
53 الدُّوَلِ	43	275	بسيط	95	المعزّ	970/360 المنصوريّة	أسر ابن خزر
54 القهّارُ	24	146	كامل	69	المعزّ	971/360 المنصوريّة	إشارة الى فرقلس
55 الفرسَانِ	55	369	كامل	91	أفلح الناشب	973/362 برقة	بعد فتح مصر
56 مِخْذَمِ	47	313	طويل	200	المعزّ	973/362 من الزاب؟	آخر شعره

قصـائــد يصعـب تأريخهـــا

القافية	زاهد علي	صادر 1964	البحر	عدد الأبيات	ملاحظات
57 مطلبا	4	41	كامل	82	
58 اُلمسْفِرِ	20	161	كامل	38	
59 يفترقُ	33	235	بسيط	24	الشيباني ؟
60 مَقَاتلي	42	302	طويل	53	
61 الهندُوَانيِّ	60	378	بسيط	91	
62الأسل	66	/	بسيط	35	
63 الإبرامِ	48	348	كامل	11	ابن المهذب
64 عاذِلها	65	/	منسرح	37	أحمد بن زائدة
65 الشريفِ	29	214	خفيف	42	هجاء الوهرانيّ قبل 360؟
66 غَرام	68	/	خفيف	20	محمد ابن قاضي برقة 362/؟
67 كَفَرَا	21	172	بسيط	21	ديوان المتنبّي
68التنانُين	56	376	بسيط	18	في أكول
69 مطروقِ	34	238	رجز	21	خمريّة
70 الزَّلَمْ	49	343	طويل	35	غزل

الفصل الثالث

ممدوحو الشاعر

سنحاول في هذا الفصل أن نلقي بعض الأضواء على حياة ابن هانىء ، من خلال دراستنا لعلاقته بالأشخاص الذين خدمهم بشعره ، سواء كانت خدمته لهم دائمة مستمرّة ، كبني حمدون أو الخليفة المعزّ ، أو عرضيّة متقطّعة كالشيباني أو أفلح الناشب .

وليس غرضنا أن نصنّف ترجمة ضافية مدقّقة لهؤلاء وأولئك ، انّما قصدنا أن نلتقط من كتب التاريخ والتراجم كل الارشادات الكفيلة بتوضيح الظروف التي نظم فيها الشاعر مدائحه فيهم ، وتدقيق المدد التي قضاها في خدمتهم ، عسانا نتوصّل الى تبديد الغيوم التي تكتنف الإشارات التاريخيّة والاجتماعيّة ـ الحضاريّة في جلّ القصائد. وهي إشارات ، لعلّها كانت واضحة مفهومة لدى الممدوحين وجمهور المعاصرين ، ولكنها عندنا مستغلقة تستعصي غالباً عن كل محاولة للفهم والشرح .

هذا وانّا نرتّب هؤلاء الممدوحين لا بحسب عدد القصائد التي خصّصها لهم الشاعر ، ولكن بحسب امكان تعرّفنا عليهم والوقوف على أخبارهم في المراجع الأدبيّة والتاريخيّة .

المعزّ لدين الله

هو الخليفة الفاطميّ الرابع ، ترجمت له المصادر التالية :

1 ـ **سيرة الأستاذ جوذر** : نشرها محمد كامل حسين بالقاهرة ، ونقلها الى الفرنسية ماريوس كانار بالجزائر .

2 ـ **ابن حمّاد** : (1231/628) أخبار ملوك بني عبيد .

3 ـ **ابن الأثير** : (1233/630) الكامل في التاريخ .

4 ـ **ابن الأبّار** : (1259/658) التكملة لكتاب الصلة .

الحلّة السيراء : ترجمة عدد 216

5 ـ **ابن خلّكان** : (1282/681) وفيات الأعيان : ترجمة رقم 398 .

6 ـ **ابن عذاري** : (1312/712) : البيان المغرب .

7 ـ **ابن الخطيب** : (1375/776) : أعمال الأعلام .

8 ـ **ابن خلدون** : (1428/832) : كتاب العبر (تاريخ البربر) .

9 ـ **المقريزي** (1441/845): الخطط ، واتعاظ الحنفاء .

10 ـ **ابن تغري بردي** : (1470/874) : النجوم الزاهرة .

11 ـ **ابن أبي دينار** : (1698/1110) : المؤنس .

12 ـ **فرنال (Fournel)**: البربر (Berbers) .

13 ـ **كاترمير (Quatremère)** : حياة الخليفة المعزّ Vie de calife Moezz .

14 ـ **حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف** : المعزّ لدين اللّه .

15 ـ **حسن ابراهيم حسن** : تاريخ الدولة الفاطميّة .

16 ـ **ماريوس كانار** : حياة الأستاذ جوذر ، وفصول أخرى .

17 ـ **فرحات الدشراوي** : الخلافة الفاطميّة بالمغرب (بالفرنسية) .

18 ـ **القاضي النعمان** (974/363) : كتاب المجالس والمسايرات (ملاحظات عابرة فقط) .

ولد أبو تميم معدّ بن اسماعيل بالمهديّة سنة 930/319 ، وارتقى الخلافة عند وفاة أبيه المنصور سنة 952/341 ، فاتّخذ لقب « المعزّ لدين اللّه » . وتشيد

المصادر الشيعيّة ، مثل سيرة الأستاذ جوذر ومجالس القاضي النعمان ، بحسن أخلاقه من تسامح وحلم وتواضع ، كما تشيد بسعة معارفه في شتى أنواع العلوم ، ولا سيّما العلوم الباطنية المنبثقة عن العقيدة الاسماعيليّة . وقد نسب اليه المستشرق لويس ماسينيون[1] ، في الثبت الذي صنّفه للمؤلّفات القرمطيّة ، رسالة ذات نزعة قرمطيّة سمّاها « الرسالة الى حسن القرمطيّ » وأخرى ذات نزعة عقائديّة جدليّة ازاء النصرانيّة سمّاها « الرسالة المسيحيّة » ، وقد أرّخها ماسينيون بسنة 969/358 . والواقع أنّ هذه الرسالة المسيحيّة انّما هي فصل من « مقالة مسيحية » منسوبة الى المعزّ ، ولكنها لغيره بدون شكّ ، لأنّ هذا الفصل من المقالة قد نسخ سنة 920/308 ، أي ، قبل ميلاد المعزّ بأكثر من عشر سنوات . هذا ما يطلعنا عليه فهرست المخطوطات بالمكتبة الوطنيّة بباريس[2] . أمّا الرسالة الى الثائر القرمطيّ ، فتتضمّن قبل كلّ شيء دعوة الى وضع السلاح والاعتراف بالحكم الفاطميّ الذي أقرّه جوهر بالقاهرة . وقد احتفظ لنا القاضي النعمان من جهة أخرى برسائله الى امبراطور بيزنطة ـ أو طاغية الروم كما يقول ـ التي يدعوه فيها الى اعتناق الإسلام[3] .

هذا السعي الدائم الى نشر الإسلام مع التمسّك المستمرّ بفريضة الجهاد المقدّس قد ميّز حكم هذا الملك العظيم ، وقد قضى معظم مدّته بافريقيّة ، وهو منشغل بتوطيد السلطان الفاطمي بعد أن كادت تودي به ثورة أبي يزيد الخارجيّة . ولئن ظفر المنصور بأبي يزيد سنة 947/336 ، فإنّ تبعات فتنته قد استمرّت حتّى خلافة المعزّ ، اذ كانت القبائل البربريّة ، وخاصة زناته ومغراوة ، تتمرّد بين الفينة والفينة على الحكم الشيعيّ مستندة الى السلطة الأمويّة بالأندلس التي كانت تحوك الدسائس وتشجع الثورات ضد الفاطميين ، انطلاقاً من

(1) البيبليوغرافيا القرمطيّة : رقم 19 .

(2) فهرست دي سلان (De Slane) : رقم 191 .

(3) انظر فصل الدشراوي : جزيرة قريطش . . . وفصل ماريوس كانار : المصادر . . . ص. 289 . وانظر كذلك اتّعاظ الحنفاء للمقريزي ص. 251: نص الرسالة الى القرمطيّ .

قواعدها بالمغرب الأقصى ، مثل طنجة وسبتة اللتين عجز القائد جوهر على افتكاكهما . وكانت سياسة خلفاء قرطبة ترمي الى اقامة قبائل زناته حاجزاً في المغرب بينهم وبين مرامي المعزّ التوسّعيّة . والمعزّ من جهته لم يكن يخفي عداوته للأمويّين ، أو المروانيّين كما تقول الدعاية الرسميّة ، ويرى أنّ سلطانهم غير شرعيّ ، بل هو ثمرة اغتصابين : أوّلا ، اغتصاب معاوية للحكم من عليّ بن أبي طالب الخليفة الشرعيّ ، ثم انتزاع السلالة المروانيّة للحكم من السلالة السفيانيّة[1] .

وقد خصّص فرحات الدشراوي صفحات طويلة من رسالته لتحليل أسس هذا الخلاف بين الفاطميين وأمويّي الأندلس ، وتفصيل نتائجه السياسيّة والعسكريّة : فهو مثلاً يعزو الهدنة التي وقعت سنة 8/346 -957 بين المعزّ وقسطنطين إمبراطور بيزنطة لمدّة خمسة أعوام ، يعزوها الى رغبة المعزّ في توجيه كافّة قوّته وعزمه ضدّ الغاصبين الأندلسيّين والتفرّغ لقتالهم ، ولا يشكّ هذا الباحث كذلك في أنّ المعزّ كان يرسل الدعاة السرّيّين الى الأندلس ليحدثوا القلاقل والفتن تمهيداً لحملة فاطميّة واسعة على الجزيرة .

غير أنّ المنافسة بين الدولتين ، في انتظار هذه المجابهة ، وجدت مجالاً فسيحاً بأرض المغرب ، فاتخذت من قبائل البربر وسائط لها في القتال ، فكان الأمويون كما أسلفنا يستخدمون قبائل زناتة ، وبخاصّة الفرع المعروف منها بقوّة الشكيمة ، وهم بنو خزر من مغراوة . أمّا الفاطميّون ، فيعتمدون ، علاوة على أنصارهم الأوّلين من كتامة ، على قبيلة صنهاجة المعروفة بشدّة عداوتها لزناتة الرّحّل ، ومعلوم أنّ صنهاجة كانت من القبائل المستقرّة ، خصوصاً بعد تأسيس مدينة أشير بالمغرب الأوسط (جنوب عاصمة الجزائر الحاليّة) .

---

(1) الدشراوي : الخلافة الفاطميّة . . . ص. 225 . انظر أيضاً : المعزّ لدين الله ص. 322 وما يليها .

وبمجرّد أن وصل شاعرنا الى برّ العدوة ، وجد نفسه في خضمّ هذا التنافس فانضمّ مباشرة الى حزب الفاطميّين كما يظهر من مدحته لجوهر ، وهي أوّل قصائده المغربيّة :

37/10 أراك بمــرآة الإمـامــة كـأسمهــا   على كور عَنْسٍ والإمامَ المرشَّحا

فعبارة « مرآة الامامة » لا تدع مجالاً للشكّ في أنّه قطع الصلة بالأمويّين فأخذ يردّد الشعارات الفاطميّة ويتبنّى عداوة صاحب افريقيّة ضدّ خلفاء قرطبة ، كما سيظهر من شعره الذي ينظمه في المعزّ .

لكنّ المعزّ لم يقصر عداوته على الأمويّين المروانيّين بالأندلس ، بل كان يوجّه أنظاره أيضاً الى العبّاسيّين لأنهم ، في نظر الأئمّة ، ظالمون غاصبون للحكم مثل بني أميّة ، ولا بدّ يوماً من إرغامهم على ارجاع الحقّ الى أصحابه الشرعيّين : أبناء فاطمة . لذلك لا نراه يصرف نظره عن شؤون المشرق ، كما تدلّ عليه مراسلاته مع الأخشيديّين بمصر اثر احتلال نقفور فقّاس الأمبراطور البيزنطي لجزيرة قريطش : فقد فكّر في تجهيز أسطول مشترك بين المصريّين والافريقيّين لمحاولة استرجاع الجزيرة[1] .

غير أن صدى الأحداث الشرقيّة لا يبرز في القصائد المعزّية الأولى ، بل يركّز ابن هانىء اهتمامه ، أي حملاته الكلاميّة ، على المروانيّين بالأندلس : هم العدوّ الذي يجب أن يقهر ويمحق ، أمّا العباسيّون فيبقى ذكرهم خافتاً الى ما بعد سنة 962/351 ، أي بعد الهزائم النكراء التي يلحقها الروم بسيف الدولة الحمداني على حدود الخلافة العباسيّة العاجزة المقهورة ، فعندئذ لا تتوانى الدعاية الفاطميّة ـ وبالتالي الشاعر ـ في مقابلة انتصارات الأسطول الفاطميّ في صقليّة وجنوب ايطاليا بنكبات العبّاسيّين وأمرائهم في شمال الشـام والحوض الشرقي من البحر الأبيض ، فيقول شاعرنا مشيراً إلى صدّ الأمبراطور

---

(1) الدشراوي : الدولة الفاطميّة . . ص. 244-247 . انظر أيضاً له : جزيرة قريطش . . .

البيزنطي - الدمستق - عن صقلّية ومعرّضاً بخمود العبّاسيّين .

53/40 إنَّ التي رام الدمستقُ حربَها ‏ ‏ ‏ لله فيها صارمٌ مسلول
54 لا أرضُها حلبٌ ، ولا ساحاتها ‏ ‏ ‏ مصرٌ ، ولا عُرضُ الخليج النيلُ

ويزداد هذا التهجّم على بني العبّاس قوّة عندما يستيقن المعزّ بتوطيد أمره على المغرب ، فيولي نظره شطر بغداد ، ولا سيّما بعد وفاة كافور الأخشيدي أمير مصر سنة 968/357 . فلذلك ، اعتماداً على ما ورد في المدائح المعزّية من تهجّم على العبّاسيّين ومجادلة لهم في شرعيّة الامامة ، يمكننا أن ندفع النظريتين المختلفتين - وإن كانتا كلاهما خاطئتين - اللتين فسَّر بهما بعض الدارسين انتقال الخلافة الفاطميّة من إفريقيّة الى مصر : تقول النظرية الأولى انّ هذا التحوّل انّما كان نوعاً منَ الهروب من عداوة القيروانيّين المتمسّكين بسنّيّتهم، الناقمين على البدع الشيعيّة، الى أصقاع كان التشيّع فيها معروفاً مقبولاً[1] . ويقول الرأي الثاني إنّ المعزّ لم يقرّر تحويل الخلافة الى القاهرة الّا لمجابهة فرق القرامطة التي عاثت فساداً بأرض الشام وتمرّدت على الجيوش الفاطميّة هناك فقتلت قائده الكتّامي جعفر بن فلاح[2] . فهذان رأيان خاطئان في نظرنا : ذلك أن المعزّ لم ينقطع تفكيره في اكتساح الشرق والإطاحة بالدولة العبّاسيّة . ولا غرابةَ في ذلك ، ما دام الأئمة الفاطميّون يعتقدون أنّهم هم وارثو الأرض وسادة الكون ، وأن كلّ سلطة لا تنبثق من وحيهم انّما هي سلطة مسروقة مغتصبة يجب الاطاحة بها . ولئن لم يشرع في حملته الشرقيّة الّا سنة 969/358 ، فلأنّه كان مضطرّاً قبل ذلك الى توثيق قواعده الخلفيّة وتحصينها من دسائس الأمويّين وفتن القبائل الزناتيّة وتحرّكات الأسطول الرومي ، فاستخدم لهذا الغرض كبار قوّاده من عبيد صقالبة مثل جوهر، أو بربر صنهاجيّين مثل زيري بن مناد ، أو عرب مثل بني حمدون بالمسيلة أو الكلبيّين

(1) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس . ص. 16-17 . ولنلاحظ عرضاً أن الحملات على المشرق بدأت من عهد عبيد الله ، أي منذ السنوات الأولى من انتصاب الدولة بالقيروان .
(2) الدشراوي : الخلافة . . . ص. 266 .

بصقلّية . وهذا الحذر من أعداء الخَلْف هو الذي حرّك الأسطول الفاطمي ضدّ البيزنطيّين ، فأنزل بهم هزيمة رمطة بالجنوب الشرقي من صقلّية ، ثمّ كارثة الخليج أو مضيق مسينا سنة 965/354 ، وكان الدمستق فاتحه منذ سنة 957/346 في إبرام صلح دائم[1] ، وربّما كانت مهادنة الروم في صالح الفاطميّين اذ تمكّنهم من التفرّغ لمآربهم الشرقيّة ولكنّ تمسّك المعزّ بفريضة الجهاد ، كما أسلفنا ، حمله على رفض العروض البيزنطيّة[2] وعلى مواصلة قتالهم برّاً وبحراً. وأنّا لنجد في مدائح ابن هانىء صدى لهذه المشاغل عند الخليفة : التصدّي للنفوذ الأندلسيّ بشمال أفريقيا ، ودفع الخطر الرومي عن قلوريّة في جنوب ايطاليا أو «الأرض الكبيرة» كما يقول المؤرّخون ، وعن جزيرة صقلية ، وأخيراً استنكار الركود العبّاسيّ ازاء انتصارات الأباطرة المقدونيّين في شمال الشام والجزيرة .

وكان القائد الصقلبي جوهر هو المكلّف عادة بالحملات المغربيّة ضدّ عملاء الأمويّين والثوّار البرابرة . وفيما بين سنة 969/358 و 971/360 ، بينما كان جوهر منشغلاً بفتح مصر وتأسيس القاهرة وبسط النفوذ الفاطمي على وادي النيل ورُبوع الشام ، قامت ثورة جديدة في مغراوة ، يقودها أبو خزر ، فاضطرّ المعزّ الى ملاحقة الثائر بنفسه فقاد حملة ضدّ زناتة حتى جبال الأوراس ، ولا يظهر من كلام ابن هانىء أنّ الشاعر رافق الخليفة في هذه الحملة ، وسكوته هذا يدعونا الى التساؤ ل عن حقيقة العلاقة التي كانت تربطه بالمعزّ : فلئن صرّح أنّه كان الشاعر الرسميّ للدولة الفاطميّة ، المعلي لكلمتها ، المشيد بأحقّيّتها لخلافة المسلمين كما يظهر من الشعارات الشيعيّة التي تطفح بها مدائحه ، فهو فيما يبدو ، لم يكن ملازماً للخليفة ، ولا معايشاً له في بلاطه ولا حتى في عاصمته المنصوريّة : ذلك أن شعره لا يتعرّض قطّ للأحداث والحالات التي قد تقع في القصر أو عند أفراد الأسرة الحاكمة ، من مرض

---

(1) نفس المصدر ص 243 .

(2) انظر القاضي النعمان : ك. المجالس والمسايَرات ، 367 و 444 .

يطرأ على أحد الأمراء ، أو زفافٍ يحمل أميرة الى بعلها ، أو وفاة عظيم . ولا يخلو الأمر من غرابة إذا اعتبرنا أن اثنين من إخوة المعزّ وأختاً ماتوا في الفترة التي قضاها الشاعر بإفريقية . الأخوان هما طاهر والحسين اللذان مدحهما بالقصيدة الخامسة عشرة ، والأخت يسمّيها المقريزي[1] سمّورة . فصرنا نتساءل هل كان للمعز بلاط ، بالمعنى الذي نفهمُهُ من عبارة « بلاط المأمون » أو « بلاط سيف الدولة » أي حلقة يتوسطها الخليفة بين كبراء دولته وشعرائه ومغنّيه وعلمائه، ويقع أثناءها الانشاد والسماع والمطارحات الأدبيّة، ويستطيع الشعراء بفضلها أن يطّلعوا على ما ينتاب حياة القصر من حوادث سارّة أو أليمة ، تافهة أو جسيمة .

بل لعلّ سكوت الشاعر عن حياة الخليفة الخاصّة يحملنا على تصديق الصورة التي يقدّمها لنا عن المعزّ مترجموه : وهي صورة العاهل الوقور الرّصين الذي لا يضيع الوقت في توافه المجالس وثرثرة الحلقات[2] ، فلا يترك التواضع ـ بل التزهّد ـ الذي فطر عليه الا عندما تضطرّه الاحتفالات الرسميّة الى إظهار أبّهة الملك ، في الأعياد مثلاً ، أو عند قبول رسل الملوك أو استقبال قوّاده المظفّرين . وحتى هذه المواكب الرسميّة لم تحظ بوصف مدقّق عند ابن هانىء ، بل يشير اليها اشارات قليلة سريعة . فكأنّ الخليفة يعتبر أنّ هذا الجانب الرسميّ من حياته أعظم قدراً من أن يدعو اليه الشعراء فيجعله على مرتبة المساجلات والمطارحات .

وعلى ذكر الشعراء ، هل يصحّ أن نستعمل هذا الجمع ؟ أو ، بعبارة أخرى ، هل كان عند المعزّ شعراء آخرون غير صاحبنا ؟ صحيح أن المصادر تذكر جماعة ، منهم الفزاري والإيادي وابن القتّار ، ولكنّها لا تترجم لهم ، ولا تنقل من شعرهم الا النزر القليل . وحتى المصادر الإسماعيلية ككتاب « عيون الأخبار » للداعي إدريس ، لئن ذكرت شاعراً مثل جعفر بن منصور

---

(1) اتّعاظ الحنفاء 133 .

(2) المجالس والمسايرات 94 ، 442 ، 457 و 514 .

اليمن[1] ، فهي لا تتعرّض لعلاقته بالإمام . وصحيح أيضاً أن شاعرنا يتذمّر أحياناً من بعض المنافسات ، ولكن لم يصلنا شيء من شعر هؤلاء في المعزّ ، إن كانوا مدحوه حقاً ، كما لم نجد في كامل ديوان ابن هانىء تصريحاً باسم واحد من هؤلاء الحسدة المنافسين .

فإن خلت المدائح المعزّيّة من كل إشارة الى حياة المعزّ وإلى حياة الشاعر بجوار المعز ، لم نستغرب الصعوبات التي تعترض سبيل كلّ من يحاول تصنيف ترجمة صحيحة لابن هانىء. فالغموض الذي يكتنف ميلاده وظروف وفاته هو الغموض الذي يكتنف علاقاته مع ممدوحيه .

أميرا الزاب : جعفر ويحيىٰ ابنا حمدون

نجد ذكراً لهذين الأخوين في المصادر التالية ، علاوة على مصادر ترجمة المعزّ الفاطمي :

1 ـ **ابن حيّان** : (1076/469) : المقتبس ص . 32 - 34 .

2 ـ **ابن الأبّار** : الحلّة السيراء : ترجمة رقم 111 .

3 ـ **ابن خلّكان** : وفيات : ترجمة رقم 133 .

4 ـ **ابن سعيد** 1286/685 : المغرب : ترجمة رقم 409 .

5 ـ **ابن خلدون** : ج . 4ص . 32 من طبعة بولاق .
ج . 16 - 21 ، ص . 176 من طبعة بيروت .

6 ـ **ليڤي بروفنسال** : اسبانيا الإسلاميّة ج . 2 ص . 187 .

7 ـ **ماريوس كانار** : أسرة بني حمدون . . . ص . 33 - 49 .

8 ـ **فرحات الدشراوي** : الخلافة الفاطميّة بالمغرب ص 238 - 240 .

كان جعفر بن حمدون والي المعزّ على المسيلة ومنطقة الزاب بالمغرب

---

(1) حوليّات 1979/17 ص 69 .

الأوسط . وكان يمنّي الأصل ، كما تدلّ عليه نسبة « الجذامي » في اسمه : فهو جعفر بن علي بن حمدون بن سماك الجذاميّ الأندلسي . وقد أكثر ابن هانىء من الاشادة بهذا النسب القحطانيّ الذي يشترك فيه مع أمراء المسيلة ، فنراه يجعل مثلاً من جعفر أصلاً جامعاً لكلّ الخصال اليمنيّة : [متقارب]

46/50 فلو نُسِبَت يمنٌ كلّها اليك ، لقلنا لها : لا جَرَمْ

وربّما عزا العطف الذي لقيه عنده الى هذا الاشتراك في النسب : [طويل]

37/63 وكم لك عندي من يدٍ يمنيّة لها حسَبٌ في المكرمات عتيقُ

جدّ الأسرة يدعى عبد الحميد ، ولكن النطق الاسباني صغّره فصار « حمدون » كما وقع في « خلدون » و« عبدون » وغيرهما . وكان له ابنان : محمد وعلي . ويظهر أنّه قدم من الشام فاستقرّ بمنطقة البيرة ، فلعلّه سليل إحدى الأسر الشاميّة التي هاجرت الى الأندلس بعد فتحها فعمّرت مدن الجنوب الإسباني وقراه . ولا نستبعد كذلك أن يكون حمدون هذا داعياً من دعاة الفاطميّين ، استقرّ باحدى « الكورات المجنّدة » التي توزّعها أجناد حمص وقنسرين ودمشق ، فاختار كورة البيرة لما كان يتوقعه فيها من قبول العناصر اليمنيّة للشعارات الشيعيّة ، وكانت الدعايات المارقة تجد أرضاً خصبة في هذه المناطق ، بدليل الفتن العديدة التي أثارتها فيها الأحياء اليمنيّة .

ويَدْعَمُ رأينا في انتساب حمدون الى الدعوة الفاطميّة ، ما تذكره المصادر من أنّه استقر مدّة بمدينة بجاية بالمغرب الأوسط ، أي على مقربة من مواطن كتامة . ومعلوم أن كتامة هم الأنصار الأوّلون للداعي أبي عبد الله الشيعيّ . بل يذهب الدشراوي في رسالته[1] ، مستنداً الى كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان[2] الى أن حمدونا هو الذي أوصل أبا عبد اللّه الى كتامة ، بعد

---

(1) الدشراوي : الخلافة . . . ص. 60 .

(2) افتتاح الدعوة ، ص 68-70 .

أن تلقّى أمراً بذلك من مركز الدعوة الفاطميّة بسلميّة بالشام ، ممّا يؤكّد في نظره أنه كان على اتصال وثيق بزعماء الدعوة في المشرق .

ويرى ماريوس كانار[1] أن هذه المهمّة كانت من نصيب محمد بن حمدون ، أحد أنصار الداعي الحلواني الأوّلين : فهو الذي ربط الصلة بين أبي عبد الله والكتاميّين ، في حين أن علي بن حمدون ، الابن الثاني ، دخل في خدمة المهدي بمجرد وصوله الى سجلماسة وبقي معه حتى انتقاله مظفّراً الى رقّادة .

ومهما يكن من أمر ، فلا شكّ في أنّ الأسرة الحمدونيّة قديمة التشيّع : فقد خدم حمدون ـ أو ابناه ـ الخليفة الأوّل عبيد اللّه المهدي . ثم نجد عليّ بن حمدون في خدمة الخليفة الثاني محمد القائم منذ أن كان وليّاً للعهد مكلّفاً ببسط النفوذ الفاطميّ بالمغرب الأوسط . فأسّس معه سنة 926/315 مدينة حصينة سمّاها باسمه : « المحمّديّة » . ولكنها عرفت فيما بعد باسم « المسيلة »[2] . وكان الغرض من انشاء هذه القاعدة أن تُمكّن الحكّام الفاطميّين من مراقبة سهول « شط الحضنة » وجبال « المعاضيد » في آن واحد ، ثمّ أن تكون محتشداً للعتاد الحربيّ والمؤ ن اللازمة في حالة حصار أو حرب طويلة المدى، وقد استفاد الحكم الفاطمي منها فعلاً : فبفضل ما ادّخره علي بن حمدون بالمسيلة من سلاح وعتاد ، تُمكّن الخليفة الثالث المنصور من محاصرة أبي يزيد صاحب الحمار بجبل « كيانة » حيث كان اعتصم في آخر أيّامه ، ثم من القضاء عليه نهائيّاً .

وقتل عليّ بن حمدون سنة 945/334 أثناء معركة دارت بين الجيوش الفاطميّة وأنصار أبي يزيد بقيادة أبي أيّوب ابن صاحب الحمار . فخلفه على

---

(1) م. كانار : حياة . . . ص. 109 تنبيه عدد 203 . ولنلاحظ أن القاضي النعمان يتحدّث عن أبي عبد اللّه (محمد) الأندلسي ، لا عن حمدون نفسه ، ممّا يدعم نظريّة ماريوس كانار .

(2) انظر فصل بول ماسيرا عن المسيلة .

امارة المسيلة والزاب ابنه جعفر بن علي بن حمدون يساعده على شؤون الولاية أخوه يحيى بن علي . وكان جعفر ويحيى ابنا عليّ قد نشآ ببلاط القائم ثمّ المنصور تحت رعاية الحاجب جوذر الأبويّة[1] . فالعلاقة بين الحمدونيّين والأسرة الفاطميّة كانت اذن جدّ وثيقة . بل يقول ابن خلدون[2] إنّ أمّ معدّ ، أي المعزّ ، كانت قد أرضعت جعفراً ، فكان أخـاً للخليفة الرابع بالرّضاع . ولا يعني هذا أنّهما كانا ندّين تربين أي أنهّما أرضعتهُما معاً في نفس الفترة : فالمعزّ ولد سنة 931/319 كما أسلفنا ، أمّا جعفر ، فلا يمكن أن تكون سنّه ، لمّا خلف أباه على امارة الزاب سنة 945/334 ، دون الخامسة والعشرين على أقلّ تقدير ، فيكون مولده حينئذ حوالي سنة 921/310 ، أي قبل مـيلاد المعزّ بعشر سنوات .

ولمّا ولي المعزّ الخلافة أقرّ جعفراً على ولاية الزاب . وتقول المصادر إنّه أظهر له من العطف الدائم والرفق المتواصل ما لم يكن جعفر به دائماً جديراً : مثلاً كان يسمح له باستبقاء القسط الأوفر من أموال الجباية ، فلا يدفع الى خزينة الدولة إلّا المقادير القليلة[3] ممّا يحرّك غيرة الولاة الآخرين وتذمّرهم من هذا الامتياز . فكانوا يترشّحون لتعويض جعفر ويلتزمون بدفع مبلغ سبعين ألفَ دينار سنويّاً إلى بيت المال . فتضافرت هذه الاحتجاجات مع التّهم الموجّهة الى جعفر في إغضائه عن فتنة زناتة ومحرّكيها الأمويّين ، حتى إنّ الحاجب جوذر اقترح على الخليفة أن يعزله . لكنّ المعزّ أبى أن يسحب ثقته من أخيه بالمراضعة ، بل دعا جوذرا الى المزيد من التسامح معه ، وهو الذي ربّاه مع الأمراء في قصور الخلافة[4] .

---

(1) الدشراوي : الدولة . . . ص. 238 .

(2) ابن خلدون : تاريخ ج . 4 ص 82 (بولاق) . وقد حرّفت الجملة في طبعة بيروت الرديئة فصارت لا تفهم . وانظر ترجمة دي سلان ج 2 ص 553 .

(3) الدشراوي : الدولة . . . ص 239 .

(4) م. كانار : حياة . . . ص. 197، 198 ، 200 . تنبيه رقم 435 و 438 .

ولعلّ تقلّبات جعفر بن حمدون في ولائه للمعزّ كانت ناتجة أساساً عن العداوة التي كان يضمرها للأسرة الصنهاجيّة ورئيسَيها زيري بن مناد ثمّ بلقين ابن زيري ، وهذه المنافسة بين بني حمدون وبني زيري صورة وصدى للخصومة القديمة بين زناته الرحّل وصنهاجة المستقرّين. وقد حاول المعزّ مراراً عديدة أن يصلح بينهما ، ولكنّ جهوده لم تفلح ، فالعداوة متأصّلة بين القائدين ، ثمّ انّ الانتصارات المتكرّرة التي أحرزها زيري وابنه في حملاتهما على القبائل المتمرّدة كانت تحزّ في نفس جعفر لأنّها تقوّي مركز الصنهاجيّين بالخلافة وتطمس نجم بني حمدون . وبلغت العداوة أوجها يوم أن قهر زيري القائدَ الزناتي محمد بن الخير ، فأرغمه على الانتحار وحمل رأسه إلى المعزّ[1] . فقطع جعفر ولاءه للمعزّ ورفض أن يمثل أمامه بالمنصوريّة[2] وانضمّ الى زناتة وتحالف معهم وساعدهم على الانتقام من زيري بن مناد ، فقتلوه بدوره وقطعوا رأسه ، وركب جعفر البحر مع أهله وأمتعته حاملاً رأس الأمير الصنهاجي الى قرطبة حيث حظي من الخليفة الأمويّ الحكم الثاني بالترحاب والقبول .

ولم يتعرّض ابن هانىء قطّ الى خذلان جعفر للمعزّ ولا إلى المنافسة بينه وبين الصنهاجيّين . وبهذا الصدد ، نلاحظ أنّ الشاعر لا يذكر القوّاد البربريّين بخير ولا بشرّ ، إلاّ إذا كانوا ، مثل بني خزر ، أعداء معروفين مشهورين للحكم الفاطميّ . في حين أنّه لا يقتصد في الاشادة بحملات بني حمدون على الحدود الغربيّة من المغرب الأوسط ، ولعلّه رافق يحيى بن حمدون في بعض هذه الغزوات كما يظهر من مدائحه فيه . وبصفة عامّة يبدو أنه كان يتمتّع عند أمراء المسيلة بحظوة كبيرة صبغت علاقته بهم بنوع من المعاشـرة والتعاطف والمودّة التي لا نجد لها مثيلاً في علاقته مع الخليفة . وسيعترف الشاعر بصنيع الأخوين ، ويراعي لهما الحَبْوَ والتبجيل ، فلا يُظهر لهما العداوة

---

(1) الدشراوي : الخلافة . . . ص. 237 .

(2) ليڤي يروفنسال : إسبانيا ج. 2 ص. 188 .

ولا حتى الاستنكار بعد قطعِهما ولاء المعزّ ، مع أنّ إيمانه بالعقيدة الشيعيّة ، ومنصبه الرسميّ في بلاط الخليفة كانا يحتّمان عليه التظاهر على الأقلّ بذمّ الأخوين واستكبار خيانتهما. بل غاية ما نجده عنده من صدى هذه الأحداث ، هو هجاء غامض لكاتب عند جعفر يدعى الوهرانيّ كان متّهماً بالتجسّس لفائدة الأمويّين والسعي لكسب أمير المسيلة للحزب المروانيّ .

وقد يعزى هذا الوفاء للأخوين ، رغم شقّهما عصا الطاعة في وجه المعزّ ، إلى اشتراكه معهما في النسب اليمنيّ ثمّ الأندلسيّ. هذا الالتقاء في « الأندلسيّة » لم يغب عن الفتح بن خاقان في المطمح إذ يقول : « . . . وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار ، . . . إلى أن وصل إلى الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسيّة ، مأوى تلك الجنسيّة »[1] . فالذي نفهمه من هذه الاشارة : « مأوى تلك الجنسيّة » أنّ بلاط الأخوين كان بمثابة الملجأ للأندلسيّين النازحين عن وطنهم ، وأنّ ابن هانىء ، عند هجرته من اشبيلية ، لم يجد المؤازرة والرعاية إلّا عند « مواطنيه » الحمدونيّين ، والمواطنة هنا مزدوجة : فهم مثله يمنيّو الأصل ، وهم مثله أصيلو كورة البيرة .

جوهر الصقلّي

في خصوص هذا القائد ، انظر ، إلى جانب المصادر السالفة الذكر :

1 ـ ابن خلّكان : وفيات ، ترجمة رقم 141 (145 طبعة بيروت) .
الداعي إدريس (1468/872) : عيون الأخبار ، جزء 6 ، ورقة 56 .

2 ـ علي ابراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلّي .

3 ـ فرحات الدشراوي : الخلافة الفاطميّة . . . ص 222 : حملة المغرب . ص 250 : فتح مصر . ص 367 : الصقالبة .

---

(1) مطمح الأنفس ص. 84 . وانظر نفح الطيب طبعة عبد الحميد ج. 5 ص. 173 .

لعلّ هذا القائد الكبير كان من أصل صقلبيّ ، والصقالبة كما هو معلوم ، هم قاطنو أوروبّا الوسطى من بلغار وبولنديّين وروس ، وكانوا منذ القدم عرضة للأسر والاسترقاق من قوّاد الاغريق والرومان ، حتّى انّ اللفظة اللاتينية Slavus التي تعيّن الشخص الصقلبيّ قد ولّدت لفظ Sclavus التي تعني العبد ، ومنها انتقلت الى الفرنسيّة في صورة Esclave في المعنى المطلق للعبوديّة[1] .

ويسمّيه ابن حمّاد في تاريخه «جوهر الروميّ» . والمعنيّون بالروم عند المؤلّفين العرب هم البيزنطيّون ، سكّان امبراطوريّة القسطنطينيّة أو روما الشرقيّة ، ويقال لها أيضاً الامبراطوريّة المقدونيّة أو الاغريقيّة ، فلذلك ترجم فوندرهايدن عبارة ابن حمّاد بـ« جوهر الاغريقيّ »[2] . فنسبة الرومي قد تعني إذن أصلًا بيزنطيّاً ، أو أيضاً صقليّاً ، إذ أن قسماً من جزيرة صقليّة بقي الى القرن الرابع/العاشر خاضعاً لنفوذ الأباطرة البيزنطيّين ، فلذلك لا نستغرب نسبة « الصقلّي » التي علقت باسم جوهر .

ويدعى أيضاً « جوهر الصقلبيّ » ، دلالة على أنّه كان من العبيد الذين أسروا صغاراً فنشأوا في بلاط الخلفاء كغيرهم من الفتيان الذين قادوا الجيوش العبّاسيّة أو الفاطميّة . ويَدعَمُ هذه النسبة الى الرقيق لفظ « عبد » الذي تلصقه به بعض المصادر ، والذي نقشه هو بنفسه الى جانب اسمه واسم مولاه المعزّ على منبر الجامع الأزهر حين فرغ من تشييده بالعاصمة المصريّة الجديدة : القاهرة .

وفي مصادر أخرى ، يعرّف بـ« جوهر مولى المعزّ » ، وقد تدلّ عبارة « مولى » على أنّه تخلّص من الرقّ بفضل خدمته الطويلة للدولة الفاطميّة فارتقى الى مرتبة الرجل الحرّ . وتشهد سيرة الاستاذ جوذر بأنّ المعزّ كان يمتّع بحقوق المسلمين الأحرار مَن نبغ من فتيانه وأحسن الخدمة ، وربّما تنافى هذا

---

(1) انظر : A. Dauzat : Dictionnaire étymologique : esclave .

(2) أخبار بني عبيد . . . ص 40 .

التسامح مع بعض تراتيب الفقة الإسلامي فأثار شيئاً من الاحتراز عند قاضيه النعمان بن محمّد[1] .

أمّا لقبا « جوهر الكاتب » و « جوهر الوزير » ، فقد يشعران بأنّه تقلّد خطة ادارية عند االمعزّ . فقد وردت عبارة « الكاتب » مقترنة بعبارة « عبد » في العهد الذي قرأه جوهر على المصريّين باسم الخليفة : « هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين المعز لدين اللّه ، صلوات اللّه عليه ، لجماعة أهل مصر . . . »[2] . أمّا منصب الوزارة بمعناه الديوانيّ فلم يُحدث عند الفاطميّين الاّ بعد انتقالهم الى مصر . ولعلّ عبارة الوزير لا تفيد الاّ معناها الأصلي ، معنى المؤازرة والمساعدة ، كمساعدة هارون « وزير » موسى عليه السلام لشقيقه ، أو المعنى المتولّد عن علوّ المنزلة ، وقد رأينا مخطوط تونس 1 يلقّب أحد الغلمان الذين تغزّل بهم شاعرنا بلقب « الوزير » .

ولكنّ الخصال العسكريّة هي التي أعلت مكانة جوهر عند المعزّ . فبمجرّد ارتقائه إلى الخلافة ، كلّفه بالحملة المغربيّة الكبرى ، فتغلّب على « خليفة » سجلماسة ابن واسول سنة 958/347 ، ثم فتح مدينة فاس بعد حصار طويل ، وأسر أميرها وأمير تاهرت ، وبذلك أرجع المغرب الأقصى كلّه ـ ما عدا سبتة وطنجة ـ إلى الولاء الفاطميّ . وفي هذه الفترة بالذات اتّصل به ابن هانىء فامتدحه معلناً ولاءه للفاطميّين . وتقول الأخبار ان مكافأة القائد العظيم للشاعر كانت ضئيلة جداً . فلعلّه كان ، مثل معظم العسكريّين ، لا يتذوّق الشعر والأدب .

ثم كلّفه باعداد الحملة على مصر ، فتهيّأ لها جوهر طيلة ثلاث سنوات ، من سنة 966/355 إلى مستهلّ سنة 969/358 ، وذلك بتجنيد الأنصار من قبائل كتامة وصنهاجة ، وجمع أموال الجباية في قرى المغربَين الأوسط والأقصى

---

(1) م. كانار : حياة . . . ص 57 (تنبيه 42) وص 185 (تنبيه 411) .
الدشراوي : الخلافة . . . ص 370 .
(2) المقريزي : اتعاظ . . . ص 148 .

والأرياف[1]، وحين فرغ من هذا الاعداد المادّي جمّع جيشه بناحية من أحواز المنصوريّة ورتّبه وجهّزه ـ وكان ، حسب قول الشاعر ، يعدّ ثمانين ألف مقاتل ـ حتى تهيّأ له الانطلاق نحو الاسكندريّة يوم 14 ربيع الأوّل سنة 5/358 فيفري 969 .

ولما تمّ له النصر ، أظهر من الخبرة الإدارية والمهارة السياسيّة ما لا يقلّ عن خصاله الحربيّة ، فأمضى عقداً باسم الخليفة مع السفراء المصريّين التزم بموجبه بأن لا يدخل تحويراً على الشعائر الدينيّة ، وكأنه شعر بأن هذه هي نقطة الخلاف بين الشيعة وجمهور السنّة . كما أعلن عن إعفاء السكّان من الضرائب التعسّفيّة التي كان فرضها الاخشيديّون ، وأخذ يتألّف القلوب ويكسب الأنصار بإغداق الأموال الكثيرة والتلطف في المعاملة ، حتى رجعت الطمأنينة إلى المصريّين واستتبّ الأمن ورجع الرّخاء ، فصار الشاعر يقارن بين جوهر في سياسته الحكيمة والنيل في إحيائه لأرض مصر : [طويل]

85/27 فـان يك في مصـرٍ ظَمَاءٌ لِمَـوْرِدٍ فقد جاءهم نِيلٌ سوى النيلِ يَهْرَعُ

بل يدّعي أن مصراً لم تعد في حاجة إلى فيض النيل ما دام هذا السائس الماهر يُنْعِشُها ويحييها : [طويل]

68/22 . . . وما ضرّ مصرا حين ألقت قيادها اليك ، أمدَّ النيلُ أم غالَه جَزْرُ ؟

ويظهر أنّ جوهراً كان يكبُر المعزّ بنحو خمسة عشر عاماً ، إذ نفهم من عبارة المقريزي التي نقلها عن ابن زولاق أنه ولد في مستهلّ القرن الرابع[2] .

هذا وان المدائح التي وسمت في الديوان باسم هذا القائد لا تتجاوز

---

(1) هـ. ر. ادريس : بنو زيري ، ج. 1 ص. 29 .
الدشراوي : الخلافة . . . ص. 255 .
كانار : حياة . . . تنبيه 402 و 467 .
(2) **اتعاظ** . . . ص. 154 .

القصيدتين ، ولكنّ الشاعر أشاد بجوهر في غيرهما ، فكان كلما نظم قصيدة في المعزّ وتعرّض فيها الى انتصارات الجيش الفاطمّي بالمغرب أو المشرق ، مدح جوهراً وأعظم خصاله ورفع من شأنه ، وعبّر عن إعجاب به صادق وتقدير له عظيم .

وإنّا ، اذ نلاحظ هذا الصدق في عاطفة الشاعر نحو جوهر، نستغرب كلّ الاستغراب النغمة المعاكسة التي نجدها في القصيدتين اللتين مدح بهما ابن هانىء واليَ برقة أفلح الناشب .

أفلــح النــاشـــب

هذا الممدوح يعرف في مقدّمات القصائد بـ « قاضي برقة » ، ولكن المصادر المعاصرة للمعزّ كسيرة الاستاذ جوذر، وكذلك المتأخّرة كالمؤنس لابن أبي دينار تدعوه « والي برقة » . وينسبه الشيخ الطاهر أحمد الزاوي الى أصل بربري كتاميّ ، ولكنّه اشتبه عليه الأمر بين أفلح هذا ، وشخص كتاميّ كان المهدي عبيد اللّه قد عيّنه على قضاء رقّادة[1] .

ولا تذكر مصادرنا من أخباره وصفاته إلّا الأنفة والكبرياء ، فقد استنكف من الانحناء أمام جوهر لدى مروره ببرقة في طريقه الى مصر . وكان الخليفة ، إكراماً لقائده العظيم ، قد أمر الولاة والقوّاد وحتى أمراء الأسرة الحاكمة بتقبيل ركاب القائد اجلالاً له وتبجيلاً . فحاول أفلح أن يستعفي من هذه السّجدة وعرض على جوهر تعويضاً قدره خمسون ألف دينار ، ولكنّ القائد أبى فاضطرّ الوالي مكرهاً إلى الانحناء والتقبيل[2] .

---

(1) ط. أ. الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة 1954 ص. 172 . وانظر : حياة جوذر . . . ص . 141 تنبيه 305 والسمِيُّ هو أفلح بن هارون الملوسيّ (انظر : عيون الأخبار للداعي إدريس ، جزء 193/5) .

(2) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج. 345/3 حيث يبلغ التعويض المقترح مائة ألف دينار . وانظر كذلك ابن أبي الضياف : اتحاف ج 1 ص 127 . والتنبيه 305 من حياة جوذر .

والديوان لا يَسِمُ باسم أفلح الا القصيدة الخامسة والخمسين ، ولكنّنا بيّنا فيما مضى من الصفحات أنّ هناك قصيدة أخرى ـ الخامسة ـ وُسمت باسم الشيباني ولكنها في نظرنا قيلت في أفلح : ذلك أنّ القصيدتين تشتركان في الاشادة بانتصارات أفلح في الصعيد المصري بين أسوان والواحات : [كامل]

48/55 وسمَتْ الى الواحات خيلُك ضُمّراً حتى انتهت قُـدُماً إلى أسـوانِ

هذا ما يقوله الشاعر متوجّهاً صراحة إلى أفلح . وقد طرق هذا المعنى نفسه في القصيدة الخامسة المنسوبة خطأً إلى الشيباني : [بسيط]

10/5 ألست صاحبَ أعمالِ الصعيد بها قِدْماً ، وقائدَ أهلِ الخَيْمِ والطُنبِ ؟

هذا وانّ قصائده في الشيباني لا تشير الى هذه الحروب في مصر . ثمّ إنّ المصادر الشيعيّة تذكر تحرّكات الأسطول والجيش الفاطميّ انطلاقاً من برقة[1] . فلا مجال إذن للشكّ في أنّ القصيدتين قد نظمتا في أفلح الناشب. وربّما كانت صلة الشاعر به قديمة متينة لم تقتصر على ملاقاته أثناء توقّفه ببرقة في ركب المعزّ .

يلحّ ابن هانىء على العمليّات الحربيّة التي قادها أفلح بالصعيد وبالبحيرة ـ ويعني بالبحيرة ما يسمّي اليوم بالـ«دلتا»[2] ـ وكانت تقطن هذه المنطقة الساحليّة منذ العهد الأموي قبيلة بني قرّة ، فيجد فرصة للتلاعب بلفظ القرّ ومقابلته بالنار الجهنميّة التي أنزلها بهم ممدوحه : [كامل]

44/55 مـا قـرّ أعين آل قـرّة مـذ سُقـوا بـك ما سُقـوه من الحميم الآني

ويؤكّد أن أفلح أجلاهم عن مواطنهم بالدلتا والبوادي :

46/55 أخلى البحيـرة منهمُ والبيـدَ مـا خسف الصعيـدَ بشـدّة الـرجفـان

---

(1) سيرة الأستاذ جوذر ص 180 ، تنبيه 101 من النصّ العربي . وانظر : عيون الأخبار ، 100/6 - 101 .

(2) أو : بحيرة الإسكندريّة (ياقوت) أو : خلجان النيل (ابن حوقل) .

ولكنّه قبل هذا ، أبدى رأياً غريباً ، مفاده أن فضل الفتح يرجع إلى أفلح :

39/55 إنّـا وجـدنـا فتـح مصـرٍ آخـراً ___ لـك ذكـرُه في سـالف الأزمـان

ونحن إذ نستغرب هذا القول ، نتساءل عن هذا التعريض الواضح ، ولا نخاله الا تعريضاً بجوهر صاحب الفتح وبطله : فكيف قلب الشاعر ظهر المجنّ فصار ينتقص قائداً كان بالأمس يشيد بانتصاراته؟ وهل كان مدح أفلح يحوجه حقّاً إلى مثل هذا التراجع ؟ على أن عبارة « سالف الأزمان » قد تعني أن أفلح شارك في تحرّك القائم وليّ العهد نحو مصر ، ومهّد بذلك لفتح جوهر على أنّ ا سمه لم يرد عند المؤرخين في حملتَيْ 301 و306 .

لكنّ الشاعر يعدل بين الرجلين في المدحة الأولى ، أي القصيدة الخامسة ، فيرفع شأن أفلح دون أن يحطّ من قدر جوهر ، فيعتبره صنواً للقائد المظفّر ، شريكاً له في مبرّة الفتح ، بل ساعداً أيمن له وعضداً مؤازراً في القيادة وتدبير الحرب : [بسيط]

33/5 ان لا تَقُدْ عُظْمَ ذا الجيش اللُّهامِ فقد ___ شـاركتَ قائـدَه في الدرِّ والحَلب
34 فـالنـاس غيـرَك أتبـاع لـه خـوَل ___ وأنت ثانيه في العليـا من الرتب
35 أيَّــدتَـه عضــداً فيمـا يحــاولـه ___ وكنتمـا واحداً في الـرأي والأدب

وحتى إزاء هذا الاعتدال ، نتساءل : ما الداعي الى تسلية والي برقة بهذه العبارات المشجّعة ؟ أكان يشتكي سوء حظّه ويرى أنه مهضوم الجانب ؟ فان صحّ هذا الاعتبار ، اتّضح لدينا سبب آمتعاضه من جوهر واستنكافه من تقبيل ركابه رغم أمر الخليفة ، وقد قلنا إنّ الأنفة وحدها والكبرياء لا تفسّران محاولته للتخلّص من هذه السجدة المشينة .

وتزداد حيرتنا عندما نراه يعود في القصيدة الثانية إلى تعداد فضائل أفلح ، ولكن مع ترك الاعتدال والمحايدة ، بل يتحزّب لأفلح وينكر فضل غيره ـ وهذا الغير لا يكون الا جوهراً ، وان كان لا يسمّيه ـ ويعلن أن والي برقة

هو الذي مهّد للفتح بفضل قربه من مصر واستعداده الدائم لمجابهة كل التحرّكات فيها ، وخوضه معارك أخضعت جيشها وأهلها لارادته : [كامل]

40/55 فبعزمك آنهدّت قُوى أركانها | وبقربك آمتدّت الى الإذعان
41 وطَأتَ بالغارات مركب عزِّها | والجيشَ حتى ذلّ للركبان
42 فإليك يُنسب حيث كنتَ ، وإنما | فخر الصليِّ لقادح النيران

فان كان أفلح هو الذي يقدح النار ويضرمها ، وجوهر هو الذي ينتفع بدفئها ، فكأنّ الشاعر يتّهم القائد باغتصاب حقّ أفلح ، بل ينتقد قرار المعزّ بإسناد الحملة اليه ، مع أن والي برقة كان أولى بها ، لأنّه أقرب إلى ميدانها .

فكيف نفسّر تصاعد اللهجة بين المدحتين ؟ وكيف أصبح الشاعر في الثانية يتبنّى ادّعاءات ممدوحه بعد أن كان في الأولى يكتفي بالتسوية بينه وبين جوهر ؟ لعلّه نظم القصيدة رقم 55 أثناء مُقام ثان ببرقة ، بعد توديعه للمعزّ على أبواب مصر ؟ فيكون قد استمع من جديد إلى تذمّرات مضيِّفه في شأن أحقّيته بقيادة الحملة ، فرأى أن يخفّف من خيبته فأظهر الدخول في حزبه ، خصوصاً وأنه أصبح في مأمن من غضب المعزّ أو من انتقام جوهر ، وكلاهما منصرف عن شؤون افريقيّة والمغرب الى فاتحة عهد جديد بالقاهرة ؟ وهذا الافتراض لا يرضينا لأنه ينسب إلى الشاعر تقلّباً في المودّة وخيانة للعشرة لم نعهدهما فيه ، بدليل ما رأيناه من وفائه لجعفر بن حمدون رغم خذلانه للمعزّ . ولكنّنا نضطرّ إلى مثل هذا التأويل حتى نتجاوز مرحلة الملاحظة والوصف إلى التفسير والتعليل . ولتفسيرٌ أعرجُ أحبُّ إلينا من سكوتِ المحترز المحتار .

خلال هذه الاقامة الثانية ، يكتشف الشاعر خصالاً في الأمير لم ينبّهنا اليها في المدحة السّابقة : الورع والتقوى مثلاً ، ثمّ صدق تشيّعه ، وسعة علمه بأحكام الدين، مُتمثّلةً في إقامة مجالس المناظرة وتنظيم حلقات الجدل ، ممّا قد يفسّر عندنا ما ينسب إليه في بعض المصادر من تقلّد قضاء برقة : [كامل]

13/55 قـومٌ إذا مـاج البـريّـةُ والتقى خصمـان في المعبـود يختصمـان
تركوا سيـوفَ الهند في أغمـادها وتـقـلّدُوا سيـفـاً مـن الـقـرآن

وتطلعنا القصيدة الخامسة على أعمال عسكريّة لأفلح في جبال الأوراس والمغرب الأقصى ، ولكن المصادر التاريخيّة وكتب التراجم لم تذكر هذه الأعمال فيما نقلته من أخبار أفلح القليلة : [بسيط]

11/5 تشوّق المشرق الأقصى اليك، وكم تركْتَ في الغرب من مأثورةٍ عجب
12 وكم تُخلِّفُ في أوراس من سَيرٍ سارت بذكرك في الأسماع والكتب

فالبيتان غريبان ، خصوصاً إذا قارنّاهما بالقصيدة اللاحقة التي سكتت تماماً عن هذه البطولات المغربيّة ، ولكنّهما في الظاهر غير محوّلين عن قصيدة أخرى ولا مشوّهين ، بل يبدوان في محلّهما المعقول من القصيدة ، وإذا تذكّرنا ما نفيناه أوّلاً من نسبة المدحة الى ممدوج آخر غير أفلح ، تبيّنا أن هذه الاشارة نموذج آخر من غوامض شعر ابن هانيء .

وفي ختام حديثنا عن أفلح، يمكن أن نـربط به ممدوحاً آخر ذكرته مخطوطة تونس 1 وسمّته « محمد ابن قاضي برقة » بدون أن تذكر له وظيفة ولا صفة ، والقطعة التي وسمت باسمه تتضمّن عشرين بيتاً لا غناء فيها ، ولا وضوح ولا تدقيق ، ممّا يحملنا على الشكّ في صحّة نسبتها إلى ابن هانىء ، أو على الاعتقاد بأنّها مشوّهة مقطوعة عن أصلها[1] .

أبو الفرج محمد بن عمر الشيباني

من المظنون أن هذا الممدوح هو أحد القوّاد الفاطميّين المكلّفين بحفظ الأمن أو باستخلاص الجباية على الحدود الغربيّة من المغرب الأوسط. ولعلّ

(1) المقطوعة 68 من إضـافات تونس 1 . انظر الحوليّات 1969 ص 105 .

المنطقة التي كانت تحت رعايته هي منطقة تاهرت : ذلك أنّ أحياءً من شيبان ـ وهي بطن من قبيلة بكر بن وائل ـ كانت قد استوطنت مقاطعة تاهرت منذ الفتح الإسلاميّ . ثم انّ الشاعر يشيد بمقاومة هذا الممدوح للاباضيّة ، ومعلوم أن تاهرت كانت عاصمة للدولة الرستميّة الخارجيّة حتّىٰ انتصاب الفاطميين بالمغرب .

خصّص ابن هانىء ست مدائح لهذا الشخص دون أن يذكره مرّة واحدة باسمه . ولكنه في كلّ قصيدة يشيد بأصله البكريّ ، فيذكّر بأمجاد بكر القديمة ، مثل قتلهم لكليب ابّان حرب البسوس حفظاً لحرمة الجوار : [كامل]

69/4 لـولا الوفـاء بعهـدهم لم يفتكـوا   بكليبِ تغلبَ بين أيــدي تغلبـا

حتى وإن كان الجار المظلوم ناقة مسنّة : [بسيط]

35/66 الضــاربين كليبـا فــوق مفـرقــه   بالمشرفيّ، علىٰ نـابٍ من الإبـل

ويبتهج الشاعر أحياناً بحسن الوفاق واتحاد الشمل بين ربيعة ـ وهي الفصيلة التي ينتسب إليها البكريّون والشيبانيّون ـ والحيّ اليمنيّ ـ أي الأزد ـ الذي ينتسب إليه هو : [بسيط]

1/33 أبلغ ربيعة عن ذي الحيّ من يمن   أنّــا نؤلّف شمــلاً ليس يفتــرق

ولا ندري أيّ شمل يعنيه . فالعصبيّة بين ربيعة والقبائل اليمنيّة لم تقلّ خطورة في القديم عن العصبيّة بين ربيعة ومضر .

ونجده في قصائد أخرى يشيد بتشيّع الممدوح ووفائه للأئِمّة [بسيط]

39/60 للّه من علـوّي الــرأي منتسـبٍ   الى العلى، وائليّ الأصـل مُـرّيّ

وهنا تقف معرفتنا بهذا الممدوح ، الذي سكتت عنه جميع مصادرنا ، بالرغم من الأعمال البطوليّة التي قام بها ـ حسب ما يذكره الشاعر ـ في المغرب

الأقصى بالخصوص لإعلاء كلمة الفاطميّين ، وبسط نفوذهم على الأصقاع النائية وتوفير مداخيل الجباية حتى صارت قناطير من الذهب مقنطرة بعد أن كانت « أواقيّ » قليلة :

41/60 مَن أصلحَ المغرب الأقصى بلا أدب غيرِ التشيّع والدين الحنيفيّ
70 . . . كوفئتَ عن ذلك الثغر المخوف فقد تركته بالعَوَالي جدّ مكفيّ
75 . . . وفَّرت أموالَه إذ ضعن فاجتبِيَت منها القناطيرُ من بعد الأواقي

ومن الغريب أن هذه العمليّات لم يذكرها له الشاعر إلا في قصيدة واحدة من المدائح السّتّ ، وهي القصيدة الستون ، وفيها وحدها أيضاً يشيد بمناهضة الممدوح للخوارج ـ الشراة كما يقول ـ وتحزّبه للفاطميّين ، متّخذاً من ذي الفقار[1] ، سيف الرسول (صلعم) ، ثمّ عليّ ، ثمّ الأئمّة ، رمزاً للتشيّع لآل البيت :

66/60 للّه ما تنتضي من ذي الفقار وما تشدّ من عضُد الرأي الإماميّ
67 ألم يجهلوا ما تُلاقي في التشيع من تحريض شاريةٍ أو بأس شاري
68 وما تُذلّلُ من أهل العناد لهم وما تداري من الدين الأباضيّ

والواقع أنّه يعني نفس الشخص بدون شكّ ، لأن المدائح السّتّ تتّفق كلّها في الاشادة بنسبهِ البكريّ .

وأغرب من هذا الاختصاص في القصيدة الستين ، ما نجده في مستهلّها ـ وأيضاً في استهلال القصيدة الرابعة ـ من نسيب مخلوط بالمعاني الحربيّة ، ممّا يجعل القارىء يقف محتاراً ويتساءل : أينسب الشاعربحبيبته بأسلوب الحماسة على عادة شعراء الصنعة اللفظيّة الذين درجوا على تشبيه اللحظ بالسهام وبريق الثغر بلمعان السيوف ، أم يصف الممدوح بأوصاف

(1) انظر فصل « ذو الفقار » في دائرة المعارف الإسلاميّة . وقد وصف القاضي النعمان هذا السيف عند المعزّ في كتاب المجالس والمسايرات 114-115 .

مشتركة بين الرجولة والأنوثة ؟ وإلا ، فكيف نفهم تشبيهه له بالغزال الذي لم يعهد لبس السلاح ؟ [كامل]

28/4 أَوَ لَمْ يكن ذا الخشفُ يألف وجرة   فـاليوم يـألف ذا القنا المتـأشّبا ؟

ودعوته الى وضع السلاح فإنّه لا يليق بالغزلان : [بسيط]

2/60 ضع السلاح ! فهل حُدِّثتَ عن رشإٍ   في مشـرفيّ صقيـل أو رُدينيّ ؟

هذا الامتزاج المتواصل بين معاني الحرب ومعاني الغزل لا يسمح قطّ بإدراك مقاصد الشاعر ، ويحملنا على افتراض وقوع التشويش أو الانتحال في مقدّمة المدحتين ، خصوصاً وأن المدائح الأخرى استهلّت بنسيبٍ تقليديّ لا لبسَ فيه .

ولا مانع أيضاً من أن نعزو هذا المزج الى شيء من الشذوذ الجنسيّ إما عند الممدوح ، وإما عند الشاعر . فإن كان الممدوح هو المبتَلَى بـهذا الانحراف ، فلعلّ الشاعر يصف في هذين الاستهلالين ، الغلامَ الذي يهواه الشيباني ، ويتخذ لذلك طرقاً ملتوية لا يتبيّنها إلاّ العارف بحقيقة الأمر . وإن كان الشذوذ من جانب المادح ، فقد يتأكّد لدينا آنذاك ما سبق أن افترضناه في شأن ميوله الدفينة ، اثر حديثنا عن المقطوعات الإضافيّة التي اكتشفناها في مخطوطة تونس 1 ، كما يتدعّم الرأي القائل بأنّ مقتله وقع بسبب مشربة متبوعة بعربدة على صبيّ .

أمّا الصفات التي يمدح بها الشيباني ، فهي الى جانب التشيّع الصادق والحزم في الدفاع عن سياسة الأئمّة : الكرم وقوّة الشاعريّة ، والفصاحة الأصيلة . فالكرم يتمثّل في إهداءِ سيفٍ الى الشاعر : [كامل]

58/4 إن يكـرُمِ السيف الـذي قلّدتَني   من عِـزِّهـا فلقـد تخيّـر منكبـا

فيؤكد الشاعر أنه أهل لمثل هذه الهديّة : [كامل]

33/20 لـي منـهمُ سـيـفٌ إذا جــرَّدتُــه   يوماً ، ضـربتُ به رقـابَ الأعصر

أمّا قدرته على نظم الشعر ، فمتأتّية عن فَصَاحة بدويّة أصيلة تلقّن أصـولها في الصحـاري تحت الخيام ، فسلم من رطـانـة المـرضعـات الأعجميّات : [بسيط]

20/60 ثقفتُ منـه أديبـاً شــاعـراً لسِنـاً   شتّى الأعاريض محذورَ الأحاجي

28 . . . قريب عهد بأعراب الجزيرة لم   ينـطق بداراً ولـم يُنسب إلى عيّ

36 . . . واستأثرت عرَبيّات الخيام به   ولــم يوكّـل الى أيـدي السـراريّ

ولا ندري هل كان لهذا الممدوح حاضرة يقيم بها ، أو كان الشاعر يلاقيه بعاصمة الخلافة ، إذ يبدو من خلال بعض الأبيات أن ابن هانىء كان يرسل اليه المدحة مكتوبة ، ولا ينشــدها بين يديه حسب المألوف :[كامل]

60/4 لو كنتَ حيث ترى لسانيَ ناطقـاً   لـرأيتَ شقشقـة وقَــرمـا مُصعبـا

هذا كلّ ما نعرفه عن أبي الفرج الشيباني : قائد فاطمي من أصل بكريّ ، حارب الخوارج بالمغرب الأوسط ، وأهدى سيفاً الى الشاعر . فهذه عناصر ضئيلة الغناء لا تكفي لاخراج هذه الشخصيّة من غموضها .

أبو عبد اللّه حسين بن المهذّب الكاتب

مدح الشاعر هذا الشخص بقطعة وجيزة ، وقد ذكر جامع الديوان ظروف نظمها فقال ان الشاعر زار هذا الكاتب في ديوانه فألفاه منشغلاً بتوقيع دفاتره ، فانسحب معتذراً . فأرسل إليه أبو عبد اللّه رقعة منظومة يأسف فيها لخروجه ، فردّ عليها ابن هانىء بهذه الأبيات على نفس الوزن والرويّ ، فهي إذن تندرج في نوع المطارحات الشعريّة والمساجلات الأدبيّة .

يبدأ الشاعر بتعظيم فصاحة الممدوح وقدرته على الارتجال ، ويكبر فيه

سداد الرأي والمهارة المهنيّة : [كامل]

1/48 يا ذا البديهة في المقال ، أما كَفَتْ بَدَهاتُ هـذا النقض والإبـرامِ ؟
2 حكم يجلّي غيبَ كـل مـلمّـة كالشمس تكشف جنح كل ظلام
3 ولـذا تـراك عيـوننـا وقـلوبنـا مثـل الشهـاب على سـواء الهـام

ثمّ يشيد بتفوّقه في نظم الشعر ، ويدعوه متفكّهاً الى الرفق بالشعراء المحترفين الذين قد لا يبلغون شأوه :

6/48 . . . فاترك لأهل الشعر معنىً واحداً مـمّـا تثيـر هـواجسُ الأوهـام
9 . . . تمشي البلاغة خلفكم وأمامكم ويـطيب ما تـطؤون بـالأقـدام
11 . . . من أين أنكر فضلكم ولوَ انني كـأبـي عبـادة أو أبـي تمّـام ؟

ولعلّ التشبّه بالبحتري وأبي تمّام يدلّنا على اختيارات ابن هانىء الشعريّة ، إذا ما قارنّاه بتعلّقه بالبداوة كما رأيناه في مدائحه للشيباني . على أنّنا سنعود الى موضوع التأثيرات الأدبيّة في تكوينه عندما ندرس القصيدة الحادية والعشرين التي تعرّض فيها الى ديوان المتنبيّ .

أمّا شخصيّة الممدوح ، فهي غير مجهولة تماماً مثل شخصيّة الشيبانيّ : فالديوان وابن الأبّار وسيـرة الأستاذ جـوذر والمقريـزي[1] تتفق على أنّه صاحب خزينة الخليفة أو صاحب مخازنه . ولئن اتّفقت هذه المصادر على وظيفته ، فهي لم تتّفق على تحديد اسمه وكنيته ، فيدعوه المقريزي تارة « أبو جعفر حسين » وتارة « محمد بن حسين » . ويكنيه ابن الأبار أبا جعفر ، والديوان أبا عبد اللّه حسين . ورغم هذا التضارب ، نظنّ أنه شخص واحد ، دون أن نستطيع البتّ في حقيقة اسمه . فالكنى والأسماء العربيّة تخضع عادة

---

(1) ما . كانار : حياة . . . ص . 174 .
ابن الابار : الحلّة . . . ج 1 ص. 296 .
المقريزي: اتعاظ . . . ص. 138 ، 188 و 196 .

لنوع من الارتباط المستمدّ من الأمثلة الدينيّة أو التاريخيّة ، كمثال الرسول (صلعم) الذي يكنّى أبا القاسم ، فصار المحمّدون يكنّوْن بأبي القاسم ، مثل شاعرنا أبي القاسم محمد بن هانىء . وأحياناً يكنّى « محمد » بـ « أبي عبد اللّه » اقتداء بوالد الرسول ، وكذلك فعل العلويّون بأسماء أئمّتهم : علي والحسن والحسين ، فقابلوا « علي » بـ « أبي الحسن » (أو أبي الحسين) وقرنوا « الحسن » « بأبي علي » . وربّما اتُّخِذت أسماء الأنبياء الأوّلين والصحابة الراشدين لمثل هذه المزاوجة ، ولا سيّما عند الأسر الحاكمة : فالموحّدون اختاروا « يوسف ويعقوب » ، والحفصيون « يحيى وزكريا » و« عمر وحفص » ، وغيرهم اختار « ابراهيم واسحاق » .

لكنّ هذه سنّة قد تُتَّبَع وقد تُترك ، فلا حتميّة فيها ، ولا ضرورة إذن أن يكنّى هذا الممدوح « أبا عليّ » لأن اسمه الحسين ، ولا أن يسمّى محمّداً لأن كنيته أبو عبد اللّه .

أحمد بن زائدة الكاتب

كاتب آخر مدحه ابن هانىء ، ولكنه لم يذكر في الديوان المطبوع ، وإنما نجد اسمه في مخطوط تونس [1] مقترناً بمدحة نظمها فيه الشاعر، وببضعة أبيات ضمن مراسلة شعريّة وقعت بينهما(1) ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أنّه مثلَ كل القحطانيّين كريم اليد فصيح اللسان : [منسرح]

19/65	... الضاربُ الأسدَ في بآدلها	والطاعن الخيل في فوائلها
20	والرائدُ الرادة العصاةَ إذا	زالت عرى الهام عن معاقلها
31	... ينفجر الموت من صوارمها	والعسجد النضر من أناملها
35	... كلتا يمينَيْك يا ابن ذي يمن	تكرّماً عمّ من فواضلها

---

(1) انظر الحوليّات ، 1969 ، ص. 97 و 1972 ، ص 90 .

36 أقربُ رحمى الى البريّة من أنسابها في ذُرى قبائلها

الوهراني كاتب جعفر بن حمدون

لم يكن هذا الشخص من ممدوحي ابن هانىء ، بل هو مهجوّه الوحيد ، وإنّما ذكرناه مع الممدوحين لأنّ أهاجي الشاعر لا تعدو هذه القطعة الوحيدة ، فلم نر وجهاً لتخصيص باب منفرد للهجاء . والسبب الثاني هو أنّ غرضنا كما قلنا في مستهلّ هذا الفصل ، أن نجمع الارشادات والمعلومات الكفيلة بإيضاح مراحل حياة الشاعر ، وذلك من خلال علاقته واتّصالاته بالأشخاص المذكورين في الديوان وفي كتب التاريخ والتراجم . فوضع الوهرانيّ مع جوهر أو المعزّ ناتج إذن عن شيء من التجاوز الاضطراريّ .

وللسبب نفسه لا نهتمّ هنا بالقصائد التي لا صلة لها قطّ بأشخاص معيّنين ، كالقطعة الغزليّة والقطعة الخمريّة (عدد 34و49) والقطعة التهكميّة في وصف الأكول (عدد56) ونرجىء الحديث عنها الى دراستنا لأغراض ابن هانىء وفنّه الشعري .

في هذه القصيدة ، يتّهم ابن هانىء هذا الكاتب بالسعي لإبعاد جعفر عن الولاء الفاطميّ وكسبه للمروانيّين بقرطبة ، ويمزج بين سعيه الخبيث في بلاط بني حمدون والفتن التي يثيرها الأمويّون في المغرب بواسطة أحلافهم من زناتة : [خفيف]

30/29 إنَّ في مغرب الخلافة داء ليس يبريه غيرُ أمّ الحتوف
31 إنَّ فيه لشعبةً من بني مر وانَ تنبي عن كل أمر مخوف
32 إنَّ في صدر أحمدٍ لبني أحـ ـمدَ قلباً يَهْمِي بسمّ مدوف
33 متخلٍّ من اثنتين بريىء : من إمامٍ عدل ودين حنيف

أحمد هو الوهراني المهجوّ ، وكنيته هي أبو جعفر ، وفي أحد الأبيات ،

يغفل الشاعر الفاء من جعفر، فيكنّيه استهزاء «أبا الجعر» أي أبا التغوّط، مكلّفاً نفسه عناء وجهدا وتلاعباً بالأسماء والكنى ، في سبيل هذه التورية الكنيفيّة . ويزداد الطين بلّة إذا انتبهنا الى أن مولاه والي الزاب يكنّى أبا أحمد ويسمّى جعفراً. أمّا بنو أحمد، فهم الفاطميّون آل بيت الرسول أحمد، أي محمّد (صلعم) . ونتساءل بعد هذا عن مدى تناسب هذه الترّهات اللفظية مع خطورة المآخذ التي يؤاخذ بها المهجوّ ؟

ويبدو أنّ القصيدة متأخّرة عن زمن إقامة الشاعر بالمسيلة ، ذلك أن الخطاب فيها موجّه أيضاً الى المعز ، إذ يدعوه الشاعر الى التثبّت والتحرّي :

34/29 ليس مستكثراً لمثلك أن يفـ ـرق بين الشريف والمشروف
35 يا معزّ الهدى ، كفانيَ أني لك طَودٌ على أعاديك موف

فهل يدعوه الى الرفق بجعفر ، والحذر من السعايات ضدّه ؟ أم يدعوه الى تفضيل أمير المسيلة على بلقين بن زيري في صورة الاستخلاف على أفريقية والمغرب بعد الانتقال الى مصر ؟ لا يمكن لنا أن نُوضّح قصد الشاعر ، وغاية ما نفترضه ، هو أن القصيدة قد تكون نظمت في الفترة الافريقيّة بالقيروان ، وقبل تراجع بني حمدون عن الولاء الفاطميّ .

وللوهراني عيوب أخرى يحصيها له الشاعر في هذه الأبيات : منها دمامة الخلقة والعيّ والفهاهة ، مع خبث النوايا وقبح الطويّة :

14/29 إنّ لفظاً تلوكه لشبيبةٌ بك في منظر الجفاء الجليف
15 كاذبُ الزعم مستحيل المعاني فاسد النظم فاسد التأليف
16 أنت لا تغتدي لتدبير ملك إنما تغتدي لرغم الأنوف

❊

وهكذا نرى أن بحثنا في علاقة الشاعر بهؤلاء الأشخاص أفضى بنا الى نتائج متفاوتة : فالمعلومات الأكثر دقّة ـ إذا أمكن أن نستعمل عبارة الدقّة في خصوص شعر ابن هانىء ـ تتعلّق بممدوحَيْه الرئيسيّين : المعزّ وجعفر بن

حمدون ، ولا غرابة في ذلك ، فالخليفة ووالي الزاب شخصان تاريخيّان لا تخلو المصادر من أخبارهما . وكذلك أفضى بنا التأويل الكثير لمدحتي أفلح الناشب الى اكتشاف خصومة دفينة بين هذا الأمير وقائد مظفّر لا نخاله إلّا جوهراً فاتح مصر . أما مدائح الشيباني ، فلم توصلنا ، على كثرتها ، الى معلومات صحيحة ملموسة في شأن هذا القائد المجهول ، فخاب بذلك أملنا في أن نفيد المؤرّخين بترجمة صالحة لحياته ولخدماته في سبيل الدولة الشيعيّة بالمغرب .

الفصل الرابع

ترجمة ابن هانىء

ولد أبو القاسم محمد بن هانىء بالأندلس ولذلك علقت به نسبة الأندلسيّ ، لكنّ الفترة الأندلسيّة من حياته تكاد تكون مجهولة تماما . فالمعلومات النزرة التي تفيدنا بها المصادر تتضارب غالباً ، ولنضرب مثلاً على اختلافها مسقط رأسه :

فابن الأبّار في التكملة[1] ينسبه الى إلبيرة ، دون أن يقول إنه ولد بها . ويقول ابن خلّكان[2] إنّه ولد باشبيلية : أما لسان الدين بن الخطيب ، فلئن جعل مولده بقرية من أحواز اشبيلية تدعى « سكون » فإنّه يدعوه « الإلبيري » ، لا الإشبيلي كأنّه يعني أنّه عاش حياته الأولى بإلبيرة وبها تكوّن : ولعل صاحب الاحاطة[3] أراد أن يقرّبه الى غرناطة مدينته المحبّبة . وكذلك ابن سعيد المغربيّ[4] يسمّيه الالبيري ويردف هذه النسبة بـ « الغرناطي » ، موضّحاً أن البيرة قرية محاذية لغرناطة ، ولكنّ غرناطة غلبتها حتى صارت هي عاصمة الكورة التي تسمّى « كورة إلبيرة » .

---

(1) ترجمة رقم 350 .

(2) الوفيات ، ترجمة رقم 640 .

(3) ج 2 ، ص. 212 .

(4) رايات المبرّزين ، ترجمة رقم 77 .

واسم إلبيرة تولّد عن اسم روماني عتيق « البيبارّيس » ، ولكنّ القرية اندرست ابتداء من القرن الثاني / الثامن فعوّضتها غراناطا / غرناطة[1].

أما مترجموه المعاصرون ، فيجعلون ولادته باشبيلية في الأغلب . ولا مانع عندنا من أن نعتبر مع لسان الدين أنّه ولد بأشبيلية ثم انتقل مع أسرته الى إلبيرة فنشأ بها .

أسرته : هانىء أبوه

لا نعرف شيئاً عن أسرة الشاعر ، سوى بعض المعلومات الغامضة عن أبيه هانىء . فيقول ابن الأبّار مثلاً إنّه ولد بالمهديّة ثم هاجر الى الأندلس . فهل كانت هجرته لرزق يصيبه ، أم لخدمة الدعوة الفاطميّة كما يقول بعض الدارسين المعاصرين[2] ؟

يمكن أوّلاً أن نحترز في شأن مولده بالمهديّة بالذات : فهذه المدينة قد أسّسها المهدي عبيد اللّه بين سنة 912/300 و915/303 ، ولكنها لم تعمر بالسكّان إلّا عندما صارت العاصمة الرسميّة للدولة عوضاً عن رقّادة ، وذلك في سنة 921/308 . فإن كان هانىء ولد بالمهديّة ، فلا يكون تاريخ ميلاده إلّا سنة 300 على الأبعد أو 308 على الأقرب . وبما أنّ ابنه محمّداً قد ولد سنة 932/320 كما سنبيّن - ولا عبرة هنا بمن أخّر ميلاده إلى سنة 937/326 - فإنّ سنّ الوالد تكون عند ميلاد الطفل بين اثني عشر وعشرين عاماً ، وهذا مستبعد كثيراً . فلذلك نقول : لعلّ هانئاً هذا ولد بإفريقيّة ، في أحواز ما سيصبح عاصمة العبيديّين ، ولكنه ولد على كل حال قبل سنة 912/300 .

أمّا نسبته الى الدعوة الشيعيّة وتعليل هجرته الى الأندلس باعتزامه العمل على كسب الأنصار للأئمّة ، فليس في المصادر القديمة ما يَدْعَمُهُمَا ، وليس

---

(1) انظر فصل البيرة بدائرة المعارف الإسلاميّة الطبعة الجديدة .

(2) الدشراوي : فصل « ابن هانىء » في دائرة المعارف الإسلاميّة ، الطبعة الجديدة .

فيها كذلك ماينفيهما قطعا . ولا مانع من أن نعدّه واحداً من الدعاة الكثيرين الذين تكوّنوا بدار الدعوة في القيروان ، ثم عبروا البحر الى أرض الأمويّين ليزرعوا بذور المذهب الشيعيّ بها ويمهّدوا مذهبياً للحملة العسكريّة التي لم ينقطع الأئمّة الفاطميّون عن التفكير فيها . ولعلّ في غموض ملامح هانىء هذا ، ما يشجّع على اعتباره داعية سرّيّاً أو جاسوساً : أليس من صفات الدعاة الضروريّة أن يتحرّكوا ويعملوا ويستخبروا ثم يُخبِروا في كنف التستّر والكتمان ؟ وسنعود الى هذا الموضوع أثناء حديثنا عن ولاء ابن هانىء للشيعة .

وتقول المصادر إنّ الوالد ، بمجرّد وصوله الى الأندلس استقرّ بإشبيلية ، ولعلّه اختار هذه المدينة الكبيرة لما عرفت به من استعداد لتقبّل الدعوات المناهضة للحكم الأمويّ ولسنيّته المتشدّدة . ونزول هانىء بأشبيلية أوّلاً ربما حمل المترجمين على أن يجعلوا ميلاد الابن بها ، افتراضاً منهم أن إقامة الأسرة بها كانت نهائيّة أو دامت على الأقلّ زمناً كافياً لإنجاب الأولاد . والواقع أنّ هانئاً ، حسب ما نفهم من قول ابن الأبّار على اقتضابِهِ ، قد اضطرب بين مدن كثيرة قبل أن يحطّ الرحال بإلبيرة : « ... ثمّ استوطن أبوه البيرة ، وخرج هو منها ... » ولعلّ هذا الكلام يمنع أن تكون إلبيرة هي مسقط رأس الشاعر ، إذ لا يمكن أن يكون تركها عند حلول أبيه بها لأوّل مرّة .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ أخبار هانىء تنقطع بإلبيرة ، فلا يعود له بعدها ذكر .

الأصل المهلّبيّ

وتنسب المصادر هانئاً الى أصل مهلّبي ، فتقول إنه سليل أسرة القائد الأموي الكبير المهلّب بن أبي صفرة (702/83) الذي اشتهر بقتاله للخوارج في الشام والعراق . ولا نستبعد مثل هذه النسبة لأنّ ولاية أفريقية كان حكمها

للعبّاسيين واليان من أحفاد المهلّب : يزيد بن حاتم بن قبيصة بـن المهلّب [من سنة 772/155 إلى سنة 787/171] وأخوه روح بن حاتم [787/171 إلى 791/174]. ثم أنّ المهلّبيّين ينتسبون الى أصل يمنيّ، إذ هم من الأزد. وكذلك الشاعر ، يُدعى ابن هانىء الإلبيري الأزدي ، وكثيراً ما يفتخر بنسبه الأزدي اليمنيّ ، فيقول مثلًا مفتخراً بشعره : [طويل]

60/31 يَمَـانِيَّـةٌ فـي نَجْـرِهـا أزدِيَّـةٌ أُفَصِّلُهَـا نَـظْمـاً وأُحْكِمُهـا رَصْفَـا

وإن كان يسكت عن نسبه المهلّبي ، وهذا مفهوم ، لأنّ هذه الأسرة خدمت الدولتين المنافستين للشيعة . ثمّ إن هذا الانتساب الى القائد الأمويّ لم ينفعه كثيراً بالأندلس ، ولم يشفع له حين أطردوه من إشبيلية . ولكنّ أباه استثمر بدون شكّ هذا النسب بالأندلس فاستعمله ذريعة للوصول الى مآربه المذهبيّة : فالسلالة المهلّبيّة ممثّلة بها ، خصوصاً في كورة البيرة التي استوطنها هانىء ، وكثير من الفتن كان يحدثها المهلّبيّون[1] .

تاريخ ميلاد الشاعر

تتضارب المصادر في شأن سنة ميلاد الشاعر أيضاً . ذلك أن المترجمين يهتمّون عادة بالوفيات فلا يسجّلون إلاّ تواريخ الوفاة ، فنضطرّ حينئذ الى عمليّة طرح لنعرف تاريخ الولادة ، على شرط أن نكون على علم بسنّ الشخص عند وفاته .

في خصوص وفاة شاعرنا ، تكاد المصادر تجمع على أنها وقعت سنة 973/362. وينفرد ابن الأبّار بذكر سنة 972/361، قائلاً إنه نقل هذا التاريخ عن قراضة الذهب لابن رشيق . وينبغي أن نرفض هذا التاريخ لسببين على الأقل :

---

(1) **ابن عذاري** : البيان . . . ج 2 ، ص. 137 (في ثورة أميرين مهلّبيّين) . وانظر كذلك **دوزي** : تاريخ مسلمي اسبانيا ج 2 ص 110 .

1 ـ لأنّ ابن خلّكان ، وقد اعتمد أيضاً على القراضة ، عثر فيها على تاريخ 973/362 .

2 ـ لأنّ وفاة الشاعر تقْتَرِنُ عند جميع المترجمين والمؤرّخين، بسَفَر المعزّ إلى القاهرة ، وهذا الانتقال عن أفريقيّة وقع في شهر صفر من سنة 362 / نوفمبر 972 .

ثمّ يمكن أن نضيف أن قراضة الذهب في صورتها التي وصلت الينا ، لا تذكر تاريخاً لوفاته . فلعلّ ابن الأبّار وابن خلّكان قد وهما أو اطّلعا على نسخة من كتيّب ابن رشَيق غير التي بين أيدينا .

وكذلك ينفرد الصفدي في الوافي بالوفيات[1] بتاريخ 976/365 : وهذا وهم ، ولعلّه خلط بين وفاة المعزّ ووفاة الشاعر ، كما خلط في اسم الشاعر إذ سمّاه محمد بن ابراهيم بن هانىء ، وهو شاعر مصري متأخّر[2] .

فلذلك نميل الى قبول التاريخ الذي ضبطه ابن خلّكان بليلة 23 رجب 29/362 أبريل 973، فيكون الشاعر قد لقي حتفه منذ ألف عام تقريباً[3] .

هذا تاريخ الوفاة. أما سنّه عند مقتله، فإنّ صاحب الوفيات يعيّنها بـ 36 عاماً أو 42 عاماً، ولا يؤثر إحداهما على الأخرى . فإذا قبلنا المقدار الأوّل ، تكون ولادة الشاعر سنة 937/326 . وإذا رجّحنا العدد الثاني ، فمولده يتقدّم الى سنة 932/320 . ولقد نبّهنا آنفاً الى أننا نرفض التاريخ الأوّل ، وأنّا نعتبر صاحبنا من مواليد سنة 932/320 . وهذه مستنداتنا :

1 ـ تتّفق المصادر على أنه ترك بلاده الأندلس وهجر الى العدوة في سنّ السّابعة والعشرين .

---

(1) ترجمة رقم 240 .

(2) وكذلك يسمّيه مخطوط باريس بهذا الاسم . وانظر خريدة العماد الأصفهاني : شعراء مصر ج 1 ، ص. 248 .

(3) هذه الرسالة قدّمت للمناقشة في ماي 1973 .

2 ـ كما تتّفق على أن أوّل من لقي بالمغرب من الممدوحين هو جوهر القائد فمدحه بالقصيدة الحائيّة العاشرة .

3 ـ وتجمع كتب التاريخ على أنّ حملة جوهر بالمغرب الأقصى بدأت سنة 958/347 .

فلقاء الشاعر مع جوهر وقع إذن سنة 347 . ولمّا كانت سنّه آنذاك سبعة وعشرين عاما ، فواضح أنه ولد سنة 320 ، لا بعدها .

وربّما أضفنا حجّة أدبيّة إلى هذه الحجّة التاريخيّة : وهي أن مدحة جوهر هذه تنمّ عن اقتدار عند الشاعر وصَنعة لا يمكنُ أن يجتمعا في شابّ في العشرين .

تكوّن الشاعر ونشأته

يقول معظم المترجمين إنه تلقّى تكوينه بإشبيلية . وينفرد ابن الأبّار فيذكر قرطبة . ولكنهم جميعاً لا يذكرون أحداً من الشيوخ الذين تتلمذ لهم ، فيتعذّر علينا حينئذ أن نحدّد التأثيرات التي طبعت تكوّنه ، والعلوم التي تلقّاها ، علاوة على جهلنا بالمدّة التي قضاها بحلقات الدرس .

وحتى إن تناولنا فهرسة أبي بكر بن الخير (1179/575) ، وهو كتاب نفيس لأنّه دليل على أن الأندلس قد استقلّت ثقافياً عن الشرق ، بما يذكره من جموع العلماء والأدباء الأندلسيّين الذين زخرت بهم عواصم البلاد ، فالنظر في قائماته لا يوصلنا الى نتائج صحيحة ثابتة ، بل يقف بنا عند الافتراض الواسع البعيد .

وفصّل ابن الخطيب تكوينه بعض التفصيل ، فأشار الى تبحّره في اللغة وبصره بالشعر ، وأضاف أنّه برع أيضاً في « فكّ المعمّى » . ونظنّ أنّه بهذه العبارة يشير الى أحد أمرين :

إمّا علم التنجيم وما يتبعه من تنبّؤ كاذب بالمستقبل . فإن كان هذا قصد الكاتب الغرناطي ، فلعلّه مزج خطأ بين التنجيم وعلم الفلك : ذلك أن ابن هانيء واسع الدراية بمنازل الكواكب وصورها ، تشهد بذلك تشبيهاته الكثيرة بالنجوم، وبالخصوص القصيدة الحادية والثلاثون التي استهلّها بوصف مطوّل للكواكب فصار الرواة لفرط إعجابهم بها يسمّونها « القصيدة الفلكيّة » ويتناقلونها ويستنسخونها .

وإمّا حلّ الألغاز والأحاجيّ الشعريّة ، وفعلاً ، نجد نموذجين من هذه الرياضة الأدبيّة في مخطوط تونس 1 ، ضمن مطارحات بينه وبين أحمد بن زائدة الكاتب[1] .

ويشهد الديوان أيضاً بتكوين أدبيّ واسع عميق ، فالإشارات المدقّقة الى كبار شعراء الجاهليّة وصدر الإسلام وتأثره الواضح بجزالة القدماء ومتانتهم ، كل هذا يدلّ على أنّه تعلّم أصول مهنته بالممارسة الطويلة لشعر السابقين ولا سيّما شعراء البادية .

ولكنه يهتمّ أيضاً بـ « المحدثين » ، كما يظهر من القصيدة رقم 21 التي تناول بها ديوان أبي الطيب المتنبّي ، فصرّح بأنّه مسك شرحاً لهذا الديوان ، وأنّه قضى الليالي الطوال في درسه وتصويب أخطائه : [بسيط]

13/21 أَصَمُّ أَعْمَى ولَكِنِّي سَهِرتُ لَهُ حتَّى رَدَدْتُ إليه السَّمْعَ والبَصَرَا

بل أطال البحث والتصويب فطال بذلك مسكه للكتاب حتى طالبه صاحبه بإرجاعه بدون تراخٍ .

هذا ، وربّما استنتجنا ـ في فصل لاحقٍ ـ من هذا الانتشار السريع لشعر المتنبي بالمغرب والأندلس بعض الملاحظات في شأن تأثر ابن هانيء بمعاصره الكبير .

---

(1) حوليّات 1972 ، المقطوعة 4 والمقطوعة 13 .

ونستشفّ أيضاً من الديوان تشبّعاً بأصول الثقافة العربيّة الاسلاميّة من قرآن ، وسنن ، وأمثال وأخبار المغازي والأيّام . فمن التأثر بالقرآن مثلاً هذا النقل للآية 51 من سورة يوسف : [كامل]

24/25 (يا مشْرفيُّ اسْجُد لهُ من بَيْنِهِمْ)   يا بَاطِلُ ٱزْهَقْ ، يا حَقيقَةُ حَصْحِصِي!

أو هذه الاشارة إلى قصّة العجل (سورة الاعراف آية 148) : [كامل]

69/53 لٰكنكُمْ كنتُمْ كـأهـلِ العِجْــلِ لَمْ   يُحْفَظْ لِـمُــوسَى فِـيهِـمُ هَــارُونُ

أمّا المعاني الشيعيّة والشعارات الاسماعيليّة التي يطفح بها شعره وتتكيّف بها نظرته الى الحوادث التاريخيّة التي تبعت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتفسّر ميله الى التأويل الباطنيّ للأشياء ، فلا ندري هل تلقّنها بالأندلس أثناء تكوّنه الأوّل في أسرته أو في حلقات سريّة ، أم بأفريقية حين دخل في خدمة المعزّ ؟ على أننا سنحاول الإدلاء برأي عند دراسة أغراضه المذهبية في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

أسباب تركه الأندلس

ترك الشاعر اشبيلية وانتقل الى العدوة ، في هجرة شبيهة بهروب الطريد ولجوء الخائف . وهنا أيضاً لا يتّفق مترجموه : فمنهم من يعزو هذه الهجرة الى تألّب أهل اشبيلية عليه بسبب مجونه وارتكابه المحرّمات . ومنهم من يجعلها نتيجة لغضب العلماء ورجال الدين عليه لتطاوله على الدين في الفعل والقول ، فيقول الفتح بن خاقان انه سلك مسلك المعرّي ، مع أن أبا العلاء ولد بعد وفاة الشاعر بعام . ولكنّ صاحب المطمح لا يقصد تقريباً الا مشابهة في الأفكار المادّية وفي العبث بالدين ورجاله . وذلك ما يعبّر عنه ابن خلّكان حين ينسبه الى أفكار الفلاسفة . وكذلك يفعَل الذهبي في الترجمة الوجيزة

التي خصّصها له[1] . ولا يذكر الذهبيّ - ولا غيره - أنه أطرد بسبب تحزّبه للشيعة ، خلافاً لما فهمه زاهد علي من كلامه[2] . ولكن ، ليس من المستبعد عند الأندلسيّين في تشدّدهم السنّي وسيطرة الفقهاء على الحياة الفكريّة وخوفهم الدائم من اقتحام « المشارقة » - هكذا كانوا يسمّون الفاطميّين توكيداً على أنّ مذهبهم دخيل أجنبيّ عن المغرب - لأرضهم ، ليس مستبعداً أن يتألّبوا على مَن يضيق ذرعاً بتزمّتهم وبالكبت المذهبيّ السائد ، فيطرق في شعره بعضَ الأغراض الفلسفيّة أو يتهاون في سلوكه اليوميّ بالفرائض الدينيّة أو يتحرّرّ من بعض أحكامهم الأخلاقيّة. وسنرى أنهم آستجازوا قتل من شُهد عليه بترك الصلوات أو بشتم عائشة . فلا بدع ، اذا كان هذا شأن ابن هانىء معهم ، أن ينسبوه الى التشيّع أو الى الكفر ، وأن يستنكروا من « والي اشبيلية » أو « ملكها » عطفه عليه وحمايته له فيضطرّ الى التخلّي عنه .

هذا الأمير الذي حظي الشاعر بصداقته لا نعرف آسمه ، فالمصادر تدعوه « صاحب » اشبيلية أو « ملكها » أو « واليها » دون أن تسمّيه . ولا شكّ أن لقب « ملك » وَهْمٌ من المترجمين . فآخر « ملك » على اشبيلية ، مستقل عن خلافة قرطبة ، هو محمد بن ابراهيم بن الحجّاج الذي قهره عبد الرحمان النّاصر بعيد تولّيه الحكم ، فأرجع اشبيلية وكورتها الى الحظيرة الأمويّة . وكان ذلك في مستهلّ القرن الرابع / العاشر . فهذا الأمير لا يمكن الا أن يكون والياً على المدينة من قِبَل الخليفة الناصر . وقد طلبنا أسماء الولاة على المدينة ، فظفرنا بقائمة فيهم[3] ، ولكنها توقفت عند سنة 317 ، ففيها عيّن الناصر أحمد ابن محمّد الزّجّالي ، ولكنه لم يدم فيها الا ثلاث سنوات ، اذ توفّي سنة 320 . فلا يمكن أن يكون الزجالي هذا ، المتوفّى يوم ولد شاعرنا ، هو صاحبه الذي لحقه بسببه الأذى .

---

(1) تاريخ الاسلام ، ورقة 301 .

(2) مقدّمة تبيين المعاني ، ص 20 .

(3) **ليـڤي - بروفنسال وقارثيا قوميث** : أخبار مجهولة المؤلّف . . . ص 83 .

على أن المصادر تظلم هذا الوالي المجهول اذ تظهره في مظهر الخاذل لصديقه مداراة للرأي العامّ . ونرى نحن أنه بالعكس أسدى اليه النصح حين اقترح عليه أن يحتجب مدّة ريثما يُنسى خبرُه . فليس هذا كلام من يبغي القطيعة عن غضب ، بل كلام من يودّ بقاء الصلة بين الشاعر وبينه .

غير أن صاحبنا آثر الانسحاب التامّ . ولا ندري أكانت له وجهة معيّنة يوم قرّر مغادرة اشبيلية ، كأن يكون عازماً مبدئيّاً على عرض خدماته على الفاطميّين ؟ أم كان يتأهّب للاضطراب في البلاد بدون قصد ؟ وما دمنا لا نعرف شيئاً من أفكاره ومعتقداته في الفترة الأندلسية ، وذلك بسبب فقدان شعره هناك فقداناً تامّاً ، فإنّه يتعذّر علينا أن نزعم مثلاً أنه كان يدين بالعقيدة الشيعيّة أصلاً ،وأنّ طرد الأندلسيين له كان فرصة له سانحة للالتحاق بمركز الدعوة التي ينتمي اليها . ولو كان قصد المنصوريّة رأساً ، لجزمنا بتشيّعه القديم ،لكنه لم يتّصل بالمعزّ الا بعد خمس سنوات تقريباً قضاها عند بني حمدون. وحتى هؤلاء، لا نجزم بأن اتّصاله بهم كان بدافع مذهبيّ، بل لعلّه كان فقط بدافع المواطنة كما قال ابن خاقان وكما رأينا في الفصل السابق .

وبالمثل لا نتجاسر على الجزم بأنّه كان خلواً من كل عقيدة وأن انتقاله الى العدوة كان فقط للارتزاق والبحث عن ممدوحين جدد ، كما هو شأن معظم الشعراء المرتزقين بشعرهم ، من النابغة والأعشى المتنقلَين بين المناذرة والغساسنة ، الى المتنبي بين حلب والفسطاط وشيراز ، الى ابن رشيق وابن شرف والحصري بين افريقية وصقلية والأندلس والمغرب .

وللسبب نفسه ، أي ضياع شعره الأندلسي ، يتعذّر علينا أن نبتّ في أمر اتّهامهم له بأتّباع آراء الفلاسفة في شعره ، وهذه الآراء إن وجدت في شعره الذي وصلنا، فهي خافتة لا تلفت الانتباه .

أما العربدة والفساد والمجون ، فهذه أمور ممكنة ، يدعَمُها ما عثرنا عليه

في مخطوطة تونس 1 من مقطوعات تخرج عن مألوف الأخلاق والعادات[1] ، وكذلك ما تبقّى في ديوانه المطبوع من مقطوعات غزليّة ـ مثلاً النسيب الغريب في قصيدتَيْ الشيباني ـ وخمريّة . كما تَدْعَمها الأقوال التي قيلت في ظروف قتله . فهذه قرائن متضافرة تجعلنا لا نستبعد صورة الشاعر المنحرف الذي ضاقت به البلاد ولفظه أهلها ، فاتّجه الى أُفُق مجهول ليستأنف حياة جديدة .

ابن هانىء بالمغرب وافريقية

أوّل ممدوح للشاعر بأرض المغرب هو جوهر ، ولا ندري متى لقيه بالضبط ولكنه لقيه بين سنة 347 ، التاريخ الأدنى لوصوله الى العدوة ، وسنة 348 ، تاريخ فراغ جوهر من حملته المغربيّة الكبرى التي قادها حتّى الحدود الجنوبيّة بالتافيلالت ، وتوّجها بفتح فاس في 20 رمضان 24/348 نوفمبر 959 [2] .

ولا شكّ عندنا أن الشاعر نظم مدحته فيه بعد سقوط عاصمة الأدارسة : ذلك أنه يذكر الأسرى في قيودهم : ومن بينهم ، الى جانب « خليفة » سجلماسة ابن واسول ، ورؤساء مكناسة من بني موسى ، يذكر « جذاميًا طويلاً نجاده » لا نخاله الا أحمد بن أبي بكر بن سهل أمير فاس ، وقد أسره جوهر وأطبق عليه في قَفَصٍ مع ابن واسول وأرسلهما الى المعزّ بالمنصوريّة[3] : [طويل] .

40/10 وكان الجُذَامِيُّ الطويلُ نِجَادُهُ ... بهيمَاً مدى أعصَارِهِ فَتَوَضَّحَا

43 . . . أقولُ له في مُوثَقِ الأَسْرِ عَانِياً ... تُجَاذِبُهُ الأَغلالُ والقَيْدُ مُقْمَحَا

---

(1) انظر الفصل الأوّل ، ص 24 -27 .

(2) الدشراوي : الخلافة . . . ص . 232 .

(3) الدشراوي : أسر ابن واسول . . . ص . 295 . وانظر : الناصري السلاوي : كـ . الاستقصاء ، 199/1 .

44 لئِنْ حَمَلَتْ أشيَـاعُ بغيِكَ فَـادِحـاً يَغُولُ ، لَقَدْ حُمِّلْتَ مَا كَانَ أَفْدَحَا

فإن كان أوّل اتّصال له بجوهر ، أي أوّل عمل يعمله وأوّل رزق يكتسبه، وقع في رمضان 348، لا قبل هذا التاريخ، ففيم قضى وقته منذ نزوله ببرّ العدوة ، أي منذ عام أو بعض عام ؟ أفي البحث عن الممدوحين وطرق أبواب الأمراء والوجهاء كما فعل المتنبّي قبل وصوله الى سيف الدولة ؟ ولكنّ أبا الطيب خلّف لنا مدائحه في هؤلاء الأمراء الصغار ، أمّا ابن هانىء ، فلا توجد في ديوانه قصيدة سابقة لهذه التي مدح بها جوهراً ، وذلك بإجماع النسخ وإجماع المترجمين . لا شكّ عندنا أنّه بقي طوال هذه المدّة ينتظر الفرصة ، وقد سنحت له مع جوهر ، ولكنّ جوهراً لم يكافئه بما يرى هو أنّه له أهل ، فأعطاه مائتي درهم فقط ، فتقول المصادر انّه قال : أليس بهذا البلد أكرم من هذا ؟ فأشاروا عليه بالجعفَرَيْن . . .

والجعفران قد يكونان أميري المسيلة جعفر ويحيىٰ، سمّيا الجعفرين على عادة العرب في تخفيف الاسمين المتلازمين بتثنية أحدهما ، فيختارونه لسبقه على الآخر ، أو لسهولة النطق به أو لشهرته[1] : فالجعفران أسهل نطقاً من اليحييين ، وجعفر على كل حال أسبق سنّاً ورتبة ، وكذلك الحسنان للحسن والحسين ابني علي وفاطمة ، وقد انتشر هذا المثنّى بتأثير الشيعة حتى صار اسماً مفرداً : حسنين ، في مصر خاصّة . وكذلك العُمَران ، ابن الخطاب وابن عبد العزيز حسب رواية ، وأبو بكر وعمر في أخرى ، وهنا غلب عمر أبا بكر لأنّه أيسر نطقاً وأقصر . وفي غـير الأعلام ، يُلتَجأ الى صفة مشتركة بين الاسمين المقصودين ، فتثنّى كذلك : الجديدان صفة مشتركة لليل والنهار ، وكذلك الأنس والجنّ يدعيان الثقلَين ، الخ . . .

فإن كان ناصحوه يعنون بالجعفرَيْن الأخوَين ابني حمدون ، فهذا دليل على أنّهما شاركا في حملة جوهر ، وبالتالي يكون أوّل آتّصال بين الشاعر وأمير

---

(1) انظر ما يقوله ابن السكيت في « العُمران » ، ص 144 من كـ. اصلاح المنطق .

الزاب، لا بالمسيلة كما آدّعى آبن سعيد في رواية سخيفة، ولكن بالمغرب ، في ساحة الوغى ان صحّ التعبير . وربّما آستصحب الأمير شاعرنا رأساً الى الزاب حين قفل راجعاً الى ولايته .

وربّما عَنَوْا بالجعفرَيْن جعفر بن حمدون وجعفر بن فلاح الكتامي ، ولكنّ الشاعر ، كما رأينا ، لم يمدح هذا القائد البربريّ ولا غيره من زعماء البرابر ، فالديوان يخلو من كلّ اشارة اليهم ، وحتى البيتان اللذان وسما باسم جعفر بن فلاح لا تصحّ نسبتهما الى ابن هانىء . فقد يعني هذا السكوت أن صاحبنا قدم من مسقط رأسه ، وهو متشبّع بالازدراء الذي يكنّه العنصر العربيّ للسكّان الأصليّين للمغرب . وربّما غذّى هذا التعالي عنده انتسابه أوّلاً الى الأسرة المهلبيّة المجيدة ، ثمّ نشأته بالأندلس بلد الحضارة وَرَفَاهَةِ العيش ، وزاد حدّة فيما بعد عندما أصبح من خاصّة الأميرين الأندلسيين بالمسيلة وتبنّي عداوتهما للصنهاجيّين .

بقي الشاعر اذن قرابة عام ينتظِرُ الممدوح الممكن بأرض المغرب ، والإمكانيّاتُ والحق يقال ، كانت إذ ذاك محدودة : فقد طهّر جوهر الجهة من الأمراء المستقلّين كابن واسول أمير سجلماسة ، وأجلى الأدارسة عن فاس « فاعتصموا بقلعة النسر بسبتة آخر معاقلهم فكانوا يشاهدون منها عاجزين مقهورين صراع القوّتين اللتين تتقاسمان المغرب آنذاك : بنو أميّة والفاطميّون »[1] . ولمّا كان شاعرنا ، بهروبه من الأندلس قد انسلخ ان صحّ التعبير ، من الولاء الأمويّ ، فإنّه لم يبق أمامه ، ممّن يعرض عليهم خدمَتَه ، الاّ الخليفة الفاطميّ أو من والاه .

تساءلنا منذ قليل : لماذا لم يتّجه رأساً الى المنصوريّة ؟ ونتابع الآن الاحتجاج فنقول : لماذا لم يخطر ببال جوهر ولا أحد من حاشيته استخدام نزوح الشاعر الى الأرض الفاطميّة ، في عمليّة دعائيّة لصالح المعزّ ، وذلك

---

(1) ج. مارسي : افريقية في القرون الوسطى ، ص. 125 .

بتلوين مَقْدَمِهِ بِلَون اللجوء السياسيّ من بلد يُكبت فيه الفكر وَتُقَيَّدُ الحريّة الى بلد يُعَظّم فيه المفكّرون ويُبَجَّلُون ؟ فيصبحُ صاحبُنا « لاجئاً سياسياً » هارباً من الطغيان مستنجداً بالأئمّة العادلين ، ويصير كسب الأنصار للعقيدة الشيعيّة أمراً تلقائيّاً طبيعيّاً لا يحتاج الى تجهيز جيوش ولا حتى تنظيم برهان ؟

ولكنّ عمليّة كهذه تشترط ضمنيّاً أن يكون الشخص المستغيث مشهوراً ذائع الصيت ، فلجوء الخامل الذكر واستنجاد المجهول النكرة لا يصلح لتحريك الجماهير وانتزاع استنكارها وتحبيذها بحسب حاجيات الدعـاية المذهبيّة .

فيترتّب عن فكرتنا هذه أنّ ابنَ هانىء لم يكن آنذاك معروفاً بدرجة تحمل القائد والحاشية على التقرّب به الى المعزّ واستثمار نزوحه لفائدة الدعوة الفاطمية . ونجد تدعيماً لافتراضنا هذا ، في ضآلة المكافأة التي قابل بها جوهر مدحته : فهي دليل ، لا على شحٍّ فيه ، ولا على قلّة بصر بالأدب والشعر ـ وان كان ذلك لا يستغرب من عبدٍ صقلّيّ أو روميّ الأصل ـ بل على خمول الشاعر في برّ العدوة .

استقرّ الشاعر عند بني حمدون بالمسيلة . وقد أصبحت القاعدة التي كان أسّسها القائم بأمر الله وعليّ بن حمدون ، عاصمة عامرة بالسكان مزدهرة بالصنائع فيقول ابن خلدون : « . . . واستجدّوا بها دولة وسـلطاناً وبنـوا القصور والمتنزّهات ، واستفحل بها ملكهم ، وقصدهم بها العلماء والشعراء وكـان فيمـن قصدهم ابن هانىء شاعر الأندلس »[1] .

ويظهر أنّ شهرة البلاط الحمدونيّ تجاوزت المغرب وافريقية وبلغت المشرق ، فطمح بعض شعرائه الى رفد أمير المسيلة ، كالصنوبري (334/945) الشاعر الشاميّ مثلاً ، فقد وجّه اليه من حلب قصيدة[2] يشيد فيها بمجده

---

(1) تاريخ ، ج 16- 21 (بيروت) ص . 175 .

(2) **الصنوبري** : ديوان ، القصيدة 25 ، ص 28 .

وكرمه ، فأرسل اليه جعفر ، على مسالك ثابتة حسب قول ابن شرف[1] مكافأة بألفِ دينار .

ويشهد شعر ابن هانيء نفسه بازدهار العاصمة الحمدونيّة وكثرة حدائقها وطيب هوائها ، فيتجاسر على تشبيهها ببغداد : [كامل] .

35/6 وَرَأَيْتُ حَــوْلِي وَفْــدَ كُــلِّ قَبِيلَةٍ   حَتَّى تَــوَهَّمْتُ العِـرَاقَ الـزَابَـا
36 أرضاً وَطِئْتُ الدُّرَّ رضـراضاً بِهَـا   والمِسْكَ تُرْبـاً ، والرِّيَـاضَ جَنَابَـا
37 وَسَمِعْتُ فيهـا كلَّ خُـطبـةِ فَيصَـلٍ   حتى حَسِبْتُ ملوكَهَــا أَعْــرَابَـا

هذه المهابة الملكيّة لا ينفردُ بها جعفر ، فليحْيـى أيضاً بَلاط تقصده الوفود : [طويل]

15/52 وَتَغْـدُو على يَحْيَـى الوفـودُ بِبَابِـهِ   كما ابتَدَرَتْ أمَّ الحطِيمِ المواسِمُ

وسرعان ما أصْبَحَ الشاعر من خاصّة الأميرَين ، فنراه مثلاً يتدخّل لتهدئَة الجوّ بينهما اذا ما ضاق الأصغر بسيطرة الأكبر ، ولا سيّما بعد وفاة والدتهما ، فيدعوهما الى المحافظة على الوئام حتى يقويَا على الخصوم ولا يشمت بهما الأعداء. ونراه أيضاً يشارك الأميرين ، وخصوصاً يحيـى ، في مجالس الشراب والغناء ، ممّا يشعر بأن الحياة بالمسيلة أشبه في طيب العيش ولينه بالرقّة الأندلسيّة منها بالخشونة البربريّة أو التقشف الذي طبع بلاط الخليفة .

ويشيد بحروب الأخوين ، وبالحملات التي يقودانها أو يقودها ابراهيم ابن جعفر لاستخلاص الضرائب أو لقمع الفتن ، ولعلّها كانت تحرّكات بسيطة محدودة، ولكنه يغالي في تعظيمها دون أن يمدّنا بالتدقيق اللازم ، فتصير في شعره انتصاراتٍ باهرة ، ويجعلها انتصاراً لسياسة المعزّ ومذهب الأئمّة ، كأنّه بدأ ينظر الى المنصوريّة ويسعى نحو غايته النهائيّة : الدخول في خدمة المعزّ في منصب الشاعر الرسميّ .

---

(1) ابن شرف : مسائل . . . ص . 36 .

ولكنّ دعوة الخليفة أبطأت ، فلم تأتِ إلا بعد خمسة أعوام ، وقد علّلنا فيما سبق تحديدنا لدخول ابن هانيء في خدمة الخليفة بسنة 964/353 . وقد مهّد لهذا المنصب بالمدحتين 9 و11 ، نظمهما بالمسيلة وأرسلهما الى المعزّ . ويظهر من كلام ابن خلّكان أن شهرة الشاعر وصلت الى مسمعه بعد هذه المدّة الطويلة ، فأبدى اهتمامه به وطلب من الأميرين أن يجهّزاه اليه ، فبادرا بارساله وأرفقاه بهدايا كثيرة[1] . وفي هذا تدعيم لما ارتأيناه ، من أن صيت الشاعر عند خروجه من وطنه لم يكن من الذيوع بحيث يلفت إليه الانتباه ويفتح أمامه الأبواب .

أمّا صدى حياته بالقيروان/ المنصورية ، فخَافت خفُوتاً غريباً ، حتى إننا نشك في استيطانه بعاصمة الخلافة ، فهو لا يذكرها قط في شعره ، ولا العواصم الأخرى . والإشارة الوحيدة الى القيروان أو المنصورية نجدها في التوطئة النثرية التي تسبق القصيدة 53 في الديوان ، على ان النسخ تتضارب ، فمنها من يقول ان القصيدة أنشدت بالقيروان ومنها من يقول بالمنصوريّة .

وكذلك لا ذكر لظروفه المادّية : كيف كان يعيش ؟ وبم كان يعيش ؟ وأين كان يعيش ؟ هنا أيضاً ترشدنا التوطئة التي أشرنا اليها فتقول انّ الخليفة كافأه على هذه القصيدة 53 بقصر يساوي كذا من آلاف الدنانير ، فطلب الشاعر عندئذ الأثاث ، فأردفه بأثاث يساوي بضعة آلاف دينار ، فعاد الشاعر وطلب الحشم والجواري ، فأمر له بخدم ، فبلغ المجموع خمسة عشر ألف دينار . لكنّ الصبغة الخرافيّة ظاهرة على هذا الخبر ، ولا نخال الشاعر في أوّل لقاء له مع المعزّ يتجاسر على مثل هذه المساومة السخيفة . ثمّ ان الخبر لم يذكر قط مكافأة ماليّة نقديّة ، مع أن مخطوط تونس 1 يشعرنا بوجود جراية قارّة ، بدليل أن الأمير تميم ابن الخليفة سعى لدى أبيه لِيَقْطَعَ عنه هذا الراتب ، وربّما دَلّتْ أيضاً على وجود هذه الجراية علاقة ابن هانيء بصاحب الخزينة الحسين بن المهذّب .

---

(1) وفيات . . . ترجمة رقم 640 .

ومثلما يسكت عن مسكنه هو ، يسكت عن مساكن الخليفة والأمراء فلا تراه يذكر القصر ولا البلاط ، ولا يصف المسجد ولا المتنزهات . حتى « دار البحر » ، ذلكم القصر الذي بهر الشاعر الايادي[1] بتنسيق بركه وغرفه ، وتدفّق المياه به ، وعلوّ شرفاته ، لا نجد له ذكراً في شعره . وازاء هذا السكوت عن الأماكن الرسمية والخاصة ، صرنا نشكّ في إقامته المستمرة بالعاصمة الافريقيّة ، فلعله كان يقطن بالزاب على الدوام كما يشعر به قولُهُ عند توديعه للمعزّ على عتبات مصر ورجوعه على أعقابه لأخذ عياله وأمواله : [طويل]

18/47 ولولا قَطِينٌ في قَصِيٍّ من النَّـوَى لما كان لِي في الزَّابِ من مُتَلَوَّمِ

ولعلّ وظيفته كشاعر مختصّ بالخليفة تحتّم عليه الاقتصار على المظاهر الرسميّة من حياة المعزّ ، كاستقباله للسفراء والمبعوثين وتحوّله الى صلاة الجمعة وخروجه في المواسم والأعياد مكلّلاً بالتاج الفاطميّ تحت المظلّة الواسعة التي كانت أيضاً من شارات الملك .

وقد حاول الشاعر التحلّل من هذا الجانب الرسميّ من وظيفته كما تشهد بذلك المقطوعات الخمريّة أو الغزليّة التي نجدها في ديوانه مدرجة ضمن المدائح أو مستقلّة ، فتاق الى التعبير عن ذاته ، بالتغزّل بالغلمان أو وصف مجالس الشراب ، والتمس الأصدقاء الجدد والخلّان كما يظهر من مطارحاته مع أحمد بن زائدة . ولكن هذه المحاولات « الغنائيّة » الذاتيّة بقيت محدودة ، حسب ما يظهر من الديوان المطبوع ، أو لعلّها طرحت من معظم النسخ ، فلم نجد صداها الاّ في مخطوط تونس 1 . فكأنّ وظيفة الشاعر الرسميّ بما يتبعها من جدّ مفروض مفتعل ووقار وتقشّف ظاهريّ لم تسمح له بالنظم في غير الأغراض المذهبيّة السياسيّة التي تعلي كلمة الأئمّة وتظهر شرعيّة حكمهم . بهذا التحديد والاقتصار ، نبرّر التفاوت الظاهر بين مجموع انتاجه بالمسيلة في خمس سنوات ومجموع انتاجه بعاصمة الخلافة في تسع .

---

(1) انظر وصف الأيادي لهذا القصر في الحوليّات . . . 1973 ص. . . 104 .

تشيّع ابن هانىء

يؤكّد الشاعر في احدى مدائحه للمعزّ أنّ تشيّعه القديم عرّضه لعداوة الأمويّين ، فحاولوا منعه من الالتحاق به ، ولو نجحوا ، لأسكتوا صوته وتعذّر عليه مدح الإمام : [طويل]

46 ولو عَلِقَتْهُ من أُمَيَّةَ أَحْبُلٌ — لَجُبَّ سَنَامٌ منَ الشعرِ تَامِكُ
47 ولمّا التقَتْ أسيافُها ورماحُها — شِرَاعاً ، وقد سُدَّتْ عليَّ المَسَالِكُ
48 أَجَزْتُ عليها عابراً وتركتُها — كأنّ المنايا تحتَ جنبي أرائكُ
49 وما نَقَموا الا قديمَ تشيّعي — فَنَجَّى هِزْبراً شَدُّهُ المتدَارِكُ

هذا الصراع البطوليّ الذي يدّعيه ابن هانىء مع مطارديه الأندلسيّين صورة من المبالغات الشعريّة المعهودة . ولكن ، هل يغالي حين يلحّ على « قديم تشيّعه » ؟

لقد عبّرنا فيما سبق من الصفحات عن تحفّظنا في قضيّة تشيّع هانىء وأسرته ، لفقدان الوثائق التي تسمح بإبداء رأي صحيح مدعّم ، وخاصّة لضياع كامل شعر محمد بن هانىء في الفترة الأندلسيّة . ولكن ، يمكن أن نعود إلى الموضوع فنضيف اليه ، على ذكر هذه الأبيات ، بعض العناصر التي قد ترجّح انتساب الشاعر الى الدعوة الفاطميّة منذ شبابه وحتى صباه .

فالمرجّحُ الأوّل هو ، كما رأينا ، وسطه العائلي ، والصورة الغامضة التي نقلت الينا عن أبيه هانىء : فهل كان حقّاً واحداً من الدعاة الكثيرين الذين عملوا بالأندلس على إحلال الحكم الشيعيّ ؟ الحقيقة أن الفتن الشيعيّة أو المنتسبة إلى الشيعة سبقت مقدم هانىء الى الأندلس بأحقاب . فمنذ أواسط القرن الثاني / الثامن تمرّدت بعض العناصر اليمنيّة المنتسبة إلى كبار الأسر العربيّة ، مثل الثائرَيْن المهلبيَّيْن اللذين ذكرهما ابن عذاري ، أو أحفاد الصحابيّ الشيعيّ عمّار بن ياسر ، أو أحفاد زعيم الأنصار سعد بن عبادة .

حتى العنصر البربريّ أراد أن يحذو حذو العناصر العربيّة ، فطلب الحكم وتمرّد على الأمويّين ، مثل ذلك الثائر الذي استثمر اسم أمّه ـ فاطمة ـ فلفّق لنفسه نسباً علويّاً فاطميّاً ـ وكان بربريّاً من مكناسة ـ فجابه حكّام قرطبة طيلة عشر سنوات (150 -160/767 -776) . وكثير من هذه التحرّكات كانت تقع بكورة البيرة ، تلك التي سينزل بها هانيء ، أثناء أو بعد سفراته المتكتّمة بين عواصم الأندلس[1] . ولم تسلم اشبيلية من هذه الفتن ، فقد تغلّبت عليها أسرة بني الحجّاج ، وهم أيضاً يمنيّون لخميّون ، ولم يصلح أمر المدينة الا عندما تولّى عبد الرحمان النّاصر .

هؤلاء الثوّار كانوا بالطبع يستثمرون لصالحهم النزاع بين الدولتين الكبريَيْن : فالمتمرّد على حكم بني أميّة يستنجد بصاحب افريقيّة ويتظاهر بالولاء للشيعة ، وكذلك فعل عمر بن حفصون حين تملّك بوبشتر واعتصم بها ، فقد أرسل إلى المهدي عبيد الله يطلب مساعدته[2] . وفي الجانب المقابل، كان المارقون على الحكم العبيديّ يستنجدون بحكّام قرطبة ، كما فعل أبو يزيد إذ أوفد إلى الخليفة الناصر جمعاً من أعيان القيروان فيهم ابن لأبي العرب صاحب كتاب طبقات علماء افريقية[3] .

وحين أخذ عبد الرحمان الناصر ثم الحكَم المستنصر الأمور بيد من حديد فقَمَعَا الفتن بكل شدّة ، انقلبت الحركات العلويّة الى دعوة سرّية داخل المدن ، فكان الأعوان والجواسيس يجوبون البلاد ويرفعون التقارير عن الحالة الاجتماعية وأفكار الناس وأحوال المعيشة، إلى صاحب افريقية ، وقد نسب الفيلسوف ابن مسرّة (319/931) إلى الدعوة الفاطميّة وقيل انّه تعلّم المبادىء

---

(1) **ابن عذارى** : البيان . . . ج 1 ص. 54-56 / وانظر كذلك : **محمود علي مكّي** : التشيع في الأندلس ص. 17 **وليفي ـ بروفنسال** : اسبانيا الاسلامية ، ج ١ ص. 85-88 .

(2) **ليفي ـ بروفنسال** : اسبانيا الاسلاميّة ، ج 1 ص . 380 .

(3) **ابن عذارى** : البيان . . . ج. 2 ، ص. 213 .

الاسماعيليّة أثناء إقامته بالقيروان فتعهّد بنشرها في الأوساط الأدبيّة والثقافيّة في الأندلس . وكذلك نسبوا الرحّالة ابن حوقل (977/367) الى التجسّس لفائدة الفاطميّين[1] .

فكان خلفاء قرطبة معذورين اذن في اتخاذهم التدابير المشدّدة ضدّ كلّ من اشتبه أمره ، فرمي بالدعوة الى الشيعة أو حتّى بالاستقلال في الرأي والسلوك ، ولكنهم أفرطوا في القمع والتنكيل ، فصاروا يحكمون بالقتل على كلّ من انفرد برأي أو خرج عن المالكيّة السّائدة ، حسب شهادة المقدّسي (988/378) الذي زار الأندلس في منتصف القرن الرابع : « . . . أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع . وهم يقولون : لا نعرف الا كتاب اللّه وموطّأ مالك ، فان ظهروا على حنفيّ أو شافعيّ نفَوه ، وان عثروا على معتزليّ أو شيعيّ ونحوهما ، ربّما قتلوه »[2] .

ولم يغال المقدّسي في تعليقه ، فقد أطلق الخلفاء أيدي القضاة لمقاومة الزيغ بحق وبغير حقّ ، أو ، على الأحرى ، أطلق القضاة أيدي الحكّام ، لأن الخطر مزدوج : فالحكّام عرضة للحملة المسلّحة على الخلافة الأمويّة ، وقد تعهّد الفاطميّون بازالتها ومحاسبة أصحابها على اغتصابهم للحكم وعلى ما ارتكبه أسلافهم من جرائم ضدّ آل البيت . ومن جهة أخرى يتعرّض الفقهاء الى خطر حلول مذهب « المشارقة » وإحلال طقوس وعقائد مارقة مبتدَعة خارجة عن السنة والجماعة . فلذلك نجد القضاة الأندلسيّين يصدرون أحكاماً قاسية على أشخاص مظنون فيهم، دون أن تثبت عليهم تهمةُ الكفر أو التشيّع : فهذا شخص يمنيّ أيضاً ، يدعي ابن حاتم الأزديّ ، يحكم عليه بالقتل لأنّه شُهد عليه بشتم عائشة والشيخَين ، ولعلّه كان شيعيّاً لأنّ سبّ أصحاب الجمل أو أصحاب السقيفة من خصائص غُلاة العلويّين ، كما أنّ سبّ أبي تراب (علي بن أبي طالب) من خصائص الأمويّين . وهذا متّهم آخر ، يدعى أبا

---

(1) ر. برونشفيك : مظهر من . . . ص. 149 .

(2) أحسن التقاسيم : ص. 40.

الخير ، شُهد عليه بتبنّي آراء « المشارقة » ، وبشرب الخمر أيضاً ، وبترك صلاة الجماعة ، وأخيراً بالقول مثل المعتزلة بتخليد الكافر في النار ، حتى وان كان مسلماً ، هذا المسكين يقتل أيضاً لتراكم هذه الذنوب عليه[1] .

والمرجّح الثاني لتشيّع ابن هانىء منذ صغره ، لعلّنا نستنتجه ممّا كنّا نستغربه قبل قليل : وهو ضياع شعره في الفترة الأندلسيّة ، فانّ تهمتَيْ التحلّل الأخلاقي والتحرّر العقائديّ ، ان ثبتتا ، لا تكفيان لتعليل هذا الضياع التامّ، كأنّ هذا الشعر محي محوا من ذاكرة الناس ، فلم يبق منه شيء ، حتى النماذج لتدعيم تهمة المروق والانحراف . ولا تكفيان كذلك لتبرير طرده من وطنه ، مع ما كان يحظى به من مؤازرة أمير اشبيلية له وعطفه عليه . فالأولى حينئذ أن نفترض وجود ذنب أعظم من هذين ، مثل شروع الشاعر في مقاومة السلطان الأمويّ أو في نشر المبادىء الفاطميّة . فهذه تهمة أخطر بكثير من العربدة والأخذ بأقوال المادّيّين ، لفتت اليه انتباه الحكّام والقضاة ، فأصبح مهدّداً في حرّيّته وربّما في حياته ، واضطرّ الوالي الى مداراة الفقهاء فنصحه بالانسحاب . ونعترف بأنّ هذا التحليل الجديد لأسباب هروبه لا يفسّر كذلك ضياع شعره الاشبيليّ ، اللهمّ إلاّ اذا افترضنا أيضاً أن هروبه السريع لم يسمح له بجمع شعره ، فضاع بعده ، أو قرّر هو أن يضرب عنه صفحاً .

أمّا المرجّح الثالث ، فنلتمسه من المعاني والشعارات الشيعيّة التي نجدها في أوّل قصيدة له بالمغرب ، ونعني مدحة جوهر، فالشاعر يستعمل الألقاب التي أشاعتها الدعاية الرسميّة في شأن الخليفة : فهو الإمام ، وهو أمير المؤمنين ، وخليفة الهدى الخ . . . ، ويقارن جوهراً ، في وفائه للإمام وخدمته له ، بالحواريّين في علاقتهم بالأنبياء ، بل يدعو الناس الى اتباع الطّريق التي سطّرها لهم هذا الحواريّ : [طويل]

---

(1) هذه الأمثلة مستمدة من مخطوط « نوازل الأحكام . . . » لابن سهل الجيّاني (486/1093) ، ورقة 191 ب و 193 أ . وقد استثمرها الدشراوي في فصله : محاولة . . . ص. 97 .

18/10 أُرِيكَ بِهِ نَهْجَ الخِلافةِ مَهْيَعاً بيِينٌ، وأعلامَ الخلافةِ وُضَّحا
24 . . . رآه أميرُ المؤمنين كعهدِهِ لديه، ولم تَنْزَحْ بِهِ الدارُ مَنْزَحا
25 لأَفْلَحَ منهُمْ مَنْ تزكّىٰ وقادَهَ حَواريٌّ أملاكٍ تزكّىٰ وأفْلَحا

وانّه لمن المستبعد أن يكون الشاعر قد تكلّف هذا الولاء الشيعيّ في الحين والحال ، تزلّفاً إلى القائد ، ومن ورائه ، الى الخليفة . ولا ندّعي مع هذا أنّه عند نزوله بأرض المغرب ، كان متشبّعاً بكلّ هذه الأغراض الإسماعيليّة ، فهذا لا يتّفق مع ما سنراه في شعره اللاحق من تطوّر نحو المماثلة التامّة لشعارات الدعاية الفاطميّة . ولكن نتّخذ موقفاً وسطاً فنقول : لعلّه كان تعرّف ، منذ الفترة الإشبيليّة ، على التيّارات الشيعيّة التي كانت تجتاح الأندلس وتغشى العصر كلّه ، فمال اليها واكتسب شيئاً من المعلومات عن العقائد الاسماعيليّة فتبنّاها وبلورها في قصيدته الأولى التي أرادها كما قلنا فاتحة حياة جديدة .

وتزداد المعاني الشيعيّة عنده قوّة ، حتّى تبلغ أوجها في الفترة الافريقيّة ، حين يصبح الشاعر الرسميّ ، فيعلي كلمة الدولة ، ويشيد بمجد الأئمّة وبأحقيّتهم بخلافة المسلمين ، وينهال شتماً على الدولتَيْن الغاصِبتين، الأمويّة والعبّاسيّة ، بل يمتدّ لسانه حتى الى الشيخين أبي بكر وعمر فيرميهما بالتواطؤ مع أعداء عليّ في حادثة السقيفة لانتزاع حقه المشروع ، ويلقي عليهم مسؤوليّة المآسي التي لحقت عليّاً وذرّيته فيما بعد ، فلا يتحرّج من جعل أبي بكر - التيميّ - سبباً ، بقبوله الخلافة ، في قتل عليّ بمسجد الكوفة ثمّ في مجزرة الطفّ بكربلاء : [طويل]

144/47 وَأَوْلَىٰ بِلَوْمٍ مِنْ أُمَيَّةَ كُلِّهَا وَإِنْ جَلَّ أمرٌ من مَلامٍ وَلُوَّمِ
145 أُنَاسٌ هُمُ الداءُ الدفينُ الذي سرى الى رِمَمٍ بالطفّ مِنْكُمْ وأَعْظُمِ
147 . . . هُمُ رَشَّحُوا تَيْماً لإرثِ نَبِيِّهم وَمَا كانَ تَيميٌّ اليهِ بمنتمِ
153 . . . بأسيافِ ذاكَ البغْيِ أَوَّلَ سَلِّها أُصيبَ عليٌّ ، لَا بِسَيفِ ابنِ مُلْجَمِ

وفي هذه الحملة القاسية على أحبّ الخلفاء الراشدين الى الأمّة

الاسلاميّة ، دليل على أنّ ابن هانىء أصبح يأمن غائلة الحكّام الأمويّين وعسف قضاتهم . فشتان بين تعسّفه هو اليوم وما استحقّ به ابن حاتم المسكين القتل !

وفيها أيضاً صورة للطريقة التي يقابل بها الشيعة شتم الأمويّين يوميّاً لعلي بن أبي طالب فوق منابرهم ، تلك العادة الفظيعة التي ابتكرها معاوية بالشام ، فكانت تنقص من إعجاب أنصارهم بهم[1] .

ونلاحظ في المدائح المعزّيّات مغالاة الشاعر ـ والدعاية الرسميّة كذلك ـ في تقديس الإمام . فالأوصاف التي يصف بها المعزّ ، والمقارنات والتشابيه والافتراضات ، كل هذا يبلغ حدّ التأليه ، أي ، في نظر السنّة ، حدّ الكفر والشرك باللّه . في حين أنه في نظر الشيعة اعتراف بالصفات الشرعيّة في الأئمّة : فلئن نعته بـ «ـالواحد القهّار» فلأنّه مستأثر وحده دون غيره بإرث جدّه الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) وخلافة المسلمين ، قاهر عن قريب للدولتين الغاصبتين . وان غلبت إرادته الأقدار ، فلأنّه يتمتّع بمؤازرة خاصّة من اللّه تجعل كلمته هي العليا ، وبهداية منه تعصمه من الزلل ، فالأئمّة هم هداة شعوبهم ورعاياهم الذين أشار اليهم اللّه عزّ وجلّ بقوله : ﴿ وَلِكُلِ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[2] : [كامل]

1/24	ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ	فاحكم فأنتَ الواحدُ القهّارُ
2	وكأنَّما أنتَ النبيّ محمَّدٌ	وكأنّما أنصارُكَ الأنصَارُ
3	أنتَ الذي كانت تُبَشِّرَنَا بهِ	في كُتْبِها الأخبارُ والأَحْبَارُ
4	هذا إمامُ المتّقين، ومَن بهِ	قد دُوِّخَ الطغيانُ والكفّارُ
5	هذا الذي تُرجى النجاةُ بِحُبِّهِ	وَبِهِ يُحَطّ الإِصرُ والأوزَارُ

فاذا كانوا هداة مهديّين ، فتشبيههم بالأنبياء المعصومين معقول مشروع ، وكذلك تشبيه أتباعهم بالأنصار الذين نصروا محمّداً (صلى اللّه عليه وسلم) وآوَوه بالمدينة ـ ولعلّه اقتصر على الأنصَار ولم يذكر المهاجرين لأنّه يمنّي الأصل

---

(1) ابن عذاري : البيان . . . ج . 2 ، ص . 40 .
(2) الرعد ، 7 .

أزديّ مثل أهل يثرب ، ولأنّ المهاجرين فيهم الشيخان وأصحاب الجمل ـ وكما يشفع الأنبياء للمؤمنين يوم الحساب ، فهذا يشفع لأتباعه فتقِيهم محبّتُه عذابَ النّار .

هذا، وإنّ مثل هذا التحليل الباطني لعقائد الشيعة ونظريّاتهم من خلال مدائح الشاعر لا يقف بنا عند حدّ ، وسنجمل فيه القول في الفصل الثامن حين نتناول المعاني الإسماعيليّة في شعره .

ولا عبرة ، والحال هذه ، بما يقوله بعض الدارسين المعاصرين في شأن تشيّعه : من أنّ هذه المغالاة في تقديس الأئمّة صورة من تزلّفه الى المعزّ حتى ينال رفده ، فبقدر ما يغلو في المدح ، يكثر العطاء[1] . فهذا تسرّع في الاستنتاج وقِصَر في النظر ، إذ لو قارن أصحاب هذا القول شعر ابن هانىء بشعر تميم بن المعزّ في أخيه العزيز مثلاً ، أو قابلوه بكلام القاضي النعمان في الأئمّة عامّة وفي المعزّ بصفة خاصّة ، لرأوا أن الغلوّ أمر عاديّ طبيعيّ في كتابات الشيعة ، ولما نسبوا صاحبنا الى التشيّع الكاذب . أم لعلّهم كانوا ينسبون تميماً والقاضي الى السعي وراء المال ؟

ولو كان تشيّعه ظرفيّاً محلّيّاً ، أي مرتبطاً بمدائح المعزّ لا غير وبما يُرجى إثرَها من جوائز ، لما وجدناه أيضاً في مدائح الشيباني وبني حمدون وأفلح الناشب ، ولاكتفى الشاعر في مدحه لهؤلاء ، بالإشادة بالصفات التقليديّة من شجاعة وسماحة وحلم وغيرها .

فتشيّع ابن هانىء صحيح صادق . لعلّه لم يكن على مثل هذه القوّة في أوّل الأمر، فتوطّد وتعمّق بتعرّف الشاعر الى الخليفة ومعاشرته له ، ولكن لا شكّ في أنه خلو من الطمع : فالشاعر قلّما يشير إلى عطاء المعزّ ، خلافاً للمتنبّي مثلاً في مخاطبته لممدوحيه ، بل يعتبر أن أعظم مكافأة هي بالذات مدح الإمام ، لأنه

---

(1) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعزّ لدين الله ، ص. 226 .

بمدحه إيّاه يقوم بواجب مفروض ، واجب « الطاعة» ، والطاعة لا يكافأ عنها ، أو قل انها تحمل مكافأتها في طيّاتها كأريحيّة السماحة أو برد اليقين : [كامل]

90/1 دَانـوا بِأنَّ مـديحَهُمْ لَـكَ طَـاعَـةٌ   فَـرْضٌ ، فليسَ لَهُمْ عَلَيْكَ جَـزَاءُ

ثم انّ القرب من الإمام يكفيه كل مكافأة ، وكذلك اتّفاق معانيه مع معاني القرآن لأنّ اللّه مدحَ أيضاً الإمام :[طويل]

67/23 بَلَغْتُ بِك العَلْيَا ، فَلَمْ أدنُ مادحاً   لأسْـأَلَ، لَكنّي دَنَـوْتُ لأشْكُـرَا
68 وَصَـدَّقَ فيـكَ اللّهُ مـا أنـا قـائـلٌ   فلسْتُ أُبـالِي مَن أقـلّ وَأكْثَـرَا

فالتشيّع عند ابن هانيء ليس إذن صادراً عن تعليمات رسميّة تتكيّف كلّ يوم بحسب التطوّرات السياسيّة ومقتضيات الساعة ، مثل سوانح الصحف الحزبيّة أو الحكوميّة ، أو مثل خطب المنابر في صلاة الجمعة ، بل هو منبثق عن اعتقاد راسخ بصحّة الدعوة وصواب المذهب وعدل الأئمّة في سياستهم . وانّ اعتقاده هذا ليتجاوز شخصه فيغمر الأعيان والأشياء المتصلة به ، فهذا سيفه مثلاً ، أصبح مماثلاً له في العقيدة ، بل يغلبه في التفاني : [بسيط]

لي صَـارِمٌ ، وهو شيعيٌّ كحـامِلِهِ   يكـادُ يَسْبِقُ كَـرّاتِي الى البَـطَلِ
اذا المعـزّ، معـزّ الـدين ، سلَّطَهُ   لم يرتقِبْ بالمَنَـايَا مُـدّةَ الأجَلِ[1]

ولعلّ هذين البيتين « ملحـة » من الشاعر لا تحتاج منا الى مثل هذا التقدير ، ولكنا نتجاوز من خلالها التكلّف وبرودة الفكرة إلى الحميّة الواضحة والتحمّس الظاهر للمذهب .

هذا، وإذا احتجنا الى دليل آخر على صدق انتساب ابن هانيء الى الدعوة ، فلنذكر أسف المعزّ عليه حين نُعي اليه . فهل كان يرثيه ويؤبّنه لو فهم أن تشيّعه ظرفيّ محلّيّ ؟ وهل يغيب عنه تملّق المنافق وكذب المتزلّف ؟

---

(1) تبيين المعاني . . . ص . 648 .

تضارب الأقوال في ظروف وفاته

لئن اتفقت المصادر على أنّ موت الشاعر كان مباغتاً ، فانها لا تتّفق على ظروفه وأسبابه : أكان اغتيالاً ، أمْ موتاً طبيعيّاً ، أم قتلاً في خصومة ، أم حادثاً طارئاً غير متوقّع ؟ وكذلك الأمر فيما يخصّ تاريخ الوفاة ، فلا ثبات فيه بين مصدر وآخر .

يكتفي ابن الأبّار مثلاً بالقول : « وتوفيّ ببرقة في طريقه إلى مصر » فاستعمل فعل « توفيّ » الذي يشعر بالموت الطبيعيّ وينفي فكرة القتل أو الاغتيال . أمّا ابن الأثير ، فيميل الى الاغتيال في خطّة مدبّرة : « فلمّا وصل (المعزّ) إلى برقة ، ومعه محمد بن هانىء الشاعر الأندلسي ، قتل غيلة ، فرؤي ملقى على جانب البحر قتيلاً لا يُدْرى من قتله . . . »[1] . ويذكر ياقوت وابن خلكان افتراضات ثلاثة : أوّلاً ، الموت المباغت في حادث مفاجىء : خرج الشاعر سكران من بيت مضيّفه فضلّ طريقه في الليل وغلبه النوم فنام على قارعة الطريق فمات للبرد الشديد . ثم الخصومة العنيفة اثر مشربة وعربدة فيقتل الشاعر في المعركة بين السكارى . وأخيراً الاغتيال : وجد الشاعر في ضيعة مخنوقاً بتكّة سراويله . ويأخذ ابن الخطيب بالافتراض الأوّل فيرى أن البرد الشديد هو الذي قتل الشاعر السكران . أمّا ابن سعيد ، فيصرّح بأنه قتل في « مشربة على صبيّ » وكذلك تقول مقدّمة مخطوط تونس 1 .

ولقائل أن يقول انّ هذه الظروف الفظيعة من سكر وعربدة واعتداء بالفاحشة على صبيّ ، قد اختلقها مؤلّفون سنّيون ليلحقوا العار بشاعر الفاطميّين الرسميّ ، فينالوا من خلال شخصه ، من هيبة هذه الدولة المكروهة التي طالما ادّعت الطهارة والنسك والقداسة ، ويظهروا فسادَها ونفاقَها من فساد شاعرها ، لا سيّما وأنّ المعزّ كان ينوي مكابرة شعراء الشرق به . وهذا ما يقوله فعلاً ناشر

---

(1) الكامل ، ج 7 ، ص . 45 .

الديوان زاهد عليّ - وهو إسماعيلي - في محاولته لتبرئة الشاعر من هذه الوصمات[1] .

ولكن قد تكون التهمة صحيحة مستندة الى أحداث ثابتة وصفات واقعة : فإذا اعتبرنا مثلاً ما نُسب اليه من مجون في شبابه بالأندلس ، وما احتفظ به الديوان من مقطوعات خمريّة ومن غزل بالمذكّر ، وإذا صدّقنا ما نقلَتْه بعضُ المصادر من تنافسه مع الأمير تميم على غلام منحرف ، واعتبرنا من جهة أخرى أن جوّ الفرح والتفاؤ ل بحياة جديدة ، الذي صاحب انتقال المعزّ إلى عاصمته الجديدة، قد يدعو بعض أنصاره ، والشعراء على الأقل ، الى خلع العذار ، أصبح من الممكن أن الشاعر تعاطى اللهو جزافاً في إحدى ليالي إقامته ببرقة ، فكانت نتيجة الافراط في الشراب خصاماً واعتداءً وعنفاً وقتلاً .

بل نجد من المترجمين من ينسب قتله الى تميم أصلاً بسبب الغيرة من الشاعر لاستئثاره بالغلام : فيقول الدواداري في كتابه عن الدولة الفاطميّة ، بعد أن يورد الأبيات الثلاثة التي يبرّر فيها ابن هانىء تفضيله للذكران على النسوة : « . . . أراد بقوله غلاماً كان الأمير تميم يهواه ، فتحيّل عليه حتى وجد في بعض الأودية مخنوقاً بتكّته . . . »[2] ويضيف : « وقيل إنّه حسده لجودة شعره ، فقتله لذلك » . فهذه فكرة جديدة وسبب آخر من أسباب قتله : الغيرة الأدبيّة أو التنافس المهنيّ . وواضح أن كلام الدواداري يدْعَمُ فكرة القتل اغتيالاً ، ويُبعد فكرة الموت الطبيعيّ أو الحادث المفاجىء . ولكنه يأتي بعنصر جديد في حياة الشاعر الغامضة ، فيزيد الغموض كثافة . هذا العنصر الجديد هو تنافسه مع وليّ العهد ، وقد كان من المتوقّع أن يصبح خليفة بعد أبيه ، أي أن يصير ممدوحاً لابن هانىء ، لولا أن عزَلَه المعزّ لفساد سلوكه وانحرافه وتواطئه مع العناصر المناهضة لأبيه ، وبالخصوص مع أولاد القائم .

---

(1) تبيين . . . ص. 22 من المقدّمة .

(2) **الدواداري** : كنز الدرر/ 6 : الدرة المضيئة . . . ص. 254 .

وربّما استغربنا أن ينسب تميم الى مثل هذا الخبث وهذه الشراسة ، وقد عهدناه في شعره رجلاً رقيق العاطفة مغرماً بالطبيعة والأزهار والمياه ، ميّالاً إلى الدعة والعيش الهادىء . ولكن قد يُخفي الشعراء أيضاً حقيقة نفسيّاتهم ، بدليل ما اكتشفناه من مجهول صفات شاعرنا ابن هانىء ، ممّا لا يتّضح قطّ من كبرى قصائده في المعزّ وفي غيره من الممدوحين . وخلاصة القول أن قتل ابن هانىء يمكن أن يكون قد وقع بإيعاز من تميم ، بسبب غيرة بينهما وتنافس ، سواء كانت غيرة غراميّة أو أدبيّة .

وعليه ، فلا سبيل إلى تبنّي فكرة زاهد علي الذي يعتبر قتله اغتيالاً سياسيّاً دبّره أعداء الدولة التي رفع ابن هانىء شعارها ، أي حكّام قرطبة : فالأمويّون أبعد الناس ، في هذا الظرف ، أي ابّان انتقال المعزّ - والشاعر بالتالي - الى المشرق ، عن أن يفكّروا في قتله ، هذا إذا صحّ أن شعره أقلقهم حقّاً حتى صاروا يخشَونه على سلطانهم . ولو عزموا على قتله ، لفعلوا ذلك أو حاولوه من قبل ، أي قبل أن يتباعد الخطر عن شواطئهم بتحوّل الفاطميّين الى القاهرة . وانّما اعتمد الناشر الاسماعيلي ، في دفاعه البارّ عن الشاعر - وهو اسماعيليّ مثله - على الأبيات التي ادّعى فيها تشيّعاً قديماً وعداء من الأمويّين كاد يحول بينه وبين المعزّ ، فصدّق هذا الزعم ، ونسب الفعلة الى بني أميّة ، فأصبح ابن هانىء مقتولاً ، لا في مجلس عربدة ، بل في ساحة الشرف ، ضحيّة لدفاعه عن المذهب الشيعيّ .

ولو كان لفكرة الاغتيال السياسي من احدى الدولتين المنافستين أو حتى من فلول الخوارج ، نصيب من الرجحان ، لما أغفلها الرواة والمترجمون .

أمّا تاريخ مقتله ، فينبغي أن نقبل التاريخ الذي ذكره ياقوت وابن خلّكان : يوم الاربعاء 23 رجب 29/362 أبريل 973 ، وربّما نقلاه عن تاريخ القيروان لابن شدّاد ، أو عن نسخة مجهولة من قراضة الذهب لابن رشيق . ونرجّحه لأنّ المعزّ ترك «سردانية» قرب القيروان في صفر، ووصل الى القاهرة في رمضان، فمن

الراجح أنه حلّ ببرقة في رجب . وبناء على هذا ، ينبغي رفض تاريخ 972/361 الذي ذكره ابن الخطيب .

وكانت سنّه عند الوفاة اثنين وأربعين عاماً ، على ما ضبطته غالب المصادر ، وقد حدّدها بعض المترجمين بستّة وثلاثين عاماً ، وسبق ان بيّنا خطأ هذا التقدير ، لأنّه يترتّب عنه أنّ مولد الشاعر كان سنة 937/326 ، وأنّ هجرته الى المغرب في سنّ السابعة والعشرين وقعت سنة 964/353 ، ونعلم أنه في هذا التاريخ ، كان قد دخل بعد في خدمة المعزّ ، فلا شكّ اذن أنّه عند موته كان قد تجاوز الأربعين .

برقة[1] اسم قديم لقرية المرج التي تقع اليوم على بعد مائة ميل تقريباً من بنغازي الحاليّة ، عاصمة الولاية الشرقيّة من ليبيا . وقد سمّيت المقاطعة كلّها باسم عاصمتها على شاكلة كثير من البلدان الإسلاميّة ولا سيما بافريقيا الشماليّة : فتونس تعني البلاد وعاصمتها ، وكذلك الجزائر . وكذلك مرّاكش عند من سمّى المغرب الأقصى باسم عاصمته المرابطيّة ثمّ الموحّديّة . أمّا « مصر » ، فقد كانت تعني قديماً الفسطاط ، وتدلّ اليوم على القاهرة العاصمة وعلى وادي النيل كلّه .

وفي خصوص وجهة الشاعر عندما لقي حتفه بهذه الصفة الفظيعة ، فانّ المترجمين لا يتّفقون : فهذا مثلاً ابن تغري بردي يقول انّه دخل الى القاهرة في ركب المعزّ : « . . . إلى أن قتل ببرقة في عوده الى المغرب من مصر ، بعد أن مدح المعزّ العبيديّ بغرر المدائح . وكان عوده الى المغرب لأخذ عياله ، وعوده بهم إلى مصر . وكان موته في رجب »[2] . ولكن سبق للمؤرّخ المصري أن قال قبل هذا ان المعزّ دخل القاهرة يوم 8 رمضان ، فلم ينتبه إلى هذا الخلف : أن يعود الشاعر من القاهرة في رجب ، والخليفة لمّا يصلها بعد .

---

(1) انظر فصلي « برقة » و « بنغازي » بدائرة المعارف الإسلاميّة ، الطبعة الجديدة .

(2) النجوم الزاهرة ، ج. 4 ، ص. 67 .

لكننا لا نرفض مبدئياً هذا الخبر ، إذ نجد في إحدى مقطوعات مخطوط تونس 1 المجهولة ، ما قد يَدْعَمُه . تقول مقدّمة القطعة : « وقال أوّل دخوله مصر . . . »[1] . فهل يعني دخول مصر « الإقليم » أم دخول مصر العاصمة ؟ فإذا كان المعنّي هو الاقليم المصريّ ، فقد نفهم من التوطئة أنّ الشاعر اجتاز الحدود ـ أو ما يُعتبر حدًّا ـ بين برقة ومصر مع الخليفة ثمّ قفل راجعاً الى برقة في طريق العودة الى افريقية أو الزاب . فتبطل بذلك امكانيّة اقامته بالقاهرة ، ولو لمدّة يوم واحد ، لأنها لا تتفق مع دخول المعزّ إليها في رمضان ومقتله هو في رجب ببرقة . ولا شكّ أن الأمر يتّضح بصورة أو بأخرى لو علمنا بالتدقيق تاريخ مغادرة المعزّ لبرقة .

أمّا الأبيات التي تلي هذه الإشارة الى دخوله مصر ، فيقول فيها : [متقارب]

1	أقُــولُ لـذِي قــامــةٍ كــالقضيبِ	وَخَـصْــرٍ تبــارك مــن خـصَــرَهْ
2	ووجــهٍ يـبــاري سَنَــاهُ الـمُــدَامَ	يُصَبُّ من الكـوب في القبّـرة(؟)
3	ألا فاغضُضِ الطرفَ يا ذا الفتى	فــللّهِ طــرفُــكَ مــا أســحَــرَهْ!
4	لقـد لعبَت بي صـروف الـزمـان	كلعب الـفتـى والفتى بـالـكُـرَة
5	وطُيّــرتُ شــرقــاً إلى غَــربِـهَــا	كــطيــر العــواصفِ بــالــزنبــرة
6	ويُــعـجـبـنـي أنــنـي شــاعــرٌ	وقــولُ الـبــريّــة مــا أشـعــره!
7	ولــو رهـنُــونِـي وكُـتـبـي مـعــاً	مــع الشِعـر والــظَرف والمِحْبـرة
8	على قُــوت يــوم ٍ لـرَدُّوا الـرهــانَ	وأرمَــوا الـى فـضّــةٍ مُـحـضَــرة
9	حــرامٌ حــرامٌ زمــانُ الـفـقـيــر	حــرام حــرامــه مــا أقــذره
10	إذا كــان عـيش الفـتى ضـيّـقـاً	فـخيــرٌ مـن العيشــةِ الـمَقْبَـرَة

الأبيات الثلاثة الأولى نسيب عاديّ على طريقة ابن هانىء في الصنعة

(1) الحوليّات ، 1972 ، ص. 85 .

والتكلّف . أما السبعة الباقية فأمرها غريب لأنّها أوّلاً تشكو الفقر بل الفاقة وفقدان القوت اليوميّ . وهذا عجيب في خصوص الشاعر الرسميّ لدولة أصبحت تملك الغرب والشرق معاً: فمن أين يأتيه الفقر في هذا العزّ وهذه الأبّهة الملكيّة ، وهو في ركب المعزّ ؟

ثمّ لأنّ الشاعر يصف عبث الزمان به فيقول انّ الصروف تطيّره « شرقاً إلى غربها » ، فهذا الاتجاه غريب إذ من المتوقع ، وهو داخل الى مصر من برقة ، أن يقول ، ان صحّ أن الزمان عبث به ، « غرباً إلى شرقها » . وفي البيت الرابع ، يشبّه نفسه بالكرة التي يتقاذفها الصبيان ، ونحن نستغرب مثل هذا التشبيه لأنه لا مثيل له في شعره الآخر ، وان كنا نعرف أن القدماء عرفوا الكرة وشبّهوا بلعبتها[1] . وأخيراً نتعجّب من انتقاله المفاجىء من النسيب التقليديّ الى شكوى الزمان .

فلهذه الأسباب كنّا محمولين على اعتبارها منحولة الى ابن هانىء ، أو منسوبة إليه خطأً ، فقلنا : لعلّ صاحبها هو ابن هانىء « الحفيد » ، وهو شاعر مصريّ عاش في القرن السادس / الثاني عشر ، وذكره العماد الأصفهاني في خريدته وسمّاه الحفيد لأنه يصعد في نسبه إلى صاحبنا . وكنّا نرفضها بالرغم من ورودها في نسخة تونس 1 ـ ونعلم قيمة هذه المخطوطة وانفرادها بشعر له كثير ـ لولا ان وجدنا في نفح الطيب[2] اشارة تَدعَم نسبتها الى شاعرنا : وفحوى هذه الحكاية الطريفة أن ملك السهلة ابن رزين الأندلسيّ[3] كان يستمع إلى قراءة من ديوان ابن هانىء ، وكان قارئُهُ جاهلاً بالشعر ، فُتعثّر في قراءة أحد الأبيات وتلعثم بصورة جعلت الحاضرين يضحكون منه . وهذا

---

(1) انظر بيت المسيّب بن علس في المفضليّة رقم 11 في وصف سرعة ناقته :

مـرِحَـتْ يـداهـا للنَّجَـاءِ كـأنّمـا   تكـرُو بكَفَّيْ لاعبٍ في صَـاعِ

(2) طبعة بيروت ، ج 3 ص. 407 ، حكاية رقم 198 .

(3) عن ملوك السهلة بني رزين ، انظر : ابن الأبّار : الحلّة ، ج . 2 ، ترجمة رقم 129 . وهـ. بيريس : الشعر الأندلسيّ . . . الفهرس .

البيت هو التاسع من المقطوعة ، ولم يذكر منه المقرّيّ إلاّ الشطر الأوّل : حرام حرام زمان الفقير . . .

فهل يعني هذا أن المقطوعة لابن هانىء حقّاً ؟ لا شك أنّ وجودها ضمن الديوان في القرن الخامس/ الحادي عشر يبعث على التريّث في اتّهامها . فلنقل حينئذ انها من شعر ابن هانىء ، ولكنها لم تنظم في مصر كما تدّعيه مقدّمتها ، بل في أوائل قدومه إلى المغرب ، أو ربّما حتى في الفترة الأندلسيّة من حياته : فأبياتها أردأ مبنى ومعنى من أن تكون ثمرة كهولته . وحتى ان قبلنا نسبتها اليه ، فان البيت الخامس في خلطه بين الشرق والمغرب يقف عرضةً في سبيل فهم صحيح وتفسير مقنع .

وبعد هذا ، يمكن أيضاً أن نعتبرها قطعة موضوعة ، من جنس الأبيات السخيفة التي نسبت إليه إبّان دخوله على جعفر بن حمدون وأثناء لقائه المزعوم مع المتنبّي بالقرب من مدينة قابس : ولا غرابة أن تكون صورة الشاعر الشيعيّ قد بدأت تتشوّه عند الرواة السنّيّين وتتخذ أخباره صبغة الفكاهة بسبب انتسابه الى الدعوة الممقوتة .

ونعود إلى أقوال المترجمين في نوايا الشاعر ، واتجاهه : يقول ابن الخطيب ومن بعده ، ابن العماد ، انّ ابن هانىء ، عند مقتله ، كان راجعاً من افريقية ، بعد ان رافق المعزّ حتى برقة . وهذا رأي لا يقبل كذلك لأن الشاعر حلّ ببرقة مع الخليفة في رجب ، فما كان ليترك ركبه قبل أن يرحل عنها إلى القاهرة . وحتى ان فعل ، فانّ الوقت أقصر من أن يسمح له بالرجوع إلى افريقية وجمع ماله وأخذ عياله والوصول من جديد الى برقة قبل التاريخ المشؤوم : 23 رجب . فالثلاثة وعشرون يوماً لا تكفي لقطع هذه المسافة ذهاباً وإياباً ، وقد قطعها المعزّ في أربعة أشهر ، إذ انطلق من سردانية في صفر ، فوصل الى برقة في رجب . وقبله ، كان جيش جوهر بقي خمسة أشهر في طريقه من المنصوريّة الى الفسطاط : من منتصف ربيع الأول 358 إلى منتصف

رمضان[1] . فحتى ان طرحنا مدّة السير من برقة إلى الفسطاط ، واعتبرنا أن الجيش الفاتح لم يكن يجدّ السير ، فإنّ الوصول إلى برقة لا يكون في أقلّ من أربعة أشهر . وعلى كل حال ، فانّ الرحالة القدماء يقدّرون هذه المسافة بأربعين مرحلة على الأقلّ[2] .

فلذلك يتعيّن أن نأخذ برأي ابن خلّكان ، الذي ينقّح خبر ابن شدّاد بعض التنقيح : فقد قال صاحب تاريخ القيروان انّ الشاعر قتل وهو لا يزال في حاشية المعزّ ببرقة . أما صاحب الوفيات ، فيرى أنّه لقي حتفه بعد أن ودّع المعزّ ، أي بعد أن استأنف الخليفة طريقه نحو الاسكندريّة . وهذا ما تشعرنا به أيضاً قصيدته الأخيرة التي أرسلها الى المعزّ بعد توديعه ، ولا شكّ أنها بلغت الخليفة بعد مقتل الشاعر ، وفيها يعتذر على تركه الركب للرجوع الى الزاب بسبب العيال ، ويتعهّد باللحاق به في أقرب الآجال لاستئناف الاشادة بخصال الإمام : [طويل]

186/47 ولولا قطينٌ في قَصِيّ من النَّوَىٰ ... لما كان لِي في الزَّابِ من مُتَلَوَّمِ

187 وفي ذمَـلَانِ العِيسِ كِلْتـا مَـآرِبي ... إذا أَرْقَلَتْ بِي من أُمُـونِ وَعَيْهَمِ

188 فمنهـا اذا عَـدَّتْـكَ شِيعَـةُ رِحْلَتِي ... ومنهـا إذا أَمَّتْـك شيعــةُ مَقْـدَمِي

192 . . . وعندي، على بُعْدِ المزار ونأيِهِ ... قصـائدُ تتـرَىٰ كالجُمَـانِ المنَـظَّمِ

ولكن الأقدار حالت دون الشاعر والخليفة ، وأبت عليه أن يحقّق وعده : فلا هو التحق بعدها بالمعزّ ولا قصائده .

---

(1) المقريزي ، اتعاظ ، ص. 139 .

(2) الاصطخري : المسالك ، ص. 37 .

الفصل الخامس

الاشارات التاريخية في الديوان

نريد في هذا الفصل والفصل الذي يليه، أن نتناول قصائد ابن هانىء بالتحليل والدرس فنستخرج منها ما يمكن استخراجه من معلومات، خاصّة أو عامّة، وارشادات تاريخيّة أو حضاريّة، تهمّ الفترة التي خدم فيها الشاعر المعزّ لدين اللّه الفاطميّ. وقد سبق أن قمنا باستقراء مماثل في الفصل السابق، الاّ أننا ركّزناه على المعلومات التي تبرز أهمّ أحداث حياة ابن هانىء. ولذلك نهتمّ الآن خاصة بالإشارات المتعلّقة بحياة الخليفة مثلاً، في سياستِه وحروبه وما وقع في مدّته، من وقائع هامّة أو بسيطة، بالقدر الذي يسمح به فهمنا للشعر وإمكانيّة ربطِه بما أثبتَه التاريخُ.

وفي مرحلة ثانية، نقوم بنفس الاستقراء في خُصوص القصائد السابقة للمدائح المعزّيّات. وقد سمحنا لنفسنا بهذه المخالفة للترتيب الزمنيّ، فاهتممنا أوّلاً بالقصائد الإفريقيّة، وذلك لما تمتاز به مدائح المعزّ من إمكانيّات الاستثمار بالمقارنة مع بقيّة القصائد، بما فيها مدائح بني حمدون.

الحياة بالبلاط المعزّي

تساءلنا، في الفصول السابقة، عن حقيقة علاقة الشاعر بالخليفة، وشككنا في أن يكون ملازماً للبلاط، وشككنا حتى في وجود بلاط بالصورة

المعهودة ، أي صورة مجلس يعقده الملك أو الأمير في قصره ، ويختلف اليه جمع من خاصّة دولته وشعرائه وعلمائه ، ويتوزّع الاهتمام فيه بين إنشاد الشعر ، وسماع الغناء ، ومناقشة المسائل العلميّة ، وحتى قضاء الوقت في الطرائف والملح ، وتكثر فيه من ناحية أخرى المنافسات والتحاسد ويسعى كل واحد لكسب الحظوة على حساب غيره ثم المحافظة عليها والاحتياط من الخصوم والحسّاد .

والقصائد المعزّية لا تفيدنا في هذا الصدد بمعلومات كثيرة ، لا عن الحياة العامّة بالمنصوريّة ولا عن الحياة الداخليّة بالقصر . وليس هذا السكوت ذنب الشاعر وحده ، فحتى سيرة الأستاذ جوذر ، وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان لا تفيدنا بشيء شاف كاف ، فصرنا نميلُ إلى الاعتقاد بأنّه لم تكن بالمنصوريّة حياة بلاط ، وأن القصر لم يكن يضمّ غير أهله ، وربّما علّلنا هذا الانغلاق برغبة الخلفاء الفاطميّين الشديدة في أن لا يُعطوا لرعاياهم من حياتهم الخاصّة إلاّ صورة الجدّ والوقار ، بلهَ التقشف والتبتّل ، تلك الصورة التي يقدّمها لنا المقريزي من المعزّ وهو يستقبل جمعاً من أنصاره الكتاميّين : يَقَعُ الاستقبال في غرفة عارية ، يضيئها قنديل ضئيل ، ولا أثاث لها إلا البُسُط مطروحةً على الأرض ومكتب صغير يجلس الخليفة وراءه في جبّة عاديّة ، وعلى المكتب كتب وسِجلاّتٌ غَطَّتْه حتّى تبعثرت على أرض الغرفة . فلا يشكّ الناظر في أنّ المعزّ لا همّ له الاّ النظر في شؤون الدولة والدعوة ، يقضي في معالجتها الليل والنهار ، وربّما ساعدته على ذلك زوجتُه ، فهي معه بالغرفة ولكنها قعَدَت وراء حجاب عند دخول الكتاميّين . ويتوجّه الخليفة الى أنصاره بكلام بليغ ، فيحذِّرهم من اتّباع الشهوات ، ولا سيّما شهوة الجسد ، ويحثّهم على الاكتفاء بزوجة واحدة حتى يحافظوا على طهارة النسب الذي منه انحدرت سلالتهم ، وتسلمَ جسومُهم من الأمراض والأدواء . ويُفهم من كلامه ، وكلّه بمسمع من زوجته ، أنّه يربط سلامتهم الجسديّة والأخلاقيّة بغايات الدولة القريبة في مصر ومقاصدها العسكريّة في الشرق ، فإذا انحلّت

أخلاقهم بكثرة التسرّي واختلط الدم في أولادهم وأحفادهم ، وسكنوا إلى الحياة الليّنة وركنوا إلى الدعة والأمن ، انخرمت قُوّتهم الحربيّة وضعفت عصبيّتهم، وقلّ غَناؤهم في تحقيق مآرب الأئمّة ، ذلك ما يصرّح به لهم : « . . . والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثير منهن ، والرغبة فيهنّ ، فيتنغّصَ عيشكم، وتعودَ المضرّة عليكم ، وتُنهكوا أبدانكم ، وتذهبَ قوّتكم ، وتضعفَ نحائِزكم (طبائعكم وأصولكم) . فحسب الرجلِ الواحدِ الواحدةُ ! ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم اذا لزمتم ما آمركم به ، رجوتُ أن يقرّب اللّه علينا أمر المشرق كما قرّب أمر المغرب بكم »[1] .

ونحن ، اذ نتبسّط في مظاهر التقشف الفاطميّ بافريقيّة ، لا نزعم أن الخلفاء كانوا يقضون كامل أوقاتهم على هذه الشاكلة التي وصفها المقريزي . بل نجد في مدائح الشاعر ، شيئاً من الوصف للاحتفالات والمواكب التي يبرز فيها المعزّ إلى الناس، في أبّهة وبهجة ، تحفّ به الخيل المطهّمة ويعلو رأسَه التاج المرصّعُ ومن فوقه المظلّة الفاطميّة يرفعُها الحاجب المكلّف بها ليقيَ الخليفة من حرّ الشمس . وهي مواكب الأعياد والجُمَع ، بين القصر والمسجد . ولكنَّ الغريب أن المؤرّخين ، الفاطميّين وغير الفاطميّين ، لم يصفوا هذه المواكب ، حتى القاضي النعمان ، لم يبسط في كتاب « دعائم الإسلام » ، وهو حصيلة الفقه الفاطميّ ، مراسم الاحتفالات الفاطميّة الخاصّة بالفترة الافريقيّة ، ولا حتّى الاحتفال بذكرى غدير خمّ يوم 18 ذي الحجّة ، وهو عيد سيصبح له شأن عظيم في الفترة المصريّة . فالمظنون عندنا أنَّ سكوت الرواة عن مظاهر الحياة الخاصّة وحتى العامّة ، يُبَرَّر كما قلنا بانعدام الظواهر التي تدعو إلى الوصف والتبسّط ، فلا شكّ أنّ الأئمّة الأربعة ، وهم مُنشِئو الدولة وموطّدو أركانها لم يكن لهم من الفراغ والدعة ما يدعوهم إلى إنشاء البلاط العامر وفتح المجالس الزاخرة : فأنّى للقائم أو المنصور أو المعزّ

(1) انظر النصّ كاملاً في ص. 137 من اتعاظ الحنفاء .

أن يجمعوا الشعراء أو يسمعوا المغنّين ، وهم دوماً بين حملةٍ بيزنطيّة وتسرّب أمويّ وفتنة خارجيّة ؟

ولا ننسى بعد هذا ، أنهم كانوا محاطين بكراهة أهل افريقية لهم ، أو على الأقلّ بالاحتراز والتحفّظ ، إذ رفض أهل القيروان ادّعاءاتِهم في الولاية على كافّة المسلمين ، وتحويراتِهم لطقوس الدين ، فاعتبروهم مارقين عن السنة والجماعة ، دُخلاء على المغرب وعاداتِه ، فأطلقوا عليهم آسم « المشارقة » تحفّظاً وربّما آزدراءً . وفي هذا الصدد ، نجد في كتب الصالحين والزهّاد ، كرياض النفوس للمالكي (1061/453) ومعالم الايمان للدبّاغ (1297/696) ، أمثلة كثيرة من مقاومة القيروانيّين ، السلبيّة أو الفعليّة للنفوذ الفاطميّ وطقوسهم المستحدثة بالأرض التي طبعها سَحنون (954/240) بصلابته ورباطة جأشه .

فمن المقاومة بالرّفض ، امتناع المؤذّن القيرواني « عروس » عن النداء بعبارة « حيّ على خير العمل » التي يتضمّنُها الأَذَانُ الشيعيّ ، فيقول المالكي : « . . . وفيها (في سنة 919/307) قُتل عروس المؤذن الرجل الصالح . كان رضي اللّه عنه يؤذّن بمسجد عبّاس صاحب سحنون ، وكان اسمه منيب ، وسبب قتله أنّه شهد بعض المشارقة أنّه لم يقل في أذانه : حيّ على خير العمل . فقُطع لسانُه وقُتل بالرماح بعد أن طِيف به بالقيروان ، ولسانه بين عينيه . . . »[1] .

وكذلك تمسُّكُ الفقهاء في تقدير موعد الصوم والإفطار برؤ ية الأهلّة ، ورفضُهم للطريقة الحسابيّة التي عمل بها الفاطميّون ، رغم أنها أضمنُ للتقدير الصحيح وأنفى للخطإ الناتج عن تعذّر الرؤ ية ، مثلما يؤكّده الداعي علم الإسلام صاحب المجالس المستنصريّة : « . . . دخول الصوم والخروج منه (يكونان) بالرؤ ية والحساب جميعاً، إنَّهُما كالظاهر والباطن ، إذا أشكل الأمر

---

(1) رياض النفوس ، مخطوط القاهرة رقم 116 ، ورقة 72 أ ، وج 152/2 من طبعة البكوش ، دار الغرب الإسلامي .

في أحدهما التُمس في الآخر . . . فالهلال كالظاهر لأنه مشاهَد ، والحساب كالباطن لأنه معقول . . . فان وافق الحسابُ الرؤ يةَ فقد اتّفق الظاهر والباطن ، وزال الاشكال . . . وان وفى الحساب ، ولم يطلع الهلالُ عُلِم أنه قد غمّ أو وقع في نظره إخلال . . . »[1] . ويؤكّده كذلك الداعي هبة اللّه الشيرازي في « المجالس المؤيديّة ، بالحجج العقليّة والنقليّة»، فمن النقليّة والعقليّة معاً تأويله الآية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾ بأنّ اللّه يشير إلى النصارى ، والنصارى لم يكن صومهم متعلّقاً بالرؤ ية بل بالحساب[2] .

ولكنّ الفقهاء تمسّكوا بالرؤ ية فتعرّضوا للنقمة والانتقام ، فيروي لنا المالكي في كثير من الاستفظاع ما نزل بأحدهم :

« وفيها (سنة 341) صُلب محمد بن الجبلي قاضي مدينة برقة . والسبب في ذلك أنّه أتاه عامل برقة المعروف بابن كافي فقال له : انّ غداً العيد . فقال له : إن رُؤ يَ الهلال الليلةَ ، كانَ ما قلتَ ، وان لم يُرَ ، لم أفرَحْ لأنّه لا يمكنني أن أفطّر الناس في يوم من رمضان وأتقلّدَ ذنوب الخلق . فقال له : بهذا وصل كتابُ مولانا . فالتمسَ الناس الهلالَ تلك الليلة فلم يَرَوْه . فأصبحَ العامل إلى القاضي بالطبول والبنود وهيئةِ العيد . فقال له : لا واللّه لا أخرجُ ولا أخطبُ ولا أصلّي ولا أفطّرُ الناس في يومٍ من رمضان ولو عُلّقْتُ بيدي . فمضى العامل فجعل من خطبَ وصلّى ، وكتب بما جرى الى مولاه . . . (فاستقدمه الى القيروان) فنصَبَ له صارياً عند الباب الآخِر من أبواب الجامع الذي يلي درب المهر وعُلّق بيده إليه في الشمس، فأقام كذلك ضاحياً في شدّة الحرّ يومه ذلك . فلمّا كان بالعشيِّ مات رحمه اللّه. وكان يطلب من يسقيه الماء في ذلك الحال ، فلا يجسر أحدٌ من الناس (على)

---

(1) المجالس المستنصريّة نشر محمد كامل حسين ، ص 128-129 من المتن وص. 216 من التعليقات .

(2) البقرة ، 183 . وانظر ما يقوله محمد حسن الأعظميّ في كتابه : « الحقائق الخفيّة . . . » الرؤ ية والحساب ، وتعليل صوم رمضان كاملاً ، وكذلك عن التقويم « المصريّ » الفاطميّ .

سقيه . . . ثمّ صلبوه على خشبة بباب أبي الربيع رحمه اللّه »[1] .

أمّا المقاومة بالتحرّك ، فتظهر في إفْتَائهم بشرعيّة الانضمام الى ثورة أبي يزيد على الحكم المشرقيّ « فقتال هؤلاء القوم أفضل من قتال المشركين » ويمضي المالكي في سرد كرامات أبي الفضل الممسي الفقيه فينقل الينا فتواه في وجوب الخروج مع أبي يزيد « لأن الخوارج من أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ، ولو زنَوا وسرَقوا ، وبنو عبيد ليسوا كذلك ، لأنهم مجوس زال عنهم اسم المسلمين فلا تتوارثوا معهم ولا تنتسبوا . . . »[2] .

وفعلاً حمل كثير من صلحاء القيروان السلاح مع الخوارج ، فاختاروا بين الشرّين أخفّهما ، راجين من اللّه أن يُظهرهم على المشارقة أوّلاً ، ثمّ أن يسلّط على أبي يزيد من يقهره بدوره . هذه هي السياسة التي صرّح بها أبو إسحاق السبائي عند خروجه إلى الوادي المالح حيث سيستشهد مع أربعة وثمانين من أهل القيروان : « . . . فعلينا أن نخرج مع هذا الذي من أهل القبلة لقتال مَن على غير القبلة ، وهم بنو عدوّ اللّه . فان ظفرنا بهم لم ندخل تحت طاعة أبي يزيد لأنّه خارجيّ ، واللّه عزّ وجلّ يسلّط عليه إماماً عادلاً فيُخرجه من بين أظهرنا ويقطع أمره عنّا »[3] .

وقد حفظ المنصور ثمّ المعزّ على أهل القيروان خذلانَهم وتحالفهم مع صاحب الحمار ، بل من الدارسين من يعزو انتقال المعزّ إلى القاهرة ، إلى هذه العداوة الدائمة بين القيروان والدولة الشيعيّة . وفي هذا التعليل شيء من الصحّة ، وان كان السبب الرئيسي في نظرنا هو عزم المعزّ على الاستيلاء على الشرق العبّاسيّ . ولكن لا نشكّ في أنّه كان يضيق بتحفّظ القيروانيّين ، فلم يكن هذا الجوّ ملائماً لازدهار حياة البلاط ولا للإكثار من مظاهر الأبّهة والسؤدد

---

(1) رياض النفوس ، ورقة 192 ب ج 404/2 من طبعة البكوش دار الغرب الإسلاميّ .
(2) نفس المرجع ، 297/2 .
(3) نفس المرجع ، 339/2 .

إزاء الرعيّة ، لا سيّما وأنّ الدعوة الفاطميّة أتت مستنكرة للترف العبّاسيّ عازمة على إبطال اللهو والانحلال وتعويضه ببساطة السلف الصالح والصدر الأوّل . فلذلك لا نجد صدى للأبّهة الملكيّة في فترتهم المغربيّة . أمّا في مصر ، فقد لان لهم القياد ، واتّسع سُلطانهم ، ونقص زهدهم ، فلذلك تبسّطوا في المراسم الملوكيّة وحياة البلاط وتفخيم المواكب والاحتفالات[1] .

ولئن تعرّض الشاعر الى بعض هذه المظاهر من الحياة العامّة ، فانّه يحيطها بضبابٍ من الإبهام لا يَسمح قطُّ بوضعها في إطار جغرافي وتاريخيّ معيّن ، فلا آسم المدن يدقّقه ، لا القيروان ولا المنصوريّة ولا المهديّة ، ولا برقة التي مدح صاحبها ، ولا حتى المسيلة التي قضى بها خمس سنوات .

فإذا استثنينا الزاب والمغرب الأقصى اللذين يذكران أحياناً ، وجبال الأوراس التي ذكرت مرّة واحدة ، واعتبرنا في الجانب المقابل إفراطه في التمثيل بجبال جزيرة العرب ، وقرى الحجاز وأودية نجد ، حُقّ لنا أن نتساءل : هل كان صاحب الديوان مغربيّاً إفريقيّاً ؟

وكذلك الأمر في خصوص الأشخاص ، فانّه لا يذكر إلا الممدوحين المعروفين كالمعزّ وبني حمدون وأفلح الناشب وجوهر . أمّا الآخرون ، من كبار رجال الدولة كالقاضي النعمان ، وجوذر الحاجب ، وأمراء صقلّيّـة الكلبيّين ، وخصوصاً الأمراء الصنهاجيّين البرابرة ، فلا يذكر اسمهم ولو مرّة واحدة ، لا تصريحاً في القصائد ولا تلميحاً في توطئاتها . وقد فسّرنا إعراضه عن رؤساء صنهاجة بأحد أمرين : إمّا تبنّيه لعداوة بني حمدون لهم ، وأمّا نَخْوتُه العربيّة اليمنيّة التي تحمله على احتقار العنصر البربريّ مهما علت مكانته ، مثلما يدفعه تعصّبُه للتقاليد العربيّة في الشعر إلى أن لا يشبّه بناءً شامخاً الا برضوى وكبكب وحصناً منيعاً إلاّ بالأبلق . ولعلّه بعد هذا كان متأثّراً

---

(1) ما. كانار : المراسم الفاطميّة ص. 417 .

هو أيضاً بجوّ الضيق والفتور الذي يميّز العلاقة بين الخليفة ورعاياه[1] .

ولننظر على كل حال في هذه الاشارات ، مهما كان غموضُها وقلّة غَنَائها .

الاحتفالات العموميّة وظهور الخليفة فيها

يشير الشاعر مثلاً إلى الاحتفالات الخاصّة بشهر رمضان ، ولكن بدون تفصيل : [كامل]

92/1 يفديك شهرُ صيامنا وقيامنا ثمّ الشهورُ له بذاك فِداءُ

ونجد اشارة مماثلة الى شهر الصيام في القصيدة الأولى التي أنشدها أمام المعزّ ، ولعلّ إلقاءها كان فعلاً في رمضان : [كامل]

82/53 فَرْضَانِ من صَومٍ وشُكرِ خليفةٍ هٰذا بهٰذا عِنْدَنا مَقْرُونُ

وفي قصائد أخرى ، نجد إشارة الى عيد الفطر كأنّ للعيد موكباً يتضمّن فيما يتضمّن إنشاداً للشعر : [خفيف]

25/35 لَبِسَ العِيدُ منهُ ما يَلْبَسُ الإيمَانُ من نَصْلِ سيفِهِ البَرَّاقِ
26 وَجَلاَ الفِطْرُ منه عن نَبَوِيٍّ أَبْيَضِ الوَجْهِ أبيضِ الأَخْلاَقِ

وكذلك عيد الإضْحى فُرصة لمدح الخليفة ووصف الاحتفال الرسميّ الذي يَحْضُرُهُ المعزّ مع بطانته : [كامل]

22/41 فِي مَوْسِمِ النَحْرِ السَّنِيعِ يَرُوقُنِي فَأَغُضُّ طَرْفاً عن سَنَاهُ كَلِيلا
23 والجَوُّ يعْثُرُ بالأَسِنَّةِ والظُّبَى والأَرضُ واجفَةٌ تَمِيلُ مَمِيلا
24 والخَافِقَاتُ على الوَشِيجِ كأنّما حَاوَلْنَ عندَ المُعْصِرَاتِ ذُحُولاَ[2]

(1) ما. كانار : حياة . . . ص. 14-15 .

(2) السنيع : الجميل اللطيف ، والظبى : السيوف . والوشيج : قضبان الرماح . والمعصرات : السحب . والذحل : الثأر .

المظلّــة

هذه المظلّة الممتدّة الأطراف ، التي تصاحب الخليفةَ في كلّ تنقّلاته الرسميّة وكأنها من لوازم الملك كالتاج والصولجان عند غيره ، يصفها ابن هانىء في شيء من التبسّط ، فيشبّهها في امتدادها وسعة دائرتها بالسحابة ، ولعلّه يلمّح إلى الغمامة التي ورد في السيرة النبويّة أنها كانت تلازم محمداً (صلى اللّه عليه وسلم) في أسفاره : [خفيف]

30/35 وَغَمامٍ في ظِلّ أَلْوِيَةِ النَّصْـ ـرِ ، فِمِنْ راجفٍ ومن خَفّاقِ

هذه الغمامة منسوجة من الذهب بخيوط مضاعفة ، مرصّعة بالجواهر ، تشبه في علوّها القِباب التي تُنْصَب على الظعائن فوق مطاياهنّ : [كامل]

27/41 وعلى أميرِ المؤمنينَ غمامَةٌ   نَشأَتْ تُظَلِّلُ تاجَهُ تَظْليلا
28 نَهَضَتْ بِثِقْلِ الدُرّ ضُوعِفَ نسجُهَا   فَجَرَتْ عليهِ عَسْجَداً مَحْلولا
32 . . . رُفِعَتْ له فِيها قِبابٌ لم تكُنْ   ظُعْناً بأَجْراعِ الحِمَىٰ وحُمُولا

وعليها نقشت صور حمام في أيكه ، فكلّما تحرّكت أضلاع المظلّة خفقت أجنحة بنات الهديل كأنّها تستعدّ للانطلاق في الجوّ :

33 أَيكِيَّةُ الذَّهبِ المُرَصَّعِ رَفْرَفَتْ   فِيهَا حمامٌ مَا دَعَوْنَ هَدِيلا
34 وَتُبَاشِرُ الفَلَكَ الأثيرَ كَأَنَّمَا   تَبْغِي بِهِنَّ إِلَىٰ السَّمَاءِ رَحِيلا

الخيــل

للشاعر اهتمام خاصٌ بالخيل ، لأنّ الخليفة حسب زعمه ، ميّال اليها عطوف عليها ، عليم بأنواعها وشياتها . فكثيراً ما يلجأ إلى تشبيه أفراس المعزّ بالغواني الحسان : [كامل]

39/41 وَكَأَنَّمَا الجُرْدُ الجَنَائِبُ خُرَّدٌ   سَفَرَتْ تَشُوقُ مُتَيَّماً مَتْبُولاَ

ويشيد بمحبّة الخليفة للخيل ، فهو الذي يتخيّر لكل فَرَس اسماً أو لقباً ، ويبني له مقصورةً شبيهة بالقصر في العلوّ : [متقارب]

32/58 وَلَمَّا تَخَيَّرَ أَنْسَابَهَا   تَخَيَّرَ أَسْمَاءَهَا وَالكُنَى
33 وَلَيْسَ لَهَا مِنْ مَقَاصِيرِهِ   سِوَى الأُطُمِ الشَّاهِقِ المُبْتَنَى

ولا بدع أن يكون الخليفة شديدَ الشغف بالخيل ، وبالتالي أن يتوسّع ابن هانىء في وصفها والإشادة بها : أليست هي دوابّ الحرب قبل غيرها ؟ فلذلك نراه يصفُها أيضاً في حالة الشدّة والجهاد : [طويل]

30/37 لَهُ المُقْرَبَاتُ الجُرْدُ يُنْعِلُهَا دَماً   إِذَا قَرَعَتْ هَامَ الكُمَاةِ السَّنَابِكُ
31 يُريقُ عليها اللُّؤْلُؤُ الرَّطبُ ماءَه   ويَسْكُبُ فيها ذائبَ التِبْرِ سَابِكُ

ولا شكّ أن محبّة الشاعر لها ليست وليدةَ عطف الخليفة عليها : فهو يحبّها لذاتها محبّةً صادقةً ولا يتزلّف إلى المعزّ بوصفها ، ودليلنا على ذلك أنّه خصّص لها أربعين بيتاً من القصيدة 23 التي وصف فيها هدايا جوهر الى المعزّ من مصر . تضمّنت الهديّةُ مجموعةً من عتاق الخيل ، فأخذ الشاعر في تعداد محاسنها ، وتدقيق ألوانها ، وتفنّن في اختيار اللفظ والصورة حتى برز المشهد تحفة فنّيّة رائعة . وسنعود الى هذا الوصف حين ندرس فنّ ابن هانىء، وبالخصوص تأثير المرئيّاتِ في أفُقه الشعريّ .

السيف ذو الفقار

في هذه المواكب يتقلّد الخليفة سيفَهُ ، ويدعوه الشاعر « ذا الفقار » مسايرَةً للاعتقاد الشيعيّ في أنّ سيف الأئمّة انما هو سيف الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) الذي «لم يضرب به غير رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) وعليّ

وصيّه ، بإعطائه إيّاه له ، فلم يُعطِهِ أحداً قطُّ غيرَه »[1] . وقد اغتصبه العبّاسيّون فاسترجعه أبناء فاطمة في ظروف عجيبة رواها لنا القاضي النعمان . ثم توارثه الأئمّة أباً عن جدٍّ يخرجون به إلى الأعداء فيهزمونهم ، ولا سيّما المنصور في وقعة « الخصوص » أو « الحريق » ضدّ صاحب الحمار . يصف النعمان بطولات السيف وجهاد المنصور فيقول على لسان أحد الشهود : « وكان يوماً شديداً ، وقد أخذ العدوُّ علينا مضايق الجبال ، وأحدقوا بنا من كلّ جانب ، وهو (المنصور) بيننا صلى اللّه عليه وآله ، يقدُمنا ، وهٰذا السيفُ في يده وقد انتضاه ، فاذا رفع يده به وحمل على ناحيةٍ من نواحي العدوّ ، انهزمُوا بين يديه كأنّما غشيَتهم صاعقة من السماء » .

فلا غرو أن يكون هذا السيف « على قصره وقلّة قدره في العين » عظيم الشأن عند الفاطميّين ودعاتهم ، وذلك «لاختصاص اللّه عز وجل به رسولَ اللّه صلى اللّه عليه وآله ، واختصاص عليّ بالكرامة التي أكرمَهُ بها ، والحجّة التي أختصّه بفضلها ، والعلم الذي أودعه إيّاه ، لأنّ السيفَ في الظاهر آلة الغَلَبة باليد ، والعلم في الباطن آلةُ الغلبة باللسان والحجة » .

وهكذا صار ذو الفقار ، بانتقاله من الرسول إلى عليّ ، رمزاً لانتقال الإمامة الدينية والزمنيّة ، ووراثة العلم الباطن ، « فاختصّ عليّاً صلوات اللّه عليه بما لم يختصّ به غيرَه »[2] .

وقد رويَت في شأن صنعه الأوّل أعاجيب أخرى ، ذكر بعضاً منها الأميني في موسوعة الغدير . وكذلك فصّلوا مآتيَه ومناقبَه وبلاءه في بدرٍ حتى انّ صوتاً سماويًّا ـ وقيل جبريل نفسه ـ صرخ :

لا سيف إلاّ ذو الفقار ، ولا فتى إلا عليّ

---

(1) القاضي النعمان : المجالس والمسايرات 114-115 .

(2) القاضي النعمان : المرجع المذكور .

فصار هذا البيت نشيداً ينشد في الوقائع وشعاراً ينقشُه الصياقل على ما يصنعونه من سيوف ، تفاؤلاً وتبرّكاً[1] .

واكتسب ذو الفقار صفةً قدسيّة لأنّه رمز مادّي للوصيّة ، أي لإمامة عليّ ، كما أنّ حديثَ الغدير هو الإعلانُ المعنويّ عليها ، واقترن اسمُه في ذاكرة الشيعة باسم وارثه وصاحبه ، علي بن أبي طالب .

وعلى مرّ الزمان ، انتقل اسم « ذو الفقار » من الحديد إلى البشر ، فصار يطلق على الأشخاص ، خصوصاً عند شيعة القارّة الهنديّة ، كما صار اسم الحسنين ـ الحسن والحسين ـ يعيّن الرجل الواحد ، في مصر مثلاً .

ولا يفوت الشاعر أن يشيد بسيف المعزّ ، ويلحّ على كونه موروثاً عن النبيّ (صلى اللّه عليه وسلم) : [كامل]

69/41 لَـكَ حُسْنُـهُ متقـلِّداً وبـهـاؤُهُ مُـتَنَـكِّـبـاً ، ومَـضَـاؤُهَ مَـسْـلُولاً

74 . . . سَمَّاهُ جدُّكَ ذا الفقارِ، وانّما سَمَّـاهُ مَنْ عَـادَيْتَ: عَـزْرَائِيـلاَ

على أنّه يطلق اسم ذي الفقار على كل سيف مسلول في خدمة الأئمّة ، كما رأينا في مدحه للشيباني[2] : [بسيط]

66/60 لِلّهِ ما تَنْتَضِي مِنْ ذِي الفَقَارِ وَمَا تَشُـدُّ مِنْ عَضُدِ الـرَّأيِ الإمَـامِيّ

التـــاج

لا يصف ابن هانىء بالتدقيق تاج الخليفة ، وان كان ذكَره غير ما مرّة ، في صورة تشعر بأنّه إكليل بارز لامع يُرى من بعيد ويبعث مرآه الرعب في قلوب

---

(1) عبد الرحمان زكي : النقوش الزخرفيّة والكتابات على السيوف الإسلاميّة ، صحيفة المعهد الإسلاميّ بمدريد ، 1957 ، ص 203 .

(2) انظر الفصل الثالث ، ص 98 .

الأعداء من بني أميّة : [كامل]

41/9 بُهِتُوا فَهُمْ يَتَوَهَّمُونَكَ بَارِزاً   وَالتَّاج مُؤْتَلِقاً عَلَيْكَ لَمُوحَا

وبالرغم من أن ابن حمّاد[1] يزعم أنّ المعزّ هو أوّل من تتوّج من ملوك بني عبيد ، فانا نظنّ ، مع ماريوس كانار[2] ،أنّه لم يكن تاجاً بالمعنى المعروف ، أي غطاء مصنوعاً من معدن نفيس مرصّع بالحجارة الكريمة ، بل كانت عبارة «التاج» تُطلق على عمامة الخليفة مشدودةً حول الرأس بطريقة خاصّة به . فلو كان تاجاً فخماً ، كما سيصير عند فاطميّي مصر ، لما أغفلَه الشاعر ولتبسّط في وصفه كما فعل بالمظلّة . بل بالعكس نراه يذكره ، في قصيدة أخرى ، بكيفيّة تُشعر بأنها العِمامة لا غير : ذلك أنّ الخليفة ، حين بلغه انتصار أسطوله ، قبّل الأرض سجوداً للّه وحمداً ، فتعفّرَ وجهُه و « النظمُ والإكليل » ، أي نظام العمامة وكيفيّةُ شدّها : [كامل]

13/40 . . . وسُجُودَه حتّىٰ التَقَىٰ عَفَرُ الثَّرَىٰ   وَجَبِينُه والنَّظْمُ والإكْلِيلُ

فلا شكّ أنهم اصطلحوا على عمامة الخليفة فسمّوها تاجاً نظراً لامتيازها بلون خاصّ وقماش خاصّ ، وربّما لترصيعها فيما بعد بالجواهر . وكذلك اصطلحوا على العمامة التي اختصّ بها بعض حجّاب قصورهم ، فسمّوها الحنَك لأنها كانت تدار على الحنك، وسمّوا صاحبَها الأستاذ المُحَنَّك[3] .

العــرش

تتضمّن المواكب الرسميّة مجلساً عموميّاً يظهر الخليفة أثناءه لرعيّته ؛ وقد تبسّط في وصفه مؤرّخو مصر خاصّة ، ممّا يدلّ على أنّه لم يكن بافريقيّة

(1) أخبار بني عبيد 45 . وانظر : صبح الأعشى 468/3 و 480 .

(2) المراسم الفاطميّة . . . Cérémonial, 390 -392 .

(3) المقريزي : خطط 67/4 . وانظر : صبح الأعشى 477/3

على نفس الأهميّة ؛ وهو يخضع ، حسب ما ورد في وصف المقريزي[1]، لترتيب مضبوط ونظام مقرّر يقصد منه بعث الهيبة والخشوع في نفوس العامّة : فالخليفة يجلس على عرشه ، دون أن يراه الحاضرون ، فإذا استوى على مقعده في كامل عدّته ، جذب الحجّابُ الستائرَ كلَّها دَفعة واحدة ، فيبرز الإمام آنذاك لرعاياه المبهورين في عظمته الكاملة .

يحدثنا الشاعر عن الستائر التي تحجب المعزّ ثم ترفع سدولها فجأة فتنطق ، وهي العجماء ، بجلالة الإمام : [كامل]

57/41 وَلَحَظْتُ مِنْبَرَكَ المُعَلَّى رَاجِفاً مِنْ تَحْتِ عَقْدِ الرَايَتَيْنِ مَهُولاَ
58 مَسْدُولَ سِتْرِ جَلاَلَةٍ أنْطَقْتَهُ فَرَفَعْتَ عَنْ حِكَمِ البَيَانِ سُدُولاَ

في الحقيقة ، لا يتحدّث عن « عرش » ، بل يذكر « منبراً » ، فهل يعني أنّ هذه الجلسات العموميّة كانت تقع بالجامع ؟ أم يستعمل عبارة « منبر » في معنى لغويّ بحت ، وهو المقعد والموقف المرتفع شيئاً ما عن الأرض ليسهل على الخطيب إبلاغ صوته ؟ لا ندري ، وان كانت الأبيات الموالية ترجّح أنّ المقصود هو المسجد الجامع : فالشاعر يشيد بتقوى الإمام وجهاده وعطفه على الحجيج : [كامل]

59/41 وقضيتَ حجّ العام مؤتنفاً ، وقد ودّعَتَ عاماً للجهاد مُحيلا

انّ عبارة الشاعر في هذا البيت شديدة الغموض في الحقيقة : فقوله « قضيت حجّ العام » لا يَدع في الظاهر مجالاً للشكّ في أن المعزّ حجّ إلى مكّة ورجع منها بعد إتمام المناسك ، وعبارة « مؤتنفاً » تشعر بأنه قضى هذا الفرض ابتداءً ، أي لأوّل مرّة[2] . ولكن ، من جهة أخرى ، لم يذكر المؤرّخون قطّ انّ المعزّ قد حجّ إلى البيت ، بل يستنتج من كتيّب للمقريزي عدّد فيه « من

(1) خطط ، 2/ 215- 216 .
(2) ائتنف الشيء واستأنفَهُ : أخذ أوّلَهُ وابتدأهُ (اللسان : أنف) .

حجّ من الخلفاء والملوك »[1] أنّ الخلفاء الفاطميّين لم يحجّ منهم أحد ، سواء في الفترة المغربيّة أو المصريّة . ولو كان المعزّ راجعاً من المناسك ، لما اكتفى شاعره بهذه الاشارة الغامضة للإشادة بهذا الفعل المبارك . فماذا يعني إذن ؟

لعلّ الخليفة استقبلَ وفداً من الحجيج فأغدق عليهم النعم ، أو شفع لهم ، كما يقول الشاعر ، فرفع عنهم مظلمة :

60/41 وَشَفَعْتَ فِي وَفْدِ الحَجِيجِ كَأَنَّما نَفَّلْتَهُمْ إِخْلاَصَكَ المَقْبُولاَ

ولكن ، أي شفاعة وأيّ مظلمة يعني ، أيقصد القانون الذي كان أصدره المهدي عبيد اللّه سنة 921/309 موجباً على كلّ من يقصد الحجّ مهما كان منطلَقُهُ ، أن يمرّ بالعاصمة (المهديّة) ليدفع الضرائب الموظّفة عليه في كل ولاية يمرّ بها ؟ وقد كان هذا القرار ، حسب ما يذكره ابن عذاري[2] ، سبباً من أسباب النقمة على العبيديّين ، لأنه يضاعف المسافة ويطيل السفر على الحجيج . فهل أبطل المعزّ العملَ به ؟ ولكن ما بال المؤرّخين لا يذكرون له هذه المكرمة ؟

أم هل يشير إلى توسّل والدة المعزّ الى ابنها في أن لا يحرّك جيوشه نحو مصر قبل أن تقومَ هي بواجب الحجّ ، ثم رغبتِها اليه أن يؤجّل الحملةَ الى ما بعد وفاة كافور ، اعترافاً له بما حباها به من حسن القبول عندما مرّت بأرضه في طريقها الى مكّة ؟ لا يسعنا ، في كلّ هذا ، إلاّ التساؤ ل ، نظراً لغموض عبارة الشاعر ، بل ولاستغلاقها لأنّها لا تتّفق في الحقيقة مع أيّ من هذه الافتراضات .

ومن هذه المكرمات التي صنعها المعزّ بالمسجد ، يذكر الشاعر أيضاً

---

(1) ص 12 من مقدّمة كتاب « الذهب المسبوك » .
(2) ابن عذارى : بيان . . ج 1 ، ص 186 .

عفوه على « الناكثين » ، ولعلّه يعني بعض الثائرين الذين وقعوا في قبضته :

61/41 وَصَدَرْتَ تَحْبُو النَّاكِثِينَ مَوَاهِباً هَزَّتْ قَؤُولاً لِلسَّمَاحِ فَعُولاَ

ولكنّه حسب المألوف ، لا يذكر أسماءهم ، ولا ظروف نكثهم .

مدى حظوة الشاعر لدى المعزّ

نعود الآن إلى البحث عن مرتبة ابن هانىء بين شعراء الدولة ، وذلك على ضوء ما يتقدّم به الى الخليفة من شكاوى وتذمّرات من الحسّاد ، على غرار ما يشكوه المتنبّي في بلاط سيف الدولة .

لا يوضّح لنا أسماء هؤلاء الحسّاد ، ولا سبب حسدهم ، وإنّما نفهم أنهم يرمونه بالتزلّف الكاذب الى الخليفة طمعاً في عطائه وبذلك الطمع يفسّرون غلوّه في المدح . ويدفع الشاعر التهمة فيؤكّد أنه صادق في مدحه لا يحدوه حرص ولا طمع : [طويل]

63/3 أرَانِي إذَا مَا قُلْتُ بَيْتاً تَنَكَّرَتْ وُجُوهٌ كَمَا غَشَّى الصَّحَائِفَ تَتْرِيبُ
64 أفِي كُلّ عَصْرٍ قُلْتُ فِيهِ قَصِيدَةً عَليَّ لأَهْلِ الجَهْلِ لَوْمٌ وَتَثْرِيبُ؟
65 وَمَا غَاظَ حُسَّادِي سِوَى الصِّدقِ وحدَهُ وما من سَجَايا مِثليَ الإفكُ والحُوبُ
66 وما قَصْدُ مِثْلِي في القصيدِ ضَراعَةٌ ولا من خِلالِي فِيهِ حِرْصٌ وَتَرْغِيبُ

وقد نُسبت سعايةٌ من هذا النوع إلى وليّ العهد تميم ، وعُلّلت بغيرة الأمير الشاعر من حظوة ابن هانىء عند أبيه . ولكن ، لا يمكن أن نعدّ تميماً من الطامعين في جوائز الخليفة ، فنحشره في زمرة هؤلاء الحسّاد الذين يشكوهم ابن هانىء . فالأرجح أنّه يتذمّر من بقيّة شعراء القصر ، وان كنا نجهل أسماءهم : فهو يحثّ الخليفة على أن يحكم بينه وبينهم حكماً عادلاً ، فيحلّه المحلّ اللائق به وهو محلّ ربّ القريض ، دون أن يطالبه ، مثل المتنبّي ، « بكبتهم » لازالة حسدهم :

68/3 أَيْنَ مَوْضِعِي فِيهِمْ لِيَفْخَرَ غَالِبٌ   يَبِينُ بِسِيمَاهُ ، وَيُدْحَرَ مَغْلُوبُ
69 وَقَدْ أَكْثَرُوا، فَاحْكُمْ حُكُومَةَ فَيْصَلٍ   لِيُعْرَفَ رَبٌّ فِي القَرِيضِ وَمَرْبُوبُ!

فمن هُم هؤلاء الشعراء الذين كالوا له الاتّهام في بلاط الخليفة ؟ انّ المصادر لا تذكر لنا شيئاً عن هذا التنافس . ولا شكّ أن الشعراء كانوا كثيرين بالقيروان في مدّة المعزّ ، وأنّ منهم من تجاسر على مدح الإمام الشيعيّ بالرغم من استنكار الفقهاء والصلحاء . ولكن لم يصلنا شيء من شعرهم ، إمّا لأنّهم كانوا مغمورين لم تثبت قصائدُهم أمام تعاقب الأزمان والعصور ، وإمّا لأنّ دواوينَهم أُتلفت بعد تراجع بني زيري عن الولاء الفاطمي سنة 1015/407 ورجوعهم الى مذهب السنّة . وبقيت لدينا أسماء بدون آثار ، مثل ابن القتّار الذي ذكره المالكيّ[1] ضمنَ مادحي الأئمّة ، وكان معاصراً لشاعر آخر عرف بهجائه لهم ، اسمه سهل بن إبراهيم الورّاق[2] ، أو ، ان وصلتنا منهم أشعار ، فهي مطهّرة من المعاني الاسماعيليّة مُقتصرة على وصف الخيل أو القصور ، مثل المقطوعات التي احتفظ بها الحصريّ من شعر علي بن محمد الأيّادي وهو شاعر عاصر المعزّ والتحق به بالقاهرة ومات بعده[3] . ولعلّ موقف هؤلاء الشعراء ازاء الفاطميّين كان صورة من موقف أهل القيروان ، في تقسّمهم بين قبول النفوذ الفاطمي ومقاومته .

أمّا الشعراء الآخرون ، الذين توسّع المالكي ثمّ الدبّاغ في نقل أخبارهم ، فهم أقرب إلى الفقهاء منهم إلى الشعراء المحترفين فتظهر مشاركتهم في الشعر السياسي المذهبيّ عرضيّة . من هؤلاء ، أبو القاسم الفزاري الذي لم يرو له صاحب الرياض الاّ الشعر المناهض للشيعة ،

---

(1) رياض النفوس 495/2 .

(2) حوليّات 1973 ص 142 . وانظر رسالة بويحيى : الحياة الأدبيّة . . . 144 حيث وضع الورّاق سهواً في الفترة الصنهاجيّة .

(3) زهر الآداب/ 1003 . وانظر : ح . ح ، عبد الوهاب : الأدب . . . 96 وبويحيى : المرجع المذكور 89 . وانظر شعر الإيادي في الحوليّات 1972 وكذلك فصل « الإيادي » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

وبخاصّة رثاءه للفقيه الممّسي الذي لقي حتفه في صفوف أبي يزيد بوقعة الوادي المالح سنة 944/333 ، ثم مقطوعتين في هجاء العبيديّين ، وكأنّ المالكي أهمل عن قصد « القصيدة الفزاريّة » التي مدح بها المنصورَ بعد ظهوره على صاحب الحمار ، ليكفّر بدون شكّ عن هجائه السابق للأئمّة[1] . وهي ، على طولها ، لا تتضمّن مدحاً كثيراً ، فالقسم الأوّل منها ، وهو الأطول ـ 33 بيتاً من 63 ـ خصّصه الفزاري لذكر فرسان العرب وكرمائهم وحلمائهم والتذكير بمآثرهم تمهيداً لطلب العفو الذي تقدّم به في القسم الثاني . وقد عفا عنه المنصور حسب ما يرويه المخطوط ، بالرغم من معارضة بعض بطانته ، كمحمد بن عبد اللّه الأبروطيّ[2] ، وهو شاعر شيعيّ حاول أن يثنِيَ الخليفة عن الصفح ، فذكّره بأهاجي الفزاري في آل البيت : [متقارب]

أَيَمْشِي الفَـزَارِيُّ فَـوْقَ التُّـرابِ وَأَظْـفـارُهُ فِيـكُـمْ دَامِـيـات ؟

ولكنّ هذا الشاعر مجهول لدينا ، وكذلك راوي شعره في المخطوط ، وهو ينقل عن مؤرّخ يدعى العتقي[3] .

أمّا علي الايادي التّونسي ، فقد عرف بمدحه للقائم الخليفة الفاطميّ الثاني ، وقد روى لنا ابن رشيق خبراً مفاده أنّ شعراء القيروان (ولا يذكر صاحب العمدة أسماءهم)[4] قد هجوا ابن هانىء عند قدومه الى عاصمة الخلافة ، فقيل له : هلاّ أجبتهم ؟ فترفّع عنهم جميعاً ، الاّ عن الايادي فقال : لو هجاني الإيادي لهجوته . فرفعه بهذا الجواب الماهر على غيره ، لذلك لم يشأ الايادي أن يهجوه . وعلى كل حال ، لا نظنّ أنّه كان من بين

---

(1) نشرنا القصيدة الفزاريّة في الحوليّات 1972 ص 110 ، وانظر فصل « الفزاري » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

(2) أو الأبرقطيّ . انظر الحوليّات 10 ص 154 وعدد 17 ص 56 .

(3) حوليّات ، 1972 ، ص 110 وعن العتقي ، انظر : عمر السعيدي : مقدّمة العيون والحدائق ص 35 ومحمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطميّة ، ص 110 هامش ١ .

(4) العمدة ، ص 111 .

الشعراء الذين يشكو منهم ابن هانىء ، لأنّه كان اذ ذاك طاعناً في السنّ ، وربّما انقطع عن قول الشعر ، رغم لحاقه بالمعزّ عن سنّ تناهز المائة . ولئن مدح المعزّ ، فإنّ مدحه لم يصلنا منه الا قطعته المشهورة في وصف « دار البحر » أي قصر الخلفاء بالمنصوريّة .

ويذكر الدبّاغ شاعراً فقيهاً آخر اسمه « ابن الرائس »[1]، ولكنه يؤرّخ وفاته ـ وكذلك وفاة الفزاري ـ بسنة 956/345 ، أي قبل وصول ابن هانىء الى القيروان بثماني سنوات . ونجد أيضاً في بعض المصادر أبياتاً من أرجوزة تنسب الى شاعر شيعيّ يدعى المروزي ، أو المروروذي أو المرودي ، ويبدو أنّـه ابن المروزي القـاضي الشيعي الذي عـرف بتنكيله بفقهـاء السنـة بالقيـروان[2] . ولم تذكر المصادر أن المروزي الشاعر كانت له صلة بابن هانىء .

فلا يمكن اذن أن يكون هؤلاء الشعراء من حسّاد صاحبنا ومنافسيه في بلاط المعزّ . فلا يسعنا اذن الاّ أن نسجّل له هذا التذمّر دون أن نتأكّد من صحّة مزاعمه ، لجهلنا بهويّة مبغضيه .

ولعلّ توجّهه الى المعزّ حتى يفصل بينه وبينهم يدلّ على أنّ الخليفة كان يغالب أحياناً تقشّفه الطبيعي فيرضى بالاستماع الى مدح شعرائه، نزولاً منه عند رغبتهم أو آقتناعاً بأهمية الشعر في نشر الدعوة الفاطمية وإعـلاء كلمة الأئمّة ، كما يظهر من عزمه على مباهاة المشارقة بشاعره ابن هانىء . ويمكن أن يكون صاحبنا تجاسر على تقديم شكواه أثناء جلسة من هذا النوع فطالب بتقديمه على غيره ، محتجّاً بمتانة شعره اذا ما قورنت بقوافيهم الباردة :

[طويل]

67/37 تُسِيءُ قَـوَافِيهَـا ، وَجُـودُكَ مُحسِنٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وَتُنْشِـدُ إرْنَانـاً ، وَمَجْدُكَ ضَـاحِكُ

---

(1) معالم ، ج . 3 ، ص 68 .

(2) **الطالبي** : تراجم أغلبيّة ، ص 516 (فهرس) . وانظر الحوليّات 1972 ص 110 .

وهو ، إذ يقيم هذه المقابلة ، يلاحِظُ أن جوائزهم تفوق جائزته هو ، وأنه يرضى رغم ذلك بنصيبه ، لأنه لا أملَ له في الدنيا الاّ البقاء بجنب الخليفة ، حتى وان سهل عليه تحصيل رزقه في بقاع أخرى من الأرض :

68/37 وَتُجْدَى وَأُكْدَى ، وَالمَنَادِيحُ جَمَّـةٌ فَمَالِي غَنِيَّ البَالِ ، وَهِيَ الصَّعَالِكُ ؟

71 . . . وَمَا سَرَّنِي تَأمِيلُ غيـرِ خليفةٍ وأنيَ لـلأرضِ العَـرِيضَـةِ مـالِـكُ

ولعلّ في هذا البيت الأخير شيئاً من التهديد بالتحوّل الى ممدوحين آخرين ، كما فعل المتنبّي مع سيف الدولة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحسّاد وموقف الخليفة من شعرائه فواضح أنّه لبّى رغبة صاحبنا فقدّمه على غيره وجعله شاعره الأوّل : بذلك يشهد تأبينه الوجيز له حين نُعي اليه .

حروب المعزّ في شعر ابن هانىء

نجد في مدائح المعزّ صدى واسعاً للحروب التي تخوضها الجيوش الفاطميّة ، وهي حروب داخليّة وخارجيّة . فالداخليّة هي الحملات التي يجهزّها المعزّ داخل الامبراطورية ، أي في حدود الخلافة ، بالمغرب الأوسط مثلاً ، لاخضاع القبائل المستعصية ، أو بالمغرب الأقصى للقضاء على الدويلات المستقلّة أو المتحالفة مع الأمويّين . أمّا الخارجيّة فهي التي تستهدف القضاء على الخلافة العبّاسيّة وبسط نفوذ الشيعة على المشرق ، كما تجابه النفوذ الرومي البيزنطي في البحر الأبيض المتوسّط وجنوب ايطاليا (الأرض الكبيرة) وجزيرة صقلّية .

في هذه الأغراض الحربيّة ، يظهر ابن هانىء شاعراً متحزّباً حقيقة ، مقتنعاً بالمبادىء الاسماعيليّة، عاملاً على نشرها بشعره كما تنشرها الجيوش الفاطميّة بالسلاح ، مسخّراً فنّه ولسانه لخدمة الأئمّة ، ورثة الحكم الذي وهبه

الله لجدّهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وتشيّعه هذا هو الذي يَحْمِلُه على اعتبار جميع خصوم المعزّ كفرة مشركين ، مهما كانت نحلتهم . حتى الأمويّون والعبّاسيّون كفّار مارقون ، اذ لا يبقى على ايمانه من قاوم الامام المعصوم ولم يعترف بحقه في الاستئثار دون غيره بحكم المسلمين . لذلك نراه يحث المعزّ على مواصلة الزحف نحو الشرق بعد احتلال جوهر لمصر : [كامل]

39/30 فَإِلَى العِـرَاقِ ! وَذَرْ لِمَنْ قَـدَّمْتَـهُ مِصْراً ، فَهَذَا مُلْكُ مِصْرٍ قَدْ صَفَا !

ويتنبّأ للمعزّ بنصر قريب في العراق يُحلّه محلّ الغاصبين ببغداد (الزوراء) فيقف الشاعر بين يديه منشِداً مشيداً :

56/30 وَخَـطَبْتُ بِـالـزَّوْرَاءِ أُخْـرَى مِثْلَهَـا وَوَقَفْتُ بَيْنَ يَـدَيْكَ هَـذَا اَلْمَوْقِفَـا

وقبلها تنبّأ كذلك لجوهر بالغلبة ، لا على مصر فحسب ، بل على كامل الشرق حتى خراسان : [طويل]

76/27 وَلَمَّـا حَثَثْتَ الجَيْشَ لاَحَ لِأَهْـلِهِ طَرِيقٌ إِلَى أَقْصَى خُرَاسَـانَ مَهْيَعاً

ولا شك أنه ، اذ يتنبّأ بهذه الانتصارات المرجوّة ، يصدر عن رأي الخليفة فيعلن عن هذه البرامج العسكريّة القريبة ، كما لو كان شعره صحيفة ناطقة بمقاصد الدولة ، الظاهرة والخفيّة .

العمليّات بالمغرب

يتوسّع ابن هانىء في استعراض الحملات التي يقودها جوهر ، أو أمراء الزاب وحتى الخليفة نفسه ، ضدّ القبائل البربريّة التي يحرّكها حكّام قرطبة ضدّ الحكم الفاطميّ بالمغرب . ففي أوّل مدحة له بأرض العدوة يروي في شيء من التفصيل، العمليّات التي قادها جوهر ضدّ بني موسى بن أبي العافية المكناسيّين . فقد قهرهم وأرجعهم الى الجادّة، أي الى الولاء الفاطميّ ، ولكنه

عفا عنهم ، وسمح لهم بمغادرة المغرب والالتحاق بالأمويّين : هذا مانفهمه من عبارة « سيف » (بالكسر) التي تعني السّاحل والشاطىء : [طويل]

56/10 وَفِي آلِ مُوسَى قَدْ شَنَنْتَ وَقَائِعاً أَهَبْتَ لَهُمْ تِلْكَ الزَعَازِعَ لُقَّحا
59 ... صَفَحْتَ عَن الجَانِينَ مَنّاً وَرَأفَةً وَكُنْتَ حَرِيّاً أَنْ تَمُنَّ وَتَصْفَحَا
60 وَقَدْ أَزْمَعُوا عن ذٰلِكَ السِّيفِ رِحْلَةً فَمَلَّكْتَ أَوْلَاهُم عِنَاناً مُسَرَّحا

ويفصّل كذلك حملة جوهر على ابن واسول ، وظفره به وبابنه ، أمّا الوالد فقد أسره جوهر وأرسله في قفص الى المنصوريّة كما قلنا :

33/10 وَأَدْرَكْتَ سَوْلاً فِي آبْنِ وَاسُولَ عَنْوَةً وَزَحْزَحْتَ مِنْهُ يَذْبُلاً فَتَزَحْزَحَا
43 ... أقولُ له في مُوثَقِ الأَسْرِ عَانِياً تُجَاذِبُهُ الأغلالُ والقيدُ مُقْمَحَا :
44 لَئِنْ حَمَلَتْ أَشْيَاعُ بغْيِكَ فَادِحاً يغُولُ ، لقَدْ حُمِّلْتَ مَا كَانَ أَفْدَحَا

أما الابن ، فقد كان أشدّ شكيمة من والده ، فقتله جوهر ، لكنّ لهجة الشاعر في حديثه عن هذا الشابّ البطل ، أقرب الى الرثاء منها الىالتشفّي ، كأنّ عاطفته الرقيقة غلبت الى حين متطلّبات المدح ، فلم يُخفِ شفقته على هذا الجذع الباسق الذي قُطع فجأة :

45/10 وَلَا كَآبْنِهِ أذكى شِهَاباً بِمَعْرَكٍ وَأَجْمَعَ فِي ثِنْيِ العِنَانِ وَأَطْمَحَا
46 مَرَتْ لَكَ فِي الهَيْجَاءِ مَاءَ شَبَابِهِ يَدٌ فَجَّرَتْ مِنْهُ جَدَاوِلَ سُيَّحَا
47 وَأَثْكَلْتَهُ مِنْهُ القَضِيبَ تَهَصَّرت أعَالِيهِ ، والرَّوْضُ المُفَوَّفُ صُوَّحَا
48 لَعَمْرِي لَئِنْ أَلْحَقْتَهُ أهلَ وُدِّهِ لَقَدْ كان أوحَاهُمْ الى مأزَقِ الرَّحَا[1]

ولن يعود الى مثل هذه الرأفة في حديثه عن مقتل محمد بن خزر الثائر الزناتي ، بل تطفح القصيدة بمعاني التشفي والسخرية ، ذلك أن الشاعر الذي كان لا يتمالك عن الرحمة والتأسّف أمام مشهد شابّ قصف شبابه وأريق منه

---

(1) تهصّرت : انكسرت وتدلّت . صُوّحَ : يبس . الأوحى : الأسرعُ .

ماء الحياة، تعلّم اليومَ كبت عواطفه بعد اثْنَيْ عشرَ عاماً قضاها في الأجواء الرسميّة ، فصار لا ينطق الا بما يعجب ممدوحيه ، أو أصبح إيمانه بالمبادىء الشيعيّة على درجة من العمق والقوّة بحيث يرى في كل خصم للدولة خصماً له . ولعلّ هذا التحوّل في الانتماء هو الذي يبرّر اختلاف اللهجة بين عرضه لمقتل ابن أمير سجلماسة سنة 959/347 ، وعرضه لنهاية محمد بن خزر سنة 970/359 : فالشفقة هناك صارت هنا تشفّياً ، والعطف على القضيب المقطوع أصبح الآن استهزاء وتهكّماً ، حتى شجاعة القائد الشيخ وإباؤه الذي جعله يخيّر الانتحار على ذلّ الأسر ، لا يرى فيهما ابن هانىء الاّ لجاجة وتمادياً على الغيّ ، وكذلك تأثيره القويّ في قبيلة زناتة لأنّها ترى في ثورته رمزاً لتعلّقها بالحريّة . هذه السلطة الروحيّة لابن خزر على أتباعه لا يعتبرها إلاّ جهالة منهم وسفهاً ، وكل مناهضة للفاطميّين انما هي مناهضة للدين والإيمان والهدى ، وهكذا يصبح كلّ خصم لهم كافراً مشركاً مارقاً : [بسيط]

22/43 لَقَدْ قَصَمْتَ مِنْ ابنِ الخَزْرِ طَاغِيَةً صَعْبَ المَقَادَةِ أبَّاءً عَلى الجَدَلِ
23 إذْ لا يَزَال مُطَاعاً في عَشِيرَتِهِ تُلْقَى إليه أمورُ الزَّيغِ والبَجَلِ
26 . . .مِنْ جَاحِدِي الدينِ والحَقِّ المُنيرِ وَمِنْ عَادِي الأئِمَّةِ، والكُفَّارِ بالرُّسُلِ

ويصوّر في مشهد فظيع ، ما آل اليه هذا الثائر الأبيّ : قطعوا رأسه ونصبوها في سنان رمح وأرسلوها الى المعزّ بالمنصوريّة ، ويدقّق ابن هانىء وصفه لملامح هذه الرأس الميّتة ويبتكر الصور القاسية فيشبّه انحسار الشفتين عن الأسنان بالابتسامة المرّة ، ويمثّل حركة الرأس فوق الرمح الذي يَحملها باهتزاز الرقص ، ولكنه رقص بلا توقيع كما كان الابتسام بلا سرور :

28/43 أتَاكَ يَعْلُوهُ مِنْ عِصْيَانِهِ خَفَرٌ حَتَّى كَأنَّ بِهِ ضَرْباً مِنَ الخَجَلِ
29 يُدِيرُهُ الرُّمْحُ مُهْتَزّاً بِلاَ طَرَبٍ إلَى الكَتَائِبِ، مُفْتَرًّا بِلاَ جَذَلِ
31 . . .كأنَّمَا غَضَّ جَفْنَيْهِ الأزومُ عَلَى صَدْرِ القَنَاةِ أوِ استَحْيَى مِنَ العَذَلِ

بهذا التصوير القاسي الفظيع ، وان كان ذا قيمة فنّيّة لا تنكر ، يبرهن ابن

هانيء على تحوّله النهائيّ الى الولاء الشيعي ، وتبنّيه لعداوتهم بقدر ما تبنّى مبادئهم ، فهذا التفنّن في الوصف ، هذا الاغراق في التشفي ، لا يفسّران فقط بضرورات الخدمة والتقرّب الى الممدوحين بل فيهما أكثر من ذلك : فيهما الانتماء إلى الدعوة ، والتحزّب الكامل لها ، وتسخير كل الطاقات لخدمتها .

فتــح مصـــر

تعرّض ابن هانيء للحملة على مصر ، وانتصار جوهر السريع على فلول الاخشيديّين وادارته الحكيمة للبلاد في انتظار قدوم المعزّ اليها ، في ثلاث قصائد على الأقلّ ، اثنتان منهَا في مدح الخليفة ولكنهما تعظّمان شأن جوهر ، والثالثة في الاشادة بجوهر مباشرة .

تشعرنا مدحة جوهر ـ القصيدة رقم 27 ـ بأنّ الشاعر قد ساير الجيشَ الفاتح على مرحلة من مراحل طريقه الى مصر ، ذلك لأنّه يصف هٰذا الجيش العرمرم وصفَ معاينة ، لا وصف سماع او تخيّل ، بل يعلمنا أنّه التحق بعسكر القائد ليلاً على شاطىء البحر ، بعد أن انطلق الجيش من رقّادة[1] ، فبات ليلته مع الجيش ، دون ان ينام لأنّ الجلبة والضجيج منعا عنه الكرى : [طويل]

13/27 فَلَمَّا تَدَارَكْتُ السّرَادِقَ فِي الدّجَى عَشَـوْتُ إِلَيْهِ ، وَالمَشَـاعِـلُ تُـرْفَـعُ

14 فَتَخْرِقُ جَيْبَ المُزْنِ ، وَالمُزْنُ دَالِحٌ وَتُـوقِدُ مَـوْجَ اليَمِّ ، واليَمُّ أَسْفَـعُ

15 فَبِتُّ وَبَـاتَ الجَيْشُ جَمّاً سَمِيـرُهُ يُؤَرِّقُنِي ، وَالجِنُّ فِي البُعْدِ هُجَّعُ

وفي الصباح الباكر يتحرّك المعسكر بعدّته وعديده ـ ثمانون ألفاً في قول الشاعر ـ فتلمع السيوف وترعد أبواق المنادين وتصلصل الأسلحة ، ويبرز جوهر في جمع غفير من القواد والخدم على الخيول المطهّمة ، كأنّه ملك في حاشيته ، تتبعه خيمته العالية الشامخة كأنها قصر منيف ، وقد لبس الحلّة التي

---

(1) **ابن خلّكان** : وفيات ، ترجمة رقم 141 . وتقول بعض المصادر بأنّ الانطلاق كان من قرية تدعى « سردانية » (انظر ص 134 وص 138) .

كساه ايّاها المعزّ عند توديعه له :

31/27 تَحُفُّ بِـهِ القُـوَّادُ ، والأمْـرُ أَمْـرُهُ	وَيَقْـدُمُـهُ زِيُّ الخِـلاَفَـةِ أَجْمَـعُ
35 . . . وَبَيْنَ يَـدَيْـهِ خَيْلُهُ بِسُـرُوجِـهِ	تُقَـادُ ، عَلَيْهِنَّ النُضَـارُ المُـرَصَّـعُ
36 وَأَعْـلاَمُـهُ مَـنْـشُـورَةٌ وَقِبَـابُـهُ	وَحُجَّـابُـهُ تُـدْعَى لِأمْـرٍ فَتُسْـرِعُ
41 . . . وَسَلِّ سُيُوفَ الهِنْدِ حَوْلَ سَرِيرِهِ	ثَمَـانُـونَ أَلْفـاً : دارع وَمُـقَنَّـعُ
43 . . . وَتَصْحَبُهُ دَارُ المَقَامَـةِ حَيْثُمَا	أَنَاخَ ، وَشَمْلُ المُسْلِمِينَ المُجَمَّـعُ
44 بُـرُودُ أَمِيـرِ المُـؤْمِنِـينَ بُـرُودُهُ	كَسَاهُ الرِضَى مِنْهُنَّ ما لَيْسَ يُخْلَعُ

بهده التفاصيل عن قوّة الجيش الفاتح ، يشعرنا ابن هانیء بقوّة الدولة الفاطميّة وثروتها المادّيّة ، فيدعم ما يدّعيه المؤرّخون عن ازدهارها الاقتصادي والماليّ ، الذي تمثل في تلك الرُّحِيِّ من الذهبِ الخالص التي سبكها المعزّ وحملها معه الى القاهرة .

ويعود الى وصف الجيش الفاتح في مدحة المعزّ ـ القصيدة 46 ـ ويذكر من جديد تشييعه له ، معتذراً على اضطراره الى الرجوع ، مؤكّداً أنّه ، لولا هذه العوائق ـ العائليّة ؟ ـ لرافقه الى النهاية : [طويل]

12/46 فَشَيَّعْتُ جَيْشَ النَّصْرِ تَشْيِيعَ مُزْمِعٍ	وَوَدَّعْتُـهُ تَـوْدِيـعَ غَيْـرِ مُصَـارِمِ
13 وَقَدْ كِدْتُ لاَ أَلْوِي عَلَى مَنْ تَرَكْتُهُ	وَلٰكِنْ عَدَانِي مَا ثَنَى مِنْ عَزَائِمِي
14 وَلَوْ أَنَّنِي اسْتَأْثَرْتُ بِالإِذْنِ وَحْدَهُ	لَسِـرْتُ ، وَلَمْ أَحْفِـلْ بِلَوْمَـةِ لائِمِ

وقد صدّرت هذه القصيدة في الديوان بتوطئة يفهم منها ان المعزّ هو الذي رافق الجيش في طريقه الى الفتح ، وتبنّى الفكرة بعض المؤرّخين كالمقريزي والقلقشندي[1] والمستشرق هـ. ماسّي في دراسته للقصيدة 22 اذ يقول : « . . . القصيدة 46 التي يشيد فيها ابن هانیء برجوع المعزّ الى

---

(1) اتّعاظ . . . ص 162 ـ صبح . . . : ج 3 ، ص 345 .

المنصوريّة بعد تشييعه للجيش المتّجه الى مصر »[1] . والرأي عندنا أن التشييع كان من الشاعر ، لا من الخليفة ، وانما وقع الخطأ لالتباس ضمير الغائب: «وقال يمدح الخليفة ، وهو (المعزّ أو الشاعر على السواء) بالمنصورية بعد رجوعه (رجوع الشاعر) من معسكر جوهر ، ويصف القائد ويعتذر له عن المواصلة » . فقراءتنا هذه أوفق لمضمون القصيدتين 27 و 46 ، وان كنّا لا نستبعدُ أن يؤديَ الخليفة زيارة أو أكثر الى معسكر جيشه في طور إعداد الحملة ، كما يقول ابن خلّكان بصريح العبارة[2] .

وممّا يَدْعَمُ قراءتنا لهذه التوطئة وفهمنا لها على الأساس الذي بسطناه ، أنّ الشاعر ، في الأبيات الأخيرة منها ، يحمل تحيّاتِ الجيش الى الخليفة ، ويقدّم اليه انطباعاتِهِ المتفائلة عن الجند ، كأنّه مراسِل حربيّ يرفع تقريره الى رئيسِه . فما حاجَة المعزّ بتحيّاتِ الجيش أو بهذه الانطباعات ، ان كان هو الذي شيّع جوهراً ؟

48/46 وَإنِّيَ قَدْ حُمِّلْتُ مِنْهُمْ نَصَائِحاً ... كَرَائِمَ تُهْدَى عَنْ نُفُوسٍ كَرَائِمِ

49 إلَيْكَ أميرَ المُؤمنِينَ حَمَلْتُهَا ... وَدَائِعَ كَالأمْوَالِ تَحْتَ الخَوَاتِمِ

50 شَهِدْتُ بِمَا أبْصَرْتُهُ وَعَلِمْتُهُ ... شَهَادَةَ بَرٍّ لا شَهَادَةَ آثِمِ

ونكتشف من خلال كلام الشاعر في هذه القصيدة ، أن الفاطميّين مهّدوا للحملة العسكريّة بحملة دعائيّة واسعة النطاق ، استعملوا فيها الإغراء المادّي لكسب الأنصار و « شراء الضمائر » كما نقول اليوم ، فكأنّ الذهب الفاطميّ هو الذي غلب الاخشيديّين ، « والعطايا الجسائم » هي التي تفسّر سهولة الانتصار ، وركود أنصار الاخشيد وسكوت العبّاسيين وحماتهم من بني بويه ، اذ ليست المناوشات التي قادها أفلح الناشب أو جعفر بن فلاح بكافية لاضعاف الخصم بصورة تمنعه من كل مقاومة :

---

(1) قصيدة ابن هانىء في فتح مصر ، ص 121 .

(2) الوفيات ، ترجمة رقم 141 .

39/46 وَمَا غَال جَيْشَ الشَّرْقِ قَبْلَكَ غَائِلٌ — وَلاَ سِيَّمَا بَعْدَ العَطَايَا الجَسَائِمِ
40 وَبَعْدَ صِلاَتٍ ما رأى النَّاسُ مِثْلَهَا — وَلاَ حُدِّثُوا فِي السَّالِفِ.المُتَقَادِمِ

ويظهر أن هذه « السياسة » كانت طبيعيّة معهودة ، اذ لا يتحرّج الشاعر من ذكرها ، بل نراه يُشيد بها ، ويجعلُها من مزايا جوهر .

أما القصيدة 22، فقد نظمت بعد الفتح، إذ يتعرّضُ فيها ابن هانىء الى سياسة جوهر في المصريّين: حكم عادل، لا ظلم فيه للناس ولا انتزاع للضياع والمكاسب ، ولا ضرائب جائرة تثقل كاهل الرعيّة ، بل استقامة ونزاهة وعدل ، وهي الخصال التي ورثها جوهر عن الخليفة ، فأصبح أهل مصر مبتهجين بالحكم الجديد مرتاحين اليه بعد أن ذاقوا الأهوال من فساد الاخشيديّين ونهَمهم وظلمهم ، وعادت الطمأنينة الى النفوس وذهب الخوف من القلوب ، حتى صار الناس لا يترقّبون فيضان النيل بنفس اللهفة ، لأن جوهراً وحده بمثابة النيل المنعش والغيث النافع : [طويل]

68/22 وَمَا ضَرَّ مِصْراً حِينَ أَلْقَتْ قِيَادَهَا — إِلَيْكَ،أَمَدَّ النِّيلُ أمْ غَالَهُ جَزرُ ؟
71 . . .غَدَا جَوْهَرٌ فيهَا غَمَامَةَ رَحْمَةٍ — يَقِي جَانِبَيْهَا كُلَّ حَادِثَةٍ تَعْرُو
78 . . .سَنَنْتَ لَهُ فِيهِمْ مِنَ العَدْلِ سُنَّةً — هِيَ الآيَةُ المُجلَى بِبُرْهَانِهَا السِّحْرُ[1]
80 . . .وأَوْصَيْتَهُ فِيهِمْ بِرِفْقِكَ، مُرْدَفاً — بِجُودِكَ، مَقْصُوداً بِهِ عَهْدُكَ البَرُّ
84 . . .بِذَا لاَ ضِيَاعٌ حَلَّلُوا حُرُمَاتِهَا — وَأَقْطَاعَها ، فَاسْتُصْفِيَ السَّهْلُ والوَعْرُ

في البيت 80 اشارة الى العهد الذي قطعه جوهر باسم المعزّ للمصريّين ليضمن حرّيّتهم في الطقوس الدينيّة وفي أموالهم وتصرّفاتهم . وقد قرئت هذه الوثيقة الطويلة على المنابر في كافة قرى مصر ومدنها[2] .

ويعود مرّة أخرى الى ذكر مصر في القصيدة 43 التي نظمها سنة

---

(1) اشارة الى سحرة فرعون ولقائهم مع موسى عليه السلام .
(2) المقريزي : اتعاظ . . . ص 148 ـ 153 (نصّ العهد) .

971/360 ، بعد ظفر المعز بثائر مغراويّ آخر يدعى أيضاً ابن خزر . وفحوى الاشارة أنّ « ملك مصر قد صَفَا» وأنّ الأمن استتبّ بالمغرب بسقوط آخر رأس من رؤوس زناتة ، فالوقت حان اذن ليقضي الخليفة فريضة الحجّ : [بسيط]

63/43 فَرَغْتَ لِلْحَجِّ مِنْ شُغْلِ الهِيَاجِ فَلَوْ   سَأَلْتَ مَكَّةَ، قَالَتْ: هَيْتَ فَارْتَحِلِ!

وفي هذه الدعوة تدعيم لما أوّلنا به البيت 59 من القصيدة 41 اذ قلنا ان المعزّ لم يحجّ قط ولا أحـد من الخلفاء الفاطميّين[1] .

على أنّ تحريضه للخليفة على الحجّ لا يصدر في نظرنا عن تقوى وورع شديدين ، وإنّما يُتّخذ الحج ذريعة لـحثّ المعزّ على مواصلة الزحف بالشرق للقضاء على الغاصبين العباسيّين ، اذ لا حجّ الا بعد الاستقرار بمصر ، والاستقرار بمصر هو الذي يسمح بتحقيق المآرب الشرقيّة .

ولا يفوتنا أخيراً أن نشير الى القصيدة 23 التي وصف فيها هدايا جوهر التي بعث بها الى الخليفة من مصر ، وأطال خاصّة في وصف الخيل ، وقد تحدّثنا عن هذه القصيدة ، وسنعود اليها في الحديث عن القسم الوصفيّ .

تعيين عبد الله بن المعزّ على ولاية افريقيّة والمغرب ؟

في هذه القصيدة 43 بالذات ، يلفت انتباهنا أمر لا علاقة له بمصر ، وهو أن الشاعر يبتهج بتعيين ابن المعزّ الثاني ، الأمير عبد الله ، في وظيفة كنّا نظنّ أنها ولاية العهد ، فيؤكّد أنّ السلطان الفاطميّ تدعّمت أركانه بهذا التعيين وأَمِن كلّ خطر :

65/43 فَقَدْ تَوَطَّدَ أَمْرُ المُلْكِ فِيهِ،وَقَدْ   نَدَبْتَ نَدْباً إِلَيْهِ غَيْرَ مُتَّكِلِ

66 لَمَّا شَدَدْتَ بِعَبْدِ اللّهِ عُرْوَتَهُ   أَعْزَزْتَ مِنْهُ مَصونَ العِرْضِ لم يَذِلِ

---

(1) انظر أعلاه ص 154 .

هكذا كنّا نظنّ ، وبعد البحث تبيّن لنا أن تعيين عبد اللّه وليّاً للعهد بعد عزل أخيه الأكبر تميم كان أمراً معروفاً منذ سنتين على الأقلّ ، اذ أعلن عنه بين سنتي 357 و 358/9 -968-9[1] في حين أن هذه القصيدة نظمت سنة 360 إثر القبض على ثائر زناتي آخر ، يدعى أيضاً ابن خزر . فكيف يشيد ابن هانىء بحادث معروف منذ مدّة، مشهور في أنحاء الخلافة ، وكأنّه حدث جديدٌ ينبغي نشرُهُ واذاعته والتعريف به ؟ فلا بدّ أن يكونَ ابتهاجه متعلِّقاً بحدثٍ آخر ، غير معروف آنذاك ، أو هو وليد ذلك العام بالذات .

ولمّا كان المعزّ ، في تأهّبه لمغادرة إفريقية ، يبحث عن خليفة له على المغرب كلّه ، ففكّر أوّلاً في تعيين جعفر بن حمدون ، ثم لمّا خذله أمير الزاب ، حسب بعض المصادر ، أو لمّا أفرط في الطمع والاستئثار ، حسب مصادر أخرى ، فكّر في القائد الصنهاجي بلقين بن زيري ، قلنا : لعلّه ، في هذه الفترة التي لم يستقرّ اختياره فيها على خلف، فكّر في تعيين وليّ العهد، ولو بصفة مؤقّتة ريثما يستقرّ له رأي ، أو لعلّه فكّر حقيقةً في اقتسام الخلافة المتوسعة ، بينه وبين ابنه .

لا ننكر أن هذا الافتراض بعيد ، فانّ المؤرّخين القدماء لم يشيروا الى هذا الأمر، أو، إن هم أشاروا اليه ، ففي غموض شديد، مثل المقريزي الذي ينقل عن ابن سعيد أنّ بلقين (يوسف) بن زيري قال ان المعزّ « وَلّى عهدَهُ (بعده) ابنه الشاعر تميماً ثم عزله ، وولى ابنه عبد اللّه افريقيّة ، ثـم ولّى ابنه بمصر العزيز الذي صحّت له الخلافة بعده » . وحتى ان استنكر ابن سعيد هذا الخبر ، فلا يمنع أنه قد ذكر على كل حال[2] . كذلك المختصّون بتاريخ الفاطميّين ، مثل الأستاذ الدشراوي ، لم يثيروا هذه القضيّة . ثمّ اننا راعينا امكانيّة الخلط بين الأسماء : فقد كان للملوك الصنهاجيّين والٍ على افريقيّة

---

(1) سيرة جوذر ، النصّ المترجم 213 تنبيه 467 .

(2) اتعاظ الحنفاء ج 236/2 .

يدعى عبد اللّه بن محمد ، ولكنّ هذا الوالي سمّي سنة 976/365 ، بعد موت الشاعر والمعزّ معاً ، ثمّ انّ نسبة القصيدة الى صاحبنا لا شكّ فيها . فلذلك اضطررنا الى هذا الافتراض ما دام الشاعر يعظّم هذا الحدث ويتفاءل به خيراً ، ويرجو له نتائج طيّبة عاجلة ، منها قهر بني أميّة على يد عبد اللّه بعد قهره لبني خزر ـ وهذه ناحية أخرى مجهولة عند المؤرّخين ، اذ لم يخبرونا بأنّ عبد اللّه بن المعزّ هو الذي قاد بنفسه حملة سنة 971/360 ضدّ زناتة ومغراوة ـ ثم انّه لا يَسْتَبْعِدُ ـ في البيت 78 ـ أن يكون مقرّ الأمير غيرَ مقرّ الخليفة . أفلا يعني هذا أنّ عبد اللّه سيصبح خليفةً لأبيه بالمنصوريّة ، بعد انتقال المعزّ الى القاهرة ؟ وهذه هي الأبيات المشكلة في القصيدة ، بعد البيتين السالفين :

70/43 وَإنَّ مُـلْكـاً أقَـرَّ الـلّهُ قُـبَّـتَـهُ ... بِـابْنِ الإمـامِ لَمُلْكٌ غَيْرُ مُنْتَقِـلِ

75 . . . فَالفَتْحُ مِنْ أَوَّلِ النُّعْمَىٰ بِهِ وَلَهُ ... عَوَاقِبٌ فِي بَنِي مَرْوَانَ عَنْ عَجَلِ

76 بِـرِيحِـهِ أُرْدَتِ الهَيْجَـا بَنِي خَـزَرٍ ... وَبِـاَسْمِهِ اسْتَظْهَرَتْ فِي الغَزْوِ وَالقفَلِ

78 . . . مَهْمَا أَقَامَ، فَذُو التَّاجِ المُقِيمُ وَإنْ ... تَلاكَ رَيْثـاً فَبَعْـدَ المَشْهَدِ الجَلَلِ

83 . . . الآنَ لَذَّتْ لَنَا مِصرُ وَسَاكِنُهَا ... وَلِلسَّـوَابِـحِ وَالمَهْـرِيَّـةِ الـذُّمُـلِ

فإن صحّ افتراضنا[1] نكون قد توصّلنا ، أخيراً وبعد لأي ، الى استخراج معلومات مجهولة جديدة من هذا الشعر المبهم الغامض ، وبرهنّا ، بعد غيرنا ، على أنّ النصوص الأدبيّة قد تخدم التاريخ ، بل إن الأدب والتاريخ متداخلان متكاملان متماسكان .

الحرب ضدّ بيزنطة

كان فقهاء القيروان يعتبرون جزيرة صقلّية وولاية قلوريّة بجنوب ايطاليا « دار جهاد »[2] وفيها كانت تدور الحرب بين الفاطميّين والنصارى البيزنطيّين .

---

(1) لقد فصّلنا عناصر القضيّة في فصل نشرناه بمجلّة الدراسات التونسيّة ، عدد 85 -87ص 7 .
(2) الدشراوي : جزيرة اقريطش . . . ص 309 .

وتتعلّق اشارات الشاعر بوقعتين هامّتين دارت رحاهما بصقلّية ومجاز مسينا سنة 965/354 ، وكلّلتا بنصر عظيم للفاطميّين . وصورة الأحداث ، كما يرويها ابن الأثير وغيره ، ممّن جمع نصوصهم ميكال أماري في تأريخه لصقلّية ، وكما يفصّلها شلومبرجي في دراسته الضخمة عن الامبراطور البيزنطي نقفور فقّاس[1] ، هي هذه :

استولت الجيوش الفاطميّة بقيادة الأمراء الكلبيّين ، على مدينة طبرمين (طاورمينا حالياً) بالجنوب الشرقي من صقلّية سنة 962/351 ، ومنها أخذت تغزو جنوب ايطاليا ، فاستقرّت بجهة ريّو (عاصمة ولاية قلوريّة أو كلابريّا اليوم) ، ثم أخذ الأمير الحسن بن عمّار الكلبي في محاصرة قلعة رمطة (رميطا) التي تبعد بتسعة أميال غربيّ مسّينا ، وكانت رمطة آخر معقل مسيحيّ ، غير خاضعة للكلبيّين وللسلطان الفاطميّ ، فاستنجد أهلها بالدمستق نقفور، فجهّز أسطولاً بقيادة عمّه منويل فقّاس ونزلت الأمداد الروميّة بالساحل فحاصرت بدورها المسلمين وسدّت عنهم المنافذ ، فالتحم الجيشان في قتال شديد ، فقتل منويل ، ففتّ قتله في عزم جنوده ، فتفرّقوا وتبعهم المسلمون فحصروا عدداً كبيراً منهم بشعب لا مخرج منه وقتلوهم تقتيلاً ذريعاً . والتحق الآخرون بمراكبهم فطلبوا المدد وجنّدوا العساكر من قلوريّة وجهات ايطاليا الأخرى وعادوا الى القتال ، فاعترض الأسطول الفاطميّ مراكب الروم ، وتحوّل القتال الى معركة بحريّة بين المراكب المجهّزة بمدافع النفط ، فأحرق النفاطونَ المسلمون كثيراً من المراكب البيزنطيّة ، ولاذ باقي الأسطول الروميّ بالفرار . وتمّ هذا النصر ، ويدعى وقعة المجاز عند المؤرّخين ، سنة 965/354 .

فأشاد به الشاعر في قصيدتين على الأقلّ : ففي القصيدة 40 ، يصوّر لنا

---

(1) ص 442 .

الخليفة ساجداً للّه مقبّلاً الترابَ معفِّراً خدّه ، عند بلوغ بُشرى النصر اليه :
[كامل]

13/40 لِـلّهِ عَـيْـنَـا مَـنْ رَأى إخْـبَـاتَـهُ   لَـمَّـا أتَـاهُ بَـريـدُهَـا الإجْفِيـلُ
14 وَسُجُـودَهُ حَتَّى ٱلْتَقَى عَفَرُ الثَّرَى   وَجَـبِـيـنُـهُ وَالـنَّـظْمُ والإكْـلِـيـلُ

وفي القصيدة 13 ، يصف الأسطولَ الفاطميّ ، خلافاً لما تدّعيه التوطئة من أنّه يذكر سفارة بيزنطيّة قدِمَت لطلب الصلح . والغلط ناتج عن خلط بين هذه السفارة المزعومة والسفارات العديدة التي كان الدماسقة يرسلونها في القديم الواحدة تلوَ الأخرى للتوسّل لدى المعزّ حتّى يكفّ عن غزو بلاد الروم ويرضى بالصلح ولو لمدّة . فالشاعر يذكّر الدمستق المغلوب اليوم بتصرّفه السالف ، ويُشهد عليه دموعَه التي تُبلّل رسائلَه الى الخليفة ويتشفّى منه بهزيمة المجاز ، ولعلّ هذا التهكّم يدلّ على أنّ الامبراطور هو الذي بادر بنقض صلح سابق أو بالكفّ عن تقديم جزية الى المعزّ ، لذلك يصوّره الشاعر نادماً باكياً :
[طويل]

67/13 وَقُلْتُ : أنَاسٍ ذَا الدُّمُسْتُقُ شُكْرَهُ   إذَا جَاءَهُ بِـالْعَفْـوِ مِنْـكِ بَـرِيـدُ
68 وَتَقْبِيلَهُ التُّـرْبَ الـذِي فَـوْقَ خَـدِّهِ   إلَى ذَفـرَيَيْـهِ مِنْ ثَـرَاهُ صَعِيـدُ؟
69 تُنَاجِيكَ عَنْهُ الْكُتْبُ وَهْيَ ضَرَاعَـةٌ   وَيَـأْتِيكَ عَنْـهُ الْقَوْلُ وَهْـوَ سُجُـودُ
70 إذَا أنْكَـرَتْ فِيهَـا التَّـرَاجِمُ لَفْظَه   فَـأَدْمُعُـهُ بَيْنَ السُّـطُورِ شُهُـودُ
75 . . . فإنْ هَزَّ أسْيَافَ الهِرَقْلِ فَإنَّهَـا   إذَا شِئْـتَ أغْـلاَلٌ لَـهُ وَقُـيُـودُ

الأسطول الحربيّ ـ المدافع النفطيّة أو «النار اليونانيّة»

ولكنَّ أهميّة هذه القصيدة 13 تكمنُ في الوصف المدقّق لأسطول الحرب ، على ذكر وقعة المجاز . والشاعر ، على عادته ، لا يدقّق التواريخ ، ولا الأماكن ، ولا الأشخاص : حتى الأمراء الكلبيّون ، وهم سبب النّصر

وصانعوه ، لا يذكرهم بَتَاتاً . ولا يعود كذلك الى ذكر القائد البيزنطي منويل .

غير أن للقصيدة أهميّة وثائقيّة لا تنكر ، اذ تصف لنا هذه المراكب المجهّزة بـ « اللهيب اليونانيّ » ، وهو خليط من النفط والبارود تضرم فيه النار ويرسل بواسطة مجانيق ضاغطة على المراكب المعادية ، فيحرقها من شراعها إلى صاريها إلى خشبها .

يهتمّ بالقبّة المفوّفة كهودج الحسان ، وهي خيمة عالية تغطّي مجلس قائد السّفينة أو موقفه ، ويصف أعلامَهَا الكثيرة التي تبعث الرُعب في قلوب الأعداء ، ويمثِّل علوّها بشموخ الجبال وسرعتها بخفّة الطيور ، ولكنها الطيور الجارحة التي تقتنص نفوس الروم :

30/13	أَمَا والجَواري المُنْشَآتِ التي سَرَتْ	لَقَد ظَاهَرَتْهَا عُدَّةٌ وَعَدِيدُ
31	قِبَابٌ كما تُزْجَى الْقِبَابُ عَلَى المَهَا	وَلٰكِنَّ مَنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ أُسُودُ
35	. . . وَمَا رَاعَ مَلكَ الرُّوم الا اطِّلاعُهَا	تُنَشَّرُ أعلامٌ لهـا وَبُنُودُ
38	. . . أنافَتْ بِهَا أعلامُهَا وَسَمَا لَهَا	بِنَاءٌ على غيرِ العَرَاءِ مَشِيدُ
40	. . . مِنَ الراسِيَاتِ الشمِّ لولا انتقالُها	فَمِنْهَا قِنَانٌ شُمَّخٌ وريُودُ
41	مِنَ الطَّيْرِ إلاّ أنَّهُنَّ جَوَارِحٌ	فَلَيْسَ لها الا النفوسَ مصِيدُ

ثمّ يصف اللهيب الذي ترسله مجانيقها. وقد عرف هذا الخليط المحترق في القرون الوسطى باسم « النار الاغريقيّة » لأنّ الغربيّين ينسبون اختراعه الى اليونانيّين ، أي الروم البيزنطيين، وينكرون أن يكون العرب قد عرفوا هذه الأخلاط المتفرقعة ، فيرى شلومبرجي في دراسته عن الامبراطور البيزنطي « أنّ العرب لم يكتشفوا هذه النار السائلة الاّ في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر على الأكثر ، ولكنهم من ذلك التاريخ ، أخذوا في تحسينها وتطويرها بصفة مطّردة »[1] . لكنّ شلمبرجي نفسه يذكر استعمال الفاطميّين

---

(1) ص 461 .

لهذا المزيج أثناء وقعة المجاز ، أي في منتصف القرن العاشر : « . . . وكان البحّارة البرابرة يُلقون بأنفسهم في البحر ، وبأيديهم « النار الاغريقية » ، فيسبحون بها حتى يصلوا الى السفن البيزنطيّة فيحرقونها » . ولعلّه استقى الخبر من عند ابن الأثير الذي أشار إلى إحراق المسلمين لمراكب الروم أثناء حرب صقلّيّة[1] فأقرّه ونقض قوله السابق .

هذا السلاح الناري الذي قد يعدّ الصورة الأوليّة العتيقة من المدافع الحاليّة قد عُرف واستعمل منذ القرن الثالث/ التاسع : فقد استعمله الأسطول العبّاسي ضدّ المراكب البيزنطيّة ، كما يظهر من وصف البحتري (284/897) له في مدحه لأمير البحر أحمد بن دينار : [طويل]

وَحَوْلَكَ رَكّابُونَ لِلْهَوْلِ عَاقَرُوا ... كؤوس الردى من دَارِعِين وحُسّرِ
تَمِيلُ المَنَايَا حَيْثُ مَالَتْ أَكُفُّهُمْ ... إذا أَصْلَتُوا حدَّ الحديدِ المُذَكَّرِ
إذا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَكُ رَشْقُهُمْ ... لِيُقْلِعَ إلاّ عَنْ شِوَاءٍ مُقَتَّرِ[2]

وقد سمّيت هذه المراكبُ ، منذ عهد هارون الرشيد ، أي منذ منتصف القرن الثاني/الثامن ، « حرّاقات » ، فكان الخلفاء العبّاسيّون يركبونها للتنزّه على نهر دجلة ، ولعلّها كانت مجهّزة لإرسال أضواء الزينة والنيران الملوّنة أثناء الاحتفالات والألعاب المائيّة ، ويعرّف اللسان هذه الحرّاقات بأنها « سفن مجهّزة لقذف النيران » . وهذه النار تعتمد النفطَ الخام ، وما يتبعه من موادّ مائيّة ـ فحميّة سهلة الاشتعال ، ويسمّى العاملون عليها « النفّاطين » . واستعمل القوّاد العبّاسيّون هذه القذائف المحرقة في حصارهم للثائر بابك الخرّمي ، سنة 222/837 ، يقذفونها على أسوار القلعة وأبوابها بواسطة المجانيق[3] .

(1) أماري ، المكتبة العربية الصقلّية ص 266 .

(2) البحتري : ديوان ص 983 الأبيات 26 -28 .

(3) **ميكال أماري** : في نيران الحرب المستعملة . . . ص 7 .

وفي العصور المتأخّرة ،أضاف العرب ، فيما كتبه هـ . رينو عن «فنون الحرب عند العرب» [1]، إلى الموادّ الملتهبة ، موادّ متفجّرةً في نِسَب معيّنة نقلوها عن أهل الصين : وهذه الأخلاط التي سمّيت « البارود » هي : الكبريت والفحم وخاصّة الملح النتري أو ملح البارود ، ووظيفة البارود هي تيسير الاشتغال عند القذف . ثمّ منع الأخلاط النفطيّة من الانطفاء[2] . وفعلاً ، نرى أنّ ابن هانىء في وصفه لهذه النيران ، يلحّ على استمرارها مشتعلة حتى على سطح البحر . وهذا الاستمرار على الالتهاب يؤكّده المؤلّفون القدماء في هذه الفنون مثل مرضيّ بن عليّ الطرسوسي (589/1193) الذي يفصّل ، في كتيّب ألّفه لصلاح الدين الأيوبي ، نماذج من الأخلاط الباروديّة الصالحة لاحراق مراكب العدوّ ، فيقول مثلاً في صفة « نفط يمشي على الماء يصلح لحرق المراكب » :

قطران : جزء

كبريت معدنيّ ، وهو النفط : جزء .

راتينج : جزء (الراتينج صمغ شجرة الصنوبر) .

سندروس : جزء (السندروس صمغ شجرة من فصيلة الصنوبر) .

شحم دلفين مسلي مروّق : جزء (الدّلفين أو الدخص حيوان بحريّ من جنس البال الا أنها دونه ضخامة) .

شحم كلى ماعز : مثله .

كبريت أصفر : جزء .

«تسحق ما يجب سحقه . ويرفع القطران على النار الى الدست شيء . فإذا غلي القطران يضاف اليه السندروس ويضرب به الى أن يختلط ، ثمّ يلقى

---

(1) هـ . رينون : ـ الفن العسكري عند العرب . . .
ـ النار الافريقيّة . . . ص4-5 .

(2) انظر فصل « بارود » بدائرة المعارف الاسلاميّة .

عليه بعد الفراغ الكبريت المعدنيّ الذي كلّه الزيت القديم ، وترفع ، فإذا احتجت اليه ، تأخذه وتغلّيه الى أن تعلم أنه قد أخذ الحدّ فتشعل فيه ناراً ، وترسله على الماء الى ما أردت من المراكب ، فإنه يحرق إحراقاً عظيماً ويمشي على الماء ولا ينطفىء»[1] .

وعبارة « النفط » ان لم يستعملها ابن هانىء ، فقد استعملها الشاعر الصقلّي ابن حمديس (527/1132) في مدح للأمراء الصنهاجيّين ، مما لا يدع مجالاً للشك في أن بني زيري أيضاً استخدموا السفن المحرقة التي تقذف الموادّ النفطيّة على مراكب الروم : [طويل]

وَتَـرْمِي بِنَفْطٍ نَـارُهُ فِي دُخَـانِـهِ بِـهِ المَوْتُ مُحْمَـرٌّ يَؤُوب بِمُسْـوَدِّ

ويعود ، في مدح آخر للأمير علي بن يحيـى ، الى النفط فيصف حرارته الخانقة : [كامل]

تَـرْمِي بِنَفْطٍ كَيْفَ يَبْقَى لَـفْحُـهُ وَالشَّمُّ مِنْـهُ مُحْـرِقُ الأَكْبَـادِ ؟[2]

وقبل ابن حمديس ، وقبل ابن هانىء ، أشاد علي الايادي التونسي بأسطول القائم الفاطميّ فذكر هذه المراكب ووصف نيرانها : [كامل]

سَجَـرُوا جَوَاحِمَ نَـارها فَتَقَـاذَفُـوا مِنْهَـا بِـأَلْسُنِ مَـارِجٍ مُتَلَهِّـبِ[3]

هذا ، وانَّ وصف ابن هانىء لسفن المعزّ موافق تماماً ، في هذه الناحية ، لوصف سابقه الايادي أو لاحقه ابن حمديس . فيشعرنا كلامه بأنها سفن ترمي النار من أفواه حديديّة ، وهذا الخليط الملتهب لا ينطفىء في الماء فتحمله الأمواج مشتعلاً الى مراكب العدوّ : [طويل]

---

(1) كتاب تبصرة أرباب . . . نشر كلود كاهين . . . ص 125 من الأصل ، ص 146 من النصّ المترجم .

(2) **ميكال أماري** : المكتبة ، الملحق ص 17 ، وص 18 .

(3) **الحصري، زهر** . 1004/2 ، وانظر : الحوليّات 1973 ، ص 109 . بيت 18 .

42/13 مِنَ القَادِحَات النَّارَ تُضْرَمُ لِلطُّلَى ... فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ اللِقَاءِ خُمودُ
43 إِذَا زَفَرَتْ غيظاً تَرَامَتْ بِمَارِجٍ ... كَمَا شُبَّ مِنْ نَارِ الجَحِيمِ وَقُودُ
44 فَأَنْفَاسُهُنَّ الحَامِيَاتُ صَوَاعِقٌ ... وَأَفْوَاهُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
46 ... لَهَا شُعَلٌ فَوْقَ الغِمَارِ كَأَنَّها ... دِمَاءٌ تَلَقَّتْهَا مَلَاحِفُ سُودُ
47 تُعَانِقُ مَوْجَ البَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... سَلِيطٌ لَهَا فِيهِ الذُّبَالُ عَتِيدُ

وكان الشاعر قد سبق له وصف لِهذه النار التي لا يغلبها الماء :

[طويل]

38/3 وَسُفْنٍ إِذَا مَا خَاضَتِ اليَمَّ زَاخِراً ... جَلَتْ عَنْ بَيَاضِ النَّصْرِ وَهْيَ غَرَابِيبُ
39 تُشَبُّ لَهَا حَمْرَاءُ قَانٍ أُوَارُهَا ... سَبُوحٌ لها ذَيْلٌ على الماءِ مَسْحُوبُ

ويظهر أن هذه السفن كانت تحرّكها الرياح أو الأيدي على السّواء ، فلئن خُلقت بلا أيد ، فالمجاذيفُ هي أيديها ، وهي ضخمة تحمل في جوفها جنوداً كثيرين ، وهي أيضاً مزدوجة المظهر : فالظهر منها تعلوه الأقمشة النفيسة زمن الاستعراض والزينة ، والجنب تغطّيه الدروع الحديديّة الواقية من نيران العدوّ :

50/13 فَلَيْسَ لَهَا إِلاّ الرِيَاحَ أَعِنَّةٌ ... وَلَيْسَ لَهَا إِلاّ الحَبَابَ كَدِيدُ
52 ... رحِيبَةُ مَدِّ البَاعِ ، وهْيَ نَتِيجَةٌ ... بِغَيْرِ شَوى ، عَذْرَاء وَهْيَ وَلُودُ
54 ... لَهَا مِنْ شُفُوفِ العَبْقَرِيِّ مَلَابِسٌ ... مُفَوَّفَةٌ فِيهَا النُّضَارُ جَسِيدُ
57 ... فمنها دُرُوعٌ فوقَهَا وجواشِنٌ ... ومنها خفاتِينٌ لَهَا وَبُرُودُ

ودقّة وصفه لهذا الأسطول الذي مكّن الفاطميّين من السيطرة على البحر طيلة خمسين عاماً ، تدلّ على أنّه يعرف السفن الحربيّة معرفة جيّدة ، ولعله عاينها معاينة دقيقة مطوّلة عند صدورها الى القتال ، وعند رجوعها مظفّرة مزدانة بأعلام النّصر . ولكنّ ممارسته للحرب البيزنطيّة تقف هنا : فلا نخاله شارك فيها بالسلاح أيضاً ، أو على الأقلّ بمصاحبة الأسطول في بعض غزواته ، كما فعل المتنبّي أثناء مصاحبته لسيف الدولة الحمداني في حرب الثغور الشاميّة .

الفصل السادس

الاشارات التاريخية
(تابع)
قصائد المسيلة

قلنا إن القصائد التي نظمها الشاعر بالمسيلة تستعصي عَن كلّ محاولة للترتيب التاريخيّ . لكنها تمدّنا ببعض المعلومات عن الأخوين الأندلسيّين في علاقتهما مع الخليفة وفيما بينهما، وعن بلاط المسيلة وما يحدث فيه ، وعن نوع الحياة التي كان يحياها الشاعر مع ممدوحيه هناك . فهي ، من هذه الوجهة ، أكثر إفادة من القصائد المعزّية التي سيوجّهها ابن هانىء وجهة عقائدية فيشيد فيها بالدعوة الإسماعيلية ويتهجّم على أَعداء الأئمة .

البلاط الحمدوني

هذه القصائد تشعر القارىء بأنّ جعفر بن حمدون شبه مستقل بإمارته ، إذ له بلاطه وبطانته وحاشيته ، وَأَنَّ الحياة بالزاب تتسم بالرغد بل بالترف ، كأنما المسيلة عاصمة خلافة لا إمارة ، فوفود الشعراء المادحين والعُفَاة المستجدين تتزاحم على باب الاميرَين ، بل الملكين ، لأنّ ألقاب الملك تكثر على لسان الشاعر : فهذا جعفر مِلِكٌ « ما سُدِّد الأملاكُ من قبله »[1] ، وهذا

(1) قصيدة 31 بيت 41 .

يحيى أخوه الأصغر يسود « البريّة كلّها ، حتى الملوك العباهل »[1] ، وهذا أيضاً نجل جعفر ، إبراهيم ، هو على صغره ملك متوّج : [خفيف]

7/38 لا أرى كـابن جعفـر بن علي ملكـاً لابسـاً جـلالـة مـلك

ونحن لا نعير لهذه الألقاب الملكية أهميّة خاصة ، فهي لا تعني أصلاً أنّ هذا الاستقلال الظاهري هو تحرّر بالفعل من التبعيّة للسلطة الفاطميّة ، فلا يغيب عن الشاعر ان الأميرَين هما ممثّلا الإمام وساعداه ونصيراه في هذه المنطقة الوسطى من رقعة نفوذه الواسعة ، وأن جعفر بن حمدون يواصل مع المعزّ المناصرة التي قدّمها لأبيه اسماعيل المنصور : [طويل]

3/63 وكنتَ يدَ المنصور منصورِ هاشم لذا البطشِ، إذ أيْدي الفوارس سُوقُ

وكيف تغيب عنه حقيقة العلاقة بين الأمير والخليفة، وقد تمرَّس بالمبادىء الإسماعيليّة منذ وطىء أرضَ المغرب ، بل ربما منذ شبابه بالأندلس ، كما تدلّ عليه القصيدة الحائيّة التي نظمها في جوهر القائد ، وهي أول مدائحه على الإطلاق . وحتى إن بَدَا لنا في هذه القصائد شيء من الخفوت في ترديد الشعارات الشيعية المألوفة ، فلا يغرَّنَّنا ذلك فنقـول إنّ ابن هانىء يؤيِّد هذا الاستقلال أو يدعو إليه ، بل سنرى انه يدعو جعفراً بإلحاح الى الوفاء للأئمة ويحذّره من مكايد من يزيّن له التحالف مع خصومهم المروانيّين .

كما لا تغرّنا عبارة « الملك » ومشتقّاتها ، فهي قديمة في معنى السلطة والرئاسة والسُّؤْدَدِ ، دون ان يتعلّق بها معنى المصطلح السياسي . ومنذ الجاهلية كان رؤساء العشائر القويّة يسمّون ملوكاً : حُجْر آكل المرار كان « ملِكَ » كندة وابنه امرؤ القيس كان «الملك الضلّيل» رغم أنه خُلع عن الملك بمقتل أبيه ، وكليب وائل سمّي « ملك ربيعة » بعد وقعة خزازى[2]

(1) ق 64 بيت 17 . نذكّر أنّ القصائد 61 الى 70 هي التي نشرناها بالحوليّات 1969 .

(2) انظر دراستنا عن « أدب أيام العرب » في الحوليّات 1981 .

والمناذرة بالحيرة كانوا ملوكاً مقصودين رغم ولائهم المضَيَّق للأكاسرة .

هذا هو مدلول الكلمة عند الشاعر ، وإذا احتجنا الى دليل آخر على بعده عن فكرة الاستقلال ، وجدناه في الأبيات التي تقرن لفظ الملك بلفظ الإمارة سواء بسواء : [طويل]

3/63 ويا مَلِكَ الزاب الرفيعَ عماده بقِيتَ لجمع المجد، وهو فريق

6 . . . فما أنس لا أنسى الأميرَ إذا غدا يـرُوعُ بِمَـرأى ملكـه ويـروق

فهذا الملك إنما هو أمير ، وهو تابع لملك أعظمَ منه ، وولايته انما هي جزء من الخلافة، والخلافة كالامبراطورية تتركّب من ولايات عديدة، على رأس كل واحدة والٍ أو أمير يسمّيه الشعراء ملكاً . هكذا كان سيف الدولة الحمداني « ملكاً هازماً لنظيره » في نظر المتنبي ، وكان كافور « الملك الأستاذ » رغم انهما تابعان بالنظر لسلطان بغداد .

وبعد ، فلا تمنع هذه الاحترازات من الإقرار بان جعفر بن حمدون كان يتمتّع في ولايته بحرّية في التصرف ـ ولا سيما في الشؤون المالية ـ يحسده عليها بقية الولاة في اقاليمهم ، ونجد في سيرة الاستاذ جوذر[1] صدى لتذمّراتهم من هذا الامتياز. ولعلّ هذا الفسحة في أموال الجباية التي يحتفظ بها عوض أن يوصلها إلى القيروان هي التي عمّرت قصره بالشعراء والعلماء وجعلت بلاطه زاخراً بالعلم والفن والأدب كما يقول ابن خلدون[2] .

ويشهد شعر صاحبنا بهذا الازدهار الذي جعل المسيلة شبيهة ببغداد : [كامل]

35/6 ورأيتُ حـولي وفـدَ كـلِّ قبيلة حتى تـوهّمتُ العـراقَ الـزابـا

كما يشهد بأنّ سياسة جعفر في رعاياه عوّدتْهم على الترف والأناقة حتى

---

(1) سيرة ص 129 -133 وترجمة كانار ص 197 -200 .

(2) ك . العبر ، بيروت ج 16 -21 ص 315 .

صاروا يسْتخشِنُون النسيمَ العليل ، وكأنهم صاروا بغداديّين أكثرَ من أهل بغداد : [طويل]

54/31 تبغــدَدَ منـه الــزاب حتى رأيتُـه يهبُّ نسيمُ الروض فيه فيُستَجْفىٰ

وعلى ذكر تشبيه الزاب ببغداد قد نتساءل عن الدافع اليه دون غيره، ونستغرب من شاعر شيعيّ إسماعيليّ ان يجعل عاصمة الدولة المنافسة الزائفة الغاصبة، معياراً للرفاهِ والظرف ، إذ بها يشبّهُ كلُّ مستحسَن أنيق جميل . ولا غرابة في الحقيقة : ابن هانىء كجميع أدباء المغرب والأندلس يشعر إزاء الشرق بمركّب التلميذ الذي لم يبذَّ استاذه بعدُ ، ذاك المـركّب الـذي سيستنكرُه ابن حزم فيؤلف رسالته[1] في فضائل الأندلس ، ثم ابن بسام في الذخيرة . والذي سيحوّله الشقندي (1231/629) الى مركّب استعلاء على أقطار المشرق[2] . وسنتبسّط في هذه التبعية الثقافية عندما نصل إلى خيال الشاعر وصوره الشعرية .

على انه يجنح إلى تشبيهات اخرى ، غير المعيار البغداديّ ، فيصوّر ازدحام الزائرين على باب الامير بصورة منتزعة من الرصيد الديني : [طويل]

88/62 أرى النـاس أفواجـاً اليك كـأنمـا من الزاب بعث أو من الزاب محشَرُ

ولا تقتصر أوصافه لهذه الحياة الناعمة على قصر جعفر بن حمدون : بل يحيىٰ أيضاً له قصر وبلاط ، رغم أن الشاعر لا يُعلمنا بمقرّ هذا القصر أكان بالمسيلة أم بمدينة أخرى من الزاب ؟ وكذلك إبراهيم بن جعفر له قصر وزوّار ومادحون ، دون أن نعلم حقيقة وظيفته عند أبيه .

---

(1) نفح الطيب 164/3 . وانظر فصل شارل بلاّ بمجلّة الأندلس 1954 عدد 19 .

(2) فصل أ . لويا بمجلّة هيسبيريس المغربيّة/ 22 .

حياة اللهــو

نجد في هذه القصائد الحمدونية استهلالات أو استطرادات خمريّةً تحمل على الظن أن حياة الاميرين لم تكن على التقشف والجدّ والاستقامة التي عرفت بها حياة المعزّ . فنرى الشاعر مثلاً يدعو يحيىٰ إلى أخذ نصيبه المشروع من المتعة واللذة ، وقد قضى واجبَه في القتالِ وطلبِ المعالي فعاد إلى بلاطه غانماً مظفَّراً : [طويل]

46/18 فرغتَ من المجد الذي أنت شائدٌ — فجُرَّ ذيولَ العيش في الزمن النضْرِ!
49 ومازلتَ تُروِي السيفَ في الرَّوع من دمٍ — فحقُّك ان تُروي الثرى من دم الخمر
50 وتَنْعَمَ بالبيض الأوانس كالدمى — وترفلَ من دنياك في حُللٍ خضر

ومن هؤلاء الأوانس البيض جارية أهداها جعفر الى شقيقه فكانت فرصة للاشادة بالتعاطف الواجب بين الأخوين :

53/18 . . . حباك بها من أنتَ شطر فؤاده
وما شطرُ شيءٍ بالغنيّ عن الشطر
54 أخوك ، فلا عينٌ رأت مثلَه أخا
إذا ما احْتَبَى في مجلس النهْي والأمر
56 . . . فمن مَلِك سامٍ الى ملِكٍ رضىً
تمادت ، ومن قصر مُنيف الى قصر

ويوجّه النصائح نفسها الى إبراهيم فيدعوه الى خلع العذار وترك حياء الشباب ، وقد صار أميراً مؤمّراً على جواريه وخدمه في هذا القصر الذي بناه له أَبوه ، فلينعمْ بهنّ ولْيَشرب معهنّ خمراً صافية كالنجوم : [كامل]

27/57 فاخلعْ حميداً بينها عُذر الصبا — وليُبدِ سرّ ضمائرٍ إعلانُها
39 . . . وتخالها صفراءَ عارضتِ الدجى — وسرَت فنادم كوكباً نَدمَانُها

حتى مدائحُ الأمير لا تخلو من هذه المعاني النواسيّة ، ففي إحداها يتخلّص الشاعر من النسيب بسرعة فيدعو إلى عقد مجلسٍ ظريف على خمرة عجوزٍ بلغت من العمر مائة عام : [طويل]

5/28 خَليليَّ هُبّا نصطبِحْها مدامةً لها فَلكٌ وَتْرٌ به أَنْجُمٌ شفع
6 تليّة عام فُضَّ فيه ختامُها خلا قبلَه التسعونَ في الدّنِ والتسعُ

وفي أخرى يستطرد إلى وصف خمرة أعتق من هذه يصعد عمرها إلى عهد نوح ، وتسبّح لربها إذا ما صوّتت في الدّنّ : [منسرح]

14/61 وقهوة مزّة معتّقة من عهد نوح أو عهد أرفَخْشَدْ
17 . . . تسمع في دنّها اذا هدرَت قراةَ قسّ صليبَهُ مجَّدْ

ولعلّ الأمير كان يحضر هذه المجالس فعلاً او على الأقلّ يهمُّ بالحضور ، فيدعوه الشاعر إلى الامتناع لأنّ قدرَه أعلى من ذلك ، والوقارَ له أوجبُ : [كامل]

8/2 حاشيتُ قدرَكَ من زيارةِ مجلسٍ وَلَوَ انَّ فيه كواكبَ الجوزاء

أحداثُ البلاط

ونجد في هذه القصائد صدى للأحداث السارَّة أو الأليمة التي تقع في بلاط الأميرين ، ولكنّه صدى خافت مبهم لا يُعين المؤرخَ على ضبط التواريخ والأماكن والتفاصيل . وهكذا نعلم من المراثي الثلاث أنّ جعفراً أصيب في حفيد له مات صغيراً وكان يسمّى عليّا مثل جدّه الأوّل ، ثم في أمّه التي التحقت بزوجها مؤسّس الأسرة وبالطفل ، ولكن لا ندري كم يفصل بين هذه الوفيات الثلاث . كما نحاط علماً بمرض ألمّ بالأمير فتوجّع له الشاعر في قصيدة وفداه بالنفس . ويتهادى الأخَوان النفائس ، جارية من هذا وخيل من ذاك ، فيصف الشاعر الهديّة ويشيد باتّحاد الشقيقين وتكاتفهما . ويفرغ جعفر

من بناء قصر آبنه إبراهيم ، فيرسلُ الشاعر تحيّةً عن بعد ، ولعله كان في صحبة يحيىٰ في إحدى غزواته ، ويمنّي نفسَه بالرتبة العالية في هذا القصر الجديد : لا يحتاج إلى إذن ، بل يكون هو الذي يأذن لهذا ، ويدفع هذا ، ويقدّم الشعراءَ ويؤخّرهم : [طويل]

26/ 62 أَلِكْني الى القصر المَشيد تحيّـةً ... فقد حدَّث الركبانُ عنه فأكثروا
50 . . . إذا شئتُ لم يصعُبْ عليَّ حجابه ... ولم يجفُنِي فيه الرئيسُ الموقّر
51 أجرُّ ذيولَ العِزّ بينَ عِراصه ... وأنشُرُ ما حاك الثناءُ المحبّر
52 فأشفعُ فيه للوفودِ الى الثنا ... ليَ الإذن فيه والمَقامُ المشهَّر

لكنّ هذه الأمنية حسب ما يبدو، حُلمٌ بعيد ، فليس للشاعر من الحَظوة عند الأميرين ما يُبَوّئُهُ منزلةَ الحكَم بين المادحين ، بل بالعكس نراه يشكو الحسّاد الذين ينتقصونه عند جعفر بقلّة مدائحه وقِصَرِها فيُضطرّ إلى الاعتذار ويتخلّص بحجة لبقة سيستعملها بكثرة عند المعزّ ، وهي أن القرآنَ نطق بفضل الأئمة فأعجزَ الشعراء ، فكذلك خصال جعفر ، هيَ أعظَم من أن يُحيط بها شاعر مهمَا كان مِقْوَلاً مفوّهاً : [كامل]

58/6 إني اختصرتُ لك المديحَ لأنّه ... لم يشفِنِي فجعلتُه إغْبَابا
59 والذنبُ في مدحٍ رأيتُك فوقَه ... أيُّ الرجَالِ يقول: فيك أصابا؟

ونراه أيضاً يشكو الفقر فيطلب الرفدَ خلافاً لما يدّعيه منَ التَرفُّع عن الاستجداء ، فكأنّ عطايا الأمير تتأخر بتأخّر قصائد الشاعر او تَقِلُّ بقلّتها ، وربما طالَ الانقطاع فطال المنع ، كما وقع للمتنبي مع سيف الدولة . فهل كانت معاملة الحمدوني لشاعره مثل معاملة الحمداني ؟ [متقارب]

73/50 وإني وَإن تَرَني قابضا ... جَناحي اليّ كظيماً وَجِمْ
74 أُقلّلُ من هفَوَاتِ المزار ... وأبدِي الغَنَاء وأُخفِي العَدَمْ
75 فإنّي من العَرَب الأكرَمين ... وفي أوّلِ الدهر ضاع الكَرَمْ

ولكن ، رغم هذه الشكوى ، نعتقد ان حياة الشاعر بهذه الولاية الناعمة

كانت هنيئة مريئة، فأسلوب العيش بها اندلسيّ أكثر منه مغربيّاً أو إفريقياً : أناقة ورفاهية وظرف وترف ، ولعل الشاعر قد ضاق به قليلاً لأنه وجده أشبَهَ بالعيش في بلاط اشبيلية الذي قد لفظه أو هو ملَّه ، لا سيّما وانه قدمَ المغربَ بنيّة تسخير طاقته الشعرية لخدمة الدعوة ونُصرة الأئمة ، فإذا به في بِلاط يَطيبُ فيه العيش وتهدأ فيه الحركة وتُنسى المشاكل ، ولعلّه أيضاً أخلَدَ هنيهة إلى هذه الدعة وركن إلى هذا النعيم ، فخفتت في شعره المعاني المذهبيّة التي حمّلها قصيدته المغربية الأولى ، اي مِدحةَ جوهر .

الـولاء الفـاطمـي

وهو ، إذا تعرّض إلى ولاء الأخوين للإمامة الفاطميَّة ، يتلطّفُ فلا يقدّمُـهُ في صورة التبعيّة المحضة ، بل في صورة المؤازرة عن اقتناعٍ بالدعوة ، ويَسْتَثْمِرُ نَسَبَ الأميرين الأزديّ فيشبّه نصرتَهما للمعزّ حفيدِ الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) بنُصرة أجدادِهِم من أزد يثرب للنبيّ الهاشِمِيّ : [كامل]

40/6 (ك) سَدَّ الإمامُ بك الثغورَ وقبلَه   هـزَم النبيُّ بقومـك الأَحـزابـا

أو يجعل من جعفر « السيف اليمانيّ » المسلولَ في وجه أعـداء الهاشميّين : [متقارب]

14/50 رأيتُـكَ سيـفَ بنـي هـاشـم   وخيـرُ السيـوف اليمـانِي الخَـذِم

أمّا يحيىٰ فيحمي الثغورَ وثغرُه باسم : [طويل]

42/52 وإنَّـك عن ثغـر الخـلافـة ذائـد   وانـك عن ثغـر الخـلافـة بـاسِمُ

إلاَّ أنّ الشاعر يعطي الأولويَّةَ لجعفر ، فلا يأتي يحيىٰ ، فضلاً عن إبراهيم، إلا في مرتبة ثانية : فجعفر هو الذي ربّاه وسنّ له طرق المعالي ، وإن

يَعْلُ صيته فبفضل التكوين الذي تلقّاه من جعفر : [طويل]

23/63 سننتَ ليحيىٰ سُنّةً يُقتَدى بها ... ففُتَّ، ومنه في الأمور لحوقُ
33 . . . تفوقُ وتعلو أنتَ باللّه وحدَه ... وَبَاْسْمِك يعلو قدرُه ويفوق

وينتبه الشاعر إلى ما في تأكيد هذه التبعيّة من انتقاص لمرتبة الأخ الأصغر ، فيلجأ الى الرصيد القرآني ويستخرج منه تشبيهاً للأخوين ـ في تآزرهما ـ بهارون وموسى عليهما السلام : [طويل]

64/18 لعمري لقد أيّدتَ يوم الوغى به
كما أُيّدَت كفّاك بالأنمُلِ العَشرِ
65 لذلك ناجى اللّهَ موسى نبيُّه
فنادى أنِ اشرَحْ ما يضيق بِهِ صدري
66 وهَبْ لي وزيراً من أخي أستَعِنْ به
وأَشْدُدْ به أزري وأُشرِكْه في أمرِي(1)

مدى الوفاق بين الأخوين

عبارة « أُشْرِكْه في أمري » تبعث على التساؤ ل ، ولا نظنّ ان الشاعر ضمّنها أبياته لمجرّد استفراغ الصورة كما يقول أهل البلاغة ، او لإظهار معرفته بالقرآن ، بل لعلّ له فيها أَرَباً : وهو حثّ جعفر على التخفيف من استئثاره بالحُكم وعلى إسناد مزيدٍ من المسؤولية لشقيقه . فان صحّ هذا التخمينُ ، نتساءل : هل نطق الشاعر من تلقاء نفسه أم بطلب من يحيىٰ ؟ فيعني هذا ان الامير الثاني يتضايق من رتبتِه الثانويّة في الإمارة ومن صعود نجم إبراهيم بن جعفر على حسابه هو وحساب بنيه . يدعونا الى هذا التخمين إلحاحُ الشاعر على الوِفاق الواجب بين الأخوين ، كَبْتاً للأعادي وتخييباً للشامتينَ ، ودعوتُه

(1) طه ، 25 - 32 وفي رواية أخرى : وَشُدَّ . . . وأَشْرِكْهُ . . .

جعفراً إلى اختبار سواعد أنجال يحيىٰ ، وما سبق لهؤلاء ذكر في شعره :

72/18 فما مثلُ يحيىٰ من أخٍ لك تابعٍ
ولا كبَنِيه من جحاجحةٍ زُهرِ

ويجنّد أمّ الأميرَين الميتة فيتضرّع لجعفر باسمها حتى لا يفصِمَ الوحدة التي كانت الفقيدة رمزَها ولُحمتها : [متقارب]

80/59 فلولا الضريحُ لنادَتْكُمَا تُعيذُكما من شَماتِ العِدَىٰ

ويضمّن هذه المرة الشاهد المعروف « أخَاكَ أخاك إنَّ مَن لا أخاً له . . . »[1] لحثّه على الاستعانة الدائمة بحيىٰ والتمسّك بالألفة والاتّفاق :

83/59 ومهما طلبتَ دليل الكرام فانّ الدليل آئتلافُ الهوى
84 وانت اليمينُ فصُل بالشِّمالِ فما ليدٍ عن يدٍ من غنى
86 . . . ومن لا ينادِي أخاً باسمه فليس يُخافُ ولا يُرْتَجَىٰ

وقد كان يمكن أن يتعرّض الشاعر لسخط جعفر ، بسبب دفاعه عن يحيىٰ ولكنه لا يبالي ، بل يزيد له وفاءً فيبرّىء ساحته من تُهمة لا يوضّحها لنا ، ولعلّها وشاية سعى بها بعض الكائدين لدى جعفر حين كان يحيىٰ بعيداً عن المسيلة : [طويل]

2/69 أخوك الذي تحنو عليك ضلوعُه
وما عندَه ممّا علمتَ له عِلم
3 سوى أن أحسّت ما بنفسك نفسُه
ودونكُما البيداءُ والأجبُلُ الشُمّ

ولعلّ السُّعاةَ والمغتابين كانوا يعملون على كسب الأميرين الأندلسيّين للولاء الامويّ ويمهّدون للقطيعة التي ستتمّ سنة 971/360 . فقد أخبرتنا سيرة

---

(1) بقية الشاهد : . . . كساعٍ الى الهيْجَا بغَيْرِ سِلَاحِ .

الاستاذ جوذر[1] بوجود داعية مرواني يُدعى عثمانَ بن أمين ببلاط جعفر يدبّر المكايد لهذا الغرض. ونحن نعلم من جهة أخرى ان كاتباً لجعفر يدعى الوهرانيّ قد تعرَّض لهجاء الشاعر بسبب الخطر الذي كانت دسائسه تهدّد به جعفراً ، فدعاه إلى الإبقاء على الامير والابتعاد عنه: [خفيف]

18/29 أبقِ لي جعفـراً، ابا جعفـرٍ،لا تَـرْم يـومَيْـه بـالنَّـآدِ العَسُـوف

20 . . .فـإذا مـا نَعَبْتَ شرَّ نعيب فـعلى غـيـر ربعـه الـمـألـوف

21 لست أخشى الا عليه فكُنْ بآلْـ ـأرْيَحِيّ الرؤوف جدُّ رؤوفِ

فهل سلّط هذان الرجلان نميمَتهما على يحيىٰ خاصّة لأنه لم يستجب لدعايتهما؟ نحن لا نستبعد ذلك ، ولا نستبعد بالخصوص تَرَدّد يحيىٰ واستنكافه من خلع الولاء الفاطميّ ، إذ نعلم أنه ، يوم ان قرّر جعفر الانتقالَ الى قرطبة ، تبعه يحيىٰ على مضض لائماً نفسه على قطع ولائه لأبناء فاطمة وصرفه الى الأمويّين[2] ، وانه بادر فَورَ وصوله إلى الأندلس بالانقطاع عن جعفر فقبِل ولايةَ البَصرة بشمال المغرب الأقصى ، وأنه في نهاية الأمر التحق بالفاطميّين بالقاهرة ورجع تائباً الى ولائهم .

وإذا احتجنا إلى دليل إضافيّ على موقفِ الشاعر من يحيىٰ ، وجدناه في المدحة التي دبّجها في أخوَيْ المعزّ ، الأميرين طاهر والحسين : فقد تضمّنت بالخصوص مدحاً ليحيىٰ ودعوة لهما لاستخدامه وجعله محلّ ثقتهما لأنّه برهَن بمآتيه السابقة على وفائه للأئمة : [رمل]

47/15 إنّ يـحيىٰ بـن عليّ أهـلُ مـا جئتُمـاه من جـزيـلات الأيـادي

52 . . . مثله حَاط ثغورَ الملك في كـلّ دهـيـاء على الـملك نَـآدِ

53 أيّ زَنْـدٍ فـآقـدحَـاهُ! ثـم في أيّ كفّ! فصِـلاهـا بـآمتـدادِ!

---

(1) ص 123 من النص العربي ، وص 187 من الترجمة الفرنسية .

(2) الحلّة السيراء ، ترجمة يحيى بن حمدون ،عدد 111 .

حـــروب الأخـويـــن

لا يكتفي الشاعر في قصائده الحمدونية ، بذكر الأحداث التي تقع بالبلاط والاشارة إلى ما يحاك فيه من دسائس . فهو يتعرّض أَيضاً إلى العمليّات الحربيّة التي ينظّمها الأميران،وأحياناً إبراهيم بن جعفر أيضاً،ضد القبائل المتمرّدة على الحكم الفاطميّ او الممتنعة عن الجباية . هذه الحملات التي تقتحم الجبال المنيعة او الحدود البعيدة يصوّرها الشاعر في شكل ملاحمَ عظيمة وانتصارات باهرة ، بحكم مَيله المعروف الى التفخيم والغلوّ ، ولعلها لم تكن في الحقيقة الا تحرّكاتٍ موسميّةً عاديّة . وإشارات الشاعر في هذه القصائد لا غناء فيها للمؤرخ أو الدارس لأنَّ الشاعرَ لا يدقّق ولا يفصّل ولا يوضّح ، فلا علمَ لنا بالزمان ولا بالمكان ولا بالأشخاص ولا بالنتائج المفصّلة . لكأنّ ابن هانىء يهرُب من التدقيق قصداً لأنه لو دقّق ، لأفقَدَ هذه العمليّاتِ ما ادّعاه لها من خطورة رهول ، والمجهول وحدَه مَهول . وهكذا لا نستفيد الا النزر من المعلومات : مثلاً ، انها حملة ضدّ الأعراب ، وقد يعني بهم المارقين من زناتة ، وهم بربر رُحّل : [طويل]

21/63 به عرفَت تلك الأعاريبُ قهرَها فلا مارقٌ يخشى عليه مروق

22 فقد غدت الآجام وهِي حدائقٌ وعاد زئيرُ الليث وهو شَهيق

أو أنها غزوة انتصر فيها يحيىٰ ففرض الأمن بالمغرب الأقصى وأحلّ الطمأنينة بعد الفوضى :[طويل]

30/8 نحا المغربَ الأقصى بسَطوة بأسه فغادره رَهْوا وقد كان مُرتَجا

ولكن في أيّ منطقة من المغرب ؟ وضدّ من ؟ وفي أي وقت ؟ معلومات مسكوت عنها ، والسكوت محيّر ، خصوصاً وأنّ العمليات بالمغرب لم تكن من صنع يحيىٰ او جعفر وحده ، بل كان يقودها أيضاً أمير آخر من ممدوحي الشاعر ، نعني أبا الفرج الشيباني الذي سنتحدّث عنه بعد قليل . وقد نجد في

القصيدِ الواحدِ إشاراتٍ يصعب الربط بينها : فهذا مدح لإبراهيم بن جعفر ، يتخلّله تعظيم لأبيه ، مصدر كل مكرمة ، ووصفٌ لهزيمةٍ أُلحقت بالحروريّين ثم ذكرٌ لقائد مظفّر يُنتظر قفولُه من المغرب الأقصى : [طويل]

39/32 رعى اللّه ابراهيم من ملِك حنَا
على الملك حانيه وأشفَقَ مشفقهْ

40 وأوْرَىٰ بزَند الأرقَمِ الصِّلِّ جعفرٌ
ولم يُعيِهِ فَتقٌ من الأرض يرتُقُهْ

43 . . . وأعْيَىٰ الحَروريّينَ متّقِدُ النُّهىٰ
مظاهرُ عقدِ الحزم بالحزم موثِقُهْ

53 . . . وبالمغرب الأقصى قريعُ كتائبٍ
تخبّ بمسراهُ فيرجُفُ مَشرِقُهْ

54 سيُرضيك منه بالإياب وسعدِه
ويجمع شملا شادَ مَجْداً تَفَرُّقُهْ

فَنَتَساءَلُ : أجعفرُ الممدوحُ أم الابن ؟ فان كان إبراهيم ، فكيف يُمدح وهو غائب ؟ وهل هو المعنيّ بالقائد الظافر في المغرب الأقصى ؟ ومَن هؤلاء الخوارج الذين قهرهم ؟ ولا نظفر بطائل أمام هذا الإبْهام وهذا الالتواء ، خصوصاً وأنّ التوطئة تضيف : « . . . ويهجو الوهرانيّ» ، ولا ذكر للوهرانيّ .

وهناك قصيدة جديرة باهتمام خاص، هي السادسةَ عشرةَ التي قلنا انها قد تكون نظمت بالقيروان وأرسلها الشاعر إلى الممدوح، أي جعفر، بالمسيلة، عند وصول نبإ النصر الذي حقّقه على الخوارج بقلعة تُدعى كيانة ، وهي تلفت الانتباه لأن لهجة الشاعر فيها قويّة والنفَس الملحميّ فيها أظهرُ منه في غيرها ، ثم لأنّ ابنَ هانىء قلّما يخصص قصيدة كاملة لوقعة معيّنة .

يستهلّ القصيدة بتشبيه هذه القلعة بحصن السموأل بن عادياء في الشموخ والمنعة ، فيُرضِي في آن واحد ميلَه الى الغلوّ وتعلّقَه بالتراث الثقافيّ

القديم : [طويل]

1/16 بلى! هـذه تَيمَـاءُ والأبلَقُ الفـردُ فسل أجَماتِ الأُسدِ: ما فعلَ الأسد؟

ويذكر صدى فتحها بالقيروان :

4/16 تؤمُّ أميـرَ الـمؤمـنيـن طـوالعـاً عليه، طلوعَ الشَّمس يقدُمها السعدُ
5 فتوحات مـا بين السماء وأرضهـا لهـا عند يـوم الفخـر ألْسِنَـةٌ لُـدّ

ثم ينسبها الى الحروريّة هي أيضاً ، ويحمله تشيّعه على اتّهام الخوارج بالكفر فانهم لا يصلّون لربهم ولا يعترفون بسلطان ، كما تحمله عنصريته اليمنيّةُ على انتقاص عُجمَتِهم البربرية ، فهذه القلعة ما نطقت العربيّةَ قطّ . أمّا اليوم وقد استقرّ بها جعفر الملك القحطانيّ فقد حلّت بها الفصاحة والبلاغة مع الأمن والطمأنينة :

8/16 حـروريّـةٌ مـا كبّـر اللّهَ خـاطب عليهـا، ولا حيّى بها ملكـاً وفـدُ
9 وكانت هي العجماءَ ،حتى احتبى بها ملوكُ بني قحطانَ،والشعر والمجدُ
10 لـذاك نراهـا اليـوم آنسَ من مِنى وأفْيَحَ من نَجْدٍ ومـا وصلت نجدُ

والشاعر لا يسمّي القلعة باسمها. وانّما ذُكر اسم كيانة في توطئات المخطوطات محرّفاً إلى « كتانة » و « كنانة » و « كتامة » و « كتاتة » . ولا يمكن أن تكون قلعةً لكتامة ، فالكتاميّون أنصار للفاطميّين منذ أن داخلَهم الداعي أبو عبد اللّه ، وانما هي كيانة معقل أبي يزيد صاحب الحمار في آخر أيامه . فقد تحصّن بجبال المعاضيد في شمال شط الحضنة وحاصره المنصور هناك وظفر به جريحاً أو قتيلاً . ومما يحقّق عندنا اسمَ هذه القلعة ـ وقد تكون لا قلعةً مبنيّة بل سلسلة من الجبال المنيعة ـ أن الشاعر ينسبها إلى مخلد وهو صاحب الحمار :

27/16 فمن جَمـرة قـد أطفِئت مَخْلَديَّـةٍ وأخرى لها بالزاب مُـذ زَمَنٍ وَقْدُ

ويستعمل لوصف تسليم ـ او استسلام ـ الثائر المتحصّن بِهَا تعبيراً يكاد

يَكون منقولاً عن قصيدة للشاعر الإيادي كان وصف فيها استسلام ـ او تسليم ـ ابي يزيد للمنصور : فكلاهما استخدم صورة الوليد الذي لفظه مهده[1] ، إلا أنّ الوليد الذي يعنيه ابن هانيء هو على ما يبدو أحد رؤوس زناتة من قبيلة مغراوة ، ولعلّه ، كما يظن ماريوس كانار[2] ، محمد بن خزر العدوّ العنيد للفاطميين . وعلى عادته ، لم يذكر الشاعر اسم هذا الثائر المغلوب ، ولكن القرائن المختلفة : العجمة ، اي البربرية ، والانتساب الى المذهب الخارجيّ ، والاشارة الى ثورة صاحب الحمار ، والالحاح في طول تمرّدها على الدولة الشيعية ـ وقد دام حسب قوله ، ستّين عاماً ـ كل هذا يؤيد ما نذهب اليه مع غيرنا : ان العمليّة قادها جعفر ضد أحد رؤوس زناتة الخارجيّين في المنطقة الجبليّة التي كان تحصّن بها ابو يزيد واختارها لمناعتها ووعورة مسالكها ، ولكنها خرّت لجعفر كما خرّ سيناء لموسى :

25/16	وكانت شجا للملك ستّين حجّةً
	وما طيب وصل لم يكن قبله صدّ ؟
26	بها النار نار الكُفر شُبّ ضِرَامُها
	ولو حُجِبَتْ في الزند لاحتَرَقَ الزَّنْدُ
20	... ولمّا تجلّى جعفر صُعقت له
	وأقبل منها طور سيناء ينهدُّ

وعلى ذكر انتقاص الشاعر للبربر بسبب عجمتهم وبعدهم عن الفصاحة وجهلهم بالدين الصحيح في زعمِهِ ، نقول : لعله نقل هذه العقليّة من نشأته الأولى بالأندلس . فقد كان العنصر العربي هناك يترفّع على غير العرب كما تشهد بذلك رسالة الشقندي . إلاّ أن الشقنديّ متأخر بالنسبة الى شاعرنا ، وقد

---

(1) انظر قصيدة الإيادي في الحوليات عدد 1973/10 ص 102 .

(2) الاسرة الحمدونية ص 39 . وقراءة «كيانة » هي التي اختارها فوندرهايدن : ابن حماد ص 51 تنبيه 1 ، وماريوس كانار في ترجمته لسيرة جوذر ص 69 تنبيه 71 ، وبول ماسيرا في مقاله عن المسيلة ص 159 .

تفاقمت العنصرية إزاء البربر بعد تدخّلات المرابطين ثم الموحّدين لإنقاذ الأندلس رغم أنف أهلها . على انه من المحتَمَل أيضاً أن تكون عنصريّة ابن هانىء ترجمةً للتنافس السياسيّ بين ابن الأندلسيّة ، اي جعفر، وأمير صنهاجة البربريّ ، زيري بن مناد ثم ابنه بلقين . وقد سبق ان عَرَضنا للرأي الذي يعزو تَحوّلَ المعز عن إفريقية الى العداوة العلنيّة والدفينة ، بين سكان المغرب البرابرة السنيّين والأسرة الشيعيّة الدخيلة . وفي افريقيّة بالذات لنا شاهد على هذه الشعوبيّة المعكوسة في سلوك الزاهد القيروانيّ البهلول بن راشد (ت 799/183) : فإنه أقام وليمةً حين علِم أنه عربيّ الأصل لا بربريّ[1] .

والترفّع عن العنصر البربريّ لم يمنع جعفراً من التعاطف مع الزناتيّين ، لأنهم أعداء منافسيه الصنهاجيّين ؛ فنراه يسارع الى العفو عنهم بعد الظفر بهم :

45/16 وما عن أمانٍ يومَ ذاك تنزّلوا ولكن أمان العفو أدركهم بعدُ

ونجد في القصيدة الثامنة والعشرين ، وهي أيضاً في مدح جعفر ، اشارات قريبة من هذه التي عرضناها آنفاً ، كأنما الشاعر أعاد فيها عرضهُ للأحداث ، إلاّ أنّه هنا يذكر صراحةً بني أمية ، فيؤكد بذلك ان الثّائرَ الزناتيّ المغلوب كان حليف المروانيّين :[طويل]

18/28 ولمّا طَغَوا في الأرض أعصُرَ فتنة وكان دبيبَ الكفر في الدولة الخلعُ
19 سموتَ بمَجرٍ جاذبَ الشمسَ مسلكاً وثار وراء الخافقَين له نقعُ
20 فألقى. بأجرامٍ عليهم كأنما تكفّتْ على أرضٍ سَمَاوَاتُهَا السّبعُ
21 كتائبُ شُلّت فابذعَرَّتْ أميّةٌ فأوجُهُهَا للخِزْيِ أثفِيَةٌ سُفْعُ[2]

وانه طغى مدة طويلة فصعد اليه جعفر في جباله الشامخة التي لا تطؤها

---

(1) محمد الطالبي : تراجم أغلبيّة ص 30 . وانظر : ادريس : مساهمة . . . 143 . وانما فرح البهلول لأنّه سمع أحاديث كثيرة موضوعة تنعى على البربر قلّة دينهم .

(2) تكفّت ، أي تكفّأت : انقلبت . ابذعرّت : تفرّقت .

إلّا الشمس عادة فقهره وكانت بذلك خيبة المروانيّين ، الا انه هنا يذكر حصناً مشيداً انجَلَوا عنه بعد الهزيمة : [طويل]

24/28 تجافَوا عن الحصن المَشيد بناؤه وضاق بهم عن عزم أجنادهم وُسعُ

والغريب ان المؤرّخين لم يشيروا الى هذا الحصن في المنطقة التي وسمت بكيانه ، ولا ذكروا أن الحضور الأموي بلغ الى هذه الناحية من المغرب الأوسط . فهذه من غوامض الإشارات أيضاً ، ولا يسعُنا الا الافتراض والتخمين : فإن كانت القلعة في جبال كيانة فلعلّ الاشارة الى المروانيّين تعني فقط عميلَهم الزناتيّ ، ذاك الذي يسمّيه « عميدَ المُلحدين » ، وهو في آن واحد عميدُ الأمويّين ، او كما نقول اليوم ، « عميلُهُم » :

27/28 وراح عميدُ الملحدين عميدَهم لأحشائه من حرّ أنفاسه لَذعُ

وبهزيمته « وخسرانه المبين » تمّت خيبة أسياده المروانيّين فصار الشاعر يشك في قدرتهم على تسيير الحرب :

31/28 وتلك بنو مروان نَعلاً ذليلةً لواطىء أقدامٍ وأنت لها شِسْعُ
23 . . . ألا ليت شعري عنهمُ ! أملوكُهُمْ تدبّر مُلْكاً أم إماؤهُمُ اللُكْعُ ؟

ويبدو أن الثائر استسلم الى جعفر :

29/28 تشرّفتَ من أعلامها ودعوتَه فخَرَّ مُلَبّي دعوةٍ ما له سَمعُ
30 فقل لمُبين الخُسرِ : كيف رأيتَ ما أظلّك من دَوْح الكَنَهْبَلِ يا فَقْعُ

وبالرغم من هذا الانتصار الذي يبرهن على عزيمة صادقة عند جعفر في قتال أعداء الأئمة ، نرى الشاعر يختم القصيدة بتحذيره من كفران النعمة ، أي قطع الولاء للدولة البيضاء :

34/28 أبا أحمدَ المحمودَ ! لا تكفرنَّ ما تقلّدتَ ! وليُشْكَرْ لك المَنُّ والصُّنع !
35 هي الدولة البيضاءُ ، فالعفوُ والرضى لمقتبلٍ عفواً ، أو السيفُ والنِّطع !

وفي هذا الإنذار المخيف ما فيه من لَبس : أَلعفو لمن يستحقّه ، أيّ لمن تاب بعد التمرّد ؟ أم لمن يصغي الى جواسيس الحكَم المستنصر ؟ والقتل الذريع الشنيع ؟ أَلمَن يهمّ بالنقض والخِذلان ؟ أمّ للزناتيّ إذا تمادى على غيّه ؟ وقد تنبّه المستشرق ماريوس كانار[1] الى ما في هذين البيتين من صرامة وتهديد ، ورأى أنّهما موجّهان الى جعفر . وقد نشاطره هذا الرأي ، الا انّا نظنّ أن القصيدة مثل سابقتها الداليّة قد أرسلت ايضاً من القيروان لأن الشاعرَ ما كان يتجاسر على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة .

ولا ينفي هذا التحذيرُ ولا هذا الجفاء اعترافَ الشاعر بجميل الأسرة الحمدونية والإشادة بعطفها عليه وعلى ذويه ، فقد وجد في الأخوين مواطنَيْن أندلسيّين مثلَه أجاراه وجبرا كسره في وقت انسدّت السبل أمامه وعرِيَ من ريشه : [كامل]

37/25 أبنِي عليٍّ ! لا كفـرتُ أيـاديـا   أَغْلَيْنَنِي في عصـر لُؤْمٍ مُـرخص
38 جـاورتكم فجبـرتُمُ من أعـظُمِي   ووصلتُمُ من رِيشِيَ المتحـصِّصِ

* * *

وهكذا استثمرنا ما يمكن استثماره من إشارات وتلميحات وتجاسرنا في أحيان كثيرة على الافتراض والتأويل وربط ما غمض من أحداث في رواية الشاعر بما ذكره المؤرّخون ، فخرجنا بنتيجة يمكن اعتبارها حقيقة واقعة : وهي أن الشاعر ، رغم تعلّقه بالأسرة الحمدونيّة وحفظ اليد لها ، لم يبرَح يدعوها الى الحِفاظ على طاعة الأئمة والولاء للدولة الفاطميّة ، وذلك لاقتناعه هو بالمبادىء الشيعيّة وانتصاره للمذهب .

(1) أسرةٌ . . . . Une famille... 42

بقيّة شعره

درسنا ، عند تعريفنا بالممدوحين ، القصائد التي مدح بها الشاعر أشخاصاً آخرين غير المعزّ وأمراء المسيلة . هؤلاء الممدوحون المجهولون هم :

- أفلح الناشب والي - او قاضي - برقة .

- ابو الفرج الشيباني الذي لا ذكر له قطّ عند المؤرخين وأصحاب التراجم . وقد افترضنا انه قائد بَكري مكلّف بحفظ الأمن على الحدود المغربية ، ولعله كان يقيم بجهة تاهرت التي كانت تقطنها عناصر من شيبان[1] .

- أخَوا المعز ، طاهر والحسين ، اللذان مدحهما بقصيدة اشاد فيها بفضل يحيى بن حمدون خاصة .

- أحمد بن زائدة « الكاتب » الذي ذُكر في مخطوط تونس 1 لا غير . ويظهر انه قائد ايضاً ، من أصل يمنيّ ايضاً : [منسرح]

34/65 فخراً بمدحِيكَ لَا بسالف قحـ ـطَانَ وإنْ كنت من مقاولها

وكان يقرض الشعر إذ له مطارحةٌ شعرية مع ابن هانىء من نوع « التخريج » ، وهو ان يقترح واحد بيتاً فينظم الآخر أبياتاً في المعنى والوزن والرويّ ويختمها بالبيت المقترَح ، وكان بيت ابن زائدة في المخطوط : [طويل]

فلو أنّ ما أبقيتَ منّي معلّقٌ بعُود ثُمام ، ما تأوّدَ عُودُهَا[2]

(1) الشاذلي بو يحيى : الحياة الادبية ، ترجمة 93 (ابن ابي الرجال) ص 83 .

(2) حوليّات 1972 قطعة 29 .

ويجرّنا هذا الى دراسة المقطوعات والأبيات المنفردة التي تضمنّها الديوان ، بما في ذلك المقطوعات التي انفرد بها مخطوط تونس 1 . جملة هذه القطع الصغيرة ثمان وأربعون تشمل مائة وأربعين بيتاً ، انفرد مخطوط تونس 1 بستّين بيتاً في ثماني عشرة مقطوعة. وهذه القطع تضمّ البيتين والخمسة أبيات على الأكثر .

وقد استثمرنا هذه الإضافات القصيرة الى القصائد الكبرى الاثنتين والستين ، استثمرناها في ترجمة الشاعر وتحديد ملامح شخصيّته ، واكتشفنا منها بالخصوص ميلَه الى اللهو والعربدة . وقد نستغرب غيابَ المقطوعات المجونيّة من النسخ التي اعتمدها الناشر الاسماعيليّ زاهد علي ، ووجودها في مخطوط تونس [1] .فهل يعني هذا ان هناك نُسخاً « مطهّرة » مما يخلّ بسُمعة مادح الأئمّة الطاهرين ، وأخرى صريحة كاشفة لا تبالي ان يظهرَ شاعر الدخلاء العبيديّين على حقيقة شذوذه وانحرافه ؟ نحن محمولون على هذا الظنّ إزاء بعض هذه القطع الخاصة بنسخة تونس 1 . ففي واحدة منها يتغزّل بغلام يقول المخطوط انه كان ينافس فيه الأميرَ تميم بنَ المعز ، فيتلاعبُ باسمه « عبد الله » (بن سليمان) فينظمُ حروفَه في أوائل سبعة أبيات تقرأ عمودياً فينكشف الاسم المحبوب .وفي أخرى يسخر من مسكين كان ينظّف بيوتَ الخلاء فتحوّل الى مهنة السّقّاء ، وهي سخرية ثقيلة منحطّة : [طويل]

أيا ابنَ ابي زمّور الماجدَ الذي ... تبدّل كي يُنسَى فلم يك مَنسيّا

تبدّل من جام الكنيف بقربة ... وكان « طعاميّاً » فعاد « شرابيّا »(1)

---

(1) حوليات 1972 قطعة 107 .

وفي أخرى يَثني بعض أصدقائه الشعراء عن الخروج الى مصر مع معشوقة تدعى « رمّانة المسك » فيقول : لا حاجَةَ لمصر بهذا البوهيميّ وموسِه : [كامل]

ماذا تؤمل أرضُ مصرٍ من فتى   يغنى بها ، وخريدة يجدى بها
يمني ذوي آدابها وشبابَها   أن زيد في شعرائها وقحابها[1]

وفي أخرى يستهزىءُ بشخص طويل اللحية فيشبّهها بديك معلّق : [بسيط]

انظر إلى لحية الطمشيش بارزةً   حمراءَ ضافيةً دلّت على حمُقِهْ
كأنما سرق الفرّانُ جارتَه   ديكاً ، فعلّقه القاضي على عُنُقِهْ[2]

وهذه القطعة الأخيرة وردت مع بعض التغيير في تتمّة اليتيمة[3] ونسبها الثعالبي (1037/429) الى ابن هانىء آخر سماه جعفراً ، مما يدعونا الى الشك في نسبة هذه المقطوعات التي تختلف اختلافاً بيّناً عن بقيّة شعر صاحبنا ، في مضمونها كما بيّنا ، وفي شكلها الهزيل الوضيع ايضاً . فلعلها أقحمت في شعره ونُسبت خطأً اليه لأن اصحابها يُدْعَون ايضاً « ابن هانىء » كجعفر هذا الذي قال الثعالبيّ إنه أندلسي ايضاً . وقد تكون لابن هانىء آخر يدعى محمد (ابن ابراهيم) بن هانىء وكان يعيش بمصر في منتصف القرن السادس / الثاني عشر[4] . وقد لا يقتصر الانتحال على هذه القطع الضعيفة : فالقطعة التي يقال انه مدح بها جعفر بن فلاح القائد الكتاميّ ، وهي مذكورة في جميع النسخ :[بسيط]

كانت مساءَلَةُ الركبان تخبرنا   عن جعفر بن فلاحٍ أطيَبَ الخبرِ

---

(1) حوليات 1972 قطعة 12 . وقراءتنا تقريبية نظراً لرداءة الخط في النسخة .

(2) حوليات 1972 قطعة 67 .

(3) ج 1 ص 24 .

(4) العماد الاصفهاني : الخريدة (شعراء مصر) ج 1 ص 248 .

ثم التقَيْنا، فلا والله ما سَمِعَت   أُذني بأحسنَ مِمّا قد رأى بَصَري[1]

هذه القطعة أُثبتها بعض رواة الأدب منسوبة الى صاحبنا ، ولكن أثبتُوها موسومةً لا بالقائد البربريّ ، بل بشخص يدعى احمد بن سعيد[2] . ومنهم من نسبها الى أبي تمام[3] .

بل حتى كبريات القصائد قد نُسِبَ بعضها الى غير ابن هانىء ، كالقصيدة السادسة والعشرين الطائيّة التي عزاها ابن ظافر[4] الى معاصر شاعرنا ومساكنه في البلاط الفاطمي علي الايادي .

وليست المقطوعات الخاصة بالمخطوط التونسي ضعيفة كلّها او منحرفة عن مألوف شعر ابن هانىء مثل هذه النماذج التي أوردناها . بل فيها قطع عاديّة ، مثل الأبيات المنفردة التي يشهد فيها بخصال ممدوحين معروفين كبني حمدون او أبي الفرج (محمد) الشيباني : [طويل]

ثلاث خصال سدتُ فيها عشيرتي   ومن لم تكن فيه فليس بسيِّد

فهُنّ : إذا واخيتُ، صِرفُ مودّتي   وجودُ يميني، وامتداحُ محمّد[5]

أما المقطوعات المشتركة بين جميع النسخ ، فلا تلفت الانتباه في خصوص الأخلاق أو أسلوب النظم فيها ، اللهم اذا استثنينا مقطوعتين في وصف مجلس لهو على طريقة أبي نواس . إلاّ أن الوصف شمل في أبياتها الخمسة ، الخمرة والأقداح والساقي والقيان ونجوم السماء :[وافر]

وليلٍ بت أُسقاها سُلافا   معتّقةً كلون الجُلّنار

---

(1) زاهد عليّ : تبيين . . . 364 .

(2) ابن ابي حجلة : سكردان . . . ص 392 .

(3) المحبّي : خلاصة الأثر 88/1 .

(4) بدائع البدائة ص 389 .

(5) حوليات ص 83 قطعة 31 .

كأنَّ حبابَها خرزاتُ دُرٍّ عَلَتْ ذهباً بأقداح النُّضار
بكفّ مقرطقٍ يُزهى بردفٍ يضيق بحمله وُسعُ الإزار
أقمتُ لشرْبها عبثاً ، وعندي بناتُ اللهو تعبثُ بالعُقار
ونجمُ الليل يركُضُ في الدياجي كأنّ الصبحَ يطلبُهُ بثار[1]

والأخرى في وصف الجلّنارة بالذات ، وهي من الأرجاز القليلة في الديوان ، وصف حمرتها القانية الدامية ثم ثغرتها الشبيهة بالابتسامة المُغرية :

. . . جاءَتْ بمثل النهد فوق الصدر
تفترّ عن مثل اللثات الحمر
في مثل طعم الوصل بعد الهجر[2]

ولكنَّ العَدَدَ الأوفر من هذه المقطوعات خصَّصه الشاعر لوصف السلاح ، وانّ له براعة خاصة في الإشعار بمناقب سيفِ ممدوحٍ وغَنائه في الحرب ، وكثيراً ما يكون سيف يحيى بن حمدون ، مما يدعو الى الظن ان هذه الأوصاف انما هي مطارحات شعريّة وطرائف مجالس : يصوِّر مثلاً بريق السيف : [طويل]

وذي شُطَبٍ قد جلّ عن كل جوهرٍ
فليس له شكلٌ وليس له جنسُ
كما قابَلَتْ عينٌ من اليمّ لجّةً
وقد نَحَرَتْها من مطالِعِها الشمس[3]

وينسب الى السلاح عواطفَ شيعيّة مثل التي لحامله : فهذا « سيف صدق » يرسل بريقاً شبيهاً بدموع الباكين على الحسين : [طويل]

---

(1) زاهد علي ، ص 334 صادر ص 174 .
(2) زاهد علي ، ص 334 صادر ص 175 .
(3) زاهد علي ص 378 صادر ص 176 .

هو السيف سيفُ الصدق ، أمّا غِرَارُهُ   فعَضْبٌ، وأمــا متنُــهُ فصقيــل
يشيــع لــه الإفـرنـدُ دمعـاً كـأنّما   تـذكّر يـوم الـطفّ فهـو يسيـلُ[1]

والخلاصة أنّ هذه المقطوعات ، لئن لم تُسعْفنا بمعلومات جديدة عن أطوار حياة الشاعر أو عن الأشخاص الذين مدحهم ، فإنها على كل حال تنير جوانب من شخصيته وميوله وأخلاقه كانت تبقَى مجهولة لدينا لو اكتفينا بدراسة القصائد الكبرى « الشريفة » الرسميَّة .

---

(1) زاهد علي ص 648 صادر ص 307 . ويوم الطف هويوم كربلاء.

الفصل السابع

أغراض ابن هانئ ومعانيه

المعاني التقليدية

يشمل ديوان ابن هانىء كاملاً ، اي اذا اعتمدنا على طبعة زاهد علي وعلى الاضافات التي سمحت لنا بها مخطوطة تونس1 ، سبعين قصيدة تتراوح بين احد عشر بيتاً ومائتين ، مجموع الابيات فيها يبلغ 4251 بيتاً . فإذا أضفنا اليها 140 بيتاً من المقطوعات الصغيرة والمنفردة ، بلغ مجموع ديوان هذا الشاعر 4391 بيتاً ، فهو إذن ديوان كبير .

المدح

معظم القصائد السبعين مدائح ، منها ستّ وعشرون في بني حمدون ، فإذا أضفنا اليها الهجاء الموجّه الى الوهراني ، وهو في الواقع مدح لجعفر ، وكذلك المراثي الثلاث في والدةِ جعفر وحفيدها ، بلغَ شعرُ المسيلة ثلاثين قصيدة . ومدائح المعزّ بما فيها مدحة أخوَيْهِ ثلاثٌ وعشرون ، ومدائح القوّاد والولاة والكتّاب تبلغ ثلاث عشرة قصيدة . والأربع الباقية لا تندرج في الأغراض التي اعتاد شعراء البلاط طرقَها : اثنتان تنتسبان الى التمرين والمحاكاة : مُحاكاة لِأبي نواس في رحلة خمرية ولِعمرَ بن ابي ربيعة في مغامرة

غزليّة ، وأخرى من نوع الوصف الساخر تتهكّم بأكول ، والرابعة أقرب الى النقد الأدبيّ اذ تتناول ديوان المتنبي .

وننوي في هذا الفصل والفصلين اللاحقَيْن ان ندرس الاغراض والمعاني التي تتضمّنها هذه القصائد ، فنبدأ بالأغراض التقليديّة ، اي تلك التي تعوّد الشعراء المدّاحون ان يطرقوها، من الاستهلال ،الى وصف الراحلة ،الى المدح ، ونحلّل داخل كل قسم من هذه الأقسام نماذج من المعاني المطروقة . ونُلحقُ بالمدائح قصائدَ الرثاء ، فنحلّلُ معانيَها أيضاً. ونختم بالقصائد الأربع المستقلّة ، أي التي لا تذكر ممدوحاً ولا مهجوّاً . وغَرَضُنا من هذه الدراسة ان نقف على مدى مسايرة ابن هانىء للقوانين المتّبعة واحترامه للتقاليد الموروثة منذ الجاهليّة ، ومدى تخلّصه منها إن كان هناك محاولة للتخلّص ، ومن جهة أخرى ، أن نبرز مميّزاته عن غيره من شعراء المدح : وهي التحزّب للدعوة الشيعيّة والانتصار الدائم للدولة الفاطميّة . وستكون دراسة هذه النواحي العقائديّة المذهبيّة وما يتبعها من مواقف سياسية ، ضدّ الخصوم والأعداء الأمويّين والعباسيّين والروم ، وضدّ المتمرّدين في الداخل ، ستكون مادّة الفصلين المواليَين لهذا الفصل السابع .

الاستــهلالات

أكثر القصائد تُفتتح بمقدّمة غزليّة ، او طلليّة كما يقولون ، من نوع النسيب . ولكنّ هناك سبعاً وعشرين قصيدة يدخل فيها الشاعر الى المَوضوع مباشرة . والوثوبُ الى الغرض أصبح عادة متّبعة ، حتى إنّ المتنبّي تهكّم بمن يقدّم النسيب وجوباً ويفرض على كل مادح ان يكون متيّماً . وقد يفتتح شاعرنا القصيدة بتأمّلات حكميّة أو مشاهد وصفيّة ، ولكنّ اكثر المقدمات هي في النسيب .

وفي هذا النسيب لا يخرجُ صاحبنا عن المألوف، وأقصى ما يحاوله هو ان

يحذف أحياناً وقفة الاطلال ، أو الرحلة الى الممدوح ، أو وصف الوحوش ، ولكنه مهما تصرّف فإنه يستبقي شيئاً من المقدّمة التقليديّة ، كالتوجّع من فراق الحبيبة او صدودها ، هذه الحبيبة التي تكون يمنيّة أزديّة مثله ، تلومه على التبذير كما كانت صاحبة عروة بن الورد تلومه على البذل : [كامل]

14/41 بكـرَتْ تلومُ على النـدى أزديّــةٌ — تنمـي اليــه خـضــارمــا وقُيــولا

وقد تكون الحبيبة يمنيّة طائيّة فيحبّ لحبّها طيِّئاً كلّها رغم أزديّته : [طويل]

2/3 نـوى أبعـدت طــائيَّةً ومــزارَهــا — ألا كلُّ طائيّ الى القلب محبوب

كما تكون أيضاً عدنانيّة تترفّع عن المحبّ الذي لا يكون مضريّاً مثلها : [طويل]

5/65 تميميّـةٌ لم يعـرف الـذلَّ قـومُهـا — ولا نكبـاتِ الدهـر وهي غـوائـل

10 . . . وقد جعلت تَبْأى علينا بقَومها — وفي وجهها شُغل عن الفخر شاغل

وقد يكتفي بذكر منازل قومها فيعيّن بذلك نسبَها دون احتياج الى ذكر القبيلة ، كهذه الغادة التي يحميها فرسان نجد ضد الفتيان الأزديّين « صفر العمائم » : [طويل]

3/46 فكيف بهـا نجـديّـةً حـال دونَهـا — صعاليك نجد في متون الصلادم

فالحبيبة عربيّة بدويّة ، وقومها يترحّلون في طلب المرعى لإبلهم ، او يقطنون مشارف نجد او سهول اليمامة او يعتصمون بجبلَيْ أجأ وسلمى ، وهي محروسة حصينة دونها تُزهق النفوس وتسيل الدماء . وقد يستغرب المرءُ من شاعر نشأ في بيئة أندلسية خضرة نضِرة ذات حواضر ومدن ، ووقف أمام ممدوحيه على أرض مغربيّة لها هي ايضاً جبالها وسهولها وأوديتها وقراها ، قد يستغرب منه هذا الانصرافَ بكلّيّته الى بيئة بعيدة لم يعرفها وأرض نائية لم

تطأها قدَمَاه . وهو استغراب لا محلّ له ، ما دام الشاعر يستثمر رصيداً ثقافياً موروثاً، وما دام مقلّداً ويعلم أنّه مقلّد، وأنّ هذه الحبيبة وهذه المنازل وهؤلاء الفرسان انما هي سُنَنٌ متَّبَعَةٌ ومراحل لا بدّ للشاعر المدّاح ان يمرّ بها ، وليس له ، كما قرّر ابن قتيبة ، ان يستبدل الناقة ببرذون فارهٍ ، ولا مسالكَ الصحراء بأزقّة الكوفة ولا المناظر الموحشة بالحدائق العموميّة . فلا وجه اذن لِلَوم الشاعر على تركه القيروان او المهديّة او حتى الزاب الى نجد البعيد وتفضيله دعداً أو هنداً اوأروى على المحبوبات المغربيّات او الإفريقيّات . فهو كالتلميذ النجيب يحتذي حذو شيوخه الكبار ، وهؤلاء الشيوخ ، كما نرى في الفصل الأخير ، هم أمثال « علقمة الفحل الذي زعموا في الشعر وامرىء القيس المراريّ » .

والنسيب غزل وهميّ وغرام مفتعَل ، لذلك يتغيّر اسم هذه المحبوبة ، فلا هي بثينة ولا هي عزّة كثيِّر ، بل هي تارة هند العطِرة : [طويل]

7/8 مَوَاطِىءُ هندٍ في ثرى متنفَّس ... تضوّع من أردانها وتأرّجا

وأخرى أروى المنيعة : [طويل]

20/47 وكم دون أروى من كميّ مُلَأَّمٍ ... وشعب شتيت بعدها لم يُلَأَّم

وهي في الأكثر أسماء الهيفاء العجزاء : [طويل]

8/52 سلوا بانَةَ الوادي أأسماءُ بانةٌ ... بجرعائه أم عانِكٌ متراكِمُ ؟[1]

وأماكن اللقاء والتفرّق هي المعروفة المحفوظة كما قلنا : اللوى ويبرين والمحصّب وتوضح وبرقة ثهمد : [طويل]

11/10 ولله أظعَانٌ ببُرقة ثهمد ... وقد كربَت تلك الشموسُ لتجنَحا

إلّا أن الشاعرَ يستقي عناصرَ تقليده أحياناً من متأخّرين عن علقمة أو

---

(1) العانك : هضبة الرمل . والجرعاء : الصحراء التي لا نبتَ فيها .

امرىء القيس ، كعمر في مغامراته بمناسك الحج : [بسيط]

3/12 ذا مَوقِفُ الصبّ من مرمى الجمار ومن مشاخِب البُدن قفراً غيرَ معهود
4 وموقف الفتيات الناسكات ضحى يعثرن في حِبَرات الفِتية الصِّيدِ

واتّباع السنّة القديمة يشمل أيضاً العادات وطرقَ العيش كالترحّل في الصباح الباكر بالأحبّة في الهوادج العالية : [كامل]

1/6 أحْببْ بتيّاك القبابِ قبابا لا بالحُداة ولا الركاب ركابا

والرحيل يترك الشاعرَ الولهان غريقاً في دموعه . ويغالي الشاعر على عادته فيتخيّل رهاناً في البكاء والجزع يفوز فيه هو بعصا السبق : [خفيف]

7/35 يوم راهنت في البكاء عيونا فتقدّمتُ في عِنان السباق

ويقلُّ عنده الوقوف على الأطلال ووصف الدمن والآثار ، فاذا استوقف الصّحبَ، فبحجّة المواساة المتبادلة والبكاء المُعار : [خفيف]

4/38 مُسْعِدي عُج! فقد رأيتَ معاجي يوم أبكي على الديار وتبكي

ويكثر بالعكس تذكّر الأيام الطيّبة حين ينعم الحبيب بحبيبه : [خفيف]

4/35 رُبّ يوم لنا رقيقِ حواشي الـــــــلهو حسنا، جوّالِ عقدِ النطاق
10 قد لبسناه وهو من نفحات الـــــمسك ردعِ الجيوب ردعِ التراقي

أو المغامرات الليليّة التي يظفر فيها بوصال الحبيبة الولهى الوجِلة ، على غرار عمر مع صاحبته نُعم : [متقارب]

7/58 فقد أطرقُ الحيَّ بعد الهجوع تصِلّ أسنَّتُهم والظبى
8 فألهُو على رِقبة الكاشحين بمفعَمة السّوق خُرْسِ البُرى

ولكنّ أكثر الزيارات وأشدَّها على العاشق هي زيارة طيف الحبيب في ليَالي السهاد : [طويل]

2/11 . . . فحيّيتُ مزوَرَّ الخيال كأنّه محجّب أعلى قبّةِ الملك أبلخ

وإذا ازورّ الطيف وذاب في جنح الظلام ، عوّضه النسيمُ الذي يحمل شذاها عن بعد ، أو البرقُ الذي لعلّهُ من أفقِها انبثقَ ، فزاده شوقاً وتسهيداً وهيّج فيه ذكرى التي لا تَذكُره : [طويل]

1/32 أمِن أُفقِها ذاك السنَا وتـألُّقُـهْ؟ يؤرّقُنا ، لو أنّ وجـدا يؤرقُـهْ![1]

2 وما انفَكّ مجتازٌ من البرق لامـعٌ يشـوّقنا تلقاءَ من لا يُشوّقـه

والتقليد يشمل كذلك المعاني الحافّة بمفهوم الحبيبة العزيزة في قومها ، الحصينة في أهلها الممنّعة في خِدْرها . فهي لا تبذُل حسنَها للناظرين ، ولا يصل إليها المحبّ إلا بعد جهد ، بل جهاد ، إذ أن حرّاس هذه الدرّة قد ينتبهون إلى زائر الليل فينكشف أمرُه فيُضطرّ إلى قتالهم . واقتران المعنى الغزلي بالمغامرة الحربية صارَ سنّة متّبعة منذ عمر بن أبي ربيعة كما قلنا ، وشعراء القرن الأول والثاني كالفرزدق وبشار ووضّاح وغيرهم ، ولم يكن متداولاً عند السابقين من شعراء الجاهليّة والإسلام . وسلوك آبن هانىء لهذا المسلك يبرهن على أن تقليده يجاوز الفحولَ الأوّلين الى فطاحل الفترة الأموية ، شأنه في ذلك شأن معاصريهِ ، المتنبّي وأبي فراس . فهو يغامر مثلهم إذن او يستعدّ للمغامرة : [كامل]

7/41 سأروعُ من ضمّتْ جِمالكُمُ وان غدَتِ الأسنّة دون ذلك غيلا

وقد لا تكفيه المغامرة في استهلال القصيدة ، فينظم مطوّلةً في وصف رحلة ليليّة كرائيّة عمر ، إلّا ان الفتى المخزوميّ ينجو من حرّاس الحيّ بالهروب السريع في زيّ امرأة . أما صاحبنا فيجابه ويبارز فيصرَعُ واحداً من مطارديهِ : [طويل]

---

(1) الدعاءُ على البرق بالوجد المؤرّق يبدو سخيفاً ، وهو يعني في نظرنا : فليبقَ البرق مسهّداً طَوال الليل لامعاً ، كنايةً عن مَقدَم الصباح الذي يرجوه كل ذي أرق .

31/49 فبادرتُ سيفي حينَ بادر سيفَه ... فثار الى ماض وثرتُ إلى خَذِمْ
32 ونبّه أقصى الحيّ أني وترتُهم ... وقد علّ صدر السيف من ماجدٍ عمَم

وهي قتلة أدبيَّة لا غير ، باعتراف الشاعر نفسه إذ يقول : هذا مجرّد تقليد واني لم أزهق أيّ نفس[1] .

على أنا نعثر أحياناً على فكرة طريفة تضفي على هذا التقليد الجافّ وهذه الصحراء القاحلة شيئاً من الرواء ، كتحسّره على الشجرة المنفردة التي كان يأوي إلى ظلّها وسَترها : [كامل]

12/1 للّه إحدى الدّوح فاردة، ولا ... للّه محنيةٌ ولا جرعاء!
13 باتت تثنّى، لا الرياحُ تهزّها ... دوني، ولا أنفاسيَ الصعداءُ

وكذلك وصف المرأة لا يخرج عن المألوف من قوانين الحسن عند شعراء العربية : فهي قضيب بان يتثنّى فوق كثيب يتهيّل : [طويل]

9/8 إذا هزّ عطفَيها قوام مهفهَفٌ ... تداعى كثيب خلفَها فترجرجا

ومن العين الفاترة واللحظ المريض تنطلق نبال مُقصِدة قاتلة : [بسيط]

6/12 ذوات نبل ضعاف، وهي قاتلةٌ ... وقد يصيبُ كميّا سهمُ رِعْديد

هذه الدمية لبِسَ الحسنَ صدرُها وشابهت لطافةَ الخيزران ساقُها ، ولكنّ ثغرَها المنضّد العَطِرَ لا يسمح بالقبلة إلّا لعُود الأراك : [كامل]

3/44 صَنَم تردّى الحسنَ منه مقرطقٌ ... ومشى على البردِيِّ منه مخلخَل
4 ووراء ما يحوِي اللثامُ مُقبَّل ... رتِل، بمِسواك الأراك مُقبَّلُ

ووصفه لمحاسن المرأة محتشم عادة ، رغم ما تنمّ عنه المقطوعات في الغلمان وقيان المجالس . يذكر ثدياً قد نهد ، فلا يعدو التلميح ويجمع

---

(1) تبيين المعاني . . . 708 .

المشهد في حركة الضمّ والعناق حتى لا تكون منّا حملقةٌ مُريبةٌ في هذا النهد الفالك : [طويل]

15/49 أمِيلُ بها مَيْلَ النزيفةِ مسنِدا إلى الصدر منها ناعمَ الصدر قد نَجَمْ

ولعلّ المَقام لا يسمح بالإباحيّة ، فإذا تحرّر الشاعر المدّاح ، فبمقدار وبإجازة من فحول السابقين كالنابغة في مشهد المتجرّدة وامرىء القيس حين يجر ثوباً وينسى آخر . على أن صاحبنا قد يسفّ ويسمج ، حتى أمام المعزّ مولاه : يريد أن يلمّح الى العراك اللذيذ الذي يكون مقدّمة الظفر بالحبيبة فيورّطه خيالُه الحربيّ وغلوّه فيقابل بين براز الوغى وبراز الفِراش ويحشد ألفاظ القتال حيث يُنتظر كلام الوصال : [طويل]

10/37 تكون لنا عند اللقاءِ مواقِفٌ ولكنّها فوق الحشايا معارك
11 ننازل من دون النحور أسنّةً إذا انتصب فيها الثُّدِيُّ الفوالِك

ولا نختم حديثنا عن استهلالات الشاعر دون أن نذكر توفيقه احياناً في استخدام صورة الطبيعة الحيّة التي تواسي الشاعرَ المتيّم فتحنو عليه كما رأينا في ذكره « للدوحة الفاردة » . فالشجرة المرتعشة هناك والحمامة النائحة هنا تشاركان الشاعر كأنهُما تشعُران بحاله : [طويل]

12/3 وما راعَنِي الا ابنُ ورقاءَ هاتفٌ بعينيه جمر من ضلوعيَ مشبوب
15 . . . ألا أيّها الباكي على غير أيكِه كلانا فريدٌ بالسّماوة مغلوبُ

وصف الراحلة ـ التخلّص الى المدح

اعتاد مقصّد القصيد ـ حسب « القانون » الذي قرّره ابن قتيبة ـ أن يدرج بين الوقفة الطلليّة والمدح ، وصفاً لمطيّته وتعداداً لمتاعب السفر الى الممدوح كيما يقيم عليه الحجة، كما قال ، ويوجبَ عليه العطيّة . هذا القسم من استهلال القصيدة لا نجده إلّا في مدحتين من شعر ابن هانىء ، الأولى في

جعفر بن حمدون ، والثانية في المعز . في الأولى ، يغرق الشاعر في « التبدّي » فيحشر في أربعة أبيات أغرب المفردات المتعلّقة بالناقة وبالصحراء : قوة القوائم مع الضمور وحبكة الجلد ، واستقامة العنق مع علوّ السنام ، والقدرة على قطع الفيافي في الحرّ الشديد الذي يلمع سرابه وفي الليل البهيم الذي يهابه حتى القطا : [منسرح]

27/61 وعرمس بازل مفتّلة خرقاء ضامر جلعدْ
28 قوداء عيرانة مضبّرة تجوب حَزن الآكام والفدفد
29 في مهمهٍ يلمع السرابُ به كمثل ماءٍ بِقِيعَةٍ يورد
30 وصلتُ فيها هجيره بسرى الـليل، وسربُ القطا قد هَجّدْ
31 حتى أنخت المطيّ باركة بساحةٍ من ذرى أبي أحمد[1]

وفي الثانية يختصر الوصف فيضمّه الى التخلّص ، في بيت واحد ، وكأنه تذكير بالمعاني المطروقة عادة ، فيكفي الاسم للإيحاء بقوة الناقة وبامتداد الفلاة ، وتكفي صورة الحجّ إلى البيت الحرام للإيحاء بالارتياح بعد التعب الشديد : [كامل]

12/9 حجّت بنا حرمَ الإمام نَجَائبٌ ترمي إليه بنا السهوبَ الفيحا[2]

وهذان مثالان من احترامه للقانون القديم ومن ميله الى التحرّر منه . ولكنّ وصف الناقة لا ينحصر في قسم الرحلة الى الممدوح ، بل نجده في نوع آخر من الرحلات : ترحّل الخليط في الصباح الباكر يحملون معهم المحبوبة ، أو اضطراب الشاعر في الأرض وراء الذكريات العذبة ، على ناقته ذات العضلات المفتولة كقوى الحَبْل او على بعيره الصلب العنق : [سريع]

12/36 . . .من ذات أعضاء إذا هجّرت فُتلٍ ، وذي أجرنة خُلقِ

والمطيّة تكون أيضاً فرساً ، بل إن الفرس أحبُّ إليه من الناقة. فهو

---

(1) أبو أحمد كنية الممدوح .

(2) الفيح (فيح) ج أفيح وفيحاء : الواسعة المترامية .

يحسن وصف الخيل ويتبسّط فيه ويكثر منه . وربما دلّ هذا التفضيل على أن معرفته بالخيل أوثق لأنّه مارسها فعلاً ، أمّا معرفته بالإبل فعن حفظ ورواية ، لا عن ممارسة حقيقيّة . والفرس قويّ عالي المتن متحفّز للقتال لا يصبِر عنه فلذلك يلوك لجامَه : [كامل]

12/30 بأقبَّ لا يدع الصهيلَ إلى القنا حتى يلوكَ خطامَهَا المتقصِّفا

هذا الحصان صادق الفراسة يعرف طريقه ليلاً فضلاً عن النهار ، كأنما خلقت فيه القيافة والعيافة ، ويساعده على هذا الاهتداء الثابت سمع لطيف يقظ دقيق كلّما أحسَّ بالجَرس الخفيّ انتصبت أذناه متنبّهتَين متحفّزتين كأنهما تحرسان الراكب من مخاطر الليل : [كامل]

12/36 يسري فأحسب في عِنَاني قائفاً متفرّساً، أو زاجراً متعيّفا
14 . . . يرمي الأنيسَ بمِسمَعَي وحشيّةٍ قد أوجسا من نبأةٍ فتشوّفا
15 فتقدّما ، وتنصّبا، وتذلّقا وتلطّفا، وتشرّفا، وتحرّفا
16 وتكنّفاني ينفِضان ليَ الدجى فإذا أمِنْتُ ، ترصّدا فتخوّفا[1]

هو دابّة حرب ودابّة سفر ، فإذا اقترن عنده هذا الحسُّ الثابت بقوة البنية والقدرة على العدو والصبر على التعب ، صار دابّة طرد أيضاً ، فلذا يعود الشاعر إلى وصف دقّة سمعه في مشهد صيد مُقحَم في مقدّمة القصيدة مثل طرديات الشعراء العباسيّين ، إلاّ أنه في هذه المرة يخصّص لها نحو عشرين بيتاً فيشيد بجمال خلقتها مع قوّتها وهيبتها وسُرعة جَريها : [متقارب]

12/58 فَقُدنا الى الوحش أشباهَها ورُعنا المها فوقَ مثل المها
13 صنعنا لها كلِّ رِخو العنان رحيب اللبان سليم الشظى
14 يُرَدُّ إلى بسطة في الإهاب إذا ما اشتكى شنجا في النسا
15 كأنَّ قطاً فوق أكفالِها إذا ما سرين يُثِرن القطا

---

(1) نفض له الطريق : راقبَهُ وتفقّدَهُ من عدوٍّ أو خطرٍ .

16 عواري النواهق شوشُ العيون ظِمَاءُ المفاصِل قُبُّ الكُلى[1]

ويتغنّى بقوة بصرها كما تغنّى بقوة سمعها ، إلا أنه يلحّ على حاسّة السمع لأنّ الأذنَيْن بتحرّكهما السريع المتلاحِق المتغيّر أكثرُ إسعافاً للشاعر مِنَ العين للتفنّن في الوصف والتعمق في الافتراض ، فإذا كانت العين تتبيّن ظل الفارس في الظلام ، فان الأذن تنفذ إلى نجوى الفؤاد :

17/58 تُديرُ لطَحْرِ القذى أعيناً ترى ظلّ فرسانِها في الدجى
18 وتحسب اطرافَ آذانها يراعاً بُرين لها بالمُدى
19 فهنَّ مؤلّلَةٌ حشرةٌ مندَّدَةٌ لخفيّ الصدى[2]
20 تكاد تُحسُّ اختلاجَ الظنو ن بين الضلوعِ وبين الحشا
21 وتعلم نجوى قلوب العدى، وسِرَّ الأحِبَّة يومَ النوى

أمّا عدوها فهو أسرعُ من البرق الخاطف مع أنه خفيف رفيق كالخاطر السريع :

22 فأبعَدُ ميدانها خطوةٌ وأقرب ما في خطاها المدى
23 ومن رفقها انَّها لا تحسّ ومن عَدوها أنَّها لا تُرى
24 جرينَ، من السبق، في حلبة إذا ما جرى البرق فيها، كبا

فلا غرابة ، وخصالها على هذا القدر من النفاسة ، ان تكون الخيل هي « حصون العرب ومعاقلها » ، كما قالوا في أمثالهم ، وأن يكون سرج الحصان « أعزّ مكان في الدنى » حسب قولة المتنبي . ولئن ذكرنا أبا الطيب ، فليس لاتّفاق الشاعرين في الفخار بالفرس في عزّه ومنعته فقط، بل في وصف دقّة الحواسّ أيضاً ، ونحن لا نستبعد ان يكون شاعرنا اتخذ قصيدة المتنبي اليائيّة في مدح كافور مثالاً فاحتذاه فى وصف سمع الفرس وبصره ، وان اكّد لنا أنّه

(1) الشظَى : عظم الركبة . النواهق : عظمان في مجرى الدمع من وجه الفرس . والأقَبُّ من الخيل الدقيق المفاصل الضامرُ البطن .
(2) الأذن المُؤَلّلَةُ : المحدّدة المنتصِبة للنبأة . وحشرَةٌ : دقيقة مرهفة .

يصعد الى أعلى من المتنبي ، إلى طُفَيْل وصّافِ الخيل :

25/58 إذا أنت عـدّدتَ مـا يمتـطى ... وقـايستَ بين ذوات الشَّـوىٰ
26 فـهنّ نـفـائسُ مـا يستـفـادُ ... وهـنّ كـرائمُ مـا يُـقتـنـى
27 ديـار الأعـزّة، لـكـنـهـا ... مكـرّمـةٌ عن مَشيـد البـنـا
28 ومن أجـل ذلـك ، لا غيـره ... رأى الغنـويُّ بـهـا مـا رأى

ولا نعني بهذه المقارنة مع الشعراء المعاصرين له او السابقين ، أنّ الشاعر في وصفهِ للخيل انما هو مقلّدٌ متمرّن متتلمذ ، فإنًّ براعة الوصف وطرافة بعض التخيّلات، وحسن استخدامه لمقولات العرب في الخيل ، كلّ هذا يعبّر عن تعلّق صادق بالخيل ، ومعرفة جيّدة بصفاتها ، ولنا ان شاء اللّه عودة الى تفنّنه في الوصف في الفصل العاشر .

وصف الظواهر الطبيعية : الليل ، النجوم، البرق ، المطر الخ . . .

تتضمّن الاستهلالات أيضاً مشاهد وصفيّةً يربط فيها الشاعر بين ظواهر الطبيعة وما يدّعيه لنفسه من همّ وتسهيد . فهو يولي البرقَ مثلاً اهتماماً خاصّاً ويربط وصفه بوصف الحبيبة : ضياؤه من إشراق وجهها او من لمعانِ ثغرها ، وهو إذ يشقّ ظلامَ السماء يجسّمُ السحبَ فيعطيها أشكالاً مختلفةً ، فخصر مرهف هنا وكفل ثقيل هناك ، وثوب مجيّب تارة وعباءة مفتّحة اخرى : [طويل]

1/8 أمـنـكِ اجتيازُ البرق يلتاحُ في الدجى
تـبـلّجـتِ من شـرقـيّـه فـتـبـلّجـا ؟
2 كـأنّي بـه لمّـا شـرى منـك واضحـاً
تـبـسّـم ذا ظَـلـم شـنـيـبـاً مُـفـلَّجـا[1]

---

(1) شرى البرقُ : لمع أو تفرّق .

3 مُـطار سنىً يـزجي غمـامـا كـأنـمـا
يجـاذب خَصـراً في وشـاحـكِ مـدمجـا
4 يـنـوء اذا مـا نـاء مـنـك ركـامُـه
بـرادفـةٍ لا تـسـتـقـلّ مـن الـوجـى
5 كـأنَّ يـداً شـقّـت خـلال غـيـومـه
جيـوبـاً، او اجتـابـت قبـاءً مـفـرّجـا

ويربط البرق أيضاً بالمطر ، فيستطرد في وصف طويل للسحب المحمّلة بالماء المنعش ، الشبيهة في دكنتها بالعقبان المنقضّة على الفريسة . وعلى عادة شعراء البادية ، يدعو لأرض الأحبّة بالغيث المسجم حتى تفوح رياضهم بشذى الزهر المنضّد : [طويل]

6/10 ولمّـا تهادى نكّب البيـدَ مُعرضـا — وأتـأقَ سجـلا للريـاض فـطفّحـا
7 تـدلّى فخِلْتُ الدّكْنَ من عـذباتـه — كـواسِرَ فُتْخـاً في حِفَافَيْـهِ جُنَّحـا
8 لتغـدُ غـوادِيـه بمنعَـرجِ اللوى — موائحَ رقـراقٍ من الرَّيِّ مُتَّحـا[1]
9 سقَتْه فمجَّتْ صائكَ المِسك حُفَّلا — تسُحُّ، وأذْرَتْ لؤلؤَ النَّظم نُضَّحا
10 فلم تُبقِ من تلك الأجارِع أجْرُعاً — ولم تُبقِ من تلك الأباطح أبطَحَا

ويتفنّن الشاعر أحياناً في وصف المشهد الطبيعيّ فيجمع في لوحة واحدة المطرَ الخفيف ومطاردةَ الريح للسحب ، والعشبَ المعطّر ، والنسيمَ الرفيقَ ولكنّه يتكلّف الصورَ والتشبيهات فيخْرُجُ عن الطبيعة النابضة الحيّة الى طبيعة منظّمة مفتعَلة ، ولا سيّما إذا قفّى أبياته برويٍّ نادر مهجور كالطاءِ : [بسيط]

1/26 ألؤلؤٌ دمـعُ هذا الغيثِ أم نُقَط؟ — مـا كان أحسَنَـه لـو كـان يُلتَقَط!
2 بين السحاب وبين الريح ملحمةٌ — قعـاقعٌ، وظُبىً في الجـوّ تُخْتَرَط
3 كـأنه سـاخطٌ يرضَى على عَجَـل — فمـا يـدومُ رضىً منـه ولا سخط
4 أهـدى الربيـعُ إلينـا روضـةً أُنُفـاً — كمـا تنفَّسَ عن كـافـوره السفَط

---

(1) أتأق : ملأ . السّجل : الدلو . والعذباتُ : أطراف السحاب . والفتخُ : العقبان والحِفاف بالكسر : الجانب . وماح الماء من بئره : طلبَهُ ومتحَ الماء : أخرجه بالدلو .

ولكن ، في هذا المشهد المشحون بالتفاصيل ، المثقل بالتشابيه ، نظفر أحياناً بصورة طريفة تخرج عن مألوف الخيالِ عند شعراء الجاهلية . من ذلك هذه الإشارة إلى البحر في مدّه وجَزره ، وهذا التشبيهُ للسحاب بالقاضي العبوس :

5/26 غمائمٌ في نواحي الجوّ عاكفةٌ ‏ ‏ جعدٌ، تحدَّر منها وابلٌ سَبِطُ
6 كأنّ تهتانَها في كلّ ناحية ‏ ‏ مدٌّ من البحر يعلو ثمّ ينهبط
7 والبرقُ يظهر في لألاءِ غُرّته ‏ ‏ قاضٍ من المُزن في أحكامه شَطَطُ

8 وتأخذ الأرض حظَّها من هٰذه المزن ومن وصف الشاعر :

9/26 والأرض تبسط في خدّ الثرى ورقاً ‏ ‏ كما تُنَشَّرُ في حافاتِها البُسُطُ
والريح تبعثُ أنفاساً معطَّرةً ‏ ‏ مثلَ العبير بماء الورد يُخْتَلَط

فالشاعر ، رغم إعجابه الصريح بالقدماء وتعلّقه بطرقهم ، يحاول أحياناً ان يتخلّص من القيود التقليديّة أو أن يجدّد في الحدود الضيّقة التي يسمح بها جِنس المديح ، فيُدخل في القصيدةِ هذه المشاهدَ الطبيعيّة مثلاً التي تذكّرنا بشعر ابن الرومي أكثر مما تذكّرنا بالجاهليّين ، رغم ما ينزلق اليه الشاعر من ذكر الأماكن والجبال والأسماء المحفوظة في الشعر القديم ، كثبير ومنعرج اللوى ، وما كان أغناه عن ذكرها !

ويصف النجومَ كذلك ، لأن الشاعر المتيّم يقضي ليله الطويل في انتظار الصبح ، فيعُدّ النجوم ويرعاها ويرجو أُفولَها . وشاعرنا لا يخرج عن هذه السنّة ، إلاّ أنّ تعلّقه بالنجوم ليس وليدَ التقليد فقط ، بل يظهر أنّ له معرفةً مدقّقة بأسمائها ومواقعها وسيرها ، كما تشهد بذلك ، إلى جنب ما أكّده ابن الخطيب[1] ، القصيدة الحادية والثلاثون التي خصّص منها عشرين بيتاً لوصف

---

(1) إحاطة 212/2 .

الأفلاك فَسُمّيت « القصيدةَ الفلكية » وتناقلها الرواة ودرسها الدارسون وحفظتها كتب الأدب . وسنقف عندها وقفة درس وتحليل . أمّا الآن فنكتفي بنموذج يصوّر فيه انتظاره لانجلاء الليل المتطاول ، وَلَكنّه يترك تحليلَ عواطفِهِ ويجنح إلى الصورة البديعيَّة المتكلَّفة : [طويل]

13/52 خليليّ ! هبّا فانصُراها على الدجى كتائبَ، حتى يهزمَ الليلَ هازمُ
14 وحتى أرى الجوزاءَ تنثر عِقْدَهَا وتسقط من كف الثريّا الخواتمُ!

المجالس الخمريّة

يقحم الشاعر ضمنَ الاستهلال وصفاً لمجلس لهو على الطريقة النواسيّة وقد عرضنا أنموذجاً من هذا المعنى الذي أصبح هو الآخر سنّة متّبعة . فالشاعر المولّه يدعو صاحبَيه الى طرد الهمّ براح معتّقة ، او يتذكّر أيام لهوه في صباه مع الغواني النواعم وهنّ يسقينَه خمرةً صافية أو شديدة المفعول : [كامل]

5/30 ولئن ذكرت الغانياتِ فخطرةٌ تعتاد صبّا بالحسان مُكلَّفا
6 فلقد هززت غصونَها بثمارِها وَهَصَرْتُهُنَّ مُهفْهفا فمهفهفا
8 . . . ولقد هززتُ الكأسَ في يد مثلِها وصحوت عمّا رقّ منها أو صفا
9 فرددتُها من راحتَيْه مُزّةً، وشربتُها من مُقْلَتَيْه قرقفا

ويصف كذلك لوازم الشراب كالأباريق ، فيلتمس لها الصورة الظريفة ويتوسّع فيها ويستفرغُها : فهي اذ تَمدُّ أعناقَها كأنها تصغي إلى غناء القيان ، تشبه ظباءً أوجسَت خِيفة : [خفيف]

11/35 والأباريقُ كالظباء العواطِي أوجَسَتْ نَبْأَةَ الجياد العتاق
12 مصغياتٌ إلى الغناء مطلّا تٌ عليه، كثيرةُ الإطراق

وارتفاع أفواهها يجلِب الى الذهن فكرةَ الشَّمَم ، وصورة الأنف المتكبّر تجرّ صورة الرعَف بدم الخمرة :

13 وهي شُمّ الأنــوف يشمُخْنَ كِبرا   ثم يـزعُفْـنَ بـالـدم المهـراق

وهم اذ كمّموا أفواهَها بالمِصفاة كأنهم منعوها من السماع ، فصارت بين ضُرّيْن : إما الصَّمَمُ وإمّا البُكاء :

14 فـدّمَتْهـا السقـاةُ كي يُـوقـروهـا   صمَماً عن سمـاع شـادٍ وسـاقِ
15 فهي إمّا يشكُونَ ثِقلا من الوَقــــرِ ، وإما يبكين بالآماق

ويتعثّر الشاعر في هذه الصور الكثيرة المتلاحقة وتضطرب لغتُه في تشخيص هذه الأدوات او تجميدهنّ ، فيخرج الى النصح بالحذَر منها لأنها تكشف عن مكنون الفؤاد :

16 جنّبوها مجالسَ اللهو والوَصْــــل إذا ما خلَوْنَ للعشّاقِ
17 فهي أدهى من الوُشاة على مَكْــــنُون سرِّ المتيّم المشتاق

ومن عناصر المجلس ، الساقي الأهيف الجيدِ الثقيلُ الردف المريضُ اللحظ، لأنه اعتاد شرب الخمرة التي يسقيها . والشاعر يخلِط وصفَه بالغزل لأن هذا الغلام شادن نواسيّ : [طويل]

2/31 وبات لنا ساقٍ يقوم على الدجى   بشمعة صبح لا تُقطُّ ولا تُطفَا
3 أغنُّ ، غضيضٌ، خففَ اللينُ قَدَّه،   وثقّلَتِ الصهباءُ أجفانَه الوُطفا
4 ولم يُبقِ إرعاشُ المُدام لـه يَداً،   ولم يُبقِ إعناتُ التثنّي له عِطفا

فيلحّ في وصف تثنّيه ويرفعُه عن التشبيه المعتاد بالغصْن المتمايل فوق الكثيب :

5 نـزيـفٌ نـضـاه الـسـكـرُ إلّا ارتـجـاجَـه
إذا كـلَّ عـنـه الخَـصـرُ حـمَّـلَهُ الـرِّدْفَـا
6 يـقـولـون: حِـقـفٌ فـوقَـهُ خـيـزُرَانَـةٌ،
أمـا يـعـرفـون الخـيـزرانـةَ والحِـقْـفَـا؟

شكوى الدهر

قد يعوّض شاعرنا ، او يعزّز ، وصفه لمشاقّ الرحلة الى الممدوح ، بشكوى من صروف الدهر وضربات الزمان . وهذا أيضاً معنى معروف وسنّة متّبعة ، والقصد منه توليد عاطفة الرحمة والشفقة في قلب الممدوح ، ممّا قد يحمله على توفير العطاء . وتختلف شكوى ابن هانىء عن تأمّلات معاصره المتنبي ، فليس لها نفس العمق ولا ذاك الطابع الشجيّ ولا تلك الغنائيّة الحزينة . ثم إنّ ابا الطيب كان يقتطع لنفسه قسماً من المدحة فينعزل تماماً عن الممدوح ويقضي حقّ نفسه من التألم والتصبّر والفخر بأنفته وجلده ، فإذا فرغ من بثّ همومه ، فكّر آنذاك في ممدوحه فدخل في المدح . اما ابن هانىء ، فيدمج هذا التشكّي ضمن الاستهلال ويربطه بالنسيب ، كأنّ هجران الحبيبة وصدودها او رحيل قومها هي أيضاً من نكبات الدهر وتقلّبات الأيام والليالي :
[طويل]

7/7 أريدُ لهذا الشمل جمعاً كعهدنا ... وتأبى خطوبٌ للنوى وحوادثُ
عبثتُ زماناً بالليالي وصرفها ... فها هيَ بي لو تعلمونَ عوابثُ

وتقلّب الدنيا شبيه بتنقّل الحسناء في هواها ، فكلاهما لا تثبت على حال ، وشاعرنا يستخدم هذا التمثيلَ بكثرة ويصعد به شيئاً فشيئاً الى نعي المكارم في هذه الحياة والى تعَبه هو في البحثِ عن كريم «أغرّ محجّل» فإذا هو الممدوح وحده ، والناس كلهم رعاع و« جبلّة دهماء » : [كامل]

22/1 طُويَتْ ليَ الأيامُ فوق مكايدٍ ... ما تنطوي لي فوقها الأعداء
23 ما كانَ أحسنَ من أياديها التي ... تُوليك! إلا أنها حسناءُ
24 ما تُحسنُ الدنيا قديمَ نعيمها : ... فهي الصَّناع ، وكفُّها الخَرقاءُ
25 تشأى النِجازَ عليَّ ، وهي بفتكِها ... ضِرغامة ، وبلَونها حِرباء
26 إنَّ المكارمَ كنّ سِرباً رائداً ... حتى كَنَسْنَ كأنهنَّ ظِبَاءُ
27 وطفِقتُ أسألُ عن أغرّ مُحَجَّلٍ ... فإذا الأنامُ جِبِلَّةٌ دَهْمَاءُ

28 حتّى دُفعتُ إلى المعزّ خليفةً فعلِمتُ أن المطلبَ الخُلَفاءُ

ولئن ندّت منه بعد هذه الشكوى نفحات فخريّة يُؤكّد فيها قُوّة جأشه :

[طويل]

13/11 ألا لا تُنَهْنِهْنِي الخطوبُ بحادِث فلي هِمّةٌ تبري الخطوبَ وتَنتخُ[1]

وَعُلُوّ هِمّته التي رامت النجومَ فبلغتها : [كامل]

14/25 لُقّيتُ نعماءَ الخطوبِ وبُؤسَها وسُبِكت سَبْكَ الجوهر المتخَلِّص

15 فإذا سَعَيتُ إلى العلى لَم أتّئِدْ وإذَا اشتريتُ الحمدَ لم أسترخِص

16 شارفتُ أعنانَ السماءِ بهمّتي ووَطئتُ بَهْرامَ النجومِ بأخمَصِي

ولئن أشاد أحياناً بقومه ففخر بشجاعتهم وفصاحتهم : [سريع]

17/36 معشري المعشرُ قادوا العلى والإنسَ والجنَّ بلا رِبْقِ

18 فيهم سبيلُ المجد عاديّةٌ قبلَ الصّياصي وأبنة الطُّرقِ

20 . . . أهل الاكفّ البيض تُهْدِي القِرى والشولَ في القرب وفي السحق

22 . . . هم نطقُوا والناس من مَرْمَرٍ والدهرُ مكعُومٌ عن النطق[2]

فإنه في الأغلب يبكي الشباب الراحل ودنوّ الشيخوخة ، فيصطبغ الاستهلال بالصبغة التشاؤميّة المعهودة في الشعر الحِكمي : [متقارب]

4/58 لبستُ رداءَ المشيب الجديدَ ولكنّها جدّة للبلى

5 فأكدَيْت لمّا بلغت المدى وعُرّيت لما لبستُ النُّهىٰ

وهذه الحكم والأقوال المأثورة ترضي كلّ نفس وتوافق كلّ مقام لأنّها مستَمَدّة من التجربة الانسانية ، وتداولتها الألسن فصارت من الحقائق التي لا

---

(1) نتخ (باب ضرب) : اقتلع . ونهنهْته الحوادث : زجرَته عن مراميه .

(2) الصياصي : هي الحصون والقلاع . وابنة الطرق : الطريق المتشعّبة . الشول : الإبل ومرمر الناس : غضبُوا ولعلّها : في بَربَرٍ : في كلام غير مفهوم .

تحتاج الى استدلال ، لذلك يصرفها الشَعراء في كل غرَض ويطرقونها في الرثاء كما يطرقونها في المدح ، وربما كان القصد منها « رفع » الشعر الى أجواء التأمّلات العالية دون أن يكون الشاعر بالضرورة في هذا الضنك ولا هذا التعب : [طويل]

17/42 نُساق من الدنيا الى غير دائم ونبكي من الدنيا على غير طائل
18 فما عاجلٌ نرجوه إلاّ كآجلٍ، ولا آجلٌ نخشاه إلاّ كعاجل
19 . . .وما الناس الا ظاعن ومودِّع، وثاوٍ قريحُ الجفن يبكي لراحل

معاني المدح

قلنا إنّ أهم المعاني الواردة في مدائح ابن هانىء هي معان مذهبيّة وشعارات سياسيّة وحملات على أعداء الفاطميّين وخصومهم ، وأرجأنا البحث فيها الى فصل لاحق من هذه الدراسة . أمّا الآن فنهتمّ بالمعاني التقليديّة التي لا يخلو منها شعر البلاط ، وندرسها للوقوف على مدى تقليد ابن هانىء من جهة ، وعلى مدى تكييف مدائحه بحسب الممدوحين ، أي بحسب قربه منهم وحَظوته عندهم ، أو بحسب مرتبتهم في الدولة وسعة نفوذهم .

الكرم

من معاني المدح الواجب طرقها ، الكرم . وهو كرم واسع دائم لا يُحدّ ولا يعدّ ، ولا يشبّه إلاّ بالبحر الزاخر والوابل المتهاطل . والشعراء يتبارَون في هذا الإطار ويتسابقون وراء الصورة الجديدة والتشبيه النادر والافتراض الغريب ، خصوصاً وأنّ العادة اقتضت أن لا يذكروا عطيّة بعينها ولا مقداراً محدّداً من الدراهم والدنانير ، لأنّ التحديد بمبلغ يجعل لهذا الكرم حدوداً ويُنزله الى مستوى الكميّة المعدودة المعروفة ، وهذا لا يليق بالممدوح .

فلذلك يبقى الكرم في أجواء مطلَقة سماويَّة ، ويُجهد الشاعر نفسه لتقريب هذا الجود الضبابيّ إلى ذهن السامع ، ويتعمّل ويتعب فيجاوز حدّ الذوق أحياناً ويُغْرِقُ بدوره ، ولكن في السماجة : [خفيف]

21/35 كُـلُّ أسـرار راحَتَيْه غمـامٌ   مسـتهـلّ بـوابـل غَيْـداق
22 فإذا ما سقـاك من ظماً جـا   وز حدّ السُّقيا الى الإغـراق

وإذا لجأ الى التشبيه المعتادِ بالماء الدافق ، تصرّف وغالى فغلّب ندى الممدوح على ماء السحب : [بسيط]

12/26 تـالله لـو كـانت الأنـواء تشبهُـهُ   ما مرّ بؤسٌ على الدنيا ولا قَنَطُ

ورفعه على أمواج البحار مجموعة :

20/26 يزري بفيض بحار الأرض لو جُمِعَت   بَنَـانُ راحتِـهِ المغلولِبُ الخَـمِطُ

هذه أبيات من مدائحه في المعزّ ، وهو ، والحقُّ يقال ، لا يتبسّط في الإشادة بكَرم الخليفة مثلما يتبسّط في مدح خلاله الأخرى ، كأنّه يتحرّج من الظهور في صورة المستجدي الذي يطلب العطاء في مقابل مدحه ، في حين أنّ مدحَه إنّما هو حمد كما يقول ، لأنه تعبير عن ولاء صادق للإمام وأسرته ، وانخراط تلقائي في الحزب الفاطميّ ، ولا يليق بالداعية المخلص ان يطلب مكافأة على سعيه وتحرّكه . ويتورّع شاعرنا عن طلب الرفد صراحةً ، ولا يربط كرمَ صاحبه بحاجات شخصية ولا بعطايا مخصوصة . فلا ذكر مثلاً في القصيدة الثالثة والخمسين ، وهي أوّل قصيدة ألقاها بين يَدَي الخليفة ، ولا في لاحقاتها ، لذلكم القصرِ المنيف الذي كافأه به المعزّ عند فراغه من الإنشاد ، حسب ما ترويه توطئة القصيدة ، وهي رواية تكاد تكون خياليّة . وإنْ نعثرْ على بيت فيه شيء من الطلب ، فهو بيت على درجة كبيرة من التعميم : [متقارب]

86/58 إلى مثل جدواك تُنضى المطيّ   ومن مثل كفّيك يرجى الغِنى

أو هو طلب الإنصاف من الحاسدين الذين يريدون إخمادَ صوته : [طويل]

64/37 أرى شعراءَ الملك تنحَتُ جانبي — وتنبو عن الليث المخاضُ العوارك

74 . . . خمول وإقتار ، وفي يدك الغِنى — فمَحْياً! فإني بين هاتَيْن هالك

ونعود الى معنى الكرم لنلاحظ أنّ الشاعر قد يسأمُ الصورة المعتادة ، صورة الغيث والبحر، فيلتمس تشبيهاً جديداً، يكون فيه أيضاً تعظيمٌ لكرم الممدوح : فالشمس في انتشار ضَوْئها على أديم الأرض وأرجاء الكون ، لا تضاهي ندى الممدوح في اتّساعه لكل محتاج وشموله لكل عاف : [طويل]

65/31 وما الشمسُ تكسو كلّ شيء شعاعَهَا — بأسبغ عندي من نداك ولا أضفى

ويعود الى التشبيه بالشمس فيضيف إليه عنصُرَي الحرارة والشهرة ، فلئن أضاءت هي بنورها وأدفأت ، فإنَّ نيران قُدُور الممدوح أسطع ، ولئن مدّت شعاعها على البسيطة كلّها، فشهرة الممدوح بالكرم أعمّ وأوسع : [طويل]

65/23 ألا انظرْ الى الشمس المنيرة في الضحى — وما قبضَتهُ أو تمُدُّ على الثَّرى

66 فأثقَبُ منها نارُ زَنْدِكَ للقرى — وأشهَرُ منها ذكرُ جودك في الورىٰ

الحلم

يشمل الحِلم خصالاً كثيرة : علوّ الهمة ، ورباطة الجأش ، وسعة الصدر ، والترفّع عن الدَّنَايا ، والتسامح والرصانة والتريّث ، وهو عنصر رئيسيّ في مفهوم المروءة العربية أي الصفات الواجبة للمرء ، صفات الرجولة الحقّ التي تعطي الإنسان ثقة بنفسه وثباتاً شبيهاً بثبات الجبال ، فلذلك كثُر تشبيه الحليم الرصين بالجبل الراسخ الراسي : [كامل]

18/44 والأرض تحمل حلمَه فيؤودُها — حتى تكاد بأهلها تتزلزل

والصفة المبجّلة في الحليم هي العفو عند القدرة على الانتقام. وهذا الإغضاء عن الذنوب عند الممدوح صار سنّة متّبعة عند كلّ النّاس : [طويل]

62/47 وأنتَ بدأتَ الصفح عن كلِّ مذنِبٍ وانتَ سننتَ العفو عن كل مجرِمِ
64 . . . ومن يتيقّنْ أنّ للعفو موضعا من السيف يصفَحْ عن كثيرٍ ويحلُمِ

وكذلك الحزم ، ينبغي ان يقتَرِنَ بالتأنّي والتثبّت ، مثلما اقترن الصفح بالمقدرة :

63 وكــلُّ أنــاة في مــواطن سـؤدَدٍ ولا كــأنــاةٍ منْ قــديــرٍ محـكَّم
65 . . .وما الرأيُ الا بعد طول تثبّتٍ ولا الحـزمُ إلّا بعـد طـولِ تَلَوُّمِ

وخلالُ التأنّي والتثبّت والتريّث ضروريّة بالخصوص لصاحب السلطان الواسع الذي يتحكَّم في الأموال والأبدان والأرواح ، يحتاج إلى هذه الصفات لاختيار أعوانه وتدبير ملكه ، مثلما يحتاج الى سلاحه ، فالعقل صنوٌ للسيف ونِدٌّ ، ولا غنى عن هذا ولا ذاك : [كامل]

22/44 ذو الحــزم لَا يتـدبّــر الآراء في أعقـابهـا ، مـا الـرأي إلّا الأوّلُ
23 متقلّدٌ بيضَ الشفــار صـوارِمَــاً ، منهــا نُهَـاهُ ، ورأيُـه والمنصُــلُ

والأناة والحَزم صفتان متكاملتان تتضافران ولا تتعارضان . فإن كان الممدوح سريعَ البتِّ في الأمر المعضل سريعَ الإنجاز لما قرّر ، فإنَّ حزمَه هذا لا يبطِلُ أناتَه ، كما أنّ مغرياتِ الدنيا لا تغلِب قناعَتَهُ وترفُّعَهُ عنها : [طويل]

25/37 إمـامٌ رأى الـدنيـا بِمؤخِـر عينِــهِ فمن كـان منها آخـذاً فهو تـاركُ
26 إذا شـاء لم تملك عليـه أنــاتَـه بــوادرُ عــزم للقضــاء مــوالــكُ

ويتَّصل بالحزم والعزم والرأي الحصيف ، الذكاءُ النافذُ والفهمُ الدقيق والتقدير البعيد حتى ظَنّ الناس أنّه يعلم الغيب : [طويل]

60/23 كـأنّك شـاهدتَ الخفـايا سـوافِراً وأعجلتَ وجـهَ الغيب أنْ يَتَستَّـرا
61 فَعُرِّفْتَ في اليوم البصيرة في غدٍ وشاركتَ في الرأي القضَاءَ المُقَدَّرا

ولكنَّ هذا التنبّؤَ بالغيب ليس مبالغة شعريّة كما سنرى في المعاني

العقائديّة ، فالشاعر ينسب الى الخليفة اطّلاعاً حقيقيّاً على خفيّات الأمور يسمّيه تارة وحياً وطوراً فراسة .

ولا تتمّ صفات المروءة بدون خَطابة وفصاحة ، فالإمام مدرهُ قولٍ كما هو مدره غيبٍ ، وكما ورث الوحي عن جدّه فكذلك ورث جوامعَ الكلم : [كَامل]

46/1 ورث المقيمَ بيثرب فالمنبرُ الـ أعْلَى لـه، والتـرعـةُ العليـاءُ
47 والخطبةُ الزهراء فيها الحكمةُ الـ ـغـرّاءُ فيهـا الحجّـة البيضـاء

البـأس والقـوة

لم يكن المعزّ قائد جيوش ولا بطلَ معارك ، ولئن قاد بعضَ الحملات القليلة فإنّ الشاعر لم يصحبه فيها ، فليس عنده إذن قولٌ يقوله في شجاعة المعزّ وخوضه المعمعة ، ولكنّه يعوّض هذا المعنى بمعان أخرى تُشيد بعزمه وبأسه وبطشه بالأعداء وقوّة سلاحه في البرّ والبحر ، فأسطوله قهر كلّ أسطول وملك البحر على الأعداء : [طويل]

87/13 وعـزمُـك يلقَىٰ عـزمَ كـل مملّكٍ كمـا يتـلاقى كَـائِـدٌ وَمَكِيـدُ
88 وفُلكُكَ يلقَىٰ الفلكَ في اليمِّ من عَلٍ كـما يتـلاقـى سيّـدٌ ومَسـود

والعدوّ المكابر لا يُفلت من قبضة المعزّ مهما عظُمت قوّته وعلت حصُونه ، ومآلُهُ القهر والهزيمة ، فلا مفرّ له ولا بدّ لأمّهِ من ثكل محقّق . فلا غرابة مع هذا البأس ان يتحكّم المعزّ في حظوظ الملوك ومصاير الدول : [بسيط]

1/43 كـدأبـك ، ابنَ نبيّ الله ، لم يـزلِ قَتْلُ الملوك ونقلُ المُلك والـدُّوَلِ
2 أين الفـرارُ لبـاغٍ أنتَ مـدرِكُـهُ لأُمّـه ملءُ كفَّيْهـا منَ الهَبَـل!

3 هيهاتَ يضحي منيعٌ منك ممتنعاً ولو تسنَّم رَوْقَ الأعْصَمِ الوَعِلِ[1]

وذلك أنّ جيوشَ الإمام هي على أهبة دائمة لخوض معركة في البرّ والبحر ، فلا السيف يعرف غِمْدَه لأنه دوماً مسلول ، ولا الخيل حُطّت لبودها لأنها دائماً في مسير الى العدوّ ، ويكفيه إشارةٌ من لحظه حتى تنطلقَ السفنُ تمخُر عبابَ اليمّ ، وتطير السوابقُ في كوكبات قاهرة ؛ فلا بدع أن صار الملوك يخشَونه الى حَدّ أنهم يَتَحَاشَوْنَ مناجاةَ أنفسهم :

7/43 خافوك حتى تفادَوا من جوانِحِهم فما يناجونَهَا من كثرةِ الوهلِ

* * *

هذه الشواهد التي سقناها منقولةٌ في معظمها عن مدائحه في المعزّ . فلننظر الآن بسرعة في معاني قصائده الحمدونية . في الحقيقة لا تختلف المعاني التقليديّة هنا وهناك : فالكرم والحِلم والعزم والتدبير الصالح صفات مشتركة بين المعزّ والأخَوين الأندلسيّين . فَلْنَكْتَفِ بنماذج من شعر ابن هانيء في أمراء الزاب . فإذا وصف حلمَ جعفر ، حصره في خصال أربع : حماية المستجير، ونصرة الحقّ ، وإغاثة المستضعَف ، والوفاء بالوعد : [طويل]

52/63 تعوّدتَ عاداتٍ من الخير ، كلّها بعيد على مَن أمَّهُنّ سحيق
53 فمنهنّ : منعُ الجار ، حتى كأنّما له في ذرى المزن الكَنَهْوَرِ نِيقُ
54 ونصرك للحقّ الذي أنتَ أهلُه وعَوْنُكَ للملهوفِ، وهو رهيق
55 وإنْ سَبَقَتْ منك المواعدُ أنجزَت وإن أُخِذَ الميثاقُ فهو وثيق[2]

ويتبسّط في خصالهم الحربية ، دون أن يتوقّف عند معركة معيّنة فيصف حوادثَها وموقف الممدوح فيها ، ممّا يشعر بأنه قلّما صاحَبهم في حملاتهم ، أو بأنّ هذه التحركاتِ لم تكن على مقدار من الضراوة جديرٍ بالتسجيل المفصّل . لذلك يجنَح على عادته الى الغلوّ فلا يخفّفه بأداة افتراض أو

---

(1) الروق : القَرن والأعصم والوعول : تَيس الجبل .

(2) النيق : قمّة الجبل .

تقريب : الأمير خافته الأسودُ الشرسة فمهّدت له عرينَها أو مرّغَت وجوهَها في التراب أمامه : [كامل]

29/6 فرشت له أيدي الليوث خدورَها ورضينَ ما يأتي وكُنَّ غضابا

ولا ينسى خصالَهم السياسية : هذا جعفر ملكاً يسهَر على راحة شعبه ويُحلّ الأمنَ بولايته فلا قتل ولا نهب ولا خوفَ : [كامل]

102/45 فتركتَ أرض الزاب لا يأسى أَبٌ لابن ، ولا تبكي البعولَ حلائلُ

110 . . . فاذا حللتَ فكلُّ واد ممرِعٌ واذا ظعَنْتَ فكلُّ شعب ماحِل

حتى يحيى البطل المغوارُ وقائد الحملاتِ المظفرّة ، لا يُهمل واجبَه الإداريَّ ، فهو إمّا في حرب وإما في مجلس تدبيرٍ وتقريرٍ : [طويل]

20/8 ولم تُر يوماً غيرَ عاقد حَبوةٍ لتدبير مُلكٍ ، أو كميّاً مدجَّجا

وهناك معنى تختصّ به مدائح المسيلة ، وقد أشرنا اليه في الفصل السابق : وهو اشتراك الشاعر مع أبناء الأندلسيّة في النسب الأزديّ اليمنيّ ، واعتزازه بهذه القرابة التي يحسده عليها العدنانيّون ، فربما كادوا له عند جعفر : [طويل]

26/64 ستنظم لي فيه نزارٌ مكايدا ويحسِدني حافٍ عليه وناعل

ورأينا أنه يتخلّص من الحرج إزاء الخليفة ، وهو هاشميّ نزاريّ ، بجعل أزدِ هذا الزمانِ أنصارَ المعزّ كما كانَ أجدادُهم أنصارَ جدّه (صلعم) .

كما استعرضنا الاشاراتِ القليلة التي تُعطينا صورة جزئيّة من الحياة بالمسيلة ، مثل ابتناء جعفر قصراً لابنه ابراهيم ، هذا القصر الذي يسمّيه الشاعر « إيواناً » تشبيهاً له بايوان كسرى المعروف بوصف البحتريّ له . يصف شاعرنا هذا القصرَ ويفضّله بالطبع على إيوان كسرى ، لأن القصر الإيراني شيّده قوم من عَبَدة النار ، أمّا هذا ، فشيّده جعفر خادم الخلافة الغرّاء ، ولو رآه

أهلُ مزدك لخرّوا له سجّدا : [كامل]

4/57 إيوانُ ملك ، لو رأتْه فارسٌ ذُعِرَتْ وخَرّ لسمكه إيوانُها
5 واستعظَمَتْ ما لم يُخَلِّدْ مثلَه سابورُها قِدما ولا ساسَانُها
6 سجدَت إلَى النيران أعصُرَها ولو بصُرتْ به سَجَدتْ له نيرانُها

ويحتذي الشاعر حذوَ البحتري في وصف هذا القصر فيخصّص له نحوَ خمسةٍ وعشرين بيتاً يفصّل فيها تِباعاً مَحَاسِن قُبَّتِه ، وزخارفَه ، ومقصوراتِه الكثيرةَ وحتى زركشَةَ الأستار في الغُرف ، ويرصف في القصيدة الألفاظَ الفارسيّة من أسماء الملوك الساسانيّين إلى أسماء الثياب الفاخرة : فهذا سابور وهذا ساسانُ لم يبنُوا مثله ، وهذه القبّة البيضاء بطّنت وغُطّيت من خارج بالبرود القوهيّة النفسية :

16/57 علياء موفيةٌ على عليائه في حيثُ أسلَمَ مُقْلةً إنسانُها
17 بطنانُها وَشْيُ البُرود وعُصْبُها فكأنّما قُوهِيُّها ظُهْرَانُها
18 نيطَت أكاليلٌ بها منظومةٌ فغدا يضاحكُ دُرَّها مَرجانُها
19 وتعرّضت طُرَرُ الستورِ كأنَّها عذباتُ أوشِحَةٍ يرُوقُ جُمَانُها

فلا غرابة أن يمثّل نفسه بالبحتريّ في خاتمة هذه القصيدة الطويلة ويمثل الممدوح بالفتح بن خاقان الوزير العبّاسيّ :

95/57 كنتُ الوليد فلم ينازعه بنو خاقانَ مَكْرُمَةً ولا خاقانُها

وعلى ذكر هذا التشبيه المتواصل بالإيوان الفارسيّ ، نلاحظ ، مع جورج مارسي ، أن « استخدام مصطلحات معماريّة فارسيّة بإفريقيّة وظهور هذه المصطلحات ـ مثل ايوان ـ من جديد بمصر ، قد يحمِلان على التفكير في إمكانِ وجودِ سُنّةٍ معمارية فاطميّة مطبوعةٍ بطابعَ حضارة ما بين النهرين »[1] .

---

(1) كتاب الفنّ الإسلامي Manuel d'art musulman 119/1 .

وهكذا رأينا أن الشاعر يطرق جلّ المعاني التقليدية في مدائحه وأنّ محاولات خروجه عن المألوف قليلةٌ محدودة ، تتناول الشكلَ في الأغلب ، وأنّ تقليده قد يتّجه الى المتأخّرين من الشعراء ، كما يظهر من المشاهد النواسيّة أو من محاكاته الصريحة للبحتريّ في وصف الإيوان .

ولننظر الآن في بقية الأغراض لِنَلْتَمِسَ فيها مقدار المسايرة أو الطرافة .

الرثـــاء

مراثي ابن هاني لا تعدو الثلاث ، كلّها في أسرة بني حمدون . فمرثية الحفيد ، وقد مات في سنّ الخامسة ، لا تتضمّن جديداً بالنظر الى المعاني المطروقة عادة في المراثي : خواطر حكميّة حول قِصَر الحياة وحتميّة الموت وقساوة الدهر ، ودعوة للثاكل أن يتسلّح بالصبر ، ومدح للباقين ، إذ المرثية موجّهة الى الأمير خاصة ، ويبدو أنه تأثّر بفقد الطفل أكثرَ من إبراهيم أبيه . وينقصها ، على هذه الصورة ، قسم معهود في المراثي ، وهو الإشادة بأخلاق الفقيد وصفاته ومآتيه . ولكنّ الحفيدَ مات صغيراً ولم يظهر منه شيء ذو بال ، فيتّجه الشاعر الى الافتراض ويعدّد ما كان يأتيه هذا النجل لو قُدّرَ له أن يعيشَ : [رمل]

14/14 مـاتَ من لو عـاش في سِربـالـه   غـلبَ الـنُّـورُ عـلـيـه فـاتَّـقـدْ

ولكنّ الدهر خوّان مخاتل غدّار ، لو أمهل هذا النجل سنواتٍ أُخر ، لَمَا قَدر عليه :

19 أقصـدَتْـه تِـربَ خمْسٍ أسـهُمٌ   لـو رمَتْـه تـربَ عشرٍ لم تَكَـدْ

ثم يحثّ الأمير على التصبّر ، فله في ابنه إبراهيم مخايل النجاح وتباشير السيادة التي طُبعت عليها الأسرة مذ أسَّسَ الإمارةَ الجدُّ الأكبر ، علي ابن الأندلسيّة :

53/14 لا ملومٌ أنت في بعض الأسى غيرَ أنّ الحرّ أولى بالجَلَدْ
61 . . . إنّ ابراهيم مردودٌ الى زمن غضٍّ وأيام جُدُدْ

ولكنَّ أحسن قسم في هذه المرثية الطويلة هو الأمثال التي يضربُها الشاعر بمصرع أعظم السلاطين مِنْ تبّع الى كسرى ، وأسنّ المعمّرين مثل لقمان ونَسره لُبَد ، وقضاءِ الموت على أمنع الوحوش وأضرى السباع : فالنسر في وكره الشاهق ، والأسد المتجبّر في غيضته الكثيفة ، والحيّةُ المنسابة في مخاتلة ورواغ ، كلّ هؤلاء لم تردّ عنهم البراثنُ ولا الأنياب ، وأولائك لم تنفَعْهم حصون ولا جنود . فكيف بالطفل الأعزل الوديع ؟ ولا يكتفي الشاعر بتعداد هذه الضحايا بل يصوّرها في قوّتها ووداعتها ، ويلحّ على مناعتها وضراوتها ، في مشاهدَ مؤثّرة يقدّمها بعبارة متكررة : « تلك أو . . . » كأنّه يدعونا الى الاعتبار بالمثل المضروب ، فاذا لم يكفِ ، ضرب لنا مثلاً آخر :

66/14 لو مُعافىً من خطوب عُوفيَتْ لَقوَةٌ بين هِضابٍ ونُجُدْ
67 ترتبي مرهوبَةً تحسَبها كوكبَ الليل على الليل رَصَدْ
68 تلك ، أو مغفرة في حالقٍ تَأمنُ الإنسَ اذا الوحشُ شَرَدْ . .[1]

هذه المشاهد لا تخلو من عمق في النظرة وقوّة في العبارة وسعة في التخيّل . وهي بتنوّعها وتجدّدها وتلاحقها وتكرّر عبارة التقديم تتضافر على الوصول الى الغرض المقصود : الاعتبار والتأسّي بهذه الأمثال الكثيرة المضروبة بكائنات قويّة مسلّحة حرّة طليقة يصرعها الفناء بدون هوادة . ولا ندّعي مع هذا أنّ لابن هانىء طرافةً خاصة في هذا التمثيل ، فقد سبق اليه لبيد العامريّ وأبو ذؤيب في مراثيهما ، ولكنّ محاكاته لهذين السابقين العظيمَين لا تغمطه أجرَه في محاولة التنويع والتعمّق ، وعدم الاكتفاء بالمألوف من عبارات التسلية والحِكَم البديهيّة .

مرثيّة الأم الرائيةُ تسبق في نظرنا الثانية المقصورة ، ذلك أنَّ هذه تتضمّن

(1) اللقوة : العُقاب الممتنعة في جبلها . والمغفرة : الظبية .

كما رأينا قسماً يلحُّ فيه الشاعر على وجوب الوفاق بين الأخوين ، وقد خلت الرائيّة من هذا المعنى ، فافترضنا أنَّ بوادر الشِقاق بدأت بعد وفاة أمِّ الأميرَين بِمُدَّة .

هذه الرائية تبدأ بتأمّلات حكميّة طويلة : عشـرون بيتاً في ذهول الإنسان عن الحقيقة المرّة ، وهي الموت الواجبُ ، فالآمال عنده طويلة ، والعمرُ مهما امتدّ قصير ، ومسكين هو الإنسان الذي تَقُودُه حاسَّتان لا تعقِلان : السمعُ الذي لا يُصغِي إلى النذرِ، والبصرُ الذي لا يتعلقُ الّا بالأعراض الزائلة : [كامل]

1/19	صـدق الفناء وكُـذّبَ العمُرُ	وجَلا العِظاتُ وبـالغ النـذُرُ
2	إنّــا ، وفي آمــالِ أنفسِنَــا	طـولٌ ، وفي أعمارنـا قِصَر
3	لنـرى بـأعيُننــا مصـارعَنــا	لــو كـانت الألبــاب تَعتبِر
4	ممّـا دهانـا أنّ حاضـرَنا	أجفـانُنـا، والغــائبَ الفِكَرُ
5	فــإذا تـدبّـرنـا جـوارحنـا	فـأكَـلُّهُـنَّ الأذنُ والـنَـظَرُ
6	لـو كـان لـلألبـاب ممتحِنٌ	ما عُدَّ منها السمعُ والبصرُ[1]

وبعد اتّهام الانسان في غفلته عمّا تنقلُه إليه الحواسّ من عبر ، يصوّر المآل المحتوم في معانٍ مختلفة تتكرّر عند كلّ راثٍ، وقد رأينا شيئاً منها في مرثيه الطفل : المنيّة كأس مرّة لا بدّ من تجرّعها ، ولا مردّ للموت فلا رمحَ ينفع ولا سيف ، ولا قوّة جُندٍ ولا عزّة سلطان :

9/19	هــل يـنفـعَـنّـي عــزُّ ذي يَـمَـن	وحـجــولُـه واليُـمـنُ والـغُــرَرُ ؟
11	. . . هــا إنّها كـأسٌ بشِعْتُ بهـا	لا مــلجَــأُ مــنـهــا ولا وَزَرُ
14	. . . فانبِذْ وشيجاً ، وارمِ ذا شُطبٍ	لا البيضُ نــافعــةٌ ولا السُّمُــرُ

---

(1) في البيت الأوّل ، قراءة أخرى : جَلَّ العِظاتُ . وفي الخامس عوّضنا العينَ بالأذن . وفي بعض النسخ : السمع والنظرُ ، فكرهنا أن تتكرّر عبارة السمع في بيتين متتاليّين ، ولعلّ ذاك هو الصواب .

حتى الكواكب الزّهر تبلى والنجوم الطوالعُ ، ويفنَى الليلُ والنهار وتنطفىء السماءُ بِشُمُوسِهَا وأقمارها :

22/19 تفنى النجومُ الزهـر طالعـةً والنّيِّـران ، الشّمسُ والقمـر
23 ولئن تبـدّت في مـطالعهـا منـظومـةً ، فلسَـوْفَ تنتثـر
24 ولئن سرى الفلَك المدارُ بها فلســوف يُسلِمُهـا وينفــطِر

وقد عاد الشاعر الى هذه التأمّلات في القصيدة الثانية وحاول تجديد المعاني المعهودة ، فمثّل لسرعة المنقلَب وقِصر العمر بسماعنا لكلمة « لا » أو كلمة «ذا» ، فهو لا يدوم إلّا مقدار الثواني القلائل ، وقابل بين حثّ الزمان لضحاياه نحو نهايتهم وتباطُئِه في خطاه ، أي إنه يدعونا الى الجلاء عن هذه الدنيا بسرعة ولا يحتاجُ هو إلى حثِّ الخُطى لأنه واثقٌ من الظفر بفريسته : [متقارب]

2/59 فمـا غـرّ نفسـاً سـوى نفسِهـا وعُمـر الفتى من أمـانِي الفَتَـى
3 فـأقصـرُ في الـعيـن من لـفتـة وأسـرع في السمـع من ذا ولا
6 . . ومَنْ لي بمثل سلاح الـزمان فـأسـطو عليـه اذا ما سـطا ؟
7 يجـدّ بنـا وهــو رَسـل العِنـان ويُــدْرِكنـا وهـو داني الـخُـطى

وهذه الصورة الأخيرة متعثّرة في الحقيقة ، كأنَّ التعبير لم يوافق الفكرة ، فلو قابل مثل المتنبي بين « السوابق المقرَبات » التي يحتاط بها الانسان من الموت ، و « خبب الليالي » أي السير البطيء ـ أو المتأني الواثق بالوصول الى الغرض ـ ، لكان أوفق له . إلا أنه أراد غيرَ هذا : الزمان يحثُّنا : ذاك هو العُمر القصير . أمّا هو ، فلا يُسرع لأنه واصلٌ لا محالة الى الهدف : تلك هي الحتميّة .

من المعاني التي افتقدناها في مرثية الحفيد ، الإشَادةُ بخصال الميت . لا يغفلها الشاعر هنا فيعرّج على كرم الأمّ ويجمع جمعاً لطيفاً بين السحاب الذي يشبِهُ غيثُه نداها ، والمطرِ الذي شيّع في ذلك اليوم جنازَتها :

26/19 شهد الغمامُ ، وإن سقاكَ حَياً ... أنَّ الغمام إليك مفتقِرُ
27 كم من يدٍ لكِ غير واحدةٍ ... لا الدمعُ يكفرُها ولا المَطَرُ

وخصالُها قد قسمَتها بالقسطاس على جعفر ويحيى ، رفعتها لهما فتلقّياها باليمين . لذلك رحلت رخيَّةَ البال مطمئنّةً وقد قضت الواجبَ وتيقّنت أنَّ المجدَ الذي بناه عليّ بن حمدون سيتدعّم عند النجلَيْن :

41/19 إنَّ التي أخلَتْ عرينَهُمُ ... أضحَتْ بحيث الضيغمُ الهَصِرُ
49 . . . قسمَتْ على أبنيها مكارمَها ... إنّ التراثَ المجدُ ، لا البِدرُ
50 حتى تولّت غيرَ عاتبةٍ ... لم يَبقَ في الدنيا لها وَطَرُ

وبالرغم من ارتياحها لما تركَتْه بعدَها من مجد مؤثَّلٍ في ابنيها ، فإنَّ الأسف عليها شديد ، يبكيها الكونُ كما يبكيها البشرُ ، ويعود الشاعر الى المطر الذي نزل على قبرها يوم الدّفن :

37/59 ولمّا أتينا سقَتْه الدموع ... فما بات حتى سَقَاهُ الحَيَا
38 وما جاده المزن من غلّة ... ولكن ليبكِ الندى بالندى
39 وقد خدّ في الشمس أخدودَه ... ولكن سَبَقنا به فِي الثرى[1]

ويحاول أن يجسّم حزن المشيّعين لها ويأسَهم من الحياة بعدها ، فيتّجه إلى العادة المتَّبَعة في الجاهليّة بعقر النوق والأفراس على قبر الفقيد العزيز ، ولكنّه يدعو إلى نحرِ النفوس بدلَ الدوابّ :

31/19 فقفوا تَضَرَّجْ ثَمَّ أَنفُسُنَا ... لا الصّافناتُ الجردُ والعَكَرُ[2]

وربما استغْرَبَ فيما بعدُ هذا الاقتراحَ أو استقبح ما فيه من غلوّ وتباكٍ كاذب ، فعدَل في القصيدة الثانية الى نحر القوافي لا غيرَ، أي الإقلاع عن الثناء

---

(1) الضمير في سقاه وجاده يعود على قبر الفقيدة .
(2) العكر ج عكرة : القطيع من الإبل .

والمدح بعد رحيلِ هذه التي جمعتِ المحامد والخصالَ :

49/59	اذا ما نحرتَ به أو عقرتَ	فعَدِّ الخَوانِفَ ذاتَ البُرى
50	ولا ترضَ إلَّا بعقرِ الثناءِ	ونحرِ القوافي ، وإلَّا فَلَا[1]

مدح الأمّهات

ولكن أهمّ معنى ورد في مرثيتَي الأم ، هو المدح البليغ للأمّهات عامّة الذي أدرجه الشاعر في آخر القصيدة المقصورة . هذه الإشادة بفضل الأمّهات فريدة من نوعها في الشعر العربي القديم على ما نعلم ، وهي تصلُح أن تكون شعاراً لِعِيدِ الأُمَّهَاتِ السنويِّ ، كما تصلُحُ أن تكون حُجَّةً في يدِ النساء المطالبات بالمساواة مع الرجال ، وحجة أيضاً ضدَّ من يتّهم الأدب العربي بعنصريته الرجاليّة . فالشاعر يجعل للأمّ نصفَ الفضل في نسب الولد ، والنصف الآخر للأب . فاذا افتخر الكريمُ الشريف بنسَبه ، فبأمّه وأبيه يفتخر ، فالأم تدعَمُ الأولادَ وتدفعُهم نحو المجد وتنشّئُهم على المكارم ، فهي في هذا صِنوٌ للأب وكِفَاءٌ: [متقارب]

69/59	لأُمّاتنا نِصفُ أنسابنا	اذا الملِك القَيْل منَّا انتَمَى
70	دعائمُ أيّامِنا في الفخارِ	وأكفاءُ آبائنا في العُلى

وهي التي تربّي الطفل وتكفله في السلم والحرب ، وهي التي بتوجيهها يتعلّم ويسمع ويُبصر ويعتبِرُ فهي المربّية الأولى ، وفضلُها هذا يجعلُها سابقةً للأب مقدّمة عليه :

71	ألم ترهُنَّ يُبَارِينَنَا	فيمرُقْنَنَا ويَنَلْنَ المدَى ؟
72	كفلن لنا بظلال الخيامِ	وأكفلْنَنَا بظلال القَنَا
73	ونغدو فمنهُنَّ أسماعُنا	وأبصارُنا في حجال المها

---

(1) الخوانفُ هي الأنيقُ .

فلا عجب أن يختم الشاعرُ هذه الأنشودة الحماسيّة في فضل الأُمَّهات ، بتفضيل النساء على الرجال ، على الأقلّ في بعض منهم ومنهن ، وتعديل القسمة الضئْزى :

74 فلو جاز حكمِيَ في الغابرينَ وعدّلتُ أقسامَ هذا الورى
75 لَسَمَّيْتُ بعض النساء الرجالَ وَسَمَّيْتُ بعض الرجال النِّسا

وهكذا ظفرنا من هذه المراثي التقليدية بهذه القطعة المحيّرة : فهي تحيّرنا من جهتين : فهي أولاً لا تسمح لنا بأيّ افتراض في شأن أمّ الشاعر . وهو الذي لم يذكر في كامل الديوان أمًّا أو أباً . فهل تذكّر أمَّه هو فربَط ذكراها أو ذكرى موتها بموت أمّ الأميرَيْن ؟ أَمْ حنّ إليها في ديارها الأندلسيّة إن كان هو هرب وحدَه الى المغرب ؟

وتحيّرنا من جهة ثانية لأننا لا نستبعد أن يَكون غرضُها سياسياً مذهبيّاً حزبيّاً ، وهو إثبات نسب الفاطميّين الذي قدح فيه الخصومُ حين قالوا إنّ عبيد الله ـ والشيعة يسمّونه عبدَ الله بدون تصغير ـ هو ابنُ تاجر فارسيّ أو صائغ يهوديّ ، ولا صلة له قط بالعِترة المنتخَبة . ثم رفعُ الإصر على الفاطميّين اذ يُلحَقون بفاطمة ، لا بعليّ ، ومن الناس من يستنكِفُ من أن ينسب الى أمّه لا لأبيه . فكأنه ، من خلال هذه الأبيات ، يدعو المعزّ الى الافتخار بالانتساب إلى فاطمة، أمّ الأسرة الطاهرة،وعدم المبالاة بمن يحاول الغضّ من الدولة الفاطميّة فينسبها الى « عبيد الله » بصيغة التصغير ويقول الدولة العبيدية ، أو ، اذا أقرّ بالنَسب الفاطميّ ، سمّاها دولة «الفواطم» بصيغة التأنيث .

الهجاء

حلّلنا في خاتمة الفصل الثالث القصيدة الفائيّة التي تقول التوطئة إنه هجا بها الوهرانيّ ، ورأينا أنها ليست هجاء بقدر ما هي مدح لجعفر الحمدونيّ . ولا يوجد في الديوان كلّه هجاءٌ غيرَها ، كأنّ الشاعر ـ أو غيره ـ طهّر الديوان من دنس القذف والسِّباب ، أو كأنّ الشاعر لم يهجُ قطّ . ولعلّ

هذا هو الصحيح ، اذا ما اعتبرنا الرواية التي تقول إنه عند مقدَمه إلى إفريقيّة هجاه شعراؤها فترفّع عنهم ولم يعتبر منهم الا الإياديّ ، فأحجم هذا الشاعرُ عن التعرّض له لأنه رفعه على غيره[1] . فلم تقع مهاجاة إذن ، فلذلك خلا الديوانُ من هذا الصنف .

وتوجد مقطوعة نونيّة طريفة وصف فيها رجلًا أكولا بصورة ساخرة مضحكة ، ولا نَعرفُ عن هذا الرجل شيئاً سوى أنه أكول ، وأنّه ربما لقيَه الشاعر بالقرب من رِقّادة في أحد الخاناتِ أو الفنادق، وأنه، على ما يظهر من أنواع الأطعمة التي يلتهمها ، غنيّ موسر . والشاعر يكتفي بالوصف المتندّر لحركة شِدْقَيهِ ، وقرقعة أسنانه ودويّ بطنه ، في لوحة فنيّة تدعو الى الاشمئزاز من الرجل ، ولكنّها أيضاً تبعث على الاستطراف لخيال الشاعر ولباقة افتراضاته وتساؤلاته المتجاهلة . فهي ، اذ خلت من اسم الرجل ونسبه ، ومن التعرّض الى صفات ونقائص أخلاقية ، ومن الإشارة الى وصمات في سيرته أو نسبه ، لا تعدّ من الهجاء بالمعنى المتعارف . ولكنّا نحلّلها هنا لما فيها من طرافة ، ولما تبرهن عليه من قدرة على الاستهزاء والتصوير المُضحك .

يصوّر هذا العملاقَ الشرهَ في تحرّك فكّيه الدائم وضجيج أسنانه وحنين بطنه الى المزيد، فكأنه في ساحة وغى لا على مائدة ، ويرصف المفردات المناسبة : [بسيط]

4/56	تبارك الله ما أمضى أسنّتَه	كأنما كلُّ فكّ منه طاحُون
5	كأنّ بيتَ سلاح فيه مختزَنٌ	مما أعدَّته للرسْل الفراعِينُ
6	أينَ الأسنّة ، أم أين الصوارمُ ، أم	أين الخناجرُ ، أم أينَ السكاكين ؟

والصور المستمدّة من الرصيد القرآني : بطن الحوت الذي آبتلع النبي يونس هو دون بلعومه في الاتساع ، وفُلك نوح بما فيه من حيوان لا يشبعه ، ومعدِته تطلب المزيدَ مثل جهنّم حين يكثر زفيرُها :

---

(1) ابن رشيق : العمدة 111/1 .

7/56 كـأنما الحمَـل المشويّ في يـده   ذُو النون في الماء لمَّا عضَّه النون

3 . . . كأنّ معدتَـه والزادُ يضـرمها   جهنّمُ قُـذفت فيهـا الشيـاطـين

17 فليس تـرويـه أمـواه الفُـرات ولا   يقـوتـه فُلك نُـوح وهـو مشحـون

ويتظاهر الشاعر بالهلع من هذا الطاحون الذي لا يبقي على شيء، فيدعو أصحابه الى المبادرة بالفرار قبل أن يصيروا طعاماً سائغاً لهذه النار المضطرمة :

15/56 قوموا بنا ، فلقد ريعت خواطرُنـا   وجـاذبَتنـا الأعـنَّـاتِ البـراذيـنُ

16 نصحتكم ، فخُذوا من شدقه وزرا   أوْ لاَ ، فانتُم سَويق فيـه مطحـون

18 . . . فمثل رقّادة في كفّـه وسَطٌ   ونحن مقـدُونُسٌ فيـه وطـرخـون

الفصل الثامن

أغراض الشاعر ومعانيه
المعاني العقائدية المذهبيّة

ولاؤه الفاطمي

عبّرنا في الصفحات السابقة عن اقتناعنا بأن الشاعر كان صادقَ التشيّع وأن ترديدَه للمعتقدات الإسماعيليَّة في شعره لم يكن مجرّدَ تزلّفٍ للحكام الجدد المنتصبين بإفريقية . وسايرناه في زعمه أنَّ تشيّعه قديمٌ وأنّه بسببه اضطرّ إلى ترك بلاده والهجرة الى برّ العَدوة . وافترضنا أن تشيّعَه قد يكون موروثاً عن أسرتِه ، ولا سيّما أبيه هانىء الذي تزعم بعض المصادر أنّه كان من دعاة الفاطميّين بالأندلس .

تدرّجه في أعتناق المذهب

ولا ندّعي أن ولاء ابن هانىء للفاطميّين كان تامًّا كاملاً نهائيًا من أوّل أمره . فلعلّهُ لم يَعْدُ المَيْلَ العاطفيَّ حينَ كان بالأندلس ، ثم قوِيَ وتدعّم بعد استقراره في قلب الدعوة بالقيروان ـ المنصوريّة ، أو حتى بأطرافها في مقاطعة الزاب أو تاهرت عند ولاة المعزّ وقوّادِه. وربّما استفاد الشاعر بـ « مجالس الدعوة » أو مجالس الحكمة التي كانت تنظَّم للأولياء والمريدين ، وحتى

للخصوم والمناوئين[1] ، باشراف كبار الدعاة وبرعاية الإمام نفسه . وقد ترك لنا القاضي النعمان بعض التفاصيل عن هذه المجالس التعليميّة الدعائيّة التي كلّفه المنصور بها وأقرّه المعزّ عليها فصار يُمِدّه بما يحتاج اليه من علوم الظاهر والباطن في شروحه وردوده وحِجاجه[2] . وستتدعّم هذه المجالس في الفترة المصريّة من تاريخ الدولة الفاطميّة وتصبح لها رسومٌ معيّنة وسنن متّبعة كما بيّن لنا المقريزي في خططه[3] .

نقول : رُبَّما استفادَ، نفترض ، ولا نجزم بأنّ الشاعر لقِيَ القاضي ، بل من غريب الأمور أنّه لا ذكرَ لأحدهما عند الآخر ، كأنهما لم يتعارفَا قط ولم يجتمعا في بلاط واحد عند إمام واحد .

ولا شك أنّ ولاء الشاعر للفاطميّين أخذ ينمو شيئاً فشيئاً مع تمرّسه بالشعارات الشيعيّة في الأوساط الرسميّة بالقيروان والمهديّة . بهذا التدرّج يشهدُ اختلافُ اللهجة بين القصائد الأولى التي نظمها إثر نزوله بالأرض الإفريقيّة والقصائد المعزّيات التي تتبنّى المقولات الإسماعيليّة بصورة تامّة مطلقة .

موقف أهل السنّة من غلوّ الشاعر في ولائه

قد يستنكر القارىء الذي ليس له خبرة بهذه المقولات ، ما يجدُه في الديوان من أوصافٍ وأحكام وأفكار في خصوص الأئمّة تصل إلى حدّ التأليه ، وهو غلوّ لا يبرَّرُ فقط بمَيل الشاعر الى التفخيم وجريه وراء اللفظ الجزل والعبارة القويّة . وفعلاً قد استنكر النقّاد القدامى مغالاتَه في مدح المعزّ كأن

(1) المجالس والمسايرات ، 434 : حضور الثائر ابن واسول أحد هذه المجالس في قيده .

(2) نفس المرجع 360 : استشارة النعمان للمعزّ في خصوص كتابه : الدينار . وانظر ما كتبه الدشراوي : الخلافة . . . 410 -413 عن ازدواجية الوظيفة عند قاضي القضاة .

(3) ج 2/223 -224 .

يطلِقَ عليه الأسماء والنعوت التي نخصّ بها عادةً اللّه وحده . هذا ابن شرف يرى في ذلك تطاولاً على الدين : « . . . وكان في دينه في أسفل منزلة : ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد آخرته ، لرداءة دينه وضعف يقينه » ، والتهمة كما نرى مزدوجة : مروق عن الجادّة لا لاقتناع ، بل لطلب المزيد من رِفد الممدوح ، مع أنّ في معاني الشعر متّسَعاً لكل راغبٍ : « ولو عقل ما ضاقت عليه معاني الشعر حتى يستعين عليه بالكفر[1] » . وهذا أحد النسّاخ يفتقِدُ القصيدة 24 ـ تلك التي يوصف فيها المعزّ بالواحد القهّار ، وقد خلت منها مخطوطات كثيرة ، لا سيّما النسخ التونسيّة ـ من النسخة التي ينقل عنها فيفسّر طرحَها بما تضمنته من كفر ، ويُدلِي بحكمٍ للمؤرّخ القيروانيّ ابن شدّاد صاحب كتاب « الجمع والبيان » المفقود ، وهو حكم يُلقي التبعيّة ، لا على الشاعر ، بل على المعزّ ، الذي يشجّع شعراءه على هذا الإفراط ويستزيدُهم منه[2] .

على أنّ الإنصاف يقتضي منا أن لا ننطلق في الحكم على الشاعر من أرضيّة سُنّيّة مالكيّة كما فعل ابن شدّاد وابن شرف ، بل علينا أن نضع هذا الشعر في إطاره من العقيدة الإسماعيليّة أوّلاً ، ومن الخصومة الكلاميّة بين الدولة الفاطميّة وأعدائها في الداخل والخارج ثانياً . فإذا اعتبرنا مثلاً أنّ الإسماعيليّة تنفي الصفات عن الإلاه مثل المعتزلة[3] ، فهمنا لماذا لا يتحرّج شاعرنا ، ولا غيره من الأنصار والدعاة ، من إطلاق بعض الصفات القدسيّة على الإمام ، وهو بشر .

وسنحاول في هذا الفصل أن نرفع عن شاعرنا تهمة الكفر هذه ، وأن نبيّن صدقَ ولائه للدعوة الفاطميّة . ونتوخّى في هذا الاحتجاج له طريقة المقارنة : نقارن معانيه وأغراضَهُ بالشعارات والمقولات التي تبسطها الكتب

---

(1) نقلاً عن ابن الخطيب : إحاطة 213/2 .
(2) مقدّمة مخطوط 5 عدد 18624 ، ورقة 7 .
(3) قويار : نُبذ . . . 9, St . Guyard: Fragments .

« النظريّة » مثل كتب القاضي النعمان ، وكذلك نقارنها بما يقوله شاعر فاطميّ أصلاً ، هو تميم بن المعزّ .

المعاني المذهبيّة في شعره المغربيّ

رأينا أنّ الشاعر احتجّ لدى المعزّ بتشيّع قديم جلب اليه نَقمةَ الأمويّين ، ولاحظنا وجود بعض المقولات الإسماعيليّة في شعره الأوّل بالمغرب ، أي قبل دخوله في خدمة المعزّ مباشرة ، ودعَمْنا ٱدّعَاءَهُ وقبِلناه ، بهذه المعاني التي أودعها مثلاً أوّلَ قصائده بعد هجرته ، وهي مدحة جوهر الحائيّة : ففيها يستخدم المصطلحات السياسيّة الرائجة عند الفاطميّين كالإمامة ، وإمرة المؤمنين ، والخلافة ، كأنّه نسيَ أنّه ترك وراءه منذ قليل خلافةً أخرى . وهكذا يستمدّ جوهر صفاتِه الناصعةَ من روح الخلافة المعزّيَة : [طويل] .

13/10 وأبيضَ مِنْ سِرّ الخِلاَفَةِ وَاضِحٍ تَجَلّى فكانَ الشمسَ في رَوْنَقِ الضُّحى
21 . . . رآهُ أميرُ المؤمنينَ كعَهْدِهِ لدَيْهِ، ولم تَنْزَحْ به الدارُ مَنْزَحَا

فهو حواريّ المعزّ كما كان قدّيسو النصارى حواريّي عيسى ، زكّته خدمَةُ الإمامِ وزكّت جنودَه فضمِنَت لهم الفلاحَ :

65 لأَفْلَحَ منهم مَن تزكّى، وقَادَهُ حَواريُّ أملاكٍ تزكّى وأَفْلَحا

هذه العبارات ، بمسحتها الدينيّة وتضميناتها القرآنيّة ، قد تؤيّد عندنا التصديق بتشيّعه القديم . ولكن لا نَسْتَبْعِدُ منه أيضاً شيئاً من التزلّفِ إلى الخليفة الذي هجر إليه ، والتوسّل بالقائد الصقلبيّ حتى يوصله الى مبتغاه . ونعلم أنّ جوهراً خيّب ظنّه فاضطرَّ الشاعرُ إلى الانتظار بضعَ سنوات بالمسيلة ، وربّما بتاهرت أيضاً ، قبل أن يدعُوَه المعزّ إليه .

المعاني الإسماعيليّة في مدائح أمراء الزاب أقلّ ظهوراً منها في مدحة جوهر . فهل يُعزى هذا الخفوتُ النسبيّ الى الاستقلال الذي يتمتّع به جعفر ابن حمدون في إمارته والى استنكافه من أن يُذَكَّرَ بتبعِيّتِه لصاحب القيروان ؟ هذا ما افترضناه حين حلّلنا هذه القصائد بالتفصيل في الفصل السادس . ولكن يمكن أن نفترض سبباً آخر : وهو أن الشاعرَ لم يطّلِعْ بعدُ على كافّة المقولات الإسماعيليّة ، وإنّما كان يعرفُ منها ما يعرفه المناصرُ المتوسّط البعيد . فلذلك يكتفي بذكر ولاء الأميرَين للإمام ودورِهما في الدفاع عن الدولة : [طويل] .

42/52 وأنّكَ عن ثَغْرِ الخلافة ذائدٌ   وأنّك عن ثغر الخلافة باسِمُ

ويطيب له أن يمثّل دور أبناء الأندلسيّة ـ وهم أزديّون مثلَهُ ـ مع المعزّ الهاشميّ بدور أجدادهم الأنصار مع جدّه محمد (صلعم) : [كامل] .

40/6 سَدَّ الإمامُ بك الثغورَ، وقبلَهُ   هزمَ النبيُّ بقومِك الأحزابَا[1]

وإنْ يذكُرْ التبعيّة فإنّه يخصّ بها يحيى بن حمدون ، وكأنه شعر أثناء إقامته بالمسيلة بتفاوت الأخوَين في الولاء الفاطميّ ، وتوقَّعَ ما سيكونُ من انفصال جعفر عن المعزّ ولجوءِهِ إلى الحَكَم المستنصر بقرطبة . فإذا توجّه إلى جعفر لاينَهُ وعظَّم مساندَتَهُ للخليفة : [كامل] .

55/45 فانهَضْ بأعباءِ الخلافة كلِّها   إنّ المُحَمَّلَهُنَّ عَوْدٌ بازِلُ

أمّا إذا خاطب يحيى ، فالعلاقة بينه وبين المعزّ علاقة العبد بمولاه : [طويل]

60/61 ومثلُك مَن أرضى الخليفةَ سعيُه   فإنْ رضِيَ المولى فقدْ نَصَحَ العبدُ

(1) الأنصار من أوس وخزرج كانوا أزديّين أيضاً .

تشيّع السلاح أيضاً

وينسِبُ التبعيّةَ نفسَها إلى سيف يحيى : فهو سيفٌ شيعِيٌّ يعرِفُ إمام الزمان ، كما هو مفروضٌ على كل مُنْتَسِبٍ إلى العقيدة ، ويبكي الحُسينَ وشهداءَ الطفّ : [كامل] .

... في كفّ يحيى منه أبيضُ مُرهَفٌ   عـرفَ المـعـزَّ حقيقـةً فتشيَّعَـا
وجـرى الفِرنـدُ بصفحَتَيْهِ، كـأنما   ذكـرَ القتيـل بكـربـلاءَ فـدمَّعَـا[1]

ويوالي ذا الفقار سيفَ المعزّ ، كما يوالي صاحبُه الإمامَ : [مخلّع]

حـامـلُه لـلمـعـزّ عـبـدٌ   والسيـفُ عبـدٌ لـذي الـفقـار[2]

وهناك تفسير ثالث يمكن تقديمُه لتبريـر انحسار المعـاني الشيعيّة بالمسيلة : وهو أنَّ معظم قصائد بني حمدون كانت محلّيَّة ظرفيّة ، فهي إمَّا تهنئة بإبلالٍ من مرض ، أو بالفراغ من تشييد قصر ، أو بالعودة من غزوة مظفّرة ، وإمّا تفجّعٌ على فقيد في الأسرة ، وإمّا دعوة الى مجلس أنس . ولا تدعو الظروف التي تُنشَد فيها الى التحليق في الأجواء العقائديّة العليا .

مدائح الشيبانيّ

ما قلناه في خصوص شعر المسيلة يمكن أن نقوله أيضاً في مدائح أبي الفرج الشيبانيّ : هذه القصائد السّتُّ لا تحمل هي أيضاً كثيراً من شعارات الدعوة ، باستثناء اليائيّة التي ورد فيها شيءُ من الإلحاح على تبعيّة هذا القائد البَكريّ للمعزّ ، إلاّ أنها تبعيّةُ قائدٍ عسكريّ جرّد سيفَهُ للدفاع عن الدعوة والدولة . وسيفُه هو أيضاً شبيهٌ في مضائه بذي الفقار ، بل يستمدّ قوَّتَهُ من ذي

---

(1) تبيين المعاني . . . ص 396 . والفرندُ بريقُ السيف ولمعانُه .

(2) تبيين المعاني . . . ص 262 .

الفقار : [بسيط] .

66/60 لِلّهِ ما تَنْتَضِي مِن ذي الفقَارِ، وما تشُدُّ من عضُدِ الـرأيِ الإمـاميّ

وإنّ نُصرةَ الشيبانيّ للأسرة الفاطميّة نابعة من تشيّعه الصادق الذي أمدّه بالحنكة السياسيّة :

40/60 شيعيٌّ أملاكِ بكرٍ ان همُ انتسبُوا ولستَ تلْقَى أديبـاً غيـرَ شيعـيّ

41 مَن أصلحَ المغربَ الأقصى بلا أدبٍ غيـرِ التشيّـع والـدينِ الحنيـفيّ

فصار له سلاحان : الحديدُ الباتر والرأي الثاقب :

57/60 رامٍ بسَهْمَيـن: مَبْـرِيّ يسـدِّدُه وصـائـبٍ عَلَويٍّ غـيـرِ مـبـريّ

وإنّ ذكرَ الشاعر لعمليّات الشيبانيّ الحربيّة في المغرب الأقصى حَمَلَنا على افتراض أن هذا القائد ربّما كان واليا للمعزّ على مقاطعة تاهرت ، وقد ذكرت بعض المصادر أنّ أجناداً من بكر بن وائل ، وشيبان فرع من بكر ، كانت قد استوطنت جهةَ تاهرت منذ الفتح الإسلاميّ . فإن صدق ظنُّنا ، وفي انتظار أن نكتشف يوماً مزيداً من المعلومات عن هذا القائد المجهول ، فلا مانع من أن نبرّر هنا أيضاً خفوتَ المعاني الإسماعيليّة في القصائد الخمسِ الأخرى ، ببُعدِ الشيبانيّ عن عاصمة الخلافة وتمتّعه هو أيضاً بنوع من الاستقلال . ولا نستبعد أن يكون أبو الفرج هذا من أوّل ممدوحي الشاعر ، بين جوهر بفاس ، وبني حمدون بالمسيلة .

مدحة أفلح الناشب النونيّة

هذه المدحة ، بالعكس ، تطفح بالشعارات الإسماعيليّة ، وهي لا تترجم عن معتقد الممدوح فحسب ، بل عن تحزّب الشاعر أيضاً وقد حوّل المقدّمة التقليديّة الى إعلان عن تعلّقه بالحزب الذي ينتمي اليه والي برقة : [كامل]

12-11/55 حِزبُ الإمام مِن الورى حِزبي إذا عُدُّوا ، وخُلصانُ الهُدى خُلصاني
لا تبعُدنَّ عِصابةٌ شيعيّةٌ ظَفِروا ببُغْيَتهم منَ الرحمانِ

أمّا أفلح ، فلا يقاس أيّ تابع للأئمّة بولائه هو ، كما لا تقاسُ سطور المتن في دِقّتها بعنوان الكتاب في وضوحه وتميّزه :

83/55 يا سيفَ عترة هاشمٍ ، وسِنانَها وشهابَها في حالك الأَدْجانِ
85 . . كلّ الدعاةِ إلى الهُدىٰ كالسطرِ في بطنِ الكتاب ، وأنتَ كالعنوان

ونجد في هذه القصيدة من معاني التقديس للإمام ما لا نجده في مدائح الشيبانيّ ولا الأخوَيْن الأندلسيّين ، مثل الإصداح بأنَّ الإمام هو وارث الدنيا وسيّد الإنس والجنّ :

16 قد شرّفَ اللّهُ الورى بزمانه حتى الكواكبُ والورى سِيّانِ
17 وكفَى بمَن ميراثُه الدنيا ومَن خُلقِت له ، وعبيدُه الثقلان

فهي ، في معانيها المذهبيّة ، تفوق مدحة جوهر الحائيّة . فلذلك نميل إلى تأريخها بما بَعْدَ دخول الشاعر القيروانَ واطّلاعه التامّ على تعاليم الدعوة . وقد تكون من آخر ما نظم ، وهو في طريقه إلى مصر للالتحاق بالمعزّ . وبهذا يكون الاتّصال بالإمام في القيروان هو البرزخ الفاصل بين طورَين من حياته : طور الشاعر المدّاح المتنقّل مِن أمير الى آخر ، ولكن في فلَك دولة لها مذهبُها وعقيدتُها وشعاراتُها ، فيظهر في شعره ، إن قليلاً وإن كثيراً ، صدى هذا المعتقَد . وطور الشاعر الرسميّ الذي وعى تعاليم الدعوة كلَّ الوعي فجعلها محور شعره يصدح بها للأنصار والخصوم معاً .

هذا الصدى ، وهذه المقولات هي التي سندرسها الآن .

التأكيدُ على النسب الفاطميّ

انتساب الدولة الى فاطمة الزهراء له أبعاد سياسيّة : فهو تأكيد بحقّ ذرّيّتها في إرث جدّهم ، لا الإرث الماديّ فحسب ، بل الإرث المعنويّ ، أي إمرة المسلمين الزمنيّة وإمامة المؤمنين الروحيّة . وهو أيضاً تأكيد على اختصاصهم وحدَهم بهٰذا الحق ، دون سائر الهاشميّين كبني العبّاس ، وحتّى دون سائر ذرّيّة عليّ من غير فاطمة كأتباع محمد بن الحنفية وغيرهم . والشاعر ، لإظهار هذه النسبة الشريفة المخْصوصة ، يذكر تارة اسمَ بنت الرسول بلفظه : [كامل]

27/24 أبناءَ فاطمَ، هـل لنا في حشـرنا   لجـأ سـواكمُ عـاصمٌ ومُجـارُ؟

ويذكرها تارة أخرى باللقب الذي عُرفت به فيما بعد عند الشيعة ، وهو لقب « البتول » ، أي العذراء المطهّرة ، تشبيهاً لها بالصورة التنزيهيّة التي توصَفُ بها مريمُ في القرآن : فكما أنجبت مريمُ عيسى عليه السلام وبقيت مع ذلك عذراء ، أنجبت فاطمة الحسينَ (والحسن) وبقيت متبتِّلةً : [طويل]

136/47 ألَا سـائِلُوا عنـهُ البتـولَ فتُخبَـرُوا   أكانت له أُمًّـا، وكان لهـا ابنًما !

وقد يذكرها بلقب « الزهراء » الذي يشترك في قبوله السنّة والشيعةُ ، ويؤكّد فخرَ الأسرة بالانتساب إلى الأمّهات ، على غير عادة العرب . وقد التمسنا في الأبيات التي ختم بها رثاء أمّ بني حمدون وأعلى فيها من شأن الأمّهات وجعلهنّ أكفاءً للآباءِ ، التمَسْنا فيها بادرة تبرير لانتساب الدولة إلى فاطمة ، أمّ الأئمّة ، بل ربّما علامةَ فخرٍ بهٰذه الظاهرة التي قد يَعُدُّها الخصومُ منقَصَةً . وللتأكيد على أنّه لا حياءَ في الانتساب الى الأمّ ، يعزّز الزهراء بالـ « عَواتك » ، أي عواتك بني سُليم ، اللائي اشتركن بزواجهنّ إمّا في بني هاشم أو في بني النجّار ، في إنجاب محمد النبيّ[1] : [طويل] .

---

(1) في خصوص العواتك الثلاث ، انظر البلاذري : نسب الأشراف 532/1 وأيضاً تعليق زاهد علي على البيت .

24/37 لـه نسب الـزهـراء دِنْيَـا يخصُّــهُ وسالفُ ما ضمّت عليـه العواتـكُ

ويختصر المراحل أحياناً فيصبح أبناء فاطمة أبناء النبيّ مباشرةً : [كامل]

79/1 أعــززتَ دينَ اللَّه يـا ابنَ نبيِّــه فــاليــومَ فيــه تَخَـمُّطٌ وَإِبَـاءُ

أو يجعل النبيَّ أباً للمعزّ كما رأينا ، وتارةً جدًّا : [كامل]

46/9 فكـأنَّ جـدَّك في فـوارس هـاشمٍ منهُمْ بحيثُ يَرىٰ الحسينَ ذبيحَا

وأحياناً يَنْمِي الأسرةَ إلى أبيهم عليّ مباشَرَةً : [كامل]

5/40 مـتكـشّفٌ عـن عَــزمــةٍ عَـلَويّــةٍ لـلكُفــرِ مـنـهــا رنّــةٌ وعــويــلُ

وحتّى الى أبي طالب فيستخدم نسبةَ « الطالبيّين » الجامعة : [طويل]

34/22 وردَّ حقــوقَ الـطالبيِّين مَن زكَتْ صنـائعُـهُ في آلـه وزكـا الــذُّخرُ

أو يتوسّط بالحسن والحسين ، فيكنّي عليًّا بأبي السبطينِ : [طويل]

89/13 فليتَ أبا السبطَينِ، والتـربُ دونَهُ يـرى كيفَ تُبـدِي حكمَـهُ وتُعِيـدُ

و « أبو السبطين » كنايةُ فخارٍ يحتجُّ بها الشاعر ضدّ بني العبّاس : فأبناء عليّ قد أشار إليهم القرآن ونزلت فيهم آيات . أمّا العبّاس فالمعروف عنه أنه قاوم النبيّ وأُسِر في بدر فرقّ له محمد (صلى اللّه عليه وسلم) فأطلَقَهُ : [طويل]

17/22 أفي آبنِ أبي السِبطيْنِ، أم في طليقِكُمْ تَنَـزّلَتِ الآيـاتُ والســوَرُ الغُـرُّ؟

وقد يجمع النِسبتَين ، نسبةَ الأمّ ونسبةَ الأب في كنايتَيْن أُخْريَيْن : المصطفى ، وهو محمّد ، والمرتَضَى ، وهو عليّ . ولنلاحظْ عرَضاً أنَّ الألقاب المستخرجةَ من مادّة الرضا جاريةٌ عند عموم الشيعة : فأحد الأئمّة عند الاثنَيْ عشريّة يُدعى عليّ الرِّضا ، وبعض نقباء العلويّين ببغداد يُدعَون الشريف الرضيّ والشريف المرتضى : [متقارب]

59/58 هـو الوارثُ الأرضَ عن أبـوَين: أبٍ مـصــطفى، وأبٍ مُــرتـضى

وأحياناً يعمّم الكناية ، فيَنْمي الأسرةَ مباشرة الى النبوّة والوحي : [كامل]

19/41 هذا ابنُ وحيِ اللَّه، تأخُذُ هدْيَها   عنــه المـلائــكُ بكـرةً وأصيــلاً

88 ... أبني النبوّةِ، هل نبادرُ غايةً   ونقـول فيكمُ غيرَ مـا قـد قيـلا؟

بين المثبت للنسب الفاطميّ والقادح فيه

بهٰذا التنويع في ذكر نسب الفاطميّين ، وبهٰذا الاستظهار المتواصل بقرابة النبيّ المباشرة المخصوصة بهم دون غيرهم ، يرمي الشاعر ، لا إلى إقناع الأنصار ، فهُم بعدُ مقتنعون ، بل إلى دفع التهم المختلفة التي أُلصِقت بنسب عبيد اللّه المهديّ مؤسّس الأسرة ، ومنها تكذيب أهل القيروان لانحدارهم من فاطمة ، فاكتفَوْا بنسبة الدولة الى مؤسّسها وقالوا : الدولة العبيديّة أو دولة بني عبيد ، كما فعل ابن حماد في أخباره .

فهٰذا ابن شدّاد الصنهاجي صاحب تاريخ القيروان المفقود ينمي عبيد اللّه إلى أبٍ يهوديّ في خاتمة خبرٍ طويل نقلَهُ ابن الأثير ثم المقريزي : « ... وعهد الحسين ـ ولم يكن له ولدٌ ـ إلى ابن اليهوديّ ، وهو عبيد اللّه ، وعرّفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعل »[1] . واعترض ابن الأثير على هذا القدح فقال : « ... وهٰذه الأقوال فيها ما فيها . فيا ليت شعري ، ما الذي حمل أبا عبد اللّه الشيعيّ وغيرَه ممّن قام في إظهار هٰذه الدعوة حتى يُخرِجُوا هٰذا الأمرَ من أنفسهم ويسلّموه الى ولدِ يهُوديٍّ ؟ »[2] .

وجمع القادرُ العبّاسيّ سنة 1011/402 ببغداد لجنة من علماء الأنساب فيها علويّون معروفون كالشريفين الرضيّ[3] والمرتضى فشهدت له « خوفاً

(1) المقريزيّ : اتعاظ 46 -57 . وبالخصوص ، تعليقات المرحوم جمال الدين الشيّال .

(2) الكامل 129/6 . حوادث سنة 296 . والمقريزي : اتّعاظ ... 57 .

(3) الاّ أن الشريف الرضيّ ، حسب ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 13/1 « امتنع من تسطير خطّهِ وقال : لا أكتُبُ ، وأخافُ دعاةَ صاحبِ مصر » .

وتقيّةً » بأنّ الحاكم بأمر اللّه المنتصب بالقاهرة آنذاك « ومَن تقدّمه من سَلَفِهِ الأرجاس الأنجاسِ ، أدعياءُ خوارجُ لا نسبَ لهم في ولد عليّ بن أبي طالب (رضي اللّه عنه) ، وأنّ ما آدّعَوه من الانتساب اليه زور وباطلٌ . . . وأنّهم كُفّار فُسّاقٌ زنادقة ، مُلحدون معطّلون ، وللإسلام جاحدون ، ولمذهب الثَّنويّة والمجوسيّة معتقِدون ، قد عَطَّلُوا الحدود ، وأباحُوا الفروج ، وأحلُّوا الخمور ، وسفكُوا الدماء ، وسبُّوا الأنبياء ولعنوا السلف وأدّعوا الربوبيّة »[1] .

وقد أكثر القوم وبالغوا إذ رمَوهم بكلّ موبقةٍ . وكأنّهم نقلُوا هٰذه السلسلة الطويلة من الآثام عن ابن شدّاد في كتابه المفقود . والمؤرّخ الصنهاجيّ قد يكون جمَعَ ما روّجَتْه الأوساط المالكيّة بالقيروان من تُهمٍ في الأسرة العبيديّة منذ انتصابها بإفريقيّة . ذلك أنّ أوّل من اتّهمهم بالإشراك ورماهم بالزندقة هو ، فيما نعلم ، الشاعر القيروانيّ أبو القاسم الفزاري (ت 956/345) إذ يقول : [كامل]

عبَدُوا ملوكَهُمُ، وظنُّوا أنّهم	نالُوا بهم سببَ النجاة عُموما
وتمكّن الشيطانُ من خطواتهم	فأراهمُ عِوَجَ الضَّلالِ قويما
. . . أمنَ اليهود؟ أم النصارى؟ أمْ هُمُ	دهريّةٌ جعلوا الحديثَ قديمَا
. . . أم هم زنادقةٌ معطِّلةٌ رَأَوْا	أنْ لا عذابَ غداً ولا تنْعِيما؟[2]

وأوّل مَن أتّهمَهُم بانتهاك الحرمات وشرب الخمور واضطهاد الأتقياء الصالحين شاعر قيروانيّ آخر معاصر لَهُ يدعى «سهل الورّاق »: [كامل]

متهمّكاً في خمرِه وسماعِهِ	متردّداً في الغَيّ والشُّبُهَاتِ
. . . يا آبن الأراذِلِ والمجوسِ، أيا آبنَ	من هَتَك الفروجَ وضيَّعَ الصلواتِ
. . . هدَمَ المساجِدَ وابتناها مَنزَهاً	لمَضَارِبِ العِيدان والناياتِ

---

(1) اتعاظ 59 . وابن الأثير 263/7 (حوادث سنة 402) ، على أنه لم ينقل نصّ المحضر . وإنّما نقله الشيخ عبد الوهاب النجار في الهوامش .

(2) حوليّات الجامعة التونسيّة 1973/10 ص 126 .

وأحــلَّ دارَ البحـرِ في أغــلالِــهِ   مَن كـان ذا تقوى وذا صلوات[3]

فالشبه قويٌّ بين هجاء الشاعرين القيروانيّين واحتجاج المحضر البغداديّ . ومهما يكن من أمر ، فإنَّ هٰذا المحضر لم يحظَ بالقبول عند كثيرٍ من المؤرّخين . فالمقريزيّ المتشيّع أعلن عند نقلهِ فقراتِ ابن شدّاد « البراءةَ من عهدة طعنه في نسب عبيد اللّه » وابن خلدون السنّيّ لم يصادق على القدح والاتّهام فقال : « ولا عبرةَ بمن أنكر هٰذا النسب من أهل القيروان وغيرهم ، وبالمحضر الذي ثبت ببغداد أيّام القادر »[1] .

إرثُ الرسول إرثٌ مادّيّ ومعنويّ

بتثبيتهِ للنسب الفاطميّ يجيب الشاعرُ في الواقع الدولَتَيْن المنافستَين القائمتين ببغداد وقرطبة ، ويجيب بوجهٍ عامّ كلّ الذين يرفضون شرعيّةَ الوراثة عن رسول اللّه ، تلك الوراثة المزدوجة في جانبَيها السياسيّ والروحيّ . أمّا الجانب السياسيّ فسيكون موضوع الفصل التاسع . بقي الجانب المعنويّ . فالإرثُ الروحيّ عن رسول اللّه ضامِنٌ للأئمّة « الترعة العلياء » ، أي الدرجات العليا عند اللّه : [كامل]

46/1 ورث المقيمَ بيَثْرِبٍ، فالمنبرُ الـ   أعلى لهُ ، والترعةُ العلياءُ[2]

وهو الذي جعلهم مفضَّلين على جميع البشر : [كامل]

90/41 آتـاكمُ القـدسَ الـذي لم يُؤتِـهِ   بشَـراً، وأنفَـذَ فِيكمُ التفضيـلا

بشهادة القرآن وملائكة السماء : [كامل]

---

(3) حوليّات الجامعة التونسيّة 1973/10 ص 147 .

(1) تاريخ ابن خلدون 31/4 .

(2) المقيم بيثرب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنبر والترعة كناية عن مسجده وقبره حسب زاهد عليّ . وقال آخرون : الترعة العلياءُ هي الجنةُ .

53/9 نطقَتْ بك السبعُ المثاني أَلْسُناً فكفَيْنَنا التعريضَ والتصريحَا[1]
59 . . . شهِدَتْ بمفخَرك السماواتُ العُلَى وتنزّلَ القرآنُ فيك مديحا

وما بعد شهادة القرآن من شهادة ، فهل يسعُ الشعراءَ المساكين ـ مهما بلغت طاقتُهم في التعبير ـ أن يباروا القرآن في تعداد مناقب الأئمّة ؟ كلّا ! فكلامُهم لا يكون إلّا تكراراً لشهادة الكتاب : [كامل]

85/53 قد قال فيك اللّهُ ما أنا قائلٌ
فكأنَّ كلَّ قصيدة تضمينُ

وكلُّ محاولة للتجديد في هذا المعنى مآلُها الفشل : [طويل]

24/3 وهل يستوي وَحْيٌ من اللّهُ مُنْزَلٌ وقافيةٌ في الغابرينَ شَرودُ؟

فليخجل المتطاولون إذنْ وليسْتَحُوا : ليس في الإمكان أن يحيطوا بصفات الإمام ، ولا أن يزيدوا على فضيلة القرآن فيه فضيلة : [كامل]

68/24 جلّت صفاتُك أن تُحدَّ بمِقولٍ ما يصنعُ المصداقُ والمكثارُ؟[2]
69 واللّه خصّك بالقُرانِ وفضلِهِ واخَجْلتِي! ما تبلغُ الأشعارُ؟

ولا يقتصر الشاعر على شهادة القرآن ، بل يستظهر أيضاً ببقية الكتب المقدّسة . فجميعها تُشيد بفضل الإمام : [كامل]

104/40 من يشهدُ القرآنُ فيه بفضلِهِ وتُصدِّقُ التوراة والإنجيلُ

الإمام هو محور الخليقة

وقد نستغرب هذا التقوُّلَ في شأن الكتب السماويّة ؛ وربّما حملناه على

(1) السبع المثاني من أسماء فاتحة الكتاب . وقد تعني القرآن جملةً .
(2) المِقوَل : الفصيحُ اللسِنُ . واللسانُ البليغ أيضاً .

المبالغات العاديّة عند الشعراء ، والغلوّ اللفظي والمعنويّ عند ابن هانىء خاصّة . ولكنّ هٰذه المعاني كانت رائجةً في المجالس الإسماعيليّة وربّما كانت مدوّنةً في نصوصهم النظريّة ، مثل هذا الابتهال المنسوب الى المعزّ نفسِه : فهو يدّعي فيه أنّ الأنبياء ، بله سائر البشر ، قد خلقهم اللّٰه بسببه ، أي بنيّة خلق الإمام يوماً ما : « . . . إلّهي ، أوجدتَ عنّي خلقَكَ ، وصدَرَت عنّي دنياك في الذات والأسماءِ والصفات . . . إلّهي ، ظهرَتْ الموجوداتُ كلُّها بي ، وأخترعْتَ منّي كلّ رسولٍ ونبيٍّ . . . »[1] .

هذه القداسة التي تجعل الإمام قطبَ البشريّة ومركز الكون ، يترجمُها الشاعر في مشاهد فردوسيّة ممّا تعوّد الخيالُ العربيّ أن يتصوّره ويتمنّاه، كالماء الصافي ، والظلّ الوارف ، والنور الوضّاء . ويستخدم عباراتٍ روحيّةً تجريديّة كالقبس والمُجَاجة والينبوع والشفاء : [كامل]

36-31/1
هُـوَ عِلّة الدنيـا ، ومَن خلقت له ولـعـلّةٍ مـا ، كـانـت الأشـيـاءُ
مِن صفوِ ماءِ الوحي، وهو مُجاجةٌ من حَـوضِـه الينبوع ، وهـو شفاء
من أيكةِ الفِردوس، حيث تفتَّحَتْ ثـمـراتُـهـا، وتـفـيَّـأ الأفـيـاءُ
من شُعلةِ القَبَسِ التي عُرِضَتْ على مـوسى، وقد حـارت به الـظلماءُ
من معدنِ التقديس، وهو سُلالـةٌ من جوهر الملكوتِ، وهو ضيـاءُ
من حيث يُقتبَس النهـارُ لمبصرٍ وتُشقّ عـن مكـنـونهـا الأنبـاءُ

ونحن ، لئن أُعجِبْنا بتطويع الشاعر لُغَته لطرقِ هٰذه المعاني المجرّدة التي تشبه الى حدّ بعيد النصوصَ الصوفيّة ، نتساءل عن الجمهور الذي يتقبّل مثلَ هٰذا الشعر. ولا نخاله إلّا جمهور الأنصار العارفين بأسرار الدعوة، والأتباع المطّلعين على علم الباطن . أمّا الجمهور الواسع الذي يشمل القريب من الدعوة والبعيد ، والعدوّ والمناصر ، والخصم والمحايد ، فلعلّ الدعـاية الرسميّة تحذر أن تخاطبه بهٰذه الأفكار وهٰذه الألفاظ ، بل تؤثر الخطاب

---

(1) نُبذ . . . . 49 -48 . . . St . Guyard : Fragments .

الرصين المعتدل الذي يُطَمْئِن النفوسَ ويُقنع العقول . هٰذا الدور يوكل عادةً إلى القاضي النعمان ، فنراه مثلاً يجادلُ في قضيّة السجود للأئمّة فيشرح معناه ويميّزهُ عن السجود للّه ، ويُنَوِّع الحججَ : « . . . رأينا أوصياءَ الأئمّة ، وولاةَ عهدهم ، يقبّلون الأرض في سلامهم عليهم بين أيديهم . . . فأتباعُهُم أحقُّ مَن اقتدى في ذلك بِهِم . . . والرعاعُ والأوباشُ والعوامُّ ينكرون ذلك ، ويرونه سجوداً من دون اللّه لهم . . . وقد سجدَ إخوةُ يوسف وأبواه ليوسف فلم يَعِب اللّهُ ذلك من فعلهم . . . »[1] . ولا يكتفِي بهٰذا القياس على يعقوب وأبنائه ، ولا تكفيه الحجّة المنقولة عن القرآن ، فيضيف في موضع آخر حجّة جديدة[2] : أنّ تقبيل الأرض بين يدي الإمام ليس سجوداً على الحقيقة ، وبهٰذا الميز تنتفِي القضيّة !

لكنّ النعمان شبّه في كلامه ـ ضمنيّاً ـ الإمام بالنبيّ ، ممّا قد يدلّ على أنّ الدعاية الفاطميّة تساوي الأئمّة بالرسل . لذلك تتْبَعُ آسمَ الإمام دائماً عبارة : صلى اللّه عليه وآلِهِ ، وهي تصلية لا تختلف عن تصلية رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) إلّا بحذف عبارة التسليم ، فترِد في المخطوطات مختصرة في ثلاثة أحرف عوض أربعة : (صلع) . أما في الوثائق الرسميّة فترد تامّة اللفظ ، مثلما نقرؤُها في مستهلّ رسالة جوهر إلى أهل مصر بعد الفتح : « بسم اللّه الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين ، صلوات اللّه عليه ، لجماعة أهل مصر . . . »[3] . وفي أوّل جمعة أقيمت بالفسطاط في جامع عمرو ، دعا الخطيب بالصلاة على المعز ، ويضيف الشاهد أنّه قرأ الدعاء « من رُقعةٍ » ، كأنّ جوهراً هو الذي أنفذ اليه الدعاءَ مكتوباً : « . . . اللّهمّ صلّ على عبدِكِ ووليّك ، ثمرةِ النبوّة وسليل العِترة الهادِيَةِ المهديّة ، عبد اللّه الإمام معدّ أبي تميم المعزّ لدين اللّه أمير المؤمنين ، كما صلّيت على

(1) ك . الهمّة 105 .

(2) ك . المجالس والمسايرات 58 - 60 .

(3) المقريزي : اتّعاظ الحنفاء 148 .

آبائه الطاهرين ، وأسلافه الأئمّة الراشدين . . . »[1] .

ولا يفوت شاعرَنا طبعاً أن يسجّل هو أيضاً صلاة اللّه والملائكة على الأئمّة : [طويل] .

42/37 تُـرَدُّ الى الفـرِدَوس منكم أُرومَـةٌ يُصلّي عليكم رَبُّهـا والمـلائـكُ

فضلا عن صلاة الناس قاطبةً ، وهي فرض دائم ، وينضاف اليه التسليم : [طويل] .

71/47 فلا برِحَتْ تَتْرَى عليكم من الورى صـلاةُ مُصـلٍّ أو سـلامُ مسلّم

حتى الكائنات الجوامِدُ تحبّ الإمام وتشتاق لرؤ يته ، إلّا أن الشاعر ينتخبُ منها الأماكنَ القدسيّة كمناسك الحجّ وأباطح مكّة : [كامل] .

43/1 هـذا الـذي عـطفَتْ عليـه مكّـةٌ وشعـابُهـا، والـركنُ والبـطحـاءُ
44 هـذا الأغـرُّ الأزهـرُ الـمتـألِقُّ الـمتـدَفِّقُ المتبـلِّجُ الـوضّـاءُ

ولقائل أن يلاحظ أن هذا المعنى ـ وبهذا اللفظ تقريباً ـ قد طرقهُ الفرزدق في مدح عليّ زين العابدين الإمام الرابع ، في البيت المشهور :
هذا الذي تعرفُ البطحـاءُ وطأتَـهُ والبيتُ يعـرفُه، والحـلُّ والحَرَمُ[2]

وطرقه أبو نواس أيضاً في مدح هارون الرشيد :
حتى إذا واجهْنَ أَقْبَـالَ الصَّـفَـا حَنَّ الحـطيمُ وأَطَّتَ الأركـانُ[3]

وأنّ الشاعرين ـ وما أبعدَهُما عن التشيّع ! ـ لم يُعَابَا بالبيتين . فنقول : وبأولى وأحرى ، لا يُعَابُ شاعرُنَا ، وهو شيعيّ متحزّبٌ يُعلِن في كلّ مناسبة

---

(1) المقريزي : اتّعاظ الحنفاء 163 .

(2) البيت مفقود من ديوانه في طبعة الصاوي ، مذكور في ملاحق مقدّمة لك . الشعر والشعراء لابن قتيبة التي ترجمها ونشرها Gaudefroy - Demombynes (هامش 19 وملحق 1) .

(3) ديوانه ـ بيروت 1962 ص 642 . والضمير يعود الى رواحل الخليفة .

تعلُّقه بالدعوة الفاطميّة ويطمحُ الى دخول قصر الخليفة كما يطمح المؤمن الى الفوز بالجنّة ، ويعتبر دخوله في خدمة الإمام وعداً بنيل الفردَوس : [كامل] .

15/9 هــل لِـي إلى الـفــردوس من إذنٍ، وقَــدْ
شــارفــتُ بــابــاً دونَـهَــا مــفــتــوحَــا ؟

قدسيّة الإمام

الفرقُ بين شاعرنا والشعراء الآخرين ، مهما غلَوا في المديح ، هو أنّه ينسب الى المعزّ صفاتٍ تفوق طينة البشر ، هي أدقّ من أن تدركها الأفهامُ وألطفُ من أن تعيَها العقولُ : [كامل] .

84/1 قد جالت الأوهامُ فيك، فَدَقَّتِ الأ فـكــارُ عنــك، فـجلّتِ الآلاءُ[1]

هي صفات مستمدّة من وحي اللّه وهدايته ، بل هي الصفات التي ينسبها الناس الى المولى سبحانه وتعالى ولا يتحرّج الشيعة من أن ينسبوها الى غير اللّه . ذلك أنهّم ، مثل المعتزلة ، ينفون أن تكون للّه الواحدِ الأحدِ المتوحّدِ صفاتٌ خارجة عن ذاته . وعلى هذا الاساس وصفَتْهم فتوى بغداد بأنّهم « ملحدون معطّلون » . فإن كانوا من المعطّلة ، أي من نفاة الصفات ، فلا مانع عندهم من أن ينسبُوا الى الأئمة صفة الواحد والقهّار ، ولا كفرَ إذن عندهم في هذا البيت الذي جمع للمعزّ أربعةً من الأسماء الحُسنى : [كامل]

19/9 نـدعـوه منتقمـاً، عـزيـزاً، قـادراً غفّـارَ موبقـة الذُّنـوب، صَفُـوحَـا

وقد احتاط الشاعر بكلمة « ندعـوه » : فالمقـولة خـاصة بـالأنصار المُقْتَنِعِينَ والأتباع العارفين الذين يرون في الإمام دليلاً على وجود الخالق

---

(1) وفي هٰذا المعنى يقول علي الرضا (ت 817/202) الإمام الثامن عند الاثني عشريّة : « فمَن ذا يبلغ معرفة الإمام ؟ . . . هيهات ! هيهاتَ ! ضلّت العقول ، وتاهت الحلوم . وحارت الألباب ! » انظر : أحمد أمين : ضحى الإسلام 216/3 وقد نقل الفقرة عن الكافي للكليني .

وحكمَتِهِ : [كامل]

113/40 واللّه مدلولٌ عليه بصنعِهِ فِينا ، وأنتَ على الدليل دليلُ

والمعزّ نفسُه يشاطر هذا الاعتقاد ، حسبما يظهر من هذه المناجاة التي اكتفى ابن هانىء بتحويل مضمونها الى الشعر : « . . . إلّهي ، أنا اسمُك ، وموجودُ اسمِك ، وأنا البشيرُ اليك ، والدّالُ عليك ، والدّالُ على من دلّ عليك . . . »[1] .

فالإمام ، وهو الصنيعة المخلوقةُ والحجّة الدّالّة في آنٍ واحدٍ - وعبارَة « صنعه فينا » لا تدع شكّا في توحيد ابن هانىء للمولى عزّ وجلّ - صار دليلاً بما أودعه اللّه فيه من علمٍ جمّ وحدسٍ ثاقب يرفع عن بصيرته حُجُبَ المغيّباتِ : [طويل] .

20/11 وليسَت ظهاراً يُحجبُ الغيبُ دونَها ولكنها قُدْسِيَّةٌ فيك تَرْسَخُ[2]

وكشفُ الحجب ميزة ميّز بها اللّه الأئمّةَ دون سواهم : [طويل] .

59/3 وللّه عِلمٌ ليس يُحجَبُ دونَكُمْ ولكنّه عن سائر الناس محجوبُ

وهي خاصّية يرثونها كابراً عن كابرٍ ، فالإمام ينظر الى أحد أبنائه ساعة يولد فيعرفُ فيه فوراً أمارات الإمامة ، ولا يعرف فيه ذلك عن فراسةٍ فقط أو بالظنّ والحدس ، وإنّما يَعْلَمُه بعلمٍ ربّانيّ متنقّل من إمام إلى إمام . وهكذا علِمَ المنصور أنّ معدًّا ابنه سيكون ملكاً فريداً وهو لا يزال في المهد صبيًّا : [طويل] .

49/22 رأى أن سيُسمَى مالكَ الأرض كلِّهَا فلمّا رآه قال: ذا الصمدُ الوترُ
50 وما ذاك أخْذاً بالفراسةِ وحدَها ولا أنّه فيها إلى الظنّ مضطرّ
51 ولكنَّ موجوداً من الأثَر الذي تلقّاه من جبرٍ ضنينٍ به حبرُ
52 وكنزاً من العلم الرُّبُوبيّ ، إنَّهُ هو العلمُ حقاً ، لا القيافةُ والزجرُ

---

(1) نُبذ . . . St. Guyard : Fragments ... 170

(2) الظهار ظاهر الشيء الذي يلوح للناظر فيحجب عنه الباطن .

علمُ الإمام

فليس علم الأئِمَّة تنبُّؤاً ولا فراسةً ولا زجرَ طيرٍ ، إنّما هو ملكةٌ فَطَرَهُمُ اللّه عليها، تُولَدُ مَعَهُم ، وبها يعلمون ما سيقعُ من أحداثٍ في مستقبل الزمان ، وخاصَّة الأحداث التي تهمّ آل البيت . على أن بعض الطوائف من الشيعة أبت إلّا أن تُجسِّم هذه الملكة في أثرٍ مادّي منقول ، فقالوا بـ « الجفر » ، ذلكم الكتاب الذي رواه بعض رؤوس الزيديّة عن جعفر الصادق ونسخَه على جلدِ ثورٍ صغير ـ والجفرُ هو ولدُ الشاة والمعزى والبقرة ـ « وفيه علمُ ما سيقعُ لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص » . ويضيف ابن خلدون أن ذلك العلم « وقع لجعفر ونظائره من رجالاتهم عن طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء . . . وقد صحّ عن جعفر الصادق أنّه كان يحذّر بعض قرابته بوقائع تكون لهم، فتصحُّ كما يقول»[1].

والقاضي النعمان ، لئن لم يذكر كتاب الجفر بلفظه ، فإنّه ذكر شيئاً شبيهاً به ، وهو « قلم » يتوارثُه الأئمّة يكتبون به أسرارهم، وبيانُه وشرحُه تحتَهُ »[2] ، ولم يوضحه القاضي لأنّه سرٌّ ينبغي أن يبقى مكتوماً ، إلّا عن الأئمة . وصيانة العلم عن غير مستحقّيه ضرورة يتفق عليها النعمان وشاعرنا ، فيقول النعمان نقلاً عن المعزّ : « إنَّا لو كشفْنَا كلَّ شيءٍ لكمُ ، وأوضحناه لسائركُم ، لبطَلَ التفضيلُ بينَكُم ، ولنال الفضلَ مستحقُّه وغيرُ مستحِقّه . . ولكنَّ أحدَكم لا يُرضيه إلّا أن يأتيَ على كلّ ما عندنا ويحويَه ، ولم يجعل اللّه (عز وجل) ذلك له ولا لغيره دوننا »[3] . ويقول ابن هانىء : [طويل]

177/47 إذا كانتِ الألبابُ يقصُر شَأْوُها ... فظُلْمٌ لسرِّ اللّه إن لم يُكَتَّمِ

---

(1) المقدّمة 273 . وانظر فصل « الجفر » في دائرة المعارف الاسلاميّة .

(2) المجالس والمسايرات 130 .

(3) المجالس والمسايرات 104 و 511 .

هذا العلم لا ينتقل من إمام إلى إمام بالدرس والتحصيل ، بل هو سجيّة طبيعيَّةٌ وسليقة فطريّة : فالمعزّ مثلاً « لم نعلم له في الطفولة مؤدّباً عالِماً فنقولَ : أفادَ عنه، ولا بعدَ ذلك من جليسٍ ولا مصاحِب كذلك يُحسِن شيئاً فنقولَ : أفاد منه ، ولا كانت له رحلة ولا طلب »[1] . وهو عند الشاعر عالم عليمٌ بنفح من اللّه لا بِتَلَقّن درس : [طويل]

30/47 غَدَوْا ناكسِي أبصارهم عن خليفةٍ — عليمٍ بسرّ اللّه غيرِ مُعَلَّمِ

31 وَرُوح هُدًى في جسمِ نورٍ يُمدُّهُ — شعاعٌ من الأعلى الذي لم يُجَسَّمِ

ولكنّ هذا القبس الذي يستمدّه الأئمّة من اللّه قد يحمل « العامّة » ، أي أهل السنّة ، على اتّهامهم بادّعاء علم الغيب . ويبدو أن هذا الاستنتاج لم يكن فاشياً عند الخصوم فحسب ، بل عند بعض الموالين للدعوة أيضاً ، فاضطرّ القاضي النعمان ، وهو الفقيه الرسميّ الذي عليه أن يجادل ويُقنع ويشرح ويدفع ، ويجابه الخصوم ، ولا سيّما مالكيّة القيروان أتباع مدرسة سحنون[2] ، إلى تنزيه الأئمّة عن آدّعاء معرفة الغيب ، فيقول نقلاً عن المعزّ : « نحن عبادٌ من عباد اللّه مخلوقون مربوبونَ ، لا علمَ لنا إلّا ما عَلِمْنا وصار إلينا عن نبيّه جَدِّنَا محمد (ص)، ممّا أودعَه اللّهُ إيَّاه وأُورِثْنَاهُ مِمَّنْ بعدَه وأُودِعْنَاهُ ، لا نُحيطُ من علمه إلا بما شاء »[3] .

ويقول في كتاب آخر ، من كلامه هو : « . . . إنَّا لا نقولُ ما قالَهُ الغُلاةُ الضالّون المبطلون الصادّون عن أولياء اللّه ، الدافعون إمامتَهُم ، الزاعمون أنهم يعلمونَ غيبَ اللّه ، وما تُخفي صدور عِبَادِهِ »[4] .

هذا ما يقولُهُ الفقيه المجادِلُ . أمّا شاعرنا ، فلا حاجةَ له بمداراة فقهاء

---

(1) المجالس والمسايرات 148 .

(2) انظر : برنشويك : الفقه الفاطميّ R . Brunschwig : Fiqh fatimide, 13 .

(3) المجالس والمسايرات 523 .

(4) ك . الهمّة 53 .

القيروان ، ولا بآستدراجهم الى مذهبه . فلا تحفّظَ عنده ولا اعتدال ، لأنه من جهةٍ رجلٌ متشبّع بمبادىء الدعوة مقتنع بشرعيّتِها وصدقها ، ولأنه من جهة أخرى شاعر فنّان شيمتُه التوسّع والتضخيم . فمن معرفته بمقولات الدعوة ، الإشارةُ الضمنيّة في الأبيات التالية الى القاعدة الأصوليّة عند الإسماعيليّين في امتناع وجود إمامَين في زمنٍ واحدٍ[1] . فإذا قرّر اللّه نقلَ الإمامة ، دعا إليه الإمامَ السابقَ ، وحوّلَ إلى اللاحقِ جميع الصفات والآيات ، كالوصاية على الخليقة جمعاء ، والعلم المكنون ، وتأويل ما نزلت به الكتب السماويّة :

[كامل]

104/41 حتى إذا استرعاك أمَر عبادِهِ أدنى اليه أباك إسماعيلا[2]

107 . . . وورثته البرهانَ والتبيانَ والـــفرقانَ والتوراة والإنجيلا

108 وعلمتَ من مكنونِ علمِ اللّه ما لم يُؤت جبريلا وميكائيلا

ومن خيال الفنّان ، تصوير المقام الرفيع الذي يتمتّع به المنصور لدى ربّه بعد رفعِه إليه : فهو يتفيّأ ظلال الجنان وقد صار مثل إبراهيم خليلاً لربّ السماوات : [كامل]

105/41 مِن بين حُجْب النور حيث تَبَوَّأتْ آباؤُه ظلَّ الجِنان ظليلا

106 أدّى أمانَتَهُ وزِيدَ من الرضى قُرباً ، فجاورَهُ الإلاهُ خليلا

ومن الأمرين معاً ، اعتبارُ الإمام شفيعاً للبشريّة وسيطا بينها وبين ربّها :

[كامل]

115/41 لو لَمْ تكنْ سببَ النجاة لأهلِها لم يُغنِ إيمانُ العبادِ فَتيلَا

واعتبارُه أيضاً سيّداً للزمان يتحكّمُ فيه كما يشاءُ : [كامل]

95/1 لا تسألَنَّ عن الزمانِ ، فإنَّهُ في راحتَيْكَ يدورُ كيف تشاءُ

---

(1) المجالس والمسايرات 468 و 514 هامش1 .

(2) إسماعيل هو المنصور الخليفة الثالث .

شفاعة الإمام تنالُ السابقين واللاحقين

ولا يبعد الأئمّة ولا يبالغون إنْ هم قالوا انّ آدم خُلِقَ بسَبَبِهم : « إنَّ اللَّه تعالى ، لمّا خلق آدم ، نظر فرأى في ساق العرش مكتوباً : لا إله إلاَّ اللَّه ، محمد رسول اللَّه ، أيّدتُه بعليٍّ وأورثتُه به . فقد ذكَرَنا اللَّه (عز وجل) قبل أن يخلق آدم . . . ولو شئنا أن نقول : إنَّا كنّا مع آدم ، لقلنا »[1] . هٰذا الرأي ، يترجمُه ابن هانىء شعراً فيطبّقه على المعزّ ويجعله علّة الدنيا وشفيع آدم ويونس عند ربّ العرش : [كامل]

23/53 هٰـذا مَـعـدٌّ والخـلائـقُ كـلُّهـا هٰـذا المعـزُّ متـوَّجـاً والـدين
هٰذا ضميـرُ النشـأة الأولى التي بـدأ الإلاَهُ ، وغيبُهـا المكنـونُ
من أجـل هٰذا قُـدّرَ المقدورُ في أمّ الكتـابِ ، وكُـوّنَ التكـوين
وبـذا تـلقّـىٰ آدمٌ مـن ربّـه عفْـوَاً ، وفـاءَ ليـونسَ اليقـطينُ

وقد يستغرب المرءُ هٰذا الصعود التراجعيّ في الزمن حتى تشمل شفاعة المعزّ آدمَ والمخلوقات الأولى . والتفسير يكمنُ في نظريّة الإسماعيليّة في الخلق . هٰذه النظريّة تقول : ان العالمَ بأسره ، أي الأرض والسماء ، والأفلاك والبشر ، والزمان والآفاق ، إنّما خلقت لتكون في المستقبل إطاراً لمحمّد (صلى اللَّه عليه وسلم) وذرّيّتِه . فكما لا نستغربُ أن يُصْنعَ المهدُ ويُهَيّأ قبل أن يولَدَ الصبيُّ ، فكذلك ينبغي أن لا نستغربَ كونَ الأئمّة علّةً لسائر الكائنات التي أوجدها اللَّه قبلَهم . وقد بسط زاهد عليّ الشارح الإسماعيليّ لديوان ابن هانىء ، هٰذه النظريّة في شيءٍ من الاقتضاب ، فقال معترفاً بما تبعث عليه هٰذه المقولة من التعجّب والتساؤ ل : « لا شكّ في أنّ آدم ويونس وموسى كانوا [أي وُجدوا] قبل الخليفة المعزّ بزمان طويل ومضت بينه وبينهم

---

(1) المجالس والمسايرات 210 .

آلاف السنين . فكيف يمكن أن يكون المعزّ وسيلةً لهم غُفِرَت بها ذنوبُهم وانجلَت بها همومُهُمْ ؟ » ثمّ أدلى بالجواب : « إنَّ محمَّداً والأئمّة من ذرّيّته أفضلُ جميع البشر ، وإنّ نُورَهم خُلِقَ قَبلَ خلقِ العالم ، حتى يقالُ إنّ اللّه تعالى أخذ من بني آدم ميثاقَ ولاية الأئمّة »[1] . فليس يصعب إذن على واحدٍ من الإسماعيليّة أن يقبلَ هذا التأثير العكسي من المعزّ في آدم : [متقارب]

67/58 لآدمَ مــن ســرِّكُــمْ مــوضــعٌ به استوجَبَ العفْــوَ لمّا عصى

ولا يصعب عليه، بأولى وأحرى، أن يفهم كيف تشهد التوراة والإنجيل، فضلاً عن القرآن، بعلم المعزّ وكراماتِهِ . وإذا ما اقتنع بهذه النظريّة وعرف أن الإمام موجود بالقوّة ، سابقٌ بوجوده هذا وجودَ الخلائق ، وان كان وجودها وجوداً بالفعل ، أمكنه بالمثلِ أن يتصوّر امكانَ بقاء الإمام بعد فناءِ الخلائق ، أي أن يرثَ الأرض : [طويل]

58/3 وأنت معــدٌّ وارثُ الأرض كُلِّهــا فقد حُمَّ مقدورٌ وقد خُطَّ مكتوب

وأن يقتنِعَ بامتلاكِهِ حَقَّ الشفاعة للخلق كلّهم : [كامل]

83/53 فارزُق عبادَكَ مِنْكَ فضلَ شفاعةٍ واقــرُبْ بهم زُلْفى فــأنت مكينُ

وبقدرته على تفجير الماء من الصخــر وإحياء الموتى مثل موسى وعيسى . غيرَ أن الشاعر يحتاط هنا فيفترضُ إمكانيّة هٰذه المعجزاتِ بحرف الشرط «لو»: [كامل]

52/24 لو تلمَسون الصخرَ لانبَجَسَت بِهِ وتفجّرَتْ وتدفّقَت أنهارُ
أو كان منكمُ للرُفاتِ مُخَاطِبٌ لبَّوْا وظنُّوا أنّهُ إنشارُ

---

(1) تبيين المعاني ـ المقدّمه 57 .

معرفة الإمام واجبة

هذه الصفات في الإمام تستوجب من الأتباع ، بَـلْ من كافة الناس ، أن يعرفوا إمام زمانهم ويطيعوه . ويطيب للشيعة في هذا المضمار أن يستظهروا بالحديث المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمامَ زمانه ماتَ ميتةً جاهليّة »[1] . ومعرفة الإمام لا تعني فقط رؤ يتَه بالبصر أو معرفة شخصه وتعيينَه باسمه، بل هي أيضاً معرفة كنهِهِ وإدراكُ صفاته العالية، ولا يتسنّى هذا إلا لمن عرفه بالبصيرة لا بالبصر فقط وآمن به ووالاه « والنفوس لا تنجو من جاهليتها إلاّ بمعرفة الإمام وولايته »[2] . ويلحّ القاضي النعمان على واجب الطاعة : « . . . وإن كانت درجةُ النبوة فوقَ درجة الإمامة ، وفضلُ الأنبياء أعظم من فضل الأئمّة، فإن الطاعةَ واحدة موصولة قد قرنَها اللّه تعالى بطاعته » . يقول : موصولة ، أي متّصلة متواصلة من الإمام الى الرسول الى اللّه . وفي المقابل ، فمَن لم يطع الإمامَ فكأنّه لم يطع الرسولَ وبالتالي عصى اللّه ، فإيمانه باطل والجنّة في وجهه موصدَة : « . . . فلم يَقبَل اللّهُ من مطيع طاعَتَهُ إلاّ بطاعة مَن افترَضَ عليه طَاعَتَهُ من أوليائِهِ ، ولم يُدْخِلْ في جملة المؤمنين به إلاّ من سلّم لمَن أُمِر بالتسليم اليه من أصفيائِهِ »[3] . ويقول هنا : التسليم ، أي الإيمان التامّ دون نقاش ظاهر ولا تساؤ ل باطن . هذا الرضوخ التامّ لمشيئة الإمام هو الضامن للنجاة ، حسب ما يقرّره جعفر الصادق في هذا التعهّد : « أما واللّه فإنّكم بتولّيكم إيّانا ، كلّكم من أهل الجنّة ، وانّا لضامنون لكم ذلك عن اللّه »[4] . وكذا يقول الشاعر : [كامل]

---

(1) ذكره زاهد عليّ ولم يحِل الى كتب الحديث . وأطنب الأميني : الغدير 360/10 في الاستشهاد له .

(2) زاهد علي : تبيين . . المقدّمة 56 . وانظر : الحبيب الفقي : Les idées philosophiques de l'Ismaélisme, Tunis 1981, 216.

(3) كـ . الهمّة ، 39 .

(4) القاضي النعمان : كـ . المجالس والمسايرات 402 .

5/24 هــذا الذي تُـرجى النجـاةُ بحبّـه وبـــه يُـــحطُّ الإصـــرُ والأوزارُ
6 هــذا الذي تجـدِي شفاعَتُـهُ غداً حَقّــاً ، وتخمـدُ أنْ تَـــرَاه النـــارُ

فلا دينَ لمن لا يحبّ الإمام ، ومن أبغَضَهُ فمآله الخسران المبينُ : [طويل]

45/22 إمــامٌ رأيتُ الـدينَ مــرتبـطاً بـــه فـطاعتُـهُ فَـوْزٌ ، وعصيـانُـهُ خُسـر

لأنّ طاعة الإمام هي طاعة اللّه ، فليس التشابهُ بين مدح الإمام وحمدِ اللّه مجرَّد تقارب لفظيّ : [طويل]

46/22 أرى مـدحه كـالحمـد للّه ، إنّـهُ قنـوتٌ وتسبيـح يحطّ بـــه الـوزرُ

وهذه الطاعة كما قلنا ينبغي أن تكون ظاهرة وباطنة : « ينبغي لكافّة الناس تعظيمُهم وإجلالُهُم في أعيانهم وصُدُورهم ، والتذلّلُ والـتواضـع لهم . . . واعتقادُ ذلك التعظيم والإجلال والهيبةِ »[1] . . . لذلك صوّر لنا الشاعر جنودَ المعزّ ، أولائك الأبطال المغاوير ، وهم يمرّون أمامه خاشعي الرؤوس ناكسي الأبصار لا يجسرون على النظر اليه وقد مُلئت له قلوبهم بالمحبّة الخاشعة الصامتة .

اشتراك هذه المعاني عند ابن هانىء وتميم بن المعزّ

لئن اشتركت هذه المعاني المذهبية بين قاضي الدولة الفاطميّة وشاعر المعزّ ، أي بين الفقيه المنظِّر المجادل والشاعر الفنّان المناصر ، كما رأينا في بحر هذا الفصل ، فإنّها تشترك أيضاً بين ابن هانىء وشاعر فاطميّ أصلاً ، أي من الأسرة نفسها ، وهو تميم ابن الخليفة المعزّ . فهذه أبياتٌ مدح بها أخاه ، الخليفة العزيز باللّه في مصر ، تشبه الى حدّ بعيد معاني شاعرنا ولغته . فاللغة

(1) القاضي النعمان : كـ . الهمّة 45 .

صوفيّة : هناك المجاجة ، والظلّ والينبوع ، وهنا الروح القدسيّ ، والنور اللطيف ، والجوهر النيّرُ . أمّا المعاني ، فربّما زادت في التقديس على ما يقوله صاحبُنا . وهو أمرٌ على جانب من الغرابة لأنّ تميماً كان وليّ عهدِ المعزّ ومبوّباً للإمامة فعُزل لفائدة أخوَيه عبد اللّه ثمّ العزيز ، ورغم ذلك يقول فيمَنْ عوّضَهُ : [بسيط]

ما أنتَ دونَ ملوك العالمينَ سوى ... روحٍ من القدْس في جسمٍ من البشرِ
نـورٌ لطيفٌ تناهى منك جـوهـرُهُ ... تناهياً جـازَ حدّ الشمسِ والقمرِ
معنىً من العلّة الأولى التي سبقَت ... خلقَ الهيولى ، وبسطَ الأرض والمَدَرِ
فـأنت بـاللّه دون الخلق متّصـلٌ ... وانت لله فـيهـم خيـرُ مـؤتَمَـرِ
وأنتَ آيَتُـهُ مـن نَسـلِ مُـرسَـلِه ... وأنتَ خيـرتُـهُ الغَـرَّاءُ من مُضَـرِ
لو شئتَ لم ترضَ بالدنيا وساكِنِها ... مثوىً ، وكنتَ مليكَ الأنجمِ الزهُرِ
ولـو تفاطنتِ الألبـابُ فيـك دَرَتْ ... بأنّها عنك في عَجز وفي حَصَرِ[1]

وشاعرنا ، حتّى وإن همّ بتجاوز الحدود المعقولة ، فهو يخفّف الإمكانيّة بحرف افتراض ، وكأنّه يشعر بأنّ الغُلُوَّ منه قد يؤخذ مأخَذَ المروق والكفر : [طويل]

174/47 ولو أنّني أجرِي إلى حيث لا مَدَى ... من القول ،لم أحرَجْ ولم أتَـأثَّمِ

وفعلاً ، فهو لا يتحرّجُ من أن يعتبر أنَّ حياته الماضية ، أي قبل أن يتّصل بالمعزّ ، كانت حياةً خاسرةً وأنّ إيمانَهُ كان ناقصاً ، بل باطلاً . فانتقالُه الى المعزّ فتح بصيرته وأنقذه من الضلال : [بسيط]

20/12 رأيتُ مـوضعَ بـرهـانٍ يبينُ، ومـا ... رأيتُ مـوضـع تكييفٍ وتحـديـدِ
21 وكـان مُنْقـذَ نفسِي من عَمَـايَتِهـا ... فـقلتُ فيــه بعلـمٍ لا بتـقـليـدِ
24 ما أجزَلَ اللّه ذُخْرِي قبلَ رؤيتِـهِ ... ولا انتفعتُ بـإيمـانٍ وتـوحيـدِ

---

(1) ديوانه 164 .

الإمام واجب الوجود

بقيت نتيجةٌ حتميّة لكلّ هذه الصفات التي ترفع الإمام عن صف البشر ، وتجعله شفيعاً للسابقين واللاحقين ووسيطاً ضروريّاً بين العباد وخالقهم : وهي أنّ الإمام واجبُ الوجود ، مثل العلّة الأولى . والشاعر لا يُغفِل هذه المصادرةَ ، بل يردّدها ويحتجّ لها ببراهينَ مختلفة . فتارة يترجم الآية الكريمة : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾[1] بما يؤكّد أنّه لا بدّ للأمّة الإسلاميّة ، بل للبشريّة قاطبةً ، من إمام ينير السبيل وينهى عن الضلال ، ويعظ ويزجر : [بسيط]

54/44 ولـيس يُنـكَـرُ من هـادٍ لأُمَّـتِـهِ غَوْلُ المواجِيدِ للبُقيَا على الجُمَلِ

والمعزّ نفسه يحتجُّ بهذه الآية لإثبات وجوب الإمام ولتبرير سلطانه على الأرواح والأبدان ، إلاّ أنّه يلحّ على وظيفة الهداية : « إنّا ندعوهم الى اللّه وان صدُّوا عن السبيل ، ونقوّمهُم وإن آثروا الميل . . . فنحن واللّه هُدَاتُهُم ، في كلّ عصرٍ منّا هادٍ لِمَنْ كان في عصره منهم ، واللّهِ نحنُ أعلام الحقّ ، ونحن هُدَاةُ الخلق »[2] .

وتارةً يرمزُ الى وظيفة التنسيق بين أجناس البشر باحتياجهم إلى مترجمٍ يشرح كلام هؤلاء لهؤلاء ، ما دامت المشيئة الإلّهيّة تقضي بأن تختلِف لغاتُ الناس وتتبايَنَ أَلْسِنَتُهُمْ : [طويل]

178/47 إذا كـان تفـريقُ اللغـاتِ لعـلّةٍ فـلا بُدَّ فيهـا من وسيطٍ متـرجِمِ

ويحتجُّ أحياناً بآية كونيّة : فكما أنّ الجبالَ الرواسي بثِقلها تمسك الأرضَ وتمنعُ التفتّت والتشتّت ، فكذلك الإمام جامعٌ للبشريّة ضامنٌ

---

(1) الرعد ، 7 .

(2) كـ . المجالس والمسايرات 118 .

لتوحّدِها : [طويل]

179/47 وآيــةُ هــذا أن دحــا اللّه أرضَــهُ ولكنّهـا لم ترس من غيـرِ مَعلَمِ

عـصمــة الإمـام

هذا الإمام الواجبُ الوجود هو أيضاً مُطلقُ النفوذ ، له حقّ القتل ، قتل الأفراد لصيانة الجماعة ، وقد ذَكَرْنَا البيت الذي بسط فيه هذه الفكرة ، وهي فكرة لا تختصّ بالعقليّة الشيعيّة ، إذ يُنسب إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّه قد يُقدِم على قتل الثلث لإصلاح الثلثين إذا دعت الحاجة إلى مثل هذه الصرامة. الّا أنّ عمرَ وهو صاحب أوّل رسالة في القضاء العادل ، ما كان ليقتُلَ قبل المحاكَمَة والاستتابة وضمان حقوق المتّهم وربّما كان يصفَحُ ويعفو . أمّا الشّيعة الإسماعيليّة فعندهُـم أن الانتقاضَ على الإمام وإنكارَ أحكامه إثمٌ كُبَّارٌ لأنّ الإمام لا ينطق عن الهَوَى وأحكامه لا يعتريها نقصٌ من ظلم أو حقد أو تسرّع . والمعزّ نفسه يؤكّد للنعمان بأنّه « ممنوع من الظلم والتعدّي »[1] . هذا التنزيه عن الظلم هو العِصمة التي تنسبها طوائف الشيعة الى الأئمّة الممنوعين من كلّ نقيصة لأنّهم يتمتّعون بهداية مسترسِلة من اللّه . فأحكامهم السياسِيّة مثلاً ، من إبرام هُدنة مع الإمبراطور البيزنطيّ ، أو رفض الإصغاء الى مَبْعوث المنافس الأمويّ ، أو العفو على ثائر زناتيّ ، هي في نظر الأتباع قرارات رشيدة حكيمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنحو هذا المعنى يؤيّدُ شاعرُنا عزلَ تميم عن ولاية العهد وتعويضَه بأخيه عبد اللّه : [بسيط]

68/43 ولاختيارِكَ فضلُ الوحي ، إنّك لا تـأتي المكارمَ إلاّ من علٍ فَعَـلِ
مستهـديـاً بـدليـل اللّه تَتْبَعُـه وقـادحـاً لـزِنـاد الحكمـةِ الأُوَلِ

---

(1) المجالس والمسايرات 433 .

الإمـام يُعَيَّنْ بالنّصّ

نفوذ الإمام إذن نفوذ مُطلَقٌ ، لا في الرعايا فحسب ، بل حتّى في الأسرة المالكة . فله أن يوليَ وأن يعزل ، دون اتّباع قاعدة الأسبقيّة في الولادة . والتعيين يقع بالنّصّ ، أي بتصريح سرّيّ أو علنيّ ، منطوق أو مكتوب . وفكرة النّصّ قديمة ترجع الى اعتقادهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الغدير قد نصّ على خلافة عليّ من بعده . فكذلك ينصّ إمام الزمان على خليفته دون انتخاب ولا مشورة ، حتّى الاستشارة الضيّقة المحصورة في أفراد الأسرة الحاكمة لا وجودَ لها[1] .

والحكم الفاطميّ مستمَدٌّ ، كما رأينا في أوّل هذا الفصل ، من شرعيّة دينيّة تاريخيّة ، هي شرعيّة آل بيت الرسول مؤسّس الدولة الإسلاميّة . والانتماء إلى الرسول يمرّ ضرورة بفاطمة وحدها . فالفاطميّون مخصوصون دون سواهم بالنسب الشريف ، كما يؤكّد المعزّ للنعمان : « وسيلتُنَا الى اللّهِ جدُّنا محمد صلى الله عليه وسلم أفضلُ الخلقِ عند اللّه . فمن ذا يتوسَّلُ بمثلِهِ ؟ أم مَن ذا يحلُّ مَحَلَّنَا منـهُ ؟ إنّ اللّه أحلّنا منه مَحلاًّ لم يُشْرِكْ معنا فيه غيرَنَا . . . فنحنُ صفوتُهُ من خلقِهِ ، وأمناؤُهُ على عبـادِهِ ، وأئمَّتُهُم ، وأولو الأمـر فيهم »[2] . والمعزّ هنا يقصد أبناء عمومته العبّاسيّين . أمّا شاعرنا ، فيتجاوز الهاشميّين الى قريش كلّها حتّى يطرح من الحساب ، لا عبدَ شمس فحسب ، بل تيماً وعديّاً رهط أبي بكر وعمر : [متقارب]

61/58 فـمـا لـقُـريْشٍ ومـيـراثِـكُـم وقـد فَـرَغَ الـلّه ممّـا قَـضَى ؟

* * *

(1) يظهر أن بعض هذه التعيينات قد أحدثت اضطراباً في العائلة الفاطميّة وانقساماً . انظر سيرة الأستاذ جوذر 215 .

(2) المجالس والمسايرات 402 .

يتصل بهذه المعاني العقائديّة المذهبيّة قسمٌ كبيرٌ من شعر صاحبنا يتعلّق بجهاد المعزّ في سبيل الدين ، مواصلةً لجهاد محمد صلى الله عليه وسلم ضدّ الكفّار . وجهاد المعزّ لا يتّجه إلى النصارى الروم فحسب ، بل الى المنافسين والمتمرّدين من أهل الإسلام : فخلفاء بغداد ، وخلفاء قرطبة ، والمارقون الخوارجُ في المغرب ، كلّهم كفّارٌ في نظر الدعوة وفي شعر الشاعر ، وقتالهم مشروع بل واجب . وسنعرض لهذا الشعر الحربيّ بالتفصيل في الفصل الموالي .

الفصل التاسع

معاني الشاعر وأغراضه

المعاني السياسية

يتمثّل الجانب الثاني من تشيّع ابن هانىء للدولة الفاطميّة ، في تحامله العنيف ضد أعداء الفاطميّين في الداخل والخارج . وهم ثلاثة أصناف : صنفان ينتميان الى الإسلام ولكنّ مناوأتَهم للأسرة الشيعيّة تجعلهم في صفّ الكفّار : هؤلاء هم العبّاسيّون ببغداد والأمويّون بالأندلس . وينضمّ الى الأمويّين أعداء الداخل ، وهم زعماء القبائل الزناتيّة الذين لم ينجح الحكمُ الشيعيّ في استدراجهم اليه ولا في القضاء النهائيّ على ثوراتهم المتكرّرة المتجدّدة . وهذه القبائل البربريّة تدين بالمذهب الخارجيّ ، وهيَ مع ذلك تحظى من حكّام الأندلس بالدعم المادّيّ والسند المعنويّ ، ممّا جعلها في الواقع حليفةً لهم . لذلك نعرض لتحامل الشاعر على الثوار الداخليّين أثناء درسنا لاحتجاجاته ضد الأمويّين .

والصنف الثالث من الأعداء تمثّله الامبراطوريّة البيزنطيّة التي كسبت قوّة جديدة وأحرزت انتصارات في الشام منذ أن اعتلى عرشَ القسطنطينيّة الدماسقُ من الأسرة المقدونيّة ، فصار خطرُ الروم على دار الإسلام وشيكاً ملازماً ، لا سيّما وأنهم يسعَون الى تخليص جزيرة صقلّية وجنوب إيطاليا ، والحوض الغربيّ من البحر المتوسّط ، من النفوذ الفاطميّ أي من حكم الإسلام .

فوجب على المعزّ أن يجاهدهم ، ووجب على الشاعر أن يشيد بهٰذا الجهاد ، وإن كان في الحقيقة لا يميّز بين قتال الروم وقتال الأمويّين والعبّاسيّين والبربر المتمرّدين: فكلّهم في نظره كفّار وقتالهم جهاد .

ويتفاوت حنقُ الشاعر على هؤلاء الخصوم في الكثرة والعنف . ففي المرتبة الأولى من الكثرة يأتي خلفاء بغداد ، وقد تعرّض لهم الشاعر في أربع عشرة قصيدة من القصائد الأربع والعشرين التي مدح بها المعزّ . ويأتي الأمويّون في المرتبة الأولى من عنف اللهجة في عشر قصائد ، ثم البيزنطيّون في سبع . الّا أن التحامل على هؤلاء وهؤلاء يتداخل في القصيدة الواحدة دونَ ميز أو ترتيب ، فلا يصحّ أن نضمّ القصائد الى بعضها بعضاً فنقول : هذه ضدّ العبّاسيّين فقط ، وهٰذه ضدّ الأمويّين فقط . وإنّما نصنّفها بصفة تقريبيّة معتمدين على نسبة التداول .

التحامل على الأمويّين

بمجرّد أن حلّ بالمغرب ، أعلن الشاعر ، في مدحة جوهر الحائيّة ، وهي أوّل شعره المغربيّ ، انتماءه الى الدعوة الفاطميّة وتسخير طاقته لإعلاء كلمتها ، فحفَلت القصيدة بالشعارات الإسماعيليّة كما رأينا في الفصل الماضي . ولكنها حفَلت أيضاً بالمواقف السياسيّة : فقد تهجّم فيها على زعماء المتمرّدين على الحكم الشيعيّ ، وخاصّة ابن واسول وآل موسى بن أبي العافية، وقد وقعُوا في أسر جوهر، هاجمَهُم وتشفّى منهم وأشاد بحِلم جوهر نحوهم . ولكنّ هذه الإشارة إلى صفح القائد لا تخلو من غموض : نفهم تخميناً أنّه سرّح آل ابن أبي العافية حين تضرّعوا اليه بعد أن سَدَّ عليهم المنافذ . ويستعمل الشاعر كلمة « سيف » التي قد تُقرأ بمعنيَيْن ونطقَين : السَّيف بالفتح ويكون معنى الرحلة التي قصدوها هِيَ الانقطاع عن الشغب والابتعاد عن سلاح جوهر . والسِّيف بالكسر ، أي ساحل البحر ، فيكون المعنى : قصدوا مبارحة المغرب ، ولكن الى أين ؟ أإلى الأندلس ؟ وفي هٰذه

الصورة ، كيف يسمح جوهر لأعداء مولاه أن يلتحقُوا بعدوّه ؟ : [طويل]

56/10 وفي آل موسى قد شَنَنْتَ وقـائعاً أهبتَ لَهُمْ تلك الزعازِعَ لُقَّحَـا[1]

59 . . صفحتَ عن الجانينَ مَناً ورأفةً وكنت حـريًّـا أن تَمُنَّ وتصفحـا

60 وقد أزمَعُوا عن ذلك السِّيف رحلةً فملَّكْتَ أَوْلاهُمْ عِنَـانـاً مُسَـرَّحـاً

ونفهم أيضاً أنه أبقى على ابن واسول بطلب من شخص يدعوه «ابن أبي سفيان» ، وافترضنا أنّه قد يعني عبد الرحمان الناصر . ولكن هنا أيضاً نتساءل : كيف يقبل جوهر شفاعة خصـم المعزّ اللدودِ في الأسير ؟ ثمّ أنّ افتراضنا مردود بكون الناصر ، لا سفيانيًّا ، بل مروانياً :

54/10 رأى ابن أبي سفيانَ فيها رشـادَه وعفى على أُثُـر الفسادِ وأصلحـا

55 دعـاك الـى تـأمينِـه فقبـلتَـهُ ولـو لمْ تَدَارَكْهُ بعـارفـةٍ طحَـا[2]

فإن صحّ تأويلنا لهٰذه الأبيات ، تبيَّنَ لنا أن الشاعر قد فهم سريعاً حقيقة الصراع بين الدولتين : فهو صراع بوسائط متناحرة ، الزناتيون من جانب المروانيّين ، وصنهاجة وكتامة في حزب الفاطميّين . وقد أشرنا الى موقف جعفر بن حمدون أمير المسيلة وما فيه من ريبة بسبب كراهيته لبني زيري وغيرته من طموحِهِم وخوفه على منصبه في الدولة ، فكان يداري منافسيهم من زناتة وربّما شجّعهم في الخفاء .

وتعنف لهجة الشاعر ضدّ حكّام قرطبة في مدائحه للمعزّ ، خصوصاً في الفترة الأولى ، اذ لا تزال مشاغل الخليفة منْصرفةً الى شؤون المغرب ولم تتّجه عزيمتُه بعدُ نحو المشرق . ففي القصيدة التاسعة التي افترضنا أنّه أرسلها إليه

---

(1) أهبتَ : دعوتَ وحثثت . الزعازع : الزلازل والمصائب . واللقّح من الإبل : الكثيرة الولادة . والمعنى : أرسلتَ عليهم المصائب حصبا متواليات .

(2) الضمير في «فيها» يعود على الوقائع التي غلبت هذا الشخص المجهول فأعادته الى رشده . والعارفة هي المنّة والمعروف والطحوُ الهلاك . وتداركه مضارع مجزوم محذوف إحدى التاءَيْنِ . والأثر بِضمَّتين : أثر الجرح .

من المسيلة ، يشير الى مصيبة عظيمة نزلت ببني أميّة فلبسُوا لها أثواب العار والفضيحة : [كامل]

40/9 وأُمَيَّةٌ تُخْفِي السؤالَ ، وما لمن أودى به الطوفانُ يذكر نوحَا ؟

42 . . . تتجاوبُ الدنياعليهمُ مأتَماً فكـأنّمـا صبّحتَهُم تصبيحَـا

43 لبسُوا معايِبَهم ورُزءَ فقيدهم كاللابساتِ على الحداد مسوحا

ولكنه يشير أيضاً الى ذُعر بني أميّة من المعزّ حتى صاروا يرون خياله في كل مكان :

41 بُهِتُـوا فهم يتـوهّمـونَـك بـارزاً والتـاجَ مؤتلقـاً عليـك لَمُـوحـا

فلا ندري ما المقصود بالفقيد : مجموع الأعوان والعساكر الذين خسروهم في محاربة المعزّ ؟[1] أم فرداً عزيزاً كالخليفة الناصر مثلاً ، وقد مات سنة 350 ، وشاعرُنا لا يزال في بلاط بني حمدون ؟ ويحملُنا على هٰذا التخريج الثاني تحريضُه المعزَّ على انتهاز الفرصة للقضاء عليهم قضاء مبرماً بجنودٍ معزّزين بالملائكة :

44/9 أنفِـذ قضـاءَ الله في أعـدائـه لتُـراحَ من أوتـارهـا وتُـريحَـا

45 بـالسّـابقين الأوّليـن يـؤمُّـهـم جبـريـل يعتنقُ الكمـاةَ مُشِيحَـا

وذكر جبريل لا يأتي هنا اعتباطاً : فالشاعر يمثّل قتال المعزّ للأمويّين بقتال الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين يومَ بدر . ذلك أنّ حكّامَ قرطبة لا فرق بينهم وبين أجدادهم الذين قاوموا محمّداً ، بل لا فرق بينهم وبين أجدادهم الذين غمَسُوا أيديَهم الآثمة في مجزرة كربلاء . وإنّ هٰذا الخلط التاريخيّ بين وقعتين تفصل بينهما قرابة ستّين عاماً ، لغلطٌ مقصودٌ : يريد الشاعر به أن يقنع الإمامَ بأنّ الظرفَ مُؤاتٍ وأن ساعةَ الثأر لشهداء الطفّ قد دقّت :

---

(1) قد تفيد صيغة « فعيل » الجمع : « وَالمَلاَئِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِير » (التحريم 4) .

46/9 فكأنَّ جدّك في فوارس هاشمٍ   منهُم بحيثُ يرى الحسينَ ذبيحَا

حقد الأمويّين على آل البيت حقد قديم

وكما يتصرّف في التواريخ يتصرّف أيضاً في حقيقة الوقائع : فقد قصر أنصار الرسول على الهاشميّين فقط ، سواءً في تذكيره ببدر أو في تخيّله مشهدَ كربلاء . وهذا الحصر أيضاً مقصود : فبِه يتمكّن من طرح بقيّة قريش من الحسبان ، وخصوصاً بني عبد شمس رهط الأمويّين ، ويؤكّد بذلك اختصاص آل البيت وحدَهم بالشرعيّة الخلافيّة . كما يتمكّن من ضمّ الأمويّين الحاليّين الى أجدادهم ، في شركهم ومقاومتهم للدعوة المحمّدية الحنيفة . فكما حسدتِ العبشميّة بني هاشم على حلول النبوّة فيهم وتمنّتْها في أسرتهم حتى يحافظوا على امتيازاتهم الاجتماعية والسياسيّة في قريش[1] فإنّ عبشميّة اليوم تحسد الفاطميّين على تأسيسهم دولة من آل البيت بافريقية . وهكذا لم يتغيّر شيءٌ في سلوك هؤلاء وأولائك : الكفر والحسَدُ والنفاق من جهة ، والشرعية الواضحة والإخلاص للدين والطهارة والتقوى في الجهة الأخرى . ولكنّ الشاعر ، بوضعه الخصومة الحاليّة على صعيد الأضغان القديمة ،لا ينتبه الى أنّ التهمة نفسَها قد تُوَجَّهُ الى أصحابه : فهُم أيضاً يحقدون على المروانيّين لا بسبب الصراع الحاليّ فقط ، بل بموجب الأضغان المتراكمة منذ بدر . وإنّ تذكيره بمصرع الحسين وبمقاتل الطالبيّين عامّة ،وإلحاحه على آثام الأمويّين المتواصلة يجرّ الى أصحابه أيضاً تهمةَ التأثّر بالأحقاد الماضية والمنافسات الجاهليّة . ولكن لا عليه: فلئن كان العَبْشَمِيَّةُ من قريش مثل الهاشميّين ، فشتّان بين الرهطين : هؤلاء مسكٌ صافٍ طاهرٌ ، وأولائك عُودٌ فقَدَ أريجَهُ وعِطرٌ تبخّرت ريحُه فصار مادّة متعفّنة : [طويل]

---

(1) انظر كلمة العبّاس عمّ الرسول لأبي سفيان وهما ينظران الى جموع المهاجرين والأنصار يوم فتح مكّة : إنّها النبوّة ! [فصل « جفر » في دائرة المعارف الإسلامية] .

46/11 لعمري لئن كانت قريشاً بـزعمها فإنّا وجدنا طينةَ المسك تسنَـخُ[1]

ويعود في هذه القصيدة الحادية عشرة ، وهي معاصرة للتاسعة في رأينا ، الى الرزء الجسيم الذي أصاب بني مروان ، فيصف وقعَهُ الشديد عليهم ، ويستخدم الصورة الجاهليّة التي تمثّل روح الشخص القتيل هدراً بطائر شؤم يعكف على قبره مُوَلْولاً حتى يؤخذ بثأره . هٰذا الطائر الصدي ، أو هٰذه الهامة كما يسمّونها، تصرخ اليوم وتستسقِي على قبر مروانيّ ، لعلّه قبر الناصر كما أسلفنا :

33/11 لقد سارت الـركبان بـالنبإ الـذي يشيبُ لـه طفـلٌ وينصـاتُ أجلخُ

34 وضجّت له الأصنامُ ، إنَّ ضجيجَهَا صدى من بني مروان حرّان يصرخُ[2]

فَكَأَنَّ هٰذا الملك مات كمداً بعد الهزائم التي ألحقها به المعزّ ، وكأن قومَه يطلبون الثأرَ ، ولكن مهلاً ، فإن أجلَهم سيحلّ عن قريب لأنّ تحرُّكَ المعزّ نحوَهُم مشروط بوحي منزلٍ اليه :

16/11 فمهلاً عِداهُ ! ما على الله مَعتبٌ وليس لما يأتي به الوحْـيُ منسخُ

وها إنّ أسطوله على أهبة العبور اليهم :

23/11 وقد وَفَدَ الأسطولُ والبحرُ ، طالبَيْ ندًى ، مُزمِعَيْ هيجَاءَ، هذا لذا أخُ

وصمتان في تاريخ بني مروان

هنا نتوقّف قليلاً عند لقب « المروانيّين » الذي يطيب للشاعر أن يطلقه على الأسرة الأندلسيّة . فهو لقب تشويهٍ عنده لأنه يشير به الى وصمتين في

---

(1) سنخ (باب فتح) الماء والطيب وغيره : فسد وأنتن .

(2) الأجلَخُ : الضعيف الفاني من الشيوخ . والصَدَى هو الهامة أي روح القتيل وحرّان : عطشان . وانظر في خصوص إيمان الجاهليّين بالهامة والصدى رسالة زميلنا محمد عبد السلام : ص78 Le thème de la mort, واللسان [صدي] .

حياة هٰذه الأسرة : الأولى هي عداوة جدّهم الحكم بن العاص للرسول وتهكّمه به في جاهليّته وحتى بعد إسلامه حتى إنّ النبيّ والشيخين من بعد قد نفَوْه الى الطائف ومنعوه من البقاء بالمدينة أو بمكّة ، فكان بذلك « لعين » رسول الله ، أي طريدَه ، وسمّيَتْ سلالتُه ابتداء من مروان بن الحكم بـ « آل الطريد » . ولم يرجع الحَكَم الى مكة والمدينة إلاَّ في خلافة عثمان ، فكان إرجاعُه منبعَ التهمة اليه في الميل مع قرابتِه .

أمّا الوصمة الثانية فتتمثلَّ في استيلاء الفرع المروانيّ من أسرة عبد شمس على الخلافة بعد معاوية وذرّيّته : فقد سلب مروان بن الحكم الخلافة من عقب معاوية ، فصارت خلافتُهم مسلوبةً مرّتين : من آل البيت أوّلا بعد التحكيم ، ومن الفرع السفيانيّ ثانياً بعد وفاة معاوية الثاني[1] .

ويضيف اليهم نقائص أخرى ، منها الجبنُ وسوء تدبير الملك ، وخرقُ السياسة : يُلقون بجنودهم الى التهلكة إذ يقابلون بها جيش المعزّ الظافر ، وينقلبون بعد الهزيمة خاسئِين . ويتساءل الشاعر في تهكُّم مُلحٍ عمّن يدبّرُ دولتَهم : الحكّامُ أم الحظايا والسراريّ ؟ [طويل]

21/28 كتـائبُ شتى النصـرِ رُعنَ أميّـةً	فـأوجُهُها للخِـزيِ أثفيـةٌ سُفـعُ[2]
23 . . . ألا ليتَ شعري عنهمُ، أملوكُهُمْ	تـدبّرُ أمـراً، أم إماؤهُمُ اللُكـعُ ؟

ولا يتورَّع عن الهجاء البذيء : إن تتوالَ عليهم الهزائم فلقلّة تمرّسهم بالحرب ، ولئن تلوّثت ثيابهم بالدم ، فليس من دم الحرب ، لا من طعن ولا من ضرب ، وإنما هي دماءالمحيض عند هؤلاء الذكران الجبناءِ [طويل] :

52/37 ولم تـدْمَ في حـربٍ دروعُ أميّـةٍ	ولكنهُم فيهـا الإمـاءُ العـوارِكُ[3]

---

(1) انظر رسالة الدشراوي : Le califat fatimide, 225 .

(2) الأسفع والسفعاء : الأسود المحروق .

(3) الدروع هنا قد تعني القمصان والغلائل زيادة في التشبيه لهم بالنساء . وَعَركَتِ المرأة (باب نصر) : حاضت .

وهي سخريّة مفرطة لا تتناسب مع الواقع التاريخي : فالقوّة الأمويّة لم تكن على هٰذا الجانب من الوهن ، بدليل أن جوهراً لم يقدر على افتكاك سبتة وطنجة منهم ، وأنّ الأسطول الأمويّ لم يسكت عن حملة المراكب الفاطميّة ضدّ المريّة سنة 956/345 فقد نزل بشواطىء إفريقية وخرّب وأحرق وسبى .

ثمّ إنّ المعزّ لم يفكّر حقيقة في اقتحام الأندلس . فلذلك لا يسعُنا إلا اتّهامُ الغلوّ الشعري عند صاحبنا حين نسمعُه يتندّرُ بجهل الأمويّين بفنون الحرب ويسخر من جبنهم :

50/37	ومـا عـرفَت كـرَّ الجيـادِ أميّـةٌ	ولا حملت بَزَّ القنا وهـو شابـكُ
51	ولا جـرّدوا نصلا تُخـاف شَبَـاتُـه	ولكنَّ فـولاذاً غدا وهـو آنُـكُ[1]

أو يعرّض بسوء احتياطهم في منع ذخيرتهم الحربيّة أن تسقط في أيدي الفاطميّين : [طويل] .

24/28	تجافَوا عن الحصن المشيد بناؤُه	وضاق بهم عن عزم أجنادهم وُسعُ
25	وقـد نَفِـدَتْ فيـه ذخـائـرُ مُلكِهم	ومـا لم يكن ضـرًّا فـأكثـرُه نَفـعُ

هٰذه السخريّة الثقيلة لا تغنينا في شيء لأنّها تغطّي التدقيقات التاريخية والمكانيّة الواجبة دون أن تعوّضَهَا : فما هٰذا الحصنُ الذي تركه الأمويّون للفاطميّين ؟ ومتى كان جلاءُ المروانيّين عنه ؟ ونفس الغموضِ يسود إشاراتِهِ الى « ثغر » مروانيّ عجزوا عن صونِهِ من الزحف الفاطميّ : [طويل]

40/3	لقيتَ بني مـروانَ جـانبَ ثغـرهم	وَحَظُّهُـمُ من ذلك خُسـرٌ وتتبِيـبُ

فأيّ ثغر يعني ؟ ثغر بحريّ ؟ فيكون في البيت اشارة الى نزول جديد من الأسطول الفاطميّ على سواحل الأندلس ، أي تكرارٌ لعمليّة ألمريّة ؟ أم هو فقط حصن من حصون المغرب الأقصى لم يثبت لحصار الفاطميّين ؟

---

(1) الآنُك هو الرصاصُ الليّن أو القصدير (اللسان) .

وتتكرّر الإشارة الى الثغر بدون توضيح ، وإلى العدوّ دون تعيينه ، فلا نَعْرفُ هل يعني المقاومة المسيحيّة داخل اسبانيا وقد بدأت حملاتِ « الاسترجاع » ، فيكون اتّهام الشاعر موجّهاً الى تقصير الأمويّين في الدّفاع عن بيضة الإسلام في أرضهم ، أي إخلالهم بفرض الجهاد . يدعونا إلى هٰذا التأويل إشادَتُه بانتصارات الجيش الفاطميّ ضدّ « الهرقل » أي الإمبراطور البيزنطيّ ، في القصيدة نفسِهـا التي ينتقص فيها الأمويّين :

42/3 وقد عجزوا في ثغرهم عن عدوّهم   بحيث تجول المُقْرَبَاتُ اليَعابيبُ[1]
43 وجيشـك يعتـاد الهـرقـلَ بسيفِــهِ   ومن دونه اليمّ الغطامط واللوبُ[2]

أو يشير الى محاولة فاشلة من الأمويّين دون أن يدقِّق نوعها فيكتفي بالتشبيه الساخر : [بسيط]

24/26 خـابت أميّـة منـه بـالـذي طلبَتْ   كما يخيب برأس الأقـرع المُشُطُ

الأضغانُ القديمة : السقيفة ، بدر ، كربلاء

هذه الأبيات الهجائية ، الساخرة تارةً والعنيفة غالباً ، تحملنا على الاعتقاد أن عداوة الفاطميّين لحكّام قرطبة ـ كما تظهر على لسان شاعرهم الرسميّ ـ لم تكن وليدة الوضع السياسيّ والعسكرّي في النصف الأوّل من القرن الرابع ، أي أنها لم تكن تتغذّى فقط بالمنافسة السياسيّة على امتلاك المغرب وفرض الحكم الشيعيّ على سكّانه. صحيح أنّ للخصومة العقائديّة دوراً في هذه الحملات العسكرية والكلاميّة : صحيح أيضاً أنّ الـدعوة الإسماعيليّة لا تقبل وجودَ إمامةٍ منافسة على برّ العدوة الشماليّة ، ولكنَّ عنفَ اللهجة عند الشاعر وإشاراته المتواصلة الى آثام بني أميّة في حقّ الطالبيّين

(1) المُقربات : الخيل المقـرّبة من البيت استعداداً للحرب . واليعبوب منها القويّ السريع .
(2) الغطامِطُ الكثير الموج، واللوب ج لوبَة : الحَرَّة أي الأرض الغليظة الصعبة .

تضعُ هذه العداوة في مرتبة تاريخيّة قديمة : فهي عداوة عريقة لها جذورٌ في حادثة الانتزاع في سقيفة بني ساعدة وفي مجزرة كربلاء ، مروراً بوقعة بدر وبمقتل عليّ في مسجد الكوفة .

فكلّما تحدّث عن شرعية الخلافة تذكّر السّقيفة وتوسّع في الحملة، فلم يعُد يتوجّه الى العبشميّة فقط ، بل يضمّ إليهم كافّة قريش : فهم مسؤولون جميعاً عن هذه السرقة الأصليّة ، أي اغتصاب الخلافة من عليّ . ويرفض الشاعر نظريّة شرعيّة المفضول مع وجود الأفضل التي بها قبِل المسلمون ، وحتى بعض الشيعة منهم ، خلافةَ أبي بكر ـ المفضول ـ رغم وجود الأفضل أي عليّ ، فيستنكر أن يُعَادَل الفاضِلُ ، أي المكتمل الصفات الموفي بجميع الشروط ، بالمفضول ، أي الشخص الذي لا شرعيّة له سوى أنّه اختير وفُضّل على غيره ، ويجمع في احتجاجه رفضَه لشرعيّة أبي بكر وتَهَكُّمَهُ بمزاعم بني أميّة في استحقاق الخلافة : [كامل]

95/41 خـلّدتُمْ فـي العبشـميّـة لـعنـةً خُلِقَتْ ـ وما خُلِقُوا لهـا ـ تعجيلا
97 . . في مَنْ يظنّون الإمـامةَ منهمُ إن حُصِّلَتْ أنسـابُهُم تحصيـلا ؟
98 من أهـل بيتٍ لم ينـالـوا سعيَهم من فـاضـلٍ عَـدَلُـوا بـه مفضـولا

ولئن استغرب المرءُ إقحام العبشميّة في خصومة السقيفة ، ولم يكن لهم فيها دور بارزٌ ، فالشاعر يجيبه بأنّ بني أميّة متعوّدون على المكر والخديعة : مثال احتيالهم ما فعلَهُ عمرو بن العاص في وقعة صفّين حين سقط من فرسه ، واستعدّ عليّ للإجهاز عليه : رفع آنذاك ثوبه وكشف عورتَه فارتدّ عنه عليّ[1] . بهذا التذكير يوسّع الشاعر المقارنة بين الفاطميّين وبني أميّة : الحياءُ والجدّ والوقارُ والحلم هنا ، والخبث والمكرُ والخديعة والتوسّل الكاذب ونكرانُ الجميل هناك : [كامل]

53/53 أَلْقَتْ بأيدي الـذلّ مُلقَى عَمرِهـا بـالثـوب إذ فغَـرَتْ لـه صِفّينُ

---

(1) المنقري : وقعة صفّين 463 .

والخديعة صفة مشتركة عند « بني لؤيّ » أي قريش قاطبة : فقد اتّفقُوا جميعاً على نزع الخلافة من الوصيّ واستخفّوا بما قرّره له الرسول ، واستهانوا بشهادة مناسك مكّة ومشاعرها :

64/53 أبني لؤ يّ ، أينَ فضلُ قديمكُم ؟   بـل أينَ حِلمٌ كـالجبـال رصينُ ؟
65 نــازعتُمُ حقَّ الــوصِيِّ ، ودونَــهُ   حَرَمٌ ، وحِجـرٌ مـانـعٌ ، وحَجــون
70 . . .لو تسألـونَ القبرَ يـومَ فرِحتُمُ   لأجـاب إن مـحمّــداً مـحــزونُ

وإذا ذكر كربلاء ، ازدادت لهجته عنفاً فيحرّض الفاطميّين على الأخذ بثأر شهدائهم ، بـل يلوم الفاطميّين على قبـول مبعوثيهم والإجـابة عن رسائلهم : فكيف ينسَونَ عداوتهم للرسول وقتالهم له في بدر ؟ [طويل]

55/37 أألّهَ تتلُو كتبَكـم ، وشيــوخُـهــا   ببدرٍ رميمٌ ، والدمـاء صوائـك ؟[1]

تلك العداوة التي لـم تصدر عن خلافٍ في العقيدة كما يتوهّم الناس بل عن حسدٍ وغيرة : فقد غبطوكم النبوّة وحسدوكم على السلطان الروحي والدنيوي الذي أتاكم به الوحي ، فتآمروا على انتزاع الإمامة منكم :

56/37 همُ لحــظوكُمْ ، والنبــوّة فيكُمُ   كما لحظ الشُّيْبَ النساءُ الفـوارِكُ

وها إنّ الدنيا دالت فعاد إليكم الأمر ، فعليكم الآن بالانتقام من هؤلاء الغاصبين، قتلة الحسين :

58/37 بني هـاشم ! قد أنجـز اللّه وعـدَه   وأطلع فيكم شمسَهُ، وهي دالِكُ
59 ونـادت بشارات الحسين كتـائب   تُمَطّي شِرَاعـاً في قناهـا المعارِكُ

وكان من المتوقّع أن تخفّ حدّة اللهجة مع تحوّل مشاغل المعزّ من

---

(1) أاللّه : أناشدكم اللّه، في معنى الاحتجاج ، وفي نسخة : أبى اللّه . والـدم الصـائـك : اليابس .

المغرب إلى الشرق العبّاسيّ فيحوّل الشاعر سِبابَهُ من الأمويّين الى العبّاسيّين . وفعلاً نلاحظ شيئاً من هذا التبديل في القصائد التي تتعرّض لفتح مصر أو للحرب ضدّ الروم : فالقصائد 22 و 24 و 27 و 40 لَمْ تذكر قطّ بني أميّة . ولكنّ مشاغل اليوم لا تنسيه العداوة الأصيلة الراسخة . وهكذا تعود الحملة على الأمويّين على أشدّها في آخر مدحةٍ للمعزّ ، وهي القصيدة 47 التي بها توّج ابن هانىء خدمتَه للدعوة وختَمَ حياتَهُ . ففيها يَبلغ الاحتجاج العَقَائديّ ذروتَهُ فيجمع الشاعر في لعنة عنيفة موحّدة أصحاب السقيفة وسفّاكي كربلاء ويحرّض المعزّ في حماس لا مثيل له على الانتقام والأخذ بالثأر : [طويل]

127/47 فلا حَمَلَتْ فُرسانَ حربٍ جيادُهَا   إذا لم تَزُرهُم من كُميتٍ وأدهَمِ
128 ولا عَذُبَ الماءُ القَراح لشاربٍ   وفي الأرض مروانيّةٌ غيرُ أيّمِ

فقد دقّت ساعة المُحاسبة وصار للدولة الفاطميّة أيّامُهَا المجيدة ، فليكن لها « يومٌ هاشميّ » تقابل به « يوم يزيد » المشؤوم :

129 ألا إنّ يوماً هاشميّاً أظلّهُم   يُطيرُ فَراش الهام عن كلّ مجثَمِ
130 كيوم يزيد ، والسبايا طريدةٌ   على كلّ مَوّارِ المِلاط عَثَمْثَمِ (1)

ويذكّر المعزّ بمشاهد الطفّ الفظيعة حتى لا تكلّ عزيمتُه في الأخذ بثارات الحسين وبنات الأئمّة :

131 وقد غصّت البيداءُ بالعيسِ ، فوقها   كرائمُ أبناء النبيّ المكرّمِ

فلا تسامُحَ مع من آعتدى على حرمات النبيّ ، ولا رحمةَ لمن لم يرحم نساءَ الحسين وهنّ يصرخن ويتضرّعن حتّى لانت لهنّ قلوب المطايا ، ولكنّ قلوب القتلة الأمويّين لم تلن :

---

(1) فراش الهام : الرؤوس والمجثم أصل الرأس ، والعثمثم : البعير الشديد ومار ملاطاهُ تحرّكا واضطربا من تعبٍ وخوفٍ ونحوه .

132 ذُعِرْنَ بأبناء الضَّبابِ وأعوجٍ ... فأبكينَ أبناءَ الجَديلِ وَشَدْقَمِ[1]
. . . فما في حريمٍ بعدها من تحرّج ... ولا هَتْكُ سِتْرٍ بعدها بمُحرَّمِ

فليقف لهم المعزّ وِقفة الموتور وليستأصل شأفة هؤلاء المجرمين :

135 فإن يتخرّمْ خيرُ سبطي محمّدٍ ... فإنَّ وليَّ الثأرِ لم يتخرَّمِ
137 . . . ألا إنّ وتراً فيهمُ غيرُ ضائعٍ ... وطلّاب وتر منكم غيرُ نوّم

ويُهَوّن الأمر على المعزّ : فما أيسَر القضاءَ عليهم ، لأنّهم تعوّدوا بعادات الترف والانحلال وبعدوا عن شيم البطولة والجدّ :

138 فلم يبق للمقدارِ إلّا تعلّةٌ ... لديك مداها ، فاحسم الداءَ يُحْسَمِ !
140 . . . سيوفٌ كأغماد السيوف ، ودولة ... تثنّى دلالاً كالقضيب المنعّم
141 فتمشون في وشي الدروع سوابغاً ... ويمشون في وشي البرود المُنَمْنَمِ

وتتوسّع ضغينة الشاعر وتصعَد الى التاريخ الأوّل فتشمل في لعنةٍ واحدة سارقي الإمامة يومَ السقيفة ، ولا يستثني منهم أبا بكر التيميّ ، وسفّاكي دماء العترة المنتخبة يومَ الطفّ :

144 وأولى بلوم من أميّةَ كلِّها ... وإن جلَّ أمرٌ من مَلام ولُوّمِ
145 أناسٌ همُ الداءُ الدفينُ الذي سرى ... الى رِمَمٍ بالطفّ مِنْكُمْ وأعظمِ
146 همُ قدحوا تلكَ الزِنَاد التي وَرَتْ ... ولو لم تُشَبَّ النار لم تَتَضرَّمِ
147 وهم رشَّحُوا تَيْماً لإرث نَبِيِّهم ... وما كان تيميٌّ إليه بِمُنَتمِ

ويجعل من هذا الانتزاع الأصليّ السببَ المباشر في مقتل عليّ : فعن ذاك البغي الأوّل انجرّت كافّة المظالم التي تلاحقت على أبناء فاطمة ،

---

(1) شدقم وجديل فحلان مشهوران من إبل المناذرة . والضباب وأعوج من أسماء الخيل العتيقة عند العرب ، ويقال إنّهما فرسان لغنيّ قبيلة طفيل وهو من وصّافي الخيل .

والضغينة العصبيّة الجاهليّة هي التي طاردتهم في بدر وكربلاء ، على السواء :

153 بأسياف ذاك البغي أوّلَ سلِّها أُصيب عليٌّ ، لا بسيف ابن ملجم
154 وبالحقد حقدِ الجاهليّةِ ، إنّه إلى الآنَ لَمْ يَظْعَنْ ولم يتَصَرَّمِ
155 وبالثأرِ في بَدْرٍ أُريقت دماؤُكم وقِيد اليكم كلُّ أجردَ صِلدِمِ[1]

مبرّرات التحامل ضدّ بني أميّة

لنا أن نتساءل عن أسباب هذا العنف إزاء الأمويّين كما تساءل غيرنا من الدارسين . فقد فسّره المستشرق كريمر[2] بأنّه صدى للسياسة الفاطميّة نحو الدولتين المنافسَتين : فالعبّاسيّة في نظره لا تشكّل خطراً كبيراً على الفاطميّين لأنّ خلفاء بني العبّاس سجناء محصورون في قصورهم ببغداد ولم يعد لهم وزن سياسيّ كبير في منتصف القرن الرابع . أمّا الدولة الأندلسيّة فقد حافظت على قوّتها وهيبتها ، حتى بعد وفاة عبد الرحمان الناصر ، بدليل الحملات العسكريّة التي ينظمها خَلَفُهُ الحكم الثاني في الأطراف المغربيّة . فلذلك يدعو الشاعر صاحبَه الى استئصال الجرثومة الأمويّة .

ونحن لا نستبعد هذا التفسير ، ولكن نجعله في مرتبة ثانية من اهتمام المعزّ ، ونقول : إنّ القضاء النهائيّ على بني أميّة كان ولا يزال في نيّة الخليفة الفاطميّ ، بالرغم من انتقال الدولة الى مصر ، وتحوّل المشاغل شطر المشرق . ولكن ، فيما يخصّ شاعرنا ، نحتفظ برأينا في أنّ المبرّر الأساسيّ لهذه الشدّة وهذا الحقد القويّ هو تراكم الضغائن التي خلّفتها فعائل الأمويّين ضدّ آل البيت في قلب كلّ شيعيّ ، وبالتالي في قلب شاعرنا ، وقد انضافت اليها عنده أحقادٌ خصوصيّة تولّدت عن مضايقتهم له بإشبيلية أو غيرها من مدن

---

(1) الصِلدِم من الخيل الشديد القوائم .

(2) Von Kremer: Ibn Hàni', Z DMG 24

الأندلس في زمن الشباب .

ولنذكرّ بما ذهب اليه بعض الدارسين المعاصرين ، ومنهم زاهد عليّ ناشر الديوان ، حين عزوا مصرَعَ الشاعر ببرقة الى أيدٍ أمويّة ، لأنّ حكّام قرطبة في نظرهم ضاقُوا ذرعاً بحملات الشاعر العنيفة فدبّروا له هذه الجريمة السياسيّة . وقد دفعنا هذا الرأي أثناء حديثنا عن ظروف موته[1] .

التهجّم على العبّاسيّين

لا تقلّ حدّة ابن هانىء ازاء العبّاسيّين عنها إزاء بني أميّة . وحجّة الشاعر ضدّهم ـ وهي بدون شكّ حجّة الدعوة الفاطميّة الرسميّة ـ تتمثّل في كونهم خانُوا التضامن العائليّ الذي كان ينبغي أن يجمعهم مع العلويّين في الأسرة الهاشميّة . فقد خانوهم باغتصابهم الخلافة بدورهم ، وكانوا توصّلوا إلى افتكاكها من بني أميّة بمساعدة العلويّين . وإزاء هٰذه الخدعة لا يسع الفاطميّين الاّ أن يرفضُوا القرابة التي تربطهم بأبناء عمّهم العبّاس . وهٰذا ما يحتجّ به الشاعر عليهم ، ولكنّه لا يستطيع أن يجرّد بني العبّاس من هاشميّتهم ، وهٰذا الاشتراك في هاشم يقلقه ، فيلتمس حلاًّ للتخلّص من هٰذه الآصرة المَقيتة : وهو أن يجعلهم في أسفل درك من النسب الهاشمي بالمقارنة مع أبناء فاطمة وهم في أعلى درجاته : [متقارب]

وإن كـان يجمعكم غـالبٌ فإن الوشائظ غيرُ الـذرى[2] 65/58

ويشعر ابن هانىء بضعف حجّته ، حين جعلهم من الملحقين أو المقحِمين أنفسهم في النسب الذي منه انحدر الرسول وأحفادُه ، فلذلك

---

(1) قال بهذا الرأي أحمد أمين : ظهر الإسلام 135/3 . وذكره أبو القاسم محمد كرّو في دراسته عن « ابن هانىء المغربيّ » ، (تونس 1967) ولم يأخذ به .

(2) الوشيظ في القوم ، وهو وشيظة فيهم : الملحقُ بهم الدخيل عليهم .

تخطّى هاشماً وعبدَ مناف وقصيّاً فصعِدَ الى غالب ؛ ولو أسعفَه واقع النسب ، لصعد بهم إلى فهر واكتفى بنسبتهم الى الطينة « التي تسنخ » من قريش كما فعل ببني عبد شمس .

العباسيّون أبناء الطليق

لذلك لا يتمادى في هٰذا الاحتجاج ويتحوّل الى حجّة أخرى هي في نظره أخزى للعبّاسيّين : وهي وصمَةُ الأسر التي علقت بجدّهم العبّاس بن عبد المطلب في وقعة بدر. فقد شارك في محاربة الرسول في صفوف المشركين ووقع في الأسر وبقي يئنّ في قيوده حتى رقّ له النبي فأمر باطلاق سراحه . ومن ذلك اليوم سمّي « الطليق » كما سمّي الحكم « الطريد » وصار العبّاسيّون أبناء الطليق كما سمّي المروانيون أبناء اللعين أو الطريد ؛ بل يختصر الشاعر المراحل : فكما أن المعزّ عنده هو ابن الرسول فإن العبّاسيّ المنتصب ببغداد والأمويّ المتسلّط على قرطبة هما الطليق والطريد ، يغطّان في نومهما ولا يهمّهما من أمر الإسلام شيء ، في حين أنّ المعزّ يبيت ساهراً يفكّر في الدفاع عن بيضة الدين وقد ثلمَ الرومُ ثغورَهَا الشاميّة : [طويل]

61/13 غضِبتَ لَهُ أن تُلَّ بالشام عرشُه ... وعادك من ذكر العواصِمِ عيدُ[1]

62 فبتَّ له دونَ الأنام مُسَهَّداً ... ونام طليقٌ خائنٌ وطريدُ

هٰذه النسبة التي ينعت بها الفاطميّون أبناء عمّهم ، هٰذه الوصمة التي تشهد عليهم بالعداء الأوّل للدين الحنيف ، هي كافية في نظر الشاعر لدفع أيّ حقّ في إمرة المسلمين عن الأسرة العبّاسيّة ، ويدعمُها بأن يجعلَ تلقيب العبّاس بالطليق من عمل الرسول نفسِه ، فبهٰذه الكناية أبعَدَ سلالة العبّاس عن بيتِه وفصلَهُم عن العترة المنتخبة : [متقارب]

---

(1) الضمير في « له » و« عرشه » يعود على دين محمد في بيت سابق . والعواصم هي منطقة أنطاكية وقد احتلّها الروم . والعِيدُ هنا ما يعاود الإنسان وينتابُهُ من هموم وأحزان .

63/58 بمكّة سمّى الطليقَ الطليقَ ففـرّق بيـن القَصَـى والـدَّنَـى

64 شهيدي على ذاك حكم النَّبِـ ـيِّ بين المقـام وبـين الصفـا

وهٰذا البيت الثاني لا يخلو من غموض : فما هو الحُكم الذي أصدَرَه الرسول بمكة بين مقام ابراهيم وهضبة الصفا ؟ هل كانت قولةٌ فيها تفضيل لعليّ أو وصيّة له كوصيّة الغدير التي يستظهر بها الشيعة الى اليوم ، ويرون فيها إقراراً لذريّة فاطمة باستحقاقهم دون غيرهم خلافةَ الرسول على الأمّة الإسلاميّة ، وتعلّقوا بها وعظّموها حتى جعَلُوا من يوم ذكراها ـ18 ذي الحجّة من كل سنة ـ عيداً كبيراً « يُحيون ليلة الذكرى بالصلاة ويصلّون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال ، وشعارهم فيها لبس الجديد وعتق الرقاب وبرّ الأجانب والذبائح[1] » .

ويدعم الشاعر وصيّة الغدير بما يزعمُـه من شهادة القرآن للعترة المنتخبة ، وهيهات أن يحرز العبّاس مثلَ هٰذا التفضيل! [طويل]

17/22 أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم تنـزّلت الآيـاتُ والسـوَر الغـرُّ ؟

وهي مقارنة معتادة عند شعراء الشيعة من فاطميين وغيرهم . فهذا الخليفة العزيز يستظهر ببنوّتهم للرسول ويحتجُّ على بني العبّاس باغتصابهم إرثَ النبيّ الراجع الى أبناء فاطمة وبعجزهم ـ وهم الأسارى عند قوّادهم من الأكراد أو الديلم ـ عن القيام بواجب الجهاد : [طويل] .

أنـا ابن رسول الله غيـرَ مـدافَـع تنقّلت في الأنـوار من قبـل آدم

ليَ الشرف العالي الذي خضعَت له رقـاب بني حوّاء من كـل عـالَم

بنـا فتحت أبـواب كـل هـدايـةٍ ومنـا بحمـدِ الله خيـر الخـواتم

---

(1) في موضوع الغدير ، انظر : النويري : نهاية الأرب 177/1 ، والفقرة منه ، نقلاً عن كتاب «الغدير في القرآن والسنّة والأدب» للأميني ، وهي موسوعة في كل ما قيل في حديث الغدير ، أو حديث الإخاء أو المؤاخاة .

فقل لبني العبّاس معْ ضُعف ملكهم　　بأنّهُمُ أسرى بأيدي الأعاجم
غصَبتم بني مروان ما غصَبوه من　　مواريثنا، سحقاً لظالم ظالِمِ ![1]

وهٰذا أخوه تميم يجري المقارنة مباشرةً بين علي والعبّاس ، بين بطل الإسلام في بدر وبين حليف المشركين ، بين العالم بتأويل القرآن والصادّ عن تعاليمه ، ويختم بتفضيل أبناء البنت على أبناء العمومة ، [متقارب]

أعبّاسُها كأبي حربها　　عليٌّ ، وقاتلِ نُصَّابها ؟
أعبّاسُكُم كان في بدره　　يذود الكتائب عن غابها ؟
أعبّاسكم شرَحَ المشكلات　　وفتّح مقفلَ أبوابها ؟
ومن لكمُ يا بني عمّه　　بمثل البتول وأنجابها؟[2]

ولا تقتصر هٰذه الحجة على الشعراء الشيعيّين ، بل نجدها عند شعراء غير معدودين في زمرة الشيعة الرسميّة ، وإنّما عرفُوا بعطفهم على العلويّين عامّة ، ولا سيّما في هذا القرن الرابع الذي انتشر فيه التشيّع فطبع العصر كله بطابعه . فهٰذا أبو فراس الحمداني (ت 968/357) أمير منبج من قِبل سيف الدولة يُجري هو أيضاً المقارنة ويحتجُّ لهم بالانتساب المباشر الى النبي : [بسيط]

لا يُطغينَّ بني العبّاس ملكهمُ　　بنو عليّ مواليهم ، وإن زعمُوا
أتفخرون عليهم ، لا أبا لكمُ　　حتى كأنَّ رسولَ الله جدّكُمُ ؟
. . . قام النبيّ بها يومَ الغدير لهم　　والله يشهد والأملاك والأممُ
. . . ثمَّ ادّعاها بنو العبّاس إرثَهُمُ　　وما لهم قَدَمٌ فيها ولا قِدَم[3]

العباسيّون عبيد بالوراثة

وتكتسِي المفاضلة عند شاعرنا وجهةً أخرى : لمّا كانت أعظم حجّة على

---

(1) محمد كامل حسين : في أدب . . . 163 .
(2) ديوانه 80 . وانظر كذلك ص 20 من الديوان مقارنة طويلة بين الأسرتين .
(3) ديوانه 256 .

العبّاسيّين هي انتسابهم المباشر الى الرسول عن طريق فاطمة ، فاطمة الزهراء ، فاطمة البتول ، وهي النسبة التي أكسبت الأئمة هالة القداسة علاوة على إرث النبيّ ، فإنّ الشاعر ينتقص في المقابل أمّ العبّاس « نتيلة » ويقول : شتان بين نتلة هذه وفاطمة بنت محمد ! وزيادة في التحقير ، يزعم أن نتلة هٰذه كانت أمةً من رقيق قريش ، وهٰذا الرق المزعوم[1] يحملُه على إجراء قياس بين عبوديّتِها وبين أسر العبّاس في بدر ، فيستنتج منه أن نتيلة أورثت العباس ، لا حقّ الخلافة كما فعلت فاطمة لأبنائها ، بل عادة الرق والعبوديّة : [طويل]

18/22 بني نـتلةٍ ، مــا أورث الـله نتـلةً وما نَسَلَتْ ، هل يستوي العبد والحرّ ؟
19 وأنّى بهٰـذا ، وهي أَعْدَتْ بِـرقِّها أباكُمْ ، فإيّاكم ودعوى هي الكفر !

ومعلوم أن العبوديّة تقوم حائلاً دون الوصول الى الإمامة : فالإمام ينبغي أن يكون حرًّا ، والعبّاسيّون ، بحكم هٰذا الرقّ الموروث ، ليسوا أهلاً لخلافة المسلمين . وهكذا تتظافر هٰذه الحجج التاريخيّة : العبوديّة المفترضة ، ثـمّ عداوة العبّاس للإسلام في بدر وقبل بدر وأسرُه وإطلاقُه ، والتفاوت بين النسب المباشر عن طريق البنت والنسب البعيد عن طريق العمومة ، تتضافر لصرف العبّاسيّين عن الخلافة .

انخذالهم أمام الروم

ولكنّ الشاعر لا يقف عند هٰذا الحدّ التاريخيّ القديم ، بل يتجاوزه إلى الموقف الراهن فيقابِلُ بين تخاذل العبّاسيّين ازاء العدوّ البيزنطي وجهاد الفاطميّين برًّا وبحراً لحماية الدين . وانّما قصّروا في واجب الجهاد لأنّهم ألفُوا عادات اللهو والمجون والترف ، بينما يشتغل أبناء فاطمة بإعداد السلاح لمواجهة العدوّ : [كامل]

---

(1) لا ذكر له في ترجمة أسد الغابة 164/3 ، بل تضيف في شأنها: هي أوّل عربيّة كست البيت الحريرَ والديباج .

97/40 تُلهيك صلصلة العوالي كلّما | ألهت أولائك قَينة وشَمول
98 وَبِذَاكَ حَسْبُكَ: أن تجرِّر لأمةً | وبحسبِ قومٍ أن تُجرَّ ذيولُ

وإنّ الهزائم التي لحقت جيش الإسلام بالشام لا تُعزى الى قوّة العدوّ الروميّ بقدر ما تُعزى الى عجز العبّاسيّين عن المقاومة ، والى اضطراب دولتهم وتحكّم مواليهم في ملكهم . ففي حين يَطَأُ الروم أرضَ الإسلام ، يقضي العبّاسيّون أوقاتهم على جنوب الراحة ، بين الكؤوس والقيان : [طويل]

46/3 ومن عجبٍ أن تشجر الرومُ بالقنا | فتوطأ أغمارٌ وهضبٌ شناخيبُ
47 ونومُ بني العبّاس فوقَ جنوبهم | ولا نصر الا قينةٌ وأكاويبُ[1]

وهذا التقصير أوهم الامبراطور أن جميع ملوك المسلمين هم على شاكلة أصحاب بغداد ، فطمع في الوصول إلى الأراضي المقدّسة دون تعبٍ . لكن هيهات ! ليس الأئمة الصادقون مثل الأشباح المترنّحة ببغداد ، وما المعزّ بالخليفة المغلوب ولا بالملك الأسير بين الأتراك والديالمة ، ولا ملكُه بلقمةٍ سائغة للدماسقة : [طويل]

32/3 ولكن ، لعلّ الجاثليقَ يَغُرُّه | على حَلَبٍ نَهْبٌ هُنالك مَنْهُوبُ
33 وثَغرٌ بأطرافِ الشآم مُضيَّعٌ | وتفريقُ أهواءٍ مراضٍ وتخريبُ

فلا غرو أن يستنجد الدين بابن النبوّة ، وأن يستنصر العربُ الأحرارُ سلاح المعزّ ، بعد أن أذلّهم الموالي والحجّابُ . فيقول سلاح الإمام : لبّيك ! لبّيك ! وقد ملَّ الراحة في الأغماد : [طويل]

117/47 وقد سَئِمَتْ بيضُ الظُّبَى مِن جُفُونِهَا | وكانت متى تألَفْ سِوى الهَام تَسْأمِ
118 وقد غضِبَتْ للدينِ باسِطَ كفِّهِ | إليهِنَّ في الآفاق كالمتظلِّمِ

---

(1) الشناخيب : الجبال الوعرة والأغمار حُفر الماء .

119 وللعرب العرباء ذلّت خدودُها وللفترة العمياءِ في الزمن العمِي
120 وللعزّ في مصرٍ يُردّ سريرُهُ الى ناعبٍ بالبَيْنِ يَنعَقُ أسحَمِ[1]

وتأهّب للانتقام لكلّ مهضوم الجانب من هؤلاء المنتصبين المتسلّطين العاجزين الذين شوّهوا وجه الإسلام : عزيز مصر صارَ غراباً أسود ، والدولة العبّاسية يدّعي حمايتَها ساعِدٌ مقطوع الكفّ والذراع فلا يعضد شيئاً ، وألقابهم هٰذه انّما هي ادّعاءات وأباطيل. أما العبّاسيّ ، فهو كما قال الآخر «لحم علىٰ وضَم » وكذلك أمراؤه وولاتُه: دوابُّ سائمة يسوقها حجّاب القصر:

121/47 وللمُلك في بغداد أن ردّ حكمُه الى عضُدٍ في غير كفّ ومعصم
122 الى شِلو ميتٍ في ثياب خليفةٍ وبضع لِحام في إهابٍ مُوَرَّم
124 . . . سوامٍ رِتَاعٌ بين جهْلٍ وحَيرةٍ ومُلكٌ مضاعٌ بين تُرك وديلمِ

المعزّ ناصر الدين

ويبالغ الشاعر في التشنيع بعجزهم وخذلانهم للدين، ويفرط في وصف قصورهم عن المقاومة وقعودهم عن الجهاد . ويقصد بهٰذا الغلوّ أن يبرز في المقابل عزيمة المعزّ وصدقَ نضاله ، ويظهر للعيان انتصاراته الباهرة على أعداء الدين ، ومن جهة أخرى ليجعل تحرّك المعزّ نحو الشرق ، أي فتح مصر وما سيتبع من فتوحات ، استجابةً لِلْمسلمين المهدّدين بالغزو البيزنطيّ ، لا في الشام وفلسطين والعراق فقط ، بل في مصر أيضاً رغم بعدها النسبيّ عن الروم : [طويل]

68/27 وقد أشعرت أرضُ العراقَيْنِ خيفةً تكادُ لها دارُ السلام تضعضع
69 وأعطتْ فِلسطينُ القيادَ ، وأهلُها فلم يبقَ منها جانبٌ يَتمنّعُ
70 وما الرملةُ المقصورةُ الحَظْو وحدَها بأوّل أرض ما لها عنك مفزَعُ

---

(1) : الغراب الناعق هو كافور .

71 وما ابن عبيد الله يدعوك وحـدهُ غداة رأى أن ليس في القوس منزَعُ[1]

وها مصر قد تحرّرت من رعاتها العاجزين ، وصار أهل العراق والشام يتمنَّون خلاصاً مماثلاً يأمنون به غائلة العدوّ في الدين ، ويطمئنّون على قبر الرسول ومناسك الإسلام وقد أصبحت مهدّدة بالزحف البيزنطي . ويهوّل الشاعر المشهد عن قصدٍ ويجعلُ الافتراض حقيقةً واقعةً وأمراً مقضيّاً :
[كامل]

32/30 أيسـرُّ قومـاً أنّ مكّـة غـودرَتْ بمجرّ جيش الروم قاعـاً صفصفا ؟
أو أنّ ملحـودَ النبيّ ورمسَـهُ بمدارِج الأقدام يُنسَفُ مَنْسَفَا ؟

ويعدّد الهزائم التي نتجت عن إخلال العبّاسيّين بواجب الجهاد لأنّهم صاروا عبيداً لمواليهم وخدماً لحجّابهم ورضُوا بالهوان وأبوا أن يوكلُوا الجهادَ الى أهله ، أي الى آل البيت :

20/30 مـا لي رأيتُ الـدينَ قـلّ نصيـرُهُ بـالمشرقَين ، وذلّ حتّى خُـوّفـا ؟
21 هم صيّروا خدماً تسوس أمـورهُم يـا لَلزمـان السَّـوء كيف تصـرَّفـا!
23 . . . عُبـدانُ عبدانٍ ، وتُبَّـعُ تبّع فالفاضلُ المفضول ، والوجهُ القَفَا
26 . . . هلاّ استعانَ بأهل بيتِ محمدٍ من لَم يجدْ للذلّ عنكمُ مصرَفا ؟
27 يا ويلكم ! أفما لكم من صـارخ الاّ بثغـرٍ ضـاعَ أو دينٍ عفَـا !
28 فمـدينـةٌ من بعـد أخـرى تُسْتَبَى وطـريقـةٌ من بعـد أخـرى تعتَفي
29 حتى لقـد رجفَتْ ديـار ربيعـةٍ وتـزلـزلت أرضُ العـراق تخـوّفـا
30 والشـام قـد أودى ، وأودى أهلُه الا قليـلاً ، والحجـازُ على شفـا

ولكن مهلاً ! إنَّ الخلاص قريب : فجيوش المعزّ تحرّكت نحو أرض الأجداد :

---

(1) ابن عبيد اللّه هو النقيب العلويّ الذي كُلّف بالتفاوض مع جوهر عند فتح مصر . ومنزع القوس : إمكانية الرمي والحظو هو الحظ .

35/30 هٰـذا المعزّ ابن النبيّ المصـطفى سيذُبّ عن حَرَم النبيّ المصطفى
41 . . . فكأنّنِي بالجيش قد ضاقت به أرض الحجـاز وبـالمـواسم زلّفـا

ويتصوّر الشاعر زيـارة المعزّ لقبر أبيه وصعوده منبره وارتداءه البردة وتقلّده السيف ذا الفقار :

44/30 وازدرتَ قبرَ أبيك قبرَ محمّد بملائك الله العلى مُتكنَّفـا
45 ورقِيتَ مزقاه وقمتَ مَقـامَهُ في بردة تذري الدموعَ الذرَّفَا
46 متقلّداً سـيفين : سيفَ الله من نصرٍ، وسيفَكَ ذا الفقار المرهفَا

*

أطلنا كما أطال الشاعر ، في الاستشهاد لهٰذا الجانب من الاحتجاج على العبّاسيّين . ذلك أنّ حجة الانتساب المباشر الى الرسول تصبح حجّة ثانويّة أمام هٰذه الحجّة الدامغة : قصورهم عن القيام بواجبات الخلافة ، وأوّلها الدفاع عن الإسلام ودفع خطرِ الروم المباشر ، والحال أنّهم أقرب الى أرض العدوّ من المعزّ ، فكان عليهم أن يبادروا الى اقتحام بلادهم قبـل أن يداهموهم . ولكنّ انخذالهم جرّنا الى هٰذه النتيجة الغريبة : وهي أنّ المعزّ ، على بعده عن الروم ، يهبّ مسرعاً للقيام بالواجب، أما بنو العبّاس ، فهم ، رغم متاخمتهم لهم ، يتحاشَون الاحتكاك بهم : [طويل]

66/13 همُ بعُدُوا عَنْهُمْ ، على قربِ دارهِمْ وجحفلُك الـداني ، وأنتَ بعيدُ

بنو العبّاس مجوس

هناك تهمة أخيرة يوجّهها ابن هانىء الى العبّاسيّين : وهي سيطرة العنصر الفارسيّ عليهم في شؤون الدولة . وقد لا نعير اهتماماً لهٰذا الاتهام الذي لا يضير المعنيّين بهِ لولا أنّ الشاعر يساوي، في قياس متسرِّع ، بين الانتساب الى الجنس الفارسيّ واعتناق المجوسية . وهكذا يجمع عَسْفاً وظلماً

بين الترف الذي ينسبُه الخيال الشعبيّ الى هارون الرشيد، وعبادةِ النار التي علقت بالأعاجم طيلة الخصومة بين العرب والموالي : [طويل]

40/37 لكُم دولةُ الصدقِ التي لم يقُم بها نُتَيْلَةُ ، والأيـامُ هـوجٌ ركـائـكُ
41 إمـاميّـةٌ لم يُخـزِ هـارونُ سعيَهـا ولا أشـركت باللّٰه فيها البـرامك

وكان يمكنه ، والحقّ يقال ، أن يجد في أخبار الأمين مع أبي نواس ، وفي النزاع بين الأمين والمأمون ، وسيطرة الغلمان الأتراك على الخلفاء ابتداء من المتوكّل ، مندوحةً عن هٰذه الأباطيل في خصوص خليفة عظيم كالرشيد ووزراء مقتدرين ألمعيّين مثل البرامكة .

وكان يمكنه أن يسلك مسلك أبي فراس الحمدانيّ مثلاً ، حين تهكّم بهٰذه الأسرة المالكة التي أنجبت ، فيمن أنجبت ، أميرةً مغنّيّةً وأميراً يحترف الطربَ [بسيط]

منكمْ عُليَّةُ أم منهُمْ ، وكان لَهُمْ شيـخُ المغنِّينَ ابـراهيمُ أم لكُمُ ؟
تبــدو التـلاوةُ من أبيــاتهم أبـداً وفي بيــوتكمُ الأوتـارُ والـنغَـمُ[1]

التحـامل على الروم

يخـصّ الشاعر الأباطرة البيزنطيّين بجانب وافرٍ من حملتِهِ الكلاميّة . ولكنّ الاحتجاج هنا مختلف . فلا ذكر للشرعيّة الخلافيّة مع هؤلاء الخصوم في الدين ، ولا للنسب الفاطميّ أو القرابة من الرسول . وإنّما الموضوع الذي يطرقه باستمرار هو الجهاد ، أي الحرب بين عقيدتَيْن : الدين الطاهر والشرع الواضح من جهة ، ونحلة الشرك من جهة أخرى .

ولئن اتّصف الصراع بين الإسلام والروم النصـارىٰ عنده بهٰذه الهالة من

(1) ديوانه 259 .

القداسة ، وهي صدى لما يروج في الأوساط الفاطميّة ، فإن الطرف البيزنطيّ لم يُهمِل بدوره هذا السلاح الدعائيّ ، بل كان يعمل على إقناع الشعوب النصرانيّة بأنّ الحملات العسكريّة التي يقودها الأباطرة ضدّ ثغور الشام والجزيرة إنّما هي نضالٌ في سبيل المسيحيّة وتمهيد لاسترجاع الأماكن المقدّسة بفلسطين من أيدي المحتلّين العرب . وكذلك تحرّكات الأسطول البيزنطي في الحوض الأوسط أو الغربيّ من البحر الأبيض المتوسّط : فالغاية منها إبقاءُ سكّان إيطاليا وصقليّة واقريطش على مسيحيّتهم وطردُ « الكفّار » الأفارقة إلى بلادهم . ولا شكّ أنّ العالم النصرانيّ الأوروبّي قد فهِمَ أنّ هٰذه الحروب المتواصلة برًّا وبحراً بين الدولتين ، الإسلاميّة ، سواء كانت عباسيّة أو فاطميّة ، والنصرانيّة ، هي في الواقع تمهيد للحملات الصليبيّة التي تنطلق نحو المشرق ابتداء من القرن الخامس/ الحادي عشر . وقد أكّد المؤرّخ ج . شلمبرجي في رسالته عن نقفور فقاس ، على هٰذه الصفة الجهاديّة التي اكتساها الصراع لدَىٰ الطرفين فقال : « كان الصراع بين الجنسين [العربيّ والإغريقي] وبين العقيدتين [الإسلام والنصرانيّة] متواصلاً ، لا على سفوح جبال الأناضول ، أو ضفاف الفرات فقط ، بل في إيطاليا الجنوبيّة وجزيرة صقلّية أيضاً ، علاوة على سَواحل جزيرة اقريطش[1] » . وكان يصحب الجيش الروميّ قساوسة يثبّتون عزيمة المقاتلين بخطبهم الحماسيّة ويتوسّلون بصلواتهم إلى الربّ حتى ينصر الجيش الروميّ[2] .

الـروم في لغـة الشـاعر

يؤكّد شاعرنا ، كلّما ذكر الروم ، على انتسابهم إلى العقيدة المنافسة . فالإمبراطور ـ وهو الذي تسمّيه النصوص الرسميّة« طاغية الروم »[3] ـ هو عنده

---

(1) شلمبرجي G. Schlumberger: Un empereur...435 .

(2) الكتاب المذكور ص 446 .

(3) هكذا يدعوه القاضي النعمان بالخصوص في كـ . المجالس والمسايرات .

« الجاثليق » ، وهو لقب يدلّ في الواقع ، لا على الانتساب الى النصرانيّة مطلقاً ، بل على رتبةٍ كَنَسيّة عند النصارى المشرقيّين : فالجاثليق هو رئيس الكنيسة النسطوريّة ببغداد كما أثبتَه ماريوس كانار[1] . ولكنّه عند الشاعر لقب صاحب القسطنطينيّة . فالأسطول الفاطميّ يُعِدّ نيرانَه المحرقة لسُفن الجاثليق وسفن المروانيّين على السواء : [طويل]

45/13 تشُبّ لآل الجـاثليق سعيـرَهـا   وما هي من آل الطريـد بعيد

وليس هذا التلقيب وهماً من الشاعر أو خلطاً . فهو يستخدم اللفظ في معناه العامّ ، أي الانتساب الى النصرانيّة ، بدليل إطلاقه على صاحبِ حانةٍ طرقوه ليلاً على غرار ما كان يصنعه أبو نواس : [رجز]

1/34 وشـامـخ العـرنـين جـاثـليقِ   مـروَّعٍ بـمـثـلـنـا مـطروقِ

ويجنح في أكثر الأحيان الى اسم الجنس : الروم ، أي الإغريق أصحاب بيزنطة ، أو إلى لقب قائد الجيش « الدمستق » فيجمع تحت هٰذه الرتبة الرسميّة كافّة الجيوش الروميّة : [كامل]

56/44 لن يستفيقَ الـرومُ من سكـراتهم   انّ الـذي شربُـوا رحيقٌ سلسـل
63 . . حَسْبُ الدمستقِ منك ضربُ أَهْرتٌ   هَـدِلٌ مشَـافـرُهُ وطعنُ أنْجَـلُ[2]

ويطلق عليهم أحياناً ألقاباً أخرى ، إمّا محايدة كالبطاريق أو استهجانيّة مثل « الأعاجم » أو « المشركين » :

79/44 لم يبقَ فيهـا لـلأعـاجم ملجـأٌ   يُلْجَـا إليه ولا جَنـاب يُؤْهَـلُ
82 . . . ورجا البطارقُ أن تكون لثغرهم   بـاباً، فغـودر، وهـو عنهمُ مُقفَـلُ
85 . . . ضمِنَ الدمستق منك منع حريمها   هـلّا امتنـاعَ حـريمـه لـو يعقـل؟
86 وأراد نصـرَ المشـركين بجحفـلٍ   لجبٍ، فأوّلُ ما أصيب الجحفَـلُ

---

(1) م . كانار : توسّع الفاطميّين . . . تنبيه 145 ص 186 . . . L'impérialisme .
(2) أهرتُ : واسع الشدقين ، وهدل المشافر : مسترخيها . شبّه الضرب ببعيرٍ قويّ نهِم أكولٍ .

وقد يلجأ إلى الكناية فيقول « أرض قسطنطين » عوض القسطنطينيّة كنايةً عن أرض الشرك : [بسيط]

45/12 لم يبق في أرض قسطنطين مشركةٌ إلّا وقد خصَّها ثُكلٌ بمفقودِ

أو يشير إلى لون بشَرتهم فيطلق عليهم لقب « بني الأصفر » المتداول عند العرب في شأنهم[1] : [طويل]

91/13 وأخذُك قسراً من بني الأصفر الذي تذبذب كسرى عنه وهو عنيد

وربّما صعِد بهم إلى جدّهم الأعلى « هرقل » ، زمن البعثة المحمّدية :

75 فإن هزّ أسيافَ الهرقل فإنّها إذا شئتَ أغلالٌ له وقيودُ

أو إلى لقب « القيصر » المشترك بين روما الشرقيّة وروما الغربيّة :

65 وما سرّهم ما ساء أبناء قيصر وتلك تِراتٌ لم تزل وحقود

الروم أعداء في الدين

ولكن ، مهما تنوّعت عنده ألقابهم ، فهم أعداءٌ في العقيدة وجهادهم فرضٌ . وهم أيضاً يضمرون لعقيدتنا العداوة ، بل يظهرونَها اليوم وقد اتخذوا الصليب شعاراً لهم إذا ما تحرّكوا لقتالنا . ولكنّ اللّه ينصر أولياءَهُ على هٰذه الفئة المشركة : [بسيط]

49/12 ألقى الدمستقُ بالصلبان حين رأى ما أنزَلَ اللّهُ من نصر وتأييد

وينقلب الشاعر إلى مبشّر فيدعوهم إلى نبذ عقيدتهم التي تحملهم على

(1) يقول عديّ بن زيد ، ولكن في مدحهم والتحسّر عليهم [خفيف] :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الـ ـروم لم يبقَ منهُمُ مذكور

ويقول أبو تمام في خاتمة قصيدة عمّورية :

أبقَتْ بني الأصفرِ المِمرَاضِ كاسِمِهِمُ صُفرَ الوجوهِ ، وجلّت أوجُهَ العَرَبِ

عبادة بشر يدعونه إلَهاً وتزيّن لهم الرهبانيَّة : [كامل]

59/44 فليعبدوا غيرَ المسيح فليس في   دين الترهّب عن سيوفك مزحَلُ

وقد يظنّ أن هٰذه الدعوة إنّما هي تهكّم من الشاعر وتندّر ، ولكنْ لا نستبعد أن تكون صدىً لمسعىً مماثل من الدعاية الرسميّة . ذلك أنّ المصادر الإسماعيليّة تنسب إلى المعزّ نفسه « رسالة مسيحيّة » قيل إنّها موجّهة إلى الإمبراطور تدعوه إلى الإسلام[1] . وهي في الواقع نصّ باطنيّ في أنّ الإمام يمكن أن يكونَ صورة الإلٓه مجسّمةً في شخصه البشريّ ، مثلما يعتقد النصارى أنّ المسيح هو الإلٓه في هيئة بشريّة . ولعلّ هٰذا التمثيل للإمام بالمسيح هو الذي حملهم على نعتها بالرسالة المسيحيّة . وهي ، على كلّ حال ، لمؤلفّ غير المعزّ[2] بالرغم من أنّ لهٰذا الخليفة دوراً هامًّا في توجيه الدعاية الفاطميّة وربّما في تحرير النصوص المذهبيّة ، كما يشهد بذلك القاضي النعمان[3] . وقد زعم باحث إسماعيليّ معاصر[4] أنّ كتاب دعائم الإسلام الذي يجمع حصيلة الفقه الفاطميّ ، إنّما هو من تأليف المعزّ نفسه ، لا القاضي النعمان كما يظنّ الناس . وقد نقل الينا القاضي النعمان فصولاً من رسائل المعر إلى طاغية الروم وجانباً من احتجاجه العقائديّ يشبه الى حدّ بعيد الدعوة التبشيريّة .

هذه الدعوة تكتسي أحياناً عند الشاعر صبغة الإعلان المنتصر والنخوة المتغلّبة : [كامل]

69/40 فلتعلمِ الأعلاجُ عِلماً ثاقباً   أنَّ الصليبَ ـ وقد عَززتَ ـ ذليلُ

---

(1) M.Canard:Sources... 289 . وكذلك Massignon: Essai...19 .

(2) انظر فهرس المكتبة الوطنية بباريس ، صنع De Slane تحت رقم 131 .

(3) المجالس والمسايرات 366 -369 .

(4) هو محمد حسن الاعظمي ناشر تتمّة الدعائم بعنوان «**تأويل الدعائم**» القاهرة 1969 ص 13 من المقدمة .

ولكنّ الشاعر قد يعترف ضمنيًّا بأنّ الغلبة ليست دائماً من جانب المسلمين : فقد يُغلبون فيسرعون إلى المعزّ حتى يأخذ بثأرهم : [طويل]

95/13 إليك يَفرُّ المسلمون بأسرهم وقد وُتِروا وتراً، وأنت مُقيد

وقد يضع الحرب ، حسب ملاحظة شلومبرجي ، على صعيد الصراع بين جنسين : العرب ، والأعاجم ، وكلمة العجم تُتَّخذ هنا في معنى أصحاب العجمة ، أي الذين لا ينطقون العربيّة : [كامل]

58/40 نحرَت بها العربُ الأعاجِمَ إنّهَا رمح أمقّ، ولهذم مصقول[1]

الإشادة بانتصارات المعزّ عليهم

في هٰذا الصراع العقائديّ ، يهتمّ الشاعر خاصّة بالجانب العسكريّ فيشيد بانتصارات الأسطول الفاطميّ ، وهي انتصارات حقيقيّة لا يحتاج خيال الشاعر إلى تعظيمها كما كان يفعل بالتحرّكات المحدودة في المغربَين الأوسط والأقصى .

وقد حلّلنا بعض هٰذه القصائد التي تعرّضت للوقائع البحريّة وافتخر فيها الشاعر بقوّة السفن المعزّيّة . فبجهادها ملك العرب عنان البحر وافتكّوا سيادة الأمواج من الروم بعد ألفَيْ عام من سيطرتهم المطلقة كما يقول : [بسيط]

60/12 قد كانت الروم محذوراً كتائبُها تُدني البلادَ على شَحط وتَبعيدِ
63 . . . وشاغبوا اليمَّ ألفَي حِجَّةٍ كَمَلاً وهم فوارس قاريَّاتِه السودِ
64 فاليوم قد طُمِست فيه مسالكُهم من كل لاحبٍ نهج الفلك مقصود[2]

وسيشيد خاصّة بوقعة المجاز التي تبعَت مقتل القائد منويل فقاس ويصِف الغنائم بإطنابٍ في تهكّم لاذع بالإمبراطور الذي أرسل عمّه منويل إلى

(1) أمقّ : طويل. لهذم : سيف قاطع .
(2) اللاحبُ : طريق لَحْب ولاحبة : واضحة . والقاريّات السّفن المطليّة بالقار ، أي القطران .

الهلاك ، وأهدى هٰذه الأسلاب النفيسة الى المعزّ ، ويتندّر بهٰذا الكرم غير المنتظر : [كامل]

31/40 وبعثتَ بالأسطول يحمل عُدّةً	فأثابنا بالعُدَّة الأسطول
33 . . . أدّى إلينا ما جَمَعْتَ مُوفَّراً	ثمَّ انثنى في اليمّ وهو جفول
34 ومضى يخِفُّ على الجنائب حمْلُه ،	ولقد يُرى بالجيش وهو ثقيل
35 نقّلتَهُ من بعدِ ما وفّرْتَهُ :	مَنٌّ لعمرُكَ ما أتيتَ جزيلُ
36 إيهاً كذاك! فإنّه ما كان مِن	بِرِّ الكرام فإنَّهُ مقبولُ!

على أنّه يترك أحياناً لهجة التهكُّم إلى التشفّي والشعور بالنخوة والتعالي على هٰذا الإمبراطور الذي صار مضطرًّا إلى دفع جزيةٍ كالتي تُفرض على الذمّيّين : [طويل]

77/13 ويُعطِي الجِزَىٰ والسلمَ عن يدِ صاغرٍ	ويقضي ، وصدرُ الرُمْحِ فيه قصيدُ
78 يقرّب قُرْبَاناً على وَجَلٍ فإنْ	تقبَّلْتَه من مثلِهِ ، فَسَعيدُ

فالبيزنطيّ يعطي المال ويعرض السّلمَ ، ولعلّ الشاعر يشير إلى عروض الدمستق التي تقدّم بها سفراؤُه الى المعزّ ، ومن بينها استعدادُه لإطلاق سراح عددٍ من الأسرى المسلمين الذين ظفر بهم الروم في المشرق . وقد راقت الفكرة للمعزّ لأنّه رأى في ذلك اعترافاً بولايتِهِ على كافّة المسلمين ، شرقاً وغرباً . وقد ذكر بعضَ هٰذه السفاراتِ القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسايرات : « وأرسل ملك الروم بأموال عظيمة وهدايا جليلة إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ورغِب في التوقّفِ عمَّن بقِي من الروم بأرض قلوريّة[1] ، على ما قطعه على نفسِه يؤدّيه عنهم ، وأسرى من أسارى أهل المشرق ليطلقهم في كلّ عام لمدّة يسيرة يسأل الهدنة فيها . . . »[2] . ولا نجزم بأنّ نصّ القاضي النعمان يتعلّق بالفترة التي تهمّنا ، أي

---

(1) قلوريّة مقاطعة بالجنوب الغربي من إيطاليا في قبالة مضيق مسّينا ، ويسمّيها المؤرخون المغاربة « الأرض الكبيرة » .

(2) ص 167 وص 367 .

بعد سنة 964/353 ، فالسفارات البيزنطيّة لدى المعزّ قد تكرّرت وأُبرِمَت هدنتان على الخصوص ، سنة 957/346 وسنة 968/357 . ولكن لا مانعَ من أن نفترض أنّ السفارة التي أوفدها الإمبراطور بقيادة شخص يدعى « نيكولاوُوس »[1] بعد وقعة المجاز مباشرة كانت مُحمّلةً بعروض مماثلة لما ذكره القاضي النعمان ، خصوصاً إذا ما اعتمدنا على طلبهم الإبقاء على أهل قلوريّة ، وهم المهدّدون قبل غيرهم بعد هزيمة مناصريهم .

علاوة على التهكّم والتشفّي يجنح الشاعر أيضاً إلى الهجاء الصريح فيرمي الروم بالجبن وبجهل فنون الحرب ، كما فعل ببني أميّة . فإذا ما برز لهم جيش الإمام ، لا تفيدهم عساكرهم الجرّارة ولا أسلحتهم المتنوّعة الكثيرة لأنّ الرهبة تتملّكهُم فيغادرون ساحة القتال كأنّ في نيّتهم أن يكتفُوا بلمس تربتها تحلّلاً من نذر نذروه : [كامل]

48/40	جاؤُوا وحشوُ الأرض منهمُ جحفَلٌ	لجِبٌ ، وحشوُ الخافقَيْن صهيلُ
49	ثمّ انثَنَوْا، لا بالرِّماح تقصُّدٌ	بادٍ، ولا بالمرهَفاتِ فلولُ[2]
50	نزلوا بأرضٍ لم يَمسُّوا تُربَها	حتّى كأنَّ وقُوعَهُمْ تحليلُ

ويعود إلى السخريّة منهم بهذه المقابلة بين ادلالهم بقوّتهم وتكبّرهم من جهة وجبنهم الفطريّ الذي سرعان ما يعود إلى البروز فيغطّي شجاعتهم الكاذبة :

79/40	الأكثرينَ تخمُّطا وتكبُّراً	ما لم تُهزَّ أسنّةٌ ونُصولُ
80	حتّى إذا ارتعصَ القَنا، وتلمّظَتْ	حربٌ شَروبٌ للنفوسِ أكُولُ
81	رجعُوا فأبدَوا ذلّةً ومهانةً	وإلى الجبلّة يرجعُ المجبولُ[3]

ويخصّ الدمستقَ بالاستهزاء فينعى عليه جهلَه بالحرب وإلقاءه بقائد الأسطول الى الموت لأنّ منويل لم يسمح لهم بالفرّ حيث يجب الفرّ ، وكأنّ

---

(1) الدشراوي : الخلافة الفاطميّة بالمغرب ، 250 ,291 .

(2) التقصّد : تقصّد الرمح وانقصَدَ : انكَسَرَ .

(3) التخمّط هو التكبّر ، وارتعص : تحرّك واضطرب واهتزّ .

الشاعر لم ينتبه الى ما في أبياتِهِ من أعترافٍ للجيش الرومي بالصمود :

25/40 قل للدمستق مُورد الجمع الذي ما أصدرْتَه له قنا ونصولُ:
26 سل رهطَ منويلٍ، وأنت غررتَهُ: في أيِّ معركةٍ ثوى منويلُ؟
27 منع الجنودَ من القفول رواجعاً تبًّا له بالمندياتِ قفولُ[1]

جُبن الدماسق وجهلهم بالحرب

ويتوسّع في الهجو ، فينفي عنه صفة المُلك ، كأنّه يعلَمُ أن الدمستُقَ افتكّ الإمبراطوريّة من أصحابها الشرعيّين إثرَ انقلابٍ عسكريّ . أو لعلّه يحقّرُهُ بين ملوك العصر ، وخصوصاً بالمقارنة مع المعزّ ، فهو قزم بين العمالقة :

37/40 رمتُ الملوك فلم يبِنْ لك بينَها شخصٌ ولا سِيمَا، وأنت ضئيلُ
38 أتقدُّماً فيهم وأنتَ مُؤخَّرٌ؟ وتشبُّهاً بِهِمُ، وأنت دخيلُ؟
39 ماذا يُؤمِّلُ جحدَرٌ ، في باعِهِ قِصَرٌ ، وفي باع الخلافة طولُ ؟

لكنّ هٰذه القصيدة الأربعينَ تُطلعُنا على حقائقَ تاريخيّة لم يستطع الشاعر إخفاءَها رغمَ قدرتِهِ على الهجو والانتقاص والاحتيال في تأويل الأحداث : ذلك أنّ جانباً من الأسرى المسلمين ربَّما اعتنقُوا دينَ النصرانيّة ، إمَّا عن رهبة أو عن رغبة ، كما لاحظ ماريوس كانار ، وقد نقل عن المسعوديّ أنّ بعض هؤلاء المرتدّين جُنِّدُوا في العساكر الروميّة فكان منهم فيلق يضمّ اثنيْ عشر ألفَ فارس من العرب[2] . ومهما يكن من أمر هؤلاء الأسرى الذين « برئوا من الإسلام » خوفاً من السيوف المسلّطة على رقابهم ، فإنّ الشاعر لا يقبل لهم هٰذا العُذر ويلومهم على قلّة صبرهم :

72/40 برئتْ من الإسلام تحت سيوفه ألَّا اعتدادَ الصبر ، وهو جميلُ؟

---

(1) المندياتُ : ما تندى له الجبين من فضائح وهزائم ونحوها .
(2) ما . كانار : العلاقاتُ . . . . Les relations...43 .

73 سلكَت سبيلَ الملحدين، ولم يكن   من بعد ذاك إلى الحياة سبيلُ

ويؤكّد لهم أنّهم خسروا الدنيا والآخرة ، علاوة على الشرف المضاع :

75/40 فالحرّ قد يَقْنَى الحياءَ حفيظة   وهو الجنيبُ إلى الردى المملولُ

والخزيُ الذي لحقهم خزيٌ مضاعَفٌ ، لأنّهم استسلمُوا الى أعداءٍ زائفي السلطانِ مكذوبي الإقدام ، أشبه بالنوق اللقاح منهم بالفحول المصاعيب :

76/40 هل كان يُعرَفُ للبطارقِ قبلَ ذا   بأسٌ ، ورأيٌ في الجلاد أصيل؟
77 أنّى لهم هِمَمٌ؟ ومن عجبٍ: مَتَىٰ   غدتِ اللقاحُ الخورُ وهي فحول!

في هذه القصيدة الأربعين كما في غيرها يَهتزّ الشاعر نخوةً وتخمّطاً كلّما ذكر المعزّ في قوّته والروم في هزائمهم المتوالية . ويوسّع خياله إلى الافتراض غير المعقول ، إلاّ أنّه من التصوّرات العاديّة في الملاحم والشعر الحماسيّ عامّة : فالبحر أصبح من أنصار الإمام يغرق الأسطول الروميّ ويلقي بعساكره إلى السَّيف الفاطميّ : [كامل]

88/44 والموجُ من أنصارِ بأسِك خلفَهَا   فالموجُ يغرقُها، وسيفُك يقتُلُ[1]

وشيوخ الروم من هيبته صاروا يوصون أبناءهم بمسالمته : [كامل]

55/1 جهِلَ البطارقُ أنّه الملكُ الذي   أوصى البنينَ بسِلمِهِ الآباءُ

ونساؤُهم يتشاءمنَ بكلّ مولود ذَكَرٍ لأنَّ مَآله الحَتْميَّ هو القتلُ بالسلاح الإماميّ ، فهنّ جميعاً ثكالى ملأن « أرض قسطنطين » بصراخهِنَّ : [بسيط]

44/12 لو كان للروم علمٌ بالذي لقِيَتْ   ما هُنِّئَتْ أمٌّ بطريقٍ بمولودِ
45 لم يبق في أرض قسطنطينَ مُشركةٌ   إلاّ وقد خَصَّهَا ثُكل بمفقودِ
46 أرضٌ أقمتَ رنيناً في مآتِمها   يُغنِي الحمائمَ عن سجعٍ وتغريدِ

(1) ضمير التأنيث يعود على الكتائب البيزنطيّة .

ومعلوم أن السخريّة، والهُزْءَ الثقيل والقهقهةَ المتشَفِّيَةَ هي أيضاً من متطلّبات الشعر الملحميّ ، إلى جانب السبّاب العالي والتقاذف الغليظ ، حتّى إنّها صارت تُجمَعُ في الاصطلاح الغربي تحت اسم «الشتيمة الهوميريّة»، نسبة الى صاحب الإلياذة . وشاعرنا يلجأ بكثرة الى هٰذا النوع من التهكّم ، فيتساءلُ مثلاً في براءةٍ كاذبة : [طويل]

29/3 ولم أرَ زَوَّاراً كسيفِكَ للعدى   فهَلْ عند هامِ الروم أهلٌ وترحيب؟

غلبة الروم في المشرق تُعزى إلى انخذال العبّاسيّين

هٰذه الشواهد الكثيرة من قصائده ضدّ الروم ، لئن دلّت على أنّ الغرض الأساسيّ من الحرب هو الجهاد ، فهي تدلّ أيضاً على اعتقاد الشاعر ـ ومن ورائه الأوساط الفاطميّة ـ بأنّ الانتصارات التي أحرزها نقفور فقاس في الشام والجزيرة إنّما سمحَت له بها الدولة العبّاسيّة بخذلانها وانصرافها عن واجب الجهاد ، ممّا يبرّر عزمَ المعزّ على الإطاحة بخلافتهم الواهية كما اعتزم الإطاحة بحكّام قرطبة، أولائك الذين تحالفوا صراحةً مع الروم المشركين واستنجدُوا بأسطولهم ضدّ المعزّ[1] . فالحروب التي يقودها ضدّ هؤلاء وأولائك ، مثل الحملات التي قادها ضدّ المروانيّين وأتباعهم ، هي في الحقيقة جهادٌ واحدٌ يرمِي إلى إحلال إمامةِ الحقِّ على العالم الإسلاميّ بأسره ، في انتظار أن يمتدّ سلطان الأئمّة على الكون كلّه ، لأنّ اللّٰه جَعَلَ لهم وراثة الأرضِ . وهكذا يرى الشاعر في تقبيل المعزّ الترابَ عند ورود البشرى بانتصار المجاز ، رمزاً لامتلاك الأرض وبادرةً نحو المآلِ الموعودِ : [كامل]

24/40 أنتَ الذي ترثُ البلادَ لديهمُ   فالأرضُ فَأْلٌ والسجودُ دليلُ

(1) يقول القاضي النعمان : كتب الناصر الى طاغية الروم يسأله النصرة . . . فأجابه الى ذلك وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أميّة من الأندلس (المجالس والمسايرات، 166) .

الفصل العاشر

شاعريّة ابن هانئ

أشرنا في الفصلين السادس والسابع إلى الجوانب التقليديّة من شعر صاحبنا ، كما تظهر من الأغراض المطروقة أوّلاً ، وهي المدح والرثاء ، ثم من اتّباعه التقسيم القديم للقصيدة . لكنّ هذه التبعيّة لم تكن دائمة مطلقة . فكثيراً ما يتحرّر مثلاً من الاستهلال الغزليّ فيدخل الى المدح وثباً ، أو ، إذا بدأ باستهلال ، فقد يعوّض فيه الوقفة على الاطلال بوصف مشهد ليليّ أو عارض من البرق والسحاب . وقد يعوّض الرحلة المعهودة الى الممدوح بوصف مجلس لهو أو بتأمّلات حكميّة في انقضاء الشبيبة وصروف الزمان .

ورأينا أنّ شخصيّة الشاعر لا تكمُن في القصائد الكبيرة الرسميّة بقدر ما تظهر في المقطوعات الصغيرة والأبيات المرتجلَة التي يعبّر فيها عن ميوله وآرائه وهواجسه في حرّيّة لا يكبِتُها الوقوف امام الخليفة ورجال دولته .

ونعتزم في هذا الفصل دراسة شخصيّة ابن هانىء الشعريّة لنقفَ على ما يبدو عنده تقليديّاً مطبوعاً بطابع القدماء ، وما تظهر فيه سمات الطرافة والغنائيّة الصادقة .

الأغـراض

لو اتّخذنا الأغراض معياراً ، لقلنا إنّ ابن هانىء مثالٌ للشعراء

التقليديّين . ذلك أنّ المدح يستأثر بالقسم الأوفر من الديوان : ثلاث وستون قصيدة من سبعين، فإذا أضفنا إليها المراثي الثلاث ـ والرثاء كما يقول أبو هلال العسكريّ ، إنّما هو مدح الميـت[1] ـ صارت الأغلبيّة المطلقة لهذا الغرض القديم المعهود المعروف الذي به عاشت أممٌ من الشعراء ولا تزال .

أمّا القصائد الأربع الباقية ، فقد حلّلناها بإيجاز ، وتوقّفنا قليلاً عند القصيدة السّادسة والخمسين في الأكول ، فبيّنّا قدرة الشاعر على الوصف الساخر وقلنا لعلّها تشير إلى حادثة واقعيّة، سيّما وأن الشاعر ذكر رقّادة ، وهي المدينة الوحيدة من إفريقية والمغرب التي ذكرت في كامل الديوان ؛ فقد يكون لقيَ هذا التنّور المفتوح كما قال فطاب له أَنْ يصف ما هاله منه من قدرة على الالتهام تفكّهاً وتندّراً، بعيداً عن كل رغبة أو رهبة . فلذلك لم نعتبرها هجاءً لفقدان الدافع، من حقد أو ثأر أو غضبٍ .

المحاكاة الصريحة

والقصيدة التاسعة والأربعون تخرج أيضاً عن الشعر الرسمي إلاّ أنها تقليد محضٌ : فهي نوع من « التمرين » يحاكي به الشاعر مغامرات عمر بن أبي ربيعة الغزلية فيجمع المعاني المعهودة ، من مراقبة لِلْحَيِّ في انتظار الليل ، ثم ارتياع الحبيبة حين برز لها وسط الظلام وتسكينه لها بالضمّ والقبلات : [طويل]

11/49 طـرقتُ فتاة الحيّ إذ نـامَ أهْلُهـا وقد قام ليلُ العاشقينَ على قَـدَمْ

13 . . .فسكّنت من إرْعادِها ،وهي هَوْنَةٌ ضعيفةُ طيّ الخصر ،في لحظها سقَمْ

وانتباه الرقيب اليه عند الفجر حين وجب الفراق . فما العملُ ؟ إذا كان

(1) كـ . الصناعتين 137 .

المخزوميّ يجنح الى التنكّر في مُطْرَفِ الأخت الصغرى وبردِهَا[1] وإذا تعلّق الفرزدقُ بـ « أسباب طوالٍ » فتدلّى « من ثمانين قامَةً »[2] وأفلت من القوم ، فإنّ صاحبنا يأنف من هذه الحيل النسائيّة بل يجابه أهل الفتاة فيسلّ سيفه ويردي الرقيب قتيلاً . ولكنه في آخر القصيدة يعلمنا بأنّه لم يقتل أحداً وإنّما سار في كلّ هذه الرواية على نهج عمرو . ولعلّه يعني أمرأ القيس وهو أيضاً صاحب مغامراتٍ مع العذراء ، والمرضع ، وربّما خلط الشاعر بين أمرىء القيس وأبيه الذي يدعى « ابن عمرو حجر »[3] .

وكذلك القصيدة الرابعة والثلاثون تقليد ومحاكاة . ولكنه هُنا يجاري أبا نواس في مغامرة خمريّة الى حانة خارج البلد فيذكر غضب الخمّار وقد أُوقظ من نومه ، وهو بالطبع من أهل الكتاب ، ثمّ طمعه في المال الوفير حين عرف الطرّاق ، ثمّ إشعاع الخمرة وهي تنصبُّ هادرةً من دنّها المبْزول ، رقيقةً لطيفةً مثل عقيدة الزناديق : [رجز]

7/34 لم يُبق منها الدنّ للراووق إلاّ كياناً ليس بالحقيق
مثل يقين الملحد الزنديق كأنّه حشاشة المَشوق

ويختم التمرين بنصائح سلوكيّة للندامى على غرار ما يدعو إليه أبو نواس من رفقٍ بالصديق المنتشي :

21/34 لا تجزينّ البرّ بالعقوق واغنَ عن العدوّ بالصديقِ
وواصِل الصبوحَ بالغبوقِ !

هاتان قصيدتان لا تعبّران عن تجربة واقعةٍ ، ولئن عبّرتا عن شيءٍ ، فعن محاولة الشاعر في التخلّص من قيود الشعر الرسميّ ، وتوقِه إلى خوض مثل

---

(1) ديوانه ص 100 .

(2) ديوانه ص 261 .

(3) « وهرّ تصيد قلوب الرجال ، وأفلتَ منها ابن عمرو حُجُرْ »
ديوانه 95 .

هذه المغامرات التي يحرمُهُ منها منصبُهُ كشاعر مذهبيّ في بلاط الإمام . وقد تكونانِ أيضاً محاولةً منه في اختبار قدرتِهِ على النظم في القصص الغزليّ والخمريّ حتى يظهر بمظهر الشاعر المكتمل الآلة ، مثل كبار الأسلاف كعمر والفرزدق وأبي نواس .

وفي هذا الإطار بالذات ، أي موقف ابن هانىء من مشاهير الشعراء ، تندرج القصيدة الحادية والعشرون عن المتنبّي . وهي غريبة من ناحيتَين : أولاً ، لأنّها لا تطرقُ غرضاً واضحاً ، فهي في آن واحدٍ نقدٌ أدبيّ وهجاءٌ وفخرٌ . وهي غريبة أيضاً لأن صاحبنا فيها متذبذبٌ إزاء المتنبّي بين الانتقاص له والغيرة من منزلته في الشعر وعند المعاصرين ، وقد تنبّه الى هذا الاضطراب المستشرق الإسباني الكبير قارثيا ـ قوميث في دراسته القيّمة لهذه القصيدة .

لكنّ المقارنة بين المتنبّي وابن هانىء ، وقد راجت عند القدماء والمحدثين ، تستدعي منّا وقفة طويلة نرجئها إلى حين .

أداتُه الشّعريّة ـ القصيدة

نظم ابن هانىء شعره في قصائد متفاوتة الطول تتراوح بين أحد عشر بيتاً ومائة بيت. وتبلغ القصيدة السابعة والأربعون مائتَيْ بيت. وقد علّلنا هذا الطول المفرط بافتراضِ أنّها قد تكون أرسلت من الزاب الى مصر فكانت تتوجّه للقراءة المتأنّية من الممدوح لا للإنشاد أمامَه . وقد جمع فيها الشاعر كل المعاني المذهبيّة وكل الشعارات الإسماعيليّة حتى لكأنّها ـ وهي آخر ما نظم ـ وصيّتُهُ إلى مَن يأتِي بعده من شعراء الدعوة . وبقيّة القصائد لا تتجاوز مائة بيتٍ إلا نادراً : هي سبعٌ من سبعين . والمدائح المعزّيّة بوجه عام أطول من شعر المسيلة . وقد افترضنا أيضاً أن الشاعر ربّما كان أكثرَ تحرّراً إزاء الأميرَين

الأندلسيّين منه إزاء الخليفة الفاطميّ فيجيز لنفسه ، من تصرّف في حجم المدحة وتنوّع في الأغراض ، ما لا يتجاسر عليه مع الإمام . هذا مع إمكان افتراض آخر ، وهو أنّ القصائد الطويلة قد تكون ، مثل الميميّة الأخيرة ، نُظمَت لتُقرأ على الممدوح لا لينشدَها الناظِمُ .

القـوافـي

يقسّم المعرّي في البسطة الضافية عن علم القوافي ، التي قدّم بها لديوان اللزوميات ، يقسّم القوافي إلى ذُلُلٍ ونُفُرٍ وحُوشٍ : « فالذلُلُ ما كثُر على الألسن ، وهي عليه في القديم والحديث . والنُّفُرُ ما هو أقلّ استعمالاً من غيره كالجيم والزاي ونحو ذلك . والحوشُ التي تُهْجَرُ فلا تُسْتَعْمَل »[1] . وصاحبنا يبني قصائده على القوافي الذلل في الأغلب ، ولا يصل به حبّه للغريب إلى حدّ تغليب النُّفُر أو الإكثار من القوافي الحوش . ولكنّه لا يستنكف من استعمال الرويِّ الصعب . فإذا قارنّا قوافيه بما عند شعراء معاصرين له أو متأخّرين عنه قليلاً ، كأبي فراس والمتنبّي وابن زيدون[2] ، ظفرنا بالجدول التالي ، الذي نحصي فيه عدد الأبياتِ المبنية على بعض الحروف غير المأنوسة :

(1) ج 37/1 .

(2) المتنبّي بشرح العكبري .

أبو فراس ، طبعة صادر .

ابن زيدون ، طبعة رشيد الكيلاني ، القاهرة 1956 .

الرويّ	ابن هانىء	المتنبي	أبو فراس	ابن زيدون
ث	36	0	5	8
ج	39	12	5	0
خ	64	0	0	0
ذ	2	0	0	0
ش	7	36	0	8
ص	46	0	0	0
الجملة	194	48	10	16

فكأنّه أقلُّ تحفّظاً من هؤلاء الشعراء وأكثر جرأةً في التماس الجرس الغريب الذي قد تستثقله الأذن وتمجّه النفسُ. على أنّ هذه النسبة العالية في القوافي « النّفُرِ » عنده لا تنفِي أنّ نسبة القـوافي الذلل متقاربة عنده وعندهم ففي المقدّمة يأتي رويّ الميم تليه اللام والراء والنون الخ . . .

والقافية عنده مطلقة غالباً ، ولا يجنح إلى الروِيّ الساكن إلاّ في سبع قصائد ، أي عُشُر الديوان تقريباً . ونحن لا نستنتج من هذا شيئاً ، سوى أنّه واثق من نفسِهِ لا يخشى إقواءً أو صعوبة في إعراب أواخر الأبيات .

وختاماً لحديثنا عن القافية ، نقول إننا نرفض الرأي القائل بأن بعض الحروف أوفق من غيرها لبعض الأغراض . وقد أبدى هذه الفكرة الشيخ سليمان البستانيّ معرّب الإلياذة فقال إنّ القاف مثلاً أوفق للشعر الحماسيّ ، والراء واللام أصلح للوصف الخ . . . بل نتّبع رأي المعرّي في أنَّ الرويّ «أثبتُ حروف البيت، وعليه تبنى المنظومات، وهو يكون من أيّ حروف المعجم وَقَع . . . »[1] . فحرّيّة الشاعر في اختيار الرويّ تامّة ولا تُحَدُّ إلاّ بطبيعة الجرس الذي يرتضيه لشعره من جهة ، وهذه قضية ذوقٍ واختيارٍ ،

---

(1) مقدّمة اللزوميّات ص 6 . أما رأي البستاني فقد نقلناه عن صفاء خلوصي : فنّ . . . 257 .

وبوفرة الموادّ التي يكون الحرفُ المقصودُ لامَها ، ومعلوم أن الكلمات التي تختم بالظاء أو الخاء أو الغين نادرة قليلة إذا قيست بالكلمات التي لامُها باءٌ أو دال أو ميمٌ[1] .

الأوزانُ

يستخدم شاعرنا البحور المتينة الوفيرة المقاطع كالطويل والكامل والبسيط ، وهي التي تأتي عنده في المقدّمة :

الطويل : 36 قصيدة ومقطوعة .
الكامل : 33 قصيدة ومقطوعة .
البسيط : 19 قصيدة ومقطوعة .

تليها في نسبة قليلة جداً :
الخفيف : 7 قصائد و 3 مقطوعات .
السريع : 5 قصائد و 4 مقطوعات .
المتقارب : 4 قصائد و مقطوعة واحدة .
الرمل : 4 قصائد ومقطوعتان .
المنسرح : 3 قصائد ومقطوعة واحدة .
الرجز : 3 منظومات ومقطوعتان .
الرمل : مقطوعة واحدة .

وقد تخلّى عن البحور القصيرة كالمجتث والمضارع ، وأهْمَلَ المجزوءات، حتّى مخلّع البسيط ، فلم ينظم عليها قطّ ، حتّى في الشعر البعيد عن الدعوة والمذهب ، كوصف مجلس أنس أو زهرة رمّان أو تغزّل بقينة أو غلام . وهنا أيضاً نرفض فكرة التخصّص . فكلّ الأوازان العربيّة ـ ما لم

(1) ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص 247 ، وهو يُقرّ القلّة ويرفض التنافُرَ الصوتيّ .

تنقص كمّيّة مقاطعها الى حدّ أنْ تصبح مجزوءة أو مشطورة ـ صالحة لكلّ الأغراض . دليلنا عل هذا الشمول أنّ المراثي الثلاث نُظمَت على الكامل فالرمل فالمتقارب ، وأنّ المتقارب نجده أيضاً في مدحةٍ وفي مقطوعةٍ في الشكوى .

ونتبيّن «كلاسيكيّة» شاعرنا، أي اتّباعه لسنّة القدماء في اختيار الأوزان، من هذا الجدول الذي أضفنا اليه أوزان المفضّلِيات والمعلّقات العشر ، علاوة على بحور الشعراء الثلاثة الذين اخترناهم نموذجاً للمقارنة :

البحور	ابن هانيء	المتنبّي	أبو فراس	ابن زيدون	المفضلّيات	المعلّقات
الطويل	36	58	65	35	45	3
الكامل	33	42	60	25	27	2
البسيط	19	45	32	25	19	3
الخفيف	7	21	15	15	3	1
السريع	5	8	11	11	5	
المتقارب	4	25	13	10	10	
الرّمل	4	2	7	18	3	
المنسرح	3	21	3	2	2	
الرجز	3	10	8	2		
الوافر	1	46	39	14	18	1
المجتثّ			5	6		
الهزج			7			

التقسيم الثلاثيّ للقصيدة

قنّن نقّاد القرن الثالث القسمةَ الثلاثيّة لقصيدة المدح ، فجعلوا من الوقوف على الأطلال وتذكّر الأحبّة وذكر الرحلة الطويلة الى الممدوح ،

مراحل واجبةً قبل الولوج الى المدح[1] . وقد ضاق الشعراء بهذه القواعد حتى رأينا المتنبّي يسخر من هذا الغزل الواجب : [طويل]

إذا كـان مـدحٌ فـالنسيب المقـدَّمُ   أكـلُّ فصيـحٍ قـال شعـراً متيّمُ ؟

وهي قواعد على الحقيقة تأخذ بالعامّ الأعمّ والمتداول المنتشر كجميع القوانين ، ولا تنفي الشذوذ والخروج عن السنّة المتّبعة . فكان فحول الأقدمين ينسبون حين يطيب لهم النسيب ، ويتركونه حين لا تنشط نفوسهم . وكذلك ابن هانىء ، يَنسب أحياناً ، ويترك النسيب أحياناً ، أو يحوّل الاستهلال من الغزل الى الوصف ، كما يظهر من هذا التحليل لعشر من قصائده المعروفة :

1 ـ القصيدة 9 في مدح المعزّ . 59 بيتاً مطلعُهَا [كامل] :

هـل كان ضمّخَ بالعبيـر الريحـا   مُـزنٌ يُهَـزُّ البـرقُ فيـه صفيحَـا ؟

من بيت 1 الى بيت 10 : نسيب : طيف الحبيب يزور الشاعر المُسَهَّد .

البيت 11 : اشارة خاطفة الى الرحلة الى الإمام بدون وصف .

الأبيات 12 -59 : مدح الخليفة بالمعاني التقليديّة والمذهبيّة .

2 ـ القصيدة 35 في مدح المعزّ أيضاً . 41 بيتاً ومطلعُها [خفيف] :

قمن في مـأتمٍ عـلى العشّـاق   ولـبسنَ الـحـدادَ فـي الأحـداقِ

1 -8 : تسيب : الشاعر يبكي رحيل الأحبّة .
9 -20 : ذكرى أيّام الهناء . وصف أباريق الخمر .
21 -41 : مدح الخليفة .

3 ـ القصيدة 40 في المعزّ . 114 بيتاً ومطلعُهَا [كامل] :

---

(1) انظر مقدّمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

يــومٌ عريضٌ في الفخـار طـويـل مــا تنقضي غـرر لــه وحجــولُ

لا نسيب فيها ولا وصف للراحلة . يقتصر الشاعر على مدح الإمام وشتم خصومه .

4 ـ القصيدة 3 في المعزّ، 73 بيتاً ، مطلعُها [طويل] :

أقولُ دُمىً وهي الحسانُ الرعابيبُ ومن دون أستار القباب محـاريبُ

19-1 : نسيب : لوعة الشاعر بعد ترحّل الخليط .
61-20 : مدح الخليفة بالشيم التقليديّة والخصال الإماميّة معاً .
69-62 : شكوى الشاعر من الحسّاد .
73-70 : عودة الى المدح .

5 ـ القصيدة 58 في المعزّ . 86 بيتاً ، مطلعها [متقارب] :

تقـدّمْ خـطى أو تـــأخّــرْ خــطى فــإنَّ الشبــابَ مشى القهـقــرى

11-1 : نسيب .
28-12 : وصف الخيل .
48-29 : شغف المعزّ بالصافنات الجياد .
86-49 : مدح المعزّ سياسيّاً ومذهبيّاً .

6 ـ القصيدة 27 في مدح جوهر . 105 أبيات ، مطلعها [طويل] :

رأيـتُ بعـيـنـي فــوقَ مــا كنـتُ أسمَــعُ
وقــد راعـني يــومٌ مـن الـحـشــرِ أروَعُ

14-1 : عظمةُ هذا الجيش في العدّة والعديد .
30-15 : وصف مدقّق للعتاد الحربيّ .
105-31 : مدح جوهر بخصاله الإداريّة والسياسيّة والحربيّة ، الإشادة بولائه الفاطميّ .

7 ـ القصيدة 43 في المعزّ . 95 بيتاً ، مطلعها [بسيط] :

كدأبك آبن نبيّ اللّه لم يزلِ   قتل الملوك ونقل الملك والدول

لا نسيب فيها ، وهي مخصّصة بأكملها للإشادة بالممدوح .

8 ـ القصيدة 63 في بني حمدون . 84 بيتاً ، مطلعُها [طويل] :

ألا أيّها الوادي المقدّس بالندى   وأهل الندى، قلبي اليك مشوقُ

1-13 : تحيّة الشاعر لجعفر من بعيد .
14-33 : مدح يحيىٰ بالتجربة الحربيّة .
34-50 : وصف خيل أهداها يحيىٰ الى شقيقه .
51-66 : خصال جعفر .
67-75 : وفاء الشاعر للأخوين ، وشكره معروفَهُما .
76-84 : عود الى مدح بني حمدون .

فلا نسيب هنا أيضاً ، ولا وصف للراحلة .

9 ـ القصيدة 57 في إبراهيم بن جعفر . 100 بيت ، مطلعها [كامل] :

الشمسُ عنه كليلة أجفانُها   عبرى يضيق بسرّها كتمانها

1-38 : وصف القصر الذي بناه جعفر لابنه .
39-64 : قسم خمريّ : تحريض على خلع العذار .
65-93 : مدح إبراهيم ، وهو سليل جعفر في المجد .
94-100 : اعتراف بجميل بني حمدون .

فالنسيب متروك هنا أيضاً ، وكذلك وصف الرحلة والدابّة .

10 ـ القصيدة 39 في يحيىٰ بن حمدون . 43 بيتاً ، مطلعها [كامل] :

فتكاتُ طرفِكِ أم سيوفُ أبيك،   وكؤوسُ خمرٍ أم مراشفُ فيك؟

10-1 : نسيب .

33-11 : مدح يحيىٰ ، سيف الدعوة المسلول .

38-34 : وصف الخيل .

43-39 : عود إلى خصال الممدوح الحربيّة .

فالنسيب يحضر ويغيب في هٰذه المدائح العشر ، وكذلك القسم الوصفيّ ، إن وُجد ، فهو لا يتعلّق ضرورة بالرحلة إلى الممدوح ولا يصف الناقة ، بل يحوّله الشاعر إلى وصف مجلس لهو أو إلى وصف خيل أو وصف قصر ؛ وقد يُعرض عنه تماماً .

ولنحلّل الآن في شيءٍ من التفصيل إحدى المراثي ، كمرثية حفيد جعفر ابن حمدون ، وهي داليّة ذات 97 بيتاً مطلعُها [رمل] :

وهب الدهر نفيساً فٱستردّ   ربّما جاد لئيمٌ فحسَدْ

13-1 : خواطر حكميّة حول الموت والحياة : خداع الدهر الذي يعطي بيد ويأخذ بالأخرى . شكوى الشاعر من الزمان الذي ابتلاه غير ما مرّة .

25-14 : مثال من خداع الدهر : أخذ هٰذا الطفل وهو صبيّ عاجز عن دفعِهِ . ولو عاش لكان فيه فخر العرب جميعاً .

40-26 : لوعة أهله وذويه . حتى الأبطال المحنّكون يبكونه بالدمع الغزير .

51-41 : لا قوّة تثبت أمام الموت ، ولا حتى قوّة جعفر الحربيّة .

64-52 : دعوة إلى التصبّر : الموت مآل كلّ كائن . والنجل التحق بالجدّ وهكذا فالشبل رجع إلى الليث .

90-65 : الموت لا يترك حيًّا : لا القويُّ ولا الضعيف ، لا الطيّب ولا الخبيث ، الأسد في عرينه ، والنسر في وكره ، الظبية الوديعة والأفعى المخاتلة ، كلّ لا يبقيهم الحدثان .

91-97 : عود إلى الخواطر المتشائمة حول حتميّة الهلاك وقِصَر الحياة .

وهكذا نرى أنّ تعلّق ابن هانىء بمثال الأقدمين لا يمنعه من الخروج أحياناً عن جادّتهم فيسلك مسلك المولّدين الذين جدّدوا الشعر بمقدار ، مثل البحتري وأبي تمّام والمتنبّي . فهو يجمع بين الرصيد الثقافيّ الموروث عن الجاهليّين والصنعة البلاغيّة التي برّز فيها أبو تمّام ودوّنها ابن المعتزّ في كتاب « البديع » .

الصنعة البلاغيّة : الاستعارة وأصناف المجاز

يفرط ابن هانىء في استخدام أساليب المجاز ، من التشبيه العاديّ البسيط الى الاستعارة البعيدة الغَور . وقد سبق أن ذكرنا بعض النماذج أثناء درسنا للمعاني والأغراض عنده . ونسوق الآن بعض الأمثلة الأخرى ، زيادةً في الاطّلاع على أسلوب الشاعر . فهٰذه مثلاً وسيلة للتعبير عن قصر ليلة الوصال ، يحشر فيها الشاعر ثلاثة تشابيه متتالية : [كامل]

19/1 لبسَت بياضَ الصبح حتّى خلتُها ... فيه نجاشيًّا عليه قَباءُ
20 حتى بَدتْ، والبدرُ في سربالها ... فكأنّها خيفانةٌ صدرَاءُ
21 ثمّ انتَحَىٰ فيها الصديعُ، فأدبَرَتْ ... فكأنّها وحشيَّةٌ عَفرَاءُ(1)

وقد قصد الشاعر الى الشكوى من سرعة انقضاء الليل التي حملَته على ذمّ كلّ الليالي بالمقارنة مع ليلة الوصل :

1/ 18 ذُمَّ الليالي بعدَ ليلتنا الّتي ... سلَفَت، كما ذمَّ الفرَاقَ لقاءُ

فعبّر عن هٰذه السرعة بالتشبيهين الأخيرين ، بالفرس ، وبالظبية ، وكان

(1) النجاشي : ملك الحبشة ويعني به الأسود . والقباء الرداءُ . والخيفانة في الأصل الجرادة وصارت تعني الفرس لدقّة مفاصله ، والصدراءُ ذات البياض على صدرها وانتحى : اتخذ مكانَهُ والصديع : ضوءُ الفجر والوحشيّة : الغزالة .

تشبيه واحدٌ يكفيه ، ولكنّ تداخل البياضِ في السواد تدريجيّ ، فاضطرّ الى التمهيد بذكر الخيفانة فأطال المشهد وزاده تفصيلاً . أمّا تشبيه الظلام الممزوج بنور الصبح بالنجاشيّ الملتفّ بعباءة بيضاء ، مع الاستعارة في « لبست الليلة بياض الصبح » ، ففيه مقابلة بين بياض الوصل وسواد الفراق وقد سبقت له المقابلة بين سواد المقلة وبياض سائر العين في مطلع القصيدة، ولكن في معنى آخر . وهكذا نجد في الأبيات الثلاثة الاستعارة والتشبيه والمقابلة ، إلى جانب المشهد المتواصل ، أي ما يسمّيه أهل البلاغة « التشبيه التمثيليّ » . ونلاحظ عرَضاً أنّ الشاعر نسِيَ الشكوى بعد البيت الثامنَ عشرَ فاهتمّ بالوصفِ فقط ، كما طاب له أن يتخيّلَهُ . والشاعر شغوف بوصف النجوم كما تشهد به القصيدة الحادية والثلاثون الآتي تحليلها . والشعر العربيّ بل اللغة نفسها بوجه عامّ ، يردّد بكثرةٍ المقابلةَ بين البياض ، لونِ كل خير ، والسواد ، عنوانِ كل مصيبة : فلا غرابة أن يعود شاعرنا مراراً إلى وصف الليل وقد بدأت جحافلُه تفِرُّ أمام عسكر الصباح ويعمّق فكرة الصراع ويستفرغ صورة الحرب ، فيلاحظ تكاثر النجوم مع قدوم الفجر فيتخيّل أنّ الظلام ، وقد أعجله النورُ ، نثر تاجه في هربه كأنّه ملك مهزوم : [كامل]

9/25	والفجرُ من تلك الملاءة ساحبٌ	والليـل في منقـدّ تلك الأقمصِ
10	قد بات يمطلني سَناً ، حتّى إذا	عجلِ الصباح بـه، فلم يتـربّص
11	ألقىٰ مُؤلّفـةَ النجـومِ قـلائـداً	من كـلّ إكلِيـلٍ عليـه مفصَّصِ

وهنا يشكو بالعكس طول الليل ، ليل المسهَّدِ، ويتوق الى الصبح الذي يجلي الهموم ، فأدخل مشاعره في البيت العاشر ، ولكنّه أعتمد كما في المثال السابق ، على استعارة الملبوس ، الملاءة للصبح والقمصان للظلام ، وعلى المقابلة البارزة في شكل تعادليّ بين شطري البيت التاسع .

وإلى مثل هٰذه المحسّنات المعنويّة وهٰذه الصور البديعيّة تنتسب مقدّمة القصيدة « الفلكيّة » التي عوّض فيها النسيب بوصفٍ مطوّل لنجوم السماء

وأفلاكها ، وبتصويرٍ مدقّق للأشكال المختلفة التي تتّخذها في القبّة السوداء : 27 بيتاً ـ من 71 ـ لا يخلو واحدٌ من تشبيه أو إستعارة أو مشهَدٍ تمثيليّ . وقد أعطى « النغمة » منذ البيت الأوّل : فالليلة حسناء ذات شَعر دجوجيّ ، وقد تقلّدت في أذنيها كوكبَ الجوزاء أخراصاً برّاقةً : [طويل]

1/31 أليلتَنـــا إذ أرسلَتْ وارداً وحـفــاً وبتنا نرى الجوزاء في أذنها شَنْفَا[1]

ويُثَنّي بمشهَدٍ خمريّ غزليّ يصف الساقي وقد لعبت به المدامُ هو أيضاً فزادته تثنّياً على تَثَنٍّ :

3/31 أغنٌّ غضيضٌ خفّفَ الليـنُ قــدَّهُ وثقّلَتِ الصهبـاءُ أجفـانَـهُ الـوُطْفَـا
4 ولـم يُبقِ إرعـاشُ المُدَام لـه يـداً ولـم يُبقِ إعنـاتُ التثنّي له عِـطْفَا

ولكنه لا يطيل التغزل بهٰذا الغلام ويعود إلى وصف النجوم ، وكأنّه يريدُ منهُ أن يكونَ بُرهاناً على مقدرته الإبداعيّة ، ولا ننسى أنّ القصيدة هي أوّل شعرٍ أنشده بالمسيلة ، فبقاؤه في خدمةِ الأخوَيْن مشروط باستحسانهما لها . فيضع الإطار العامّ ، وهو الصراع بين الليل والنهار ، والقتال المعهود بين الظلمة والنور ، بين جحافل الظلام وجيش الصباح :

10/31 وقــد ولّـت الــظلمــاءُ تقـفــو نـجــومَـهـا
وقــد قـام جيش الفجــر للّيــل واصــطفّــا

ثم يأتي التفصيل، كل كوكب ، وقد استعدّ للأفول ، يتّخذ في السماء التي خُطّت بالبياض صورة يترجم لها الشاعر بتشبيه جديد ، بل غريبٍ أحياناً في بعض متعلّقاته ، كهٰذه اليد التي لا يزال الظلام يخفيها فلم تظهر منها إلا الإصبع المزدانة بالخاتم :

11/31 وولّت نجــومٌ لـلثــريّــا كــأنّهــا خــواتيمُ تبدو في بَنَانِ يدٍ تخفَى

---

(1) الوارد : الشعر الطويل المنسدِل .

وتعود الصورة الحربيّة ، فهذا الدبَرَانُ يتبع الثريّا بخيلِهِ وقد كانت الخيلُ في كمين ، تستعدّ لنصرتها :

12/31 ومـرّ عـلى آثـارهـا دبَـرَانُـهـا كصـاحب ردءٍ كُمِّنت خيلُه خَلْفَا

وكذلك الشعرى تعبر على فرس ومعها المرزم كالفرس الجنيب ، فيخترق الركبُ المجرَّةَ كأنّه تهيّب نثرَة الأسد وقد تعلّق به السماكان يرومان قتله ، إلَّا أنّ الأعزل منهُما لا قِبل له به فصار يقضم إصبعه حسرةً :

13/31 وأقبلت الشعـرى العَبـورُ مكبَّـةً بمـرزَمِهَا اليَعبُـوبِ تجنُبُـه طِرفـاً
14 وقـد بـادرتهـا أختُهـا من ورائهـا لتخـرقَ من ثنيَيْ مجرّتِهـا سِجْفَـا
15 تخـافُ زئيـرَ الليثِ يقـدُمُ نثـرةً وبَـرْبَرَ في الـظلماءِ ينسِفُهـا نسفا
16 كـأنّ السمـاكَين اللذَين تـظاهـرَا على لبـدتَيْـهِ ضامنـانِ لـه حتفَـا
17 فـذا رامـحٌ يُهـوِي إليـه سنـانَـهُ وذا أعـزلٌ قـد عضَّ أنمُلَهُ لهفـا

ويواصل التعداد والتفصيل ، كأنّه فلكِيٌّ يلقي درساً أمام خريطةٍ من السماء بنجومها ، ولكنّه يزيل هٰذا الوهم بسلسلة « كأنَّ » التي تبدأ بها الأحد عشرَ بيتاً الموالية : فأداة التشبيه تُرجِعُهَا إلى الأدب والفنّ والخيال ، فنجم الرقيب كالنسر يرقب من وكره الأفق، أو ينقّي ريشَهُ، وبنات نعش كما يدلّ اسمهنّ ظْباءٌ يحملن رشأ ميتاً إلى قبره :

18/31 كـأنّ رقيب النجم أجـدلُ مـرقبٍ يقلّب تحت الليل في ريشه طَرفا
19 كـأنّ بني نعش ونعشـاً مـطافِلٌ بوجرةَ قد أضللن في مهمهٍ خِشْفَا

وقد لمّحنا عرضاً إلى ضربٍ من المحسّنات المعنويّة ، وهو أن يستخدم الاسم الاصطلاحيّ في حقيقته اللغويّة ، فيتناسى الشاعرُ أنّ ذلك الاسم فَقَدَ صفته المجازيّة وصار بمثابة العلَم أو الاسم العاديّ ، إلَّا أنّه يرجعُه من جديد إلى الحقيقة ويستعمله استعمالاً مجازيًا ، كما يفعل المتنبّي مثلاً بعبارة « جناح » الجيش فيستخرج منها « الخوافي والقوادم » وقد أخذ الجناح ـ وهو

مجاز ـ مأخذ الحقيقة فذكر لوازم الريش[1] . وإلى مثل هٰذه الطريقة يجنح ابن هانىء في ذكر النجم الرامح فيجعل له رمحاً على الحقيقة ، والنجم الأعزل فيجرّده من السلاح ، والرقيب على مرقبته وبنات نعش يحملن نعشاً الخ . . . ولا شكّ أن هٰذه الطريقة ، إذ تعود بالمجاز ـ الذي أصبح بالتداول حقيقة ـ إلى المجاز ، فيها شيءٍ من الطرافة ، على شرط أن لا تكون مسترسلة دائمةً .

ولنلاحظ أيضاً في البيت العشرين ذكر « وجرة » وهي باديةٌ في جزيرة العرب ،مع أن المفروض أن صاحبنا يصف ليلاً مغربيًّا ،ولا المغرب ولا إفريقيّة يخلوان من الصحارى والبوادي والظباء . إلاّ أنّه الرصيد الثقافيّ يعمل عمله في الذاكرة ، وسيكون لنا فيه حديث .

ثمّ يأتي دور سُهيل في انفراده ، والسُّهَا في فتوره ،ومعلّى القطب بين رايَتيْهِ، والنسر الواقع ، فيجرّد منه صورة الريش المقطوع فلم يقدر على الطيران ، أما أخوه فقد صعد إلى القمر فاقتطع منه شطراً ، وبذلك فسّر صفتَي الواقع والطائر :

20/31	كأنَّ سُهيلاً في مطالع أفقِهِ	مُفارق إلفٍ لم يجد بعدَه إلفاً
21	كأنّ سهاها عاشقٌ بين عُوَّدٍ	فآونةً يبدو، وآونةً يخفَىٰ
22	كأنّ معلّىٰ قطبها فارسٌ له	لواءان مركُوزان، قد كره الزحفا
23	كأنّ قدامى النسر، والنسر واقعٌ	قُصِصْنَ ، فلم تسمُ الخوافي به ضُعْفَا
24	كأنَّ أخاه حين دوّم طائراً	أتىٰ دون نصف البدر فاختطف النصفا

ويختم المشهد بعودة إلى القتال بين الليل والنهار ، فقد انهزم الظلام فترنّح كالسكران ، ثم لاذ بالفرار أمام عسكر الفجر ، إلاّ أن الشاعر في هٰذه المرّة مثّل للمقابلة المعهودة بين البياض والسواد بصراع بين قائد تركيّ ـ

---

(1) في بيته المعروف :

ضممت جناحَيْهم على القلب ضمَّة   تموت الخوافِي تحتَها والقَوَادِمُ

والأتراك بيضٌ - وقائد حبشيّ :

26/31 كأنَّ ظلامَ الليل إذ مال ميلةً
صريعُ مُدام بَات يشربُها صرفا

27 كأنّ عمودَ الفجر خاقانُ عسكر
من الترك، نادى بالنجاشيِّ فاستخفى

التشبيه المقلوب

بعد هٰذه الأبيات التي يتضمن كل واحد منها تشبيهاً في شكل صورة أو افتراض، يصل الشاعر الى المدح، مباشرةً دون تدرّجٍ في التخلّص. ولكنّ هٰذا الانتقال السريع ليس خاصّيّة المولّدين أو المحدثين ، فقد يوجد عند القدماء أيضاً، وإن كان النقّاد المنظّرون يفضّلون التخلّص التدريجيَّ. وقد بدأ شاعرُنا بيت التخلّص أيضاً بـ « كأنَّ » ، فهل اعتبرَ تكرار الأداة تخلّصاً كافياً ؟

إلّا أنّ الأهمّ في البيت هو التشبيه المقلوب ، فلواء الشمس ، وقد انتصرت أخيراً على الظلام ، هو الذي يشبه وجهَ الممدوح وقد تلألأ حين أبصَر بعدوّه :

28/31 كأنَّ لواء الشمس غرَّةُ جعفرٍ رأى القِرنَ فازدادت طلاقتُه ضعفاً

ومعلوم أن التشبيه المقلوب من الأساليب المحْبُوبَة عند البلاغِيّين ، لما يرون فيه من تقوية للمماثلة وتأكيد على وجه الشبه ، بصورة تجعل الأمر المتحدّثَ عنه أعظم في الصورة المقصودة من المثيل الذي يُتَّخَذُ عادةً معياراً لها . وشاعرنا يجنح كثيراً الى هٰذا التوكيد كأن يدّعي أن البحر هو الذي يشبه الممدوح في جوده : [متقارب]

11/50 فأشبهك البحرُ إن قيل : ذا غِطَمّ ، وهذا جوادٌ خِضَمّ

والتوكيد والتقوية يجرّان عادةً الى الغلوّ ، مثلما وقع في البيت التالي

الذي اشترك فيه التشبيه المقلوب مع المبالغة : [كامل]

29/53 لـو كان في الـطوفان جـودُ يمينِهِ لم يُنـجِ نوحـاً فُلكُـه المشحـونُ

وهنا قد خفّف المبالغة بحرف الافتراض ؛ ولكنه لا يلتمس دائماً مثل هذا التخفيف ، كأن يدّعِيَ أنّ جيش الممدوح غطّى البحرَ بأسره : [كامل]

37/9 حتى إذا غَمَرَ البحارَ كتائباً . . .

فلا تكفيه هٰذه المبالغة فيضيف افتراضاً لعلّه أقرب الى التفكه منه الى الجدّ ، وهو أن هٰذا الجيش لو شربَ كلّ واحدٍ من أفراده قطرة من البحر لَنَفِدَ ماؤُه وجفّ :

. . . لو يرتشِفْنَ أُجَاجَها لأُمِيحَا

وأداة الشرط « لو » ، بوضعها الدلاليّ الذي جعلها « حرفَ امتناعٍ لامتناعٍ »، أي تدلّ على صعوبة ـ بل استحالة ـ تحقيقَ الافتراض، تسمح للشعراء بأنواع من المبالغة المشروعة ؛ فهٰذا المعزّ يتصرّف في الحظوظ والأعمار حتى لكأنّه قادرٌ على إحياء الموتى :

22/9 نَعَشَ الجدودَ فلو يصافـحُ هالكـاً مـا وَسَّدَتْـهُ يد المنـون ضـريحـاً

ولكنّهُ يستغني أحياناً عن أداة التخفيف هٰذه ، فتأتي الفكرة غريبةً بل ممجوجةً : كأنْ يبرّر عُذوبة التقبيل بحلاوة الأفواه ، وحلاوتُها مكتسبَةٌ من ذكرها لخِصال الممدوح : [كامل]

30/6 قـد طيّب الأفـواهَ طيبُ ثنـائِـهِ مِن أجـلِ ذا نجدُ الثغـورَ عذابَـا

ولا شكّ أنّ هٰذا الإفراط في التخيّل وهٰذا الالتواء في التعبير عن الفكرة كانا محبّبَين لدى الجمهور الذي يروج بينه هذا الشعر ، لا فرق بينه وبين جمهور بغداد أو حلب. فقد دخلت الصنعة الى المغرب أيضاً والأندلس، وصارت من العادات والتقاليد التي يتبارى الشعراء في اتّباعها وفي توسيعها .

بهٰذا الميل الى التكلّف نفسّر اعجاب النقّاد طيلة عصور وعصور بهٰذا التشبيه الذي يبعث على الضحك ، حتى مع العلم أن العقرب هي خصلة الشعر :

46/4 وكـأنَّ صفحةَ خـدِّه وعذارَهُ تُفَّـاحةٌ رُمِيَتْ لتقتُـلَ عقربَـا

الجنـــاس

تتجاوز الصنعة حيّز التصوّر والخيالات إلى حيّز اللفظ ، فيختار الشاعر الكلمات التي يتكرّر فيها جرسٌ مَّا ، قصد إحداث وقع خاصٍّ في نفس السامع ، كالإكثار من حروف الإطباق للإشعار بضرب الطبول ونحوها ، أو من حروف الصفير للإيحاء بصلصلة السيوف . ذاك هو الجناس المستحبّ الذي يرمي الى تعزيز المعنى بالأصوات المناسبة والأجراس التي تخدمه . ولكن هيهات ، سرعان ما تركُوا هذه الغاية وصاروا يقصدون الجناس لذاته ، في نوع من البهلنة اللفظيّة ، خصوصاً إذا ما وافقت المجانسة الخطيّة مجـانسَةَ الأصوات : [طويل] .

15/8 تـرفّـع عنـا سجفـه فكـأنّـه يُحيّي بيَحْيى صُبحَهُ المتبلّجا(1)

التورية أو اللبس المقصود

وهو أن يستخدمَ الكلمةَ في مدلولَين مختلفين فتذهب النفس الى أحدهما مع أن الشاعر أراد الآخر ، مثل الأزدواجيّة الحاصلة في كلمة « جفن » ، أهو جفن العين ، بقرينة الماء ، أي الدمع ، أم جفن السيف ، بقرينة السلم والأعناق [طويل] :

36/42 تُـرَشِّفُها في السلم مـاءَ جفـونهـا فتجْـزَأُ عن ماءِ الـطلى والبآدلِ(2)

(1) يحيّي مضارع حَيّى ويحيى ابن حمدون هو ممدوحه .

(2) تجزأ عن : تغني أو تستغني عن . . . والبآدل ج بأدلة صفحة العنُق .

فيتوجّه البيت الى فهمين ممكِنَين : السيوف تشربُ دموعَها كمداً ، وكمَدُها ناتجٌ عن قعودها عن المعارك . أو هي تشرب دم أغمادها ، انتقاماً لنفسِها من بطالتها التي أثقلتها .

وبعد ، هٰذه النماذج من الصنعة ينبغي أن لا تحملنا على حشر ابن هانىء في مدرسة البديع وجعله من أتباع أبي تمّام وابن المعتزّ لا غير . فالتأنّق في التعبير والتلطّف في تجديد الفكرة ليسا وليدَيْ القرن الثالث/ التاسع ، بل حتى الجاهليّون كانوا يسهرون ويقلّبون ويحوّرون حتى يستوِيَ لهم «الحوليُّ المحكّكُ » ، ويزعم ابن هانىء نفسه أنّه جعل هؤلاء القدماء نُصب عينيه فصاروا عنده المثال الذي يُحتذى . على أن إكثاره من هٰـذه الأساليب والمحسّنات يخرجه عن صفّ شعراء الفطرة والعفوية ويقرّبه من شعراء التعمّل والصنعة .

الازدواج داخل البيت

هو ضرب من الموازنة بين الصدر والعجز يفضي الى تقسيم البيت إلى وحدَتين معطوفتين متوازيتين في عدد الكلمات وموازينها ، متماثلتين في المعنى أو مختلفتين . ويسمّيه البلاغيّون « ردّ الأعجاز على الصدور » . وهو امتدادٌ للقاعدة العروضيّة التي توجب استقلالَ البيت عن سابقه وعن لاحقِه . فالاستقلال هنا يلحق الشطرين أيضاً ، فيختلفان أو يتشابهان في المعنى ، ولكنهما يتساويان في الكمّية الصوتيّة : [رمل]

فلقـد ذكَّـر مَن كـان سهـا	ولقــد نبّـهَ مَن كــان رَقَـدْ	7/14
فـإذا مـا كـدّر العيشَ نَمَـا	وإذا مـا طيّبَ الـزادَ نَفِــدْ	6

وقد يؤكّد الشعراء على المماثلة فيجعلون للصدر قافية كما للعجز . الاّ أنّ القاعدة المتّبعة هي أن لا تتماثَل القافية في الضرب والعروض الا في مطلع القصيد. ولكنّ القدامى كانوا يتصرّفون بحرّيّة، فربّما صرَّعوا البيت ـ أي

جعلوا لشطريه نفس القافية ـ في داخل القصيدة ولا يصرّعون مطلعها . وقد ساق ابن رشيق منه نماذج عند الجاهليّين والإسلاميّين [1] .

هذا النوع من التصريع هو النوع البسيط المتداول . ولكنّ الشعراء تفنّنوا وأغرقُوا فقسَمُوا البيت ، لا إلى وحدتَين متوازِيَتَيْن فقط ، بل إلى ثلاث وحتى أربع وحدات ، وختَموا كل وحدة أحياناً بقافية مماثلة للقافية الختاميّة ، وابتهج أهل الصنعة بهٰذا الاكتشاف فرحّبوا به وأطلقوا عليه اسم « الترصيع » . وعند شاعرنا نجد منه أنواعاً ، من التقسيم الثنائيّ كما رأينا ، الى الثلاثي : [كامل]

15/53 والزاغِبيَّةُ شُـرَّعٌ ، والمشرفـ ـيّة لُمَّعٌ ، والمُقربات صفوفُ [2]

إلى الرباعي : [طويل] .

16/3 فؤادُك خفّاقٌ ، ووكرُكَ نازحٌ وروضُك مطلولٌ ، وبانُك مهضوبُ

وحتّى السداسي ، مثلما في هٰذا البيت الذي يحكي بتقطّعه سرعة الحركة في أذنَي الفرس : [كامل]

15/30 فتقـدّمـا وتنصّبـا وتـذَلّقـا وتلطّفـا وتشـرّفـا وتحـرّفـا

ولا يكون النجاح حليفه دائماً ، بل يتورّط أحياناً في أبياتٍ لا قيمة لها إلّا التراكم المعجمي الذي يَضطرّه اليه طلب القافية الداخليّة : [كامل] .

19/45 وعـوابس وقوانس وفـوارس وكوانس وأوانس وعقائـل [3]

والتنويع يلحق المعاني أيضاً فربّما كان العطف بين الوحدتين يحمل مقابلةً كالمقابلة بين حالتي الحرب والسلم عند المعزّ ، الا أنّهما حالتان تتشابهان في أمر : السيول من الدم ، دم الأعداء أو دم الأضاحي : [طويل]

---

(1) العمدة 175/1 . قال في الفرزدق : وكان قليلاً ما يصرّع او يلقي بالاً بالشعر .

(2) الزاعبيّة الرماح . والمقربات هي الخيل .

(3) القوانس : الأسنّة . الكوانس : الظباء في كناسها .

25/3 فان تك حربٌ ، فالمفارقُ والطلى وإن يك سلم ، فالشوى والعراقيبُ[1]

أو ترميان الى نفس النتيجة ، كبيان عتق خيل المعزّ : [متقارب]

23/58 ومن رِفقها أنها لا تُحسّ ومِن عَدْوها أنّها لا تُرى

هٰذه الأساليب تُعجب النفس إذا وردت لماماً بين الفينة والفينة ، وإذا رمتْ الى غرض معنويّ فحقّقَتْه . أمّا إذا كثرت وَتكرّرت واقتصرت على الرياضة اللفظيّة والبلهنة العروضيّة ، فانها تستثقل وتمجّها النفس . هٰذا ما عبّر عنه أبو هلال العسكري بعد أن نقل نماذج من الترصيع المكروه عند القدماء كالخنساء وأبي صخر الهذليّ[2] . وهٰذا ما يقع فيه صاحبنا أحياناً : ففي القصيدة الخمسين مثلاً ، صرّع ورصّع خمسةً وعشرين بيتاً ـ من خمسة وسبعين ـ أي ثلُث القصيدة !

لغة الشاعر . طلب الغريب

نبّه المرحوم زاهد علي ، شارح الديوان ، الى بعض المفردات من قاموس الشاعر « غير مقيّدة في كتب اللغة المتداولة[3] » فأحصى منها ثلاثين كلمة . وهي في الحقيقة كلمات عربيّة ، وأوزانها توافق أوزان الصرف والاشتقاق ، الاّ أن المدلولَ الذي يسنده اليها الشاعر يخرج عن المتعارف ، مثل « التاح » ـ افتعل من لاح يلوح ـ في معنى المجرّد ، أو « استبدّ » في معنى : وَجَدَ بُدًّا مِنْ كذا ، أي وجد مخرجاً ، فـ « لا نستبدّ » في البيت التالي تعني عنده : لا نجد حيلة : [متقارب]

---

(1) الشوى : أطراف البدَن .

(2) الصناعتين 392 . قال : « وقد تعاطى نَفَر من القدماء [هذا النوع] فظهر فيه أثرُ التكلّفِ ، وبان عليه سمةُ التعسّف » . وعرّف الترصيع بقوله : « أن يكون حَشوُ البيتِ مسجوعاً » .

(3) تبيين المعاني ص 59 من المقدمة .

91/14 كلّنـا نبشـع من كـأس الـردى   غيـر أنّـا لا نـرانـا نستـبـدّ

وهي نماذج ، إن صحّ شذوذها في المعنى ـ وهٰذا يقتضي بحثاً مدقّقاً مطوّلاً في لغة الشاعر ومقاييسها الصرفيّة مَعَ مُقارنتِها بالعُرْفِ المَعْجَمِيّ ـ تدلّ على أنّ ابن هانىء ، مثل كلّ المبدعين ، لا يتهيّب الابتكار الجريءَ وخلقَ المدلولات التي لم تدوّنها المعاجمُ .

ولكنّ الغريب الذي نقصده هو الكلمات المهجورة لثقل جرسها ونبوّ حروفها مع صحّة انتسابها الى لغة الضاد ، كأنّ الشاعر ، وقد أراد أن يفرض نفسه في جميع الأغراض والأساليب التي اشتهرَ بها القدماء ، تعمَّد نوعاً من « التمارين الأسلوبيّة » فأخذ نفسه بصنع شعر بدويّ . وقد فاته أنّ شعراء الحماسة والهذليّين وأصحاب المعلّقات لم يعمدُوا الى معتاص اللفظ ولم يقصـدوا اليه قصداً ، بل كثيراً ما يأتي كلامهم سلساً مقبولاً محبوباً مع الجزالة والدقّة . وصاحبنا لا يكتفي بالكلمة الواحدة ، بل يثقل البيت بـالثنتين والثلاث ، فيستغلق الفهم وتشمئزّ الأذن : [طويل]

1/47 أصاخت فقالت : وقع أجرد شيظم   وشامت فقالت : لمعُ أبيض مِخْذَمِ

ممّا دفع ابن رشيق الى الاستنكار فضمّ شاعرَنا الى « أصحاب الجلبة والقعقعة بلا طائل معنى . . . وليس تحت هٰذا كلّه الاّ الفساد ، وخلافُ المراد » ويأسف لترك ابن هانىء السليقة وجنوحه الى التكلّف فيضيف : « إذا عمل بطبعِه وعلى سجيّتِه ، دخلَ في جملة الفضلاء . وإذا تكلَّفَ الفخامةَ وسلك طريق الصنعة ، أضرّ بنفسِه وأتعَبَ سامِعَ شعره[1] » .

ولا شكّ أن الطبع خانَه ، والذوق خالفه ، حين نظم قصيدتين على رويّ الثاء والخـاء ، فالتمس لهما القوافي فاضطرّ الى تجريد المعاجم من موادّها المختومة بهٰذين الحرفين ، فانتقى من الثاء أربعاً وعشرين مادّة ـ من

(1) العمدة 125/1 .

التسعين التي تذكرها المعاجم ـ واختار من الخاء ثلاثاً وأربعين من مائة وأربع عشرة ، أي اضطرّ الى استعمال ثلث المادّتَين تقريباً ، ولم يعصمْه الانتقاء من الوقوع في الحوشيّ النابي كالفرع الجُثَاجِث ، أي الشعرَ الكثيف : [طويل] .

29/7 تورَّعْتَ عن دنياك ، وهي غريرةٌ   لها مبسِمٌ بَرْدٌ وفَرْعٌ جُثَاجِثُ

أو الطخطخة ، في معنى ظلام الليل أو ضعف البصر : [طويل]

45/11 رجالٌ أضلُّوا رائداً فهَدَيتُمُ   وجَلّيتُمُ عنه العَمَاء وطَخْطَخُوا

الرصيد الثقافيّ المشترك

إنّ تعلّق ابن هانىء بالبداوة لا يتمثّل فقط في شغفه باللفظ الجزل والكلمة القويّة وحتّى الحوشيّة، وإنّما يتعدّى أيضاً الى العادات العربيّة والتقاليد الجاهليّة ، والأعلام المشهورين بشجاعتهم أو حلمهم أو كرمهم ، وأسماء الأماكن التي ردّدها الشعراء القدامى ، وحتى أعلام الخيل والإبل . هٰذا علاوة على التقاليد الأدبيّة التي صارت بكثرة التداول قواعد راسخة ، كالوقفة الباكية على الأطلال ، والرحلة المضنية الى الممدوح ، في حرّ الهجير ومخاطر الوحوش .

وقد سقنا، أثناء دراستنا لمقدّمات قصائده في الفصل السابع، نماذج كثيرةً من هٰذا الذي نسمّيه الرصيد الثقافيّ لكل عربيّ له نصيب من العلم والمعرفة ، وقد قيل ان الثقافة هي ما يتبقّى في أغوار النفس بعد أن ينسى المرءُ كلّ ما تعلّمه . والعلم الذي يتلقّاه الطالبُ العربيّ كان الى عهد غير بعيد يُستمدّ من « الميثولوجيّة » الجاهليّة والإسلاميّة ، أي من روايات أيّام العرب وأمجاد القبائل وشجاعة المجاهدين الفاتحين ، وقيَم الشعراء الفرسان والمثُل العليا السائدة عند شيوخ العشائر ، حتى صارت أسماء حاتم أو كعب بن مامة

أو هرم بن سنان أو كليب وائل أو بسطام بن قيس أعلاماً مندمجةً في الرصيد اللغويّ ، كأنها رموز للكرم والشجاعةوالعزّة[1] . فإذا صار الشاعر أو الكاتب الى مدح جوادٍ ذكر بصفةٍ آلية حاتماً أو هرماً ، وإذا أراد تمثيل الشجاعة استحضر في الحال صورة عنترة أو خالد العامريّ ، مثلما أنّ الشاعر المتغزّل إذا ما وصف تثنّي محبوبتِه مثّلَ قوامها بغصن البان ، وقد لا يعرف ما هو البان ولا رآه قطّ .

وليست هٰذه الصور الجاهزة ، أو « الكليشيات » كما يقولون استهجاناً ، ليست خاصّة بالحساسيّة العربيّة . فالمثقف الأوروبيّ يستحضِرُ أيضاً بصفة شبه آليّة الرصيد الإغريقي ـ اللاتينيّ الذي تلقّاه في دروس « الإنسانيّات الكلاسيكيّة » . بقيَ أن الفرقَ بينَه وبين المتأدّب العربي القديم يكمن في أنّ الفرنسي أو الإيطاليّ قد يستحضر أيضاً بطولاتٍ محلّيّة فرنسية أو إيطاليّة أو إسبانيّة ويراجع تاريخ بلاده وأمجاد وطنه . أمّا الإفريقي في القرن الرابع وحتى بعده ، أمّا المغربيّ وحتى الأندلسيّ ، فلا يحيلُ ذاكرتَهُ الاّ الى الموروث الثقافيّ فإذا رامَ تشبيه رصانة الممدوح وحلمَه لم يتّجه الى الجبال القريبة منه ، بل الى جبل رضوى الحجازيّ أو متالع الطائي . وإذا أشاد ابن هانىء بعظمة السفن المعزّيّة ، المنشآتِ في البحر كالأعلام ، فالعلَم الذي يتبادر الى ذهنه ليس جبلاً مغربياً ، بل هُوَ كبكب المحاذِي لعرفات : [طويل]

39/13 وليس بأعلى كبكبٌ ، وهو شاهقٌ وليس من الصُّفّاح ، وهو صَلودُ

وإذا عظّم مناعة الحصن الذي افتتحه جعفر ، مَثَّلَهُ بحصن السموأل وحوّل جبال كيانة الى بادية تيماء في جزيرة العرب : [طويل]

1/16 بلى ! هٰذه تيماءُ ، والأبلق الفردُ فَسَلْ أجماتِ الأُسدِ ما فعل الأسدُ !

---

(1) انظر في هذا الصدد تحقيقنا للقصيدة الفزاريّة في الحوليّات 1973/10 . وكذلك دراستنا لأدب أيام العرب : الحوليّات 1980/20 .

والخيل لا تكون الّا من سلالة ذي العقّال وأعوج : [كامل]

25/24 من آل أعـوج والصريـح وداحس فيهِـن منـهـا ميـسـم ونِـجـارُ

وكذلك الحبيبة ، أسماء أو هند أو أروى ، لا تكون الّا أزدية مثله أو طائيّة متمنّعة أو عدويّة شامخة .

ولسنا نعيب على الشاعر المغربيّ انصرافَهُ عن محيطه ولا نتّهمه بخيانة وطنه ولا نرميه بالمسخ الثقافيّ ، فهو يستحضِرُ ما لقنَه ويُرجعُ ما أُعطِيَه ويعتبر أنّه يؤدّي أمانةً الى أهلها ، والأهلُ هم كل الشعوب التي تغطّيها الثقافة العربيّة ـ الإسلامية . ولعلّه إن هو ذكر جبلًا بافريقية عوضاً عن يذبل ، أو نهراً مغربيًّا بدلاً من الفرات أو النيل ، حكم على شعره بالمحدوديّة الإقليميّة الضيّقة وصرَفهُ عن الرواج وأغلق في وجهِه الأفهامَ .

الميل إلى الأقـدمـين

اعتماداً على هذه الأزدواجيّة بين القديم والحديث في شعر ابن هانىء ، قد نكون محمولين على وضعه في منزلة وسطى بين مدرسة الجاهليّين ومدرسة المولّدين أصحاب الصنعة . هذا بالرغم من رفضه هو أن ينسب الى أبي تمّام وأضرابه من بعيد أو من قريب ، فقد أعلن عن ميوله الأدبيّة في قصيدة أشاد فيها بفصاحة الممدوح ، فقال إنّ بيانَ هذا البكريّ يؤهّله أن يكون صنواً لا للطائِيّين ولا حتى للفرزدق وجرير ، بل لفحول الأقدمين كعلقمة وامرىء القيس : [بسيط]

20/60 ثقفتُ منـه أديبـاً شـاعـراً لسنـاً شتّى الأعاريض محذورَ الأحاجيّ
22 مستـطلعـاً لجـوابي من بـديهتِـهِ فمـا يجـاوبُـهُ مثـلُ النـواسيّ
23 من لا يفـاخر بـالـطائيّ في زمنٍ ولا الخزاعيّ في عصر الخـزاعيّ
24 ولا الـفــرزدق ، والـفـخـار لـه ولا جريرٍ ، ولا الـراعي النميريّ

25 لكن بعلقمةَ الفحل الـذي زعمُوا في الشعر، أو بامرىء القيس المراريّ

وكأنّه نسيَ تقليده لأبي نواس في الرحلة الخمريّة وللفرزدق او عمر في المغامرة الغزليّة . ولكنّ هذا التناقض معروف عاديّ عند من يُصدرون الشعارات والبيانات دون أن يوائمُوا بين المبادىء الطنّانة وواقع تجربتهم الشعريّة .

ويعود الى الإعلان عمّن يُعجب بهم من الشعراء السابقين فيطرح الحجازيّين وشعراء القرن الأوّل من حسابه ، ولا يرتضي قِرناً له إلا عَبيد بن الأبرص : [كامل]

43/25 صنع يؤلّف من نظام كواكب طلعت لغير كثيّر والأحوص
متبلّجات قيل في أزديّها ما قيل في أسْديّة ابن الأبرص

وحتّى إن بدا منه بعض الترفّع عن شاعر جاهليّ كما في هذا البيت : [متقارب]

28/58 ومن أجل ذلك لا غيره رأى الغنويُّ بها ما رأى
29 وكان يجيد صفاتِ الجيادِ وإنّ بها اليومَ عنه غنى

فإنّما هو ترفّع في الظاهر فقط ، فالتخريج الصحيح يبقي لطفيّل صفتَه البارزة وهي الإجادة في وصف الخيل والاطّلاع على كل خصالها ، إلاّ أنّ المعزّ أيضاً بها عارفٌ وعليها عطوف فصارت في غنى عن الغنويّ .

ابن هانىء والمتنبّي

هذا موقف صاحبنا من شعراء صدر الإسلام والقرن الثالث ، وهذا إعجابه العلنيُّ بالفحول الأقدمين . أمّا موقفُهُ من معاصره الكبير ، أبي الطيّب المتنبّي ، فلا يخلو من غموض كما سنرى بعد قليل . وإنّ ما يتّفقان فيه من

إجادة في المدح وغلوّ في المعاني ومتانة في التعبير وتوسّع في الخيال ، حمل النقاد وأصحاب المختارات الى المقارنة بينهما ، بل جاوز بعضهم المقارنة فاختلقَ أو تخيّل لقاءً بين الشاعرين على شواطىء قابس[1] . فالتشابه في الأغراض والأسلوب مبرّر أوّل للمقارنة بين شاعر سيف الدولة وشاعر المعزّ ، ولكنّ المبرّر الحقيقيّ هو ميل المشارقة الى اعتبار أنفسهم أوصياء ثقافيّين على المغرب ، وشعور المغاربة بأنّهم مدينون للمشرق ، وهو منبع الثقافة العربيّة الإسلامية ، بكلّ ما لقنوه وحفظوه . وهكذا فعبارة « متنبّي الغرب » التي أطلِقت على صاحبنا قد تؤوَّل بتأويلين : تأويل الاستعلاء إذا كان أوّل الناطقين بها مشرقيّاً ، وذلك بجعل المتنبّي في موقع المشبّه به ، أي المعيار الذي يقاس عليه والمثال الذي يحتذى . أو تأويل الغيرة والمنافسة إذا كانت العبارة صادرة عن مغربيّ ، فكأنّه يباهي المشرق بهذا الشاعر الذي وصل إلى مرتبة شاعرهم الكبير رغم اختلاف البيئة وحداثة السنّة الثقافيّة وعجمة المحيط الخ . . . وعلى هذا النمط يمكن أن نبرّر أيضاً التماسَهم نظيراً للبحتريّ تارةً في ابن درّاج القسطلّيّ وأخرى في ابن زيدون القرطبي وحتى في عليّ الإيادي التونسيّ . هذا الاستعلاء المشرقيّ قد مثّلته قولة الصاحب بن عبّاد حين تصفّح كتاب العقد الأندلسي فقال ، مثل إخوة يوسف: ﴿هذهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾[2] .
أمّا الشعور بالنقص والتبعيّة عند المغاربة فلم يطل ، بل سرعان ما انقلب الى اعتزاز بالأمجاد المحليّة وتعلّق بفضائل الأندلس كما يظهر من كتابات ابن حزم وابن بسّام والشقندي ؛ وتتّخذ المباهاة أشكالاً فكهة كتفضيل لسان الدين نهرَ الشَّنيل الغرناطيّ على النيل المصري ، لأنّ حرف الشّين في حساب الجمّل يساوي ألفاً[3] فأصبح للأندلس ألفُ نيل ! وقريباً منا ، فضّل بعضُ شعرائنا نهر مجردَة على النيل لا لشيءٍ إلا لأنّ النهر التونسيّ خلوٌ من التماسيح ، فالسباحة فيه آمنة[4] .

(1) شذرات الذهب لابن العماد 42/3 تحت سنة 362 .
(2) يوسف ، 65 .
(3) إحاطة نشرة عنان 124 و 341 .
(4) ولعلّ شاعرنا أخذ الملحة من نفح الطيب 308/1 (الرفاعي) : « ونهرها نيل بلا تمساح ! » .

ومهما يكن من دوافع هذه المقارنة بين ابن هانىء والمتنبّي، فإن عبارة المماثَلة هذه ـ وهي من كلام ابن خلّكان في الأصل ـ قد أُسيءَ نقلُها وأُسيءَ فهمُها . فصاحب الوفيات اكتفى بأن قال: «وهو عند المغاربة كالمتنبّي عند المشارقة» فقارن بين منزلة الشاعريْن كلّ عند قومه ، لا بين الشاعرين ولا حَكَمَ بينَهُمَا ولا قابل الواحدَ بالآخر . ولكنّ العبارة نفقت وراجت حتى صار ابن هانىء يدعى متنبّي الغرب وبقي هذا اللقب لاصقاً به الى اليوم . ولكن لندرس بالتدقيق موقفه من صنوه أو منافِسِهِ !

القصيدة الحادية والعشرون في المتنبّي

لقد لفَتْنا النظر، بعد قارثيا ـ قومث، إلى أهميّة هذه القصيدة، لتحديد موقف ابن هانىء من أبي الطيّب. وظروف نظمها مذكورة في التوطئة، ومفادها أنّ الشاعر استعار من أديب افريقيّ نسخة من ديوان المتنبّي مصحوبة بشرح ولكنّه أبطأ في إرجاعها وماطل، فغضب صاحبُها واقتضاه بلهجة عنيفة. فنظم الشاعر الأبيات ، يلومه على اساءة الأدب ويتهكّم بقصوره عن فهم شعر المتنبّي فضلاً عن شرحه . والقصيدة بعد هذا لا تخلو من غموض ، وكثير من أبياتها يضطرّنا إلى التأويل والافتراض .

يبدأ الشاعر بالإشارة إلى علوّ صيت الشاعر بإفريقيّة ، ولكنه صيت مبنيّ على سو فهم لشعره ، واندفاع نحو الشهرة العابرة . أما هو ، فلا يرسل الأحكام جزافاً واعتباطاً ولا ينساق مع الهوى السائد : [بسيط]

1/21 تنبّه المتنبّي فيكمُ عُصُرا ولو رأى رأيكم في شعره كفرَا[1]
2 مهلاً ! فلا المتنبّي بالنبيّ، وَلَا أَعُدّ أمثالَه في شعره السُّورَا

ثمّ يستغرب ادّعَاءَ الخصم أنّه لَقِيَ المتنبّي وأخذ عنهُ الديوانَ مشافهَةً ،

---

(1) اخترنا قراءة «تنبّه» عوض «تنبّأ» وقد وردت القراءتان في النسخ .

مع أنّ الشرح الذي صنّفه لا يخدم قطّ شهرة المتنبّي نظراً لما فيه من تحريف للّفظ والمعنى ، ومن تخريجاتٍ مضحكة :

3/21 تِـهتـم علينـا بمـرآه، وعـلّكُـمُ — لم تدركُوا منـه لا عيناً ولا أثـراً
4 هذا ، على أنكم لم تنصفوه ، ولا — أورثتمـوه حميدَ الـذكـر إن ذُكـرا
5 ويلُمِّـهِ شـاعـراً أخملتُمُـوهُ ، وَلَمْ — تُعْلُوا لـه عندنـا ذكراً ولا خَـطَرَا
6 فقـد حمَلتُم عليـه في قصـائـده — ما يضحِكُ الثقلَيْنِ ، الجنّ والبشرَا
7 صَفَّحْتُمُ اللفظ والمعنى عليه معاً — في حـالةٍ ، وزعمتُمْ أنّـهُ حُصِـرَا
8 إذ تقسمـون بـرأس العيـر أنكُمُ — شافهتموه ، فهل شافهتمُ الحجرَا ؟

ويؤكّد على جهْل هذا الشارح المدّعي العلم ويسخر من شرحه المزعوم الذي كان يـثنِي المتنبّي عن قول الشعر ويزهّده فيه لو قرأه :

9/21 فما يقول لنـا القرطـاس ويلكُمُ ؟ — إنّـا نـرى عـظةً فيكم ومعتَبَـرَا
10 شعـراً أحـطتُم بـه علمـاً كـأنكُمُ — فاوضتمُ العير في فحواه والحُمُرَا
11 فلو أصـاخ اليكم سمـعُ قـائِلِهِ — ما بات يعمل في تحبيره الفكَرَا[1]
12 أريتمـونـي مثـالاً مـن روايتـكم — كالأعجميّ أتى لا يفصح الخبـرَا

ثمّ يذكر أنّه سهر عليه الليالي - على الشرح في رأينا - يُصلحُ ويقوِّمُ ويصوّب، حتى كاد يستـوي شرحـاً مقبولاً، فـإذا بالخصم يتقـاضاهُ في إلحاح وعنجهيّة :

13/21 أصمّ أعمى ، ولكنّي سهـرت له — حتى رددتُ اليه السّمع والبصـرَا
14 كـانت معانيـه ليلاً فـامتعضتُ له — حتى إذا ما بهرنَ الشَّمْسَ والقَمرَا
15 ضجـرتُمُ ، وأتـانـا من مَـلامكمُ — ومن معاريضكم ما يشبهُ الضجَرَا
16 تتـرى رسـائلكم فيـه ورُسْـلكُمُ — إذا أتـت زمـراً أردفتُـمُ زُمـرا

---

(1) في جميع النسخ : لو يصيخ ، ولا يستقيم المضارع مع الإشارة في البيت 18 الى أن المتنبّي مات . فلذلك حوّلنا الفعل الى الماضي . على أنّ هذا الإصلاح لا يعيّن الافتراض ضرورةً للزمن الماضي .

17 فلو رأى ما دهاني من كتابكُمُ   وما دهى شعرَه منكم ، لما شَعَرَا
18 ولو حرصتم على إحياءِ مُهجَتِهِ   كما حرصتم على ديوانِهِ ، نُشِرَا

فاضطرّ إلى إرجاعه برمّته ـ بعد أن حاول استبقاء أجزاء منه لمزيد من الشرح ؟ ـ فبقي منقوصاً مشوّهاً ، وعلى كلّ حالٍ ، ما كان الخصمُ لينتفعَ به نظراً لضعف بصره بالشعر وسطحيّة تفكيره وفساد ذوقه :

19 هَبُوا الكتاب رددناه برمّته   فمن يردّ لكُم أذهانَكُمْ أُخَرَا ؟
20 لئن أعدتُ عليكم منه ما ظَهَرَا   فما أعدتُ عليكم منه ما استترَا
21 أعرتموني نفيساً منه في أدمٍ   فَمَن لكم أن تعارُوا البحث والنظَرا !؟

هذه القصيدة تدفعنا الى استخلاص الملاحظات التالية ، وقد سبق ڤارثيا ـ قوميث الى البعض منها :

1 ـ أنّ ديوان المتنبّي قد وصل إلى افريقيّة مبكّراً ، في حياة الشاعر أو بعد وفاته (965/354) بقليل .

2 ـ أن الأوساط الأدبيّة بإفريقيّة تعلّقت بالديوان وطلبت له الشروح وأُعجبت بصاحبه ، وربّما زهدت بالتالي في الشعراء المحلّيّين ، ومن بينهم ابن هانىء .

3 ـ أنّ شاعرنا، رغم تحفّظه إزاء شهرة المتنبّي ، قد سهر الليالي في دراسة شعره وربّما اعتزم أن يؤلّف شرحاً على الديوان أو شرع فيه فعلاً ، حسب ما نفهم من الأبيات 13-14 و 19-20 . ولا ذكر لهٰذا الشرح عند المترجمين للشاعر ، فلعلّه لم يتجاوز حدّ النيّة والعزم . وعلى كلّ حال ، فإنّ ابن هانىء يعترف بأنّه درس هٰذا الديوان مدّة طويلة وسهر عليه وعالجَهُ ظاهراً وباطناً . وفي هٰذه الممارسة ما قد يفسّر الشبَهَ الكثير الذي يُلاحَظُ في شعر الشاعرين ، أي يؤيّد فكرة التأثّر بالمتنبّي ، إن لم نقل تقليد المتنبّي .

4 ـ أنّ ابن هانىء متذبذب إزاء أبي الطيب : لا يشاطر الناسَ إعجابهُم

المفرط به ، ولا يتجاسر على انتقاصه صراحةً .

5 ـ لعلّ الاهتمام بالمتنبّي المتمثل في هٰذه القصيدة بالذات ، هو السبب في تلقيب شاعرنا بـ « متنبّي الغرب » ، بقطع النظر عن عبارة ابن خلّكان . فيكون اللقب صادراً عن اعتزاز من المغاربة بشاعرهم وتباهٍ به ـ لكم متنبيكم ولنا متنبّينا ـ وأيضاً عن خوفٍ من منافسَةٍ ممكنةٍ من شعراء قادمين من المشرق . وهٰذا الخوف هو الذي ولّد في نظرنا خرافة اللقاء بين الشاعرين على خليج قابس . وبوادرُ المنافسة قد تمثّلت في المدحة التي أرسلها الصنوبريّ من حلب إلى جعفر بن حمدون .

6 ـ ليس من السهل أن نبتّ في مسألة تأثّر ابن هانىء بالمتنبّي . فما يلاحظ من تشابه في شعرهما ليس بالضرورة نقلاً أو تقليداً أو محاكاةً ، وإنما هو في بعض القصائد تشابهٌ في المعاني والأغراض تولّد عن تشابه في الظروف والحالات ، كالقصائد الجهاديّة مثلاً : فالخصم هو الروميّ هنا وهناك ، والدافع هو الجهاد ، والرمزُ هو التوحيد أو الشرك . على أنّ السلاح قد يختلف : فابن هانىء يلحّ في وصف الأسطول والنار الإغريقيّة . أما التشابه في الافتخار بالشاعريّة والشكوى من الحسّاد ، فليست هٰذه معاني خاصّة بالشاعرين ، بل لا يخلو شاعر محظوظ عند ممدوح من حسّاد ومنافسين ، وكذلك الأمر في التأمّلات الحكميّة ـ تلك التي سمّاها ابن هانىء « أمثالاً » ولم يعتبرها آياتٍ وسوراً ـ فهي من الرصيد الفلسفي المشترك عند كافّة البشر .

7 ـ لكن ، لا يسعنا إلاّ أن نتساءل ، عندما نقف على مماثلةٍ شبه تامّة ، لا في المضمون فقط ، بل وفي العبارة أيضاً كاستخدام صيغة « فعول » في الأكل والشرب وإسنادها إلى جيش المسلمين عند الشاعرين :

المتنبّي : [طويل]

أغرَّكُم طول الجيوش وعرضُها ؟ عليٌّ شَروبٌ للجيوش أكولُ ![1]

(1) عليّ هو سيف الدولة ، والخطاب للروم .

ابن هانىء : [كامل]

80/40 حتى إذا ارتعص القنـا، وتلمّظت   حربٌ شروب للنفـوس أكولُ. . .

أو الاتّفاق في وصف جيش العدوّ بالكثرة والجلبة :

المتنبّي : [طويل]

خميس بشرق الأرض والغرب زحفُه   وفي أذن الجـوزاء منـه زمـازم

ابن هانىء : [كامل]

48/40 جاؤوا ، وحشو الأرض منهم جحفل   لجبٌ ، وحشـو الخافقَين صهيـل

نتساءل فحسب ، ولا نتّهم صاحبنا بالسطو على معاني غيره . ولا نستبعد على كل حال التأثّر بديوانٍ درسَه بإمعانٍ .

على أن هناك فرقاً أساسيًّا بين الشاعرين : ابن هانىء شاعر عقيدة ومذهب، آمن بالدعوة الإسماعيليّة فسخّر لها طاقاته ولم يسخّرها لغيرهما . أما المتنبّي فشاعر أمراء وملوك متعدّدين مختلفين، طلب النفوذ والجاه وسخّر عبقريّته لمدح من هُم دونَه، طمَعاً في الوصول إلى مبتغاه فلا قوّة تحرّكه غير الطموح الشخصيّ .

غنـائيّـة ابن هانـىء

لعلّنا ظلمنا الشاعر بإلحاحنا على الجوانب التقليديّة في شعره ، كأننا نفينا عنه كلّ حساسيّة ذاتيّة وكلّ طرافة . والحال أنّه ، على الرغم ممّا تضطرّه إليه وظيفتُه لدى المعزّ كشاعر رسميّ للدولة والدعوة ، من كبتٍ لعواطفه واقتصارٍ على ما يروق للممدوحين ، فإنّه يتخلّص بين الفينة والأخرى من كـابوس المقـولات الرسميّـة فَتبرز على صفحـات الأبيات الإحسـاساتُ المكظومة ، كالشفقة والرحمة والحسرة . وقد وجدنا من هٰذه الحساسيّة مثالاً في مدحة جوهر التي تعرّض فيها إلى أسر ابن واسول ومقتل ابنه ، ذلكم

القضيب اليانع الذي قطع[1] : [طويل]

45/10 ولا كـــابنِـــه أذكى شهـــابـــاً بمـعـــركٍ
وأجمـــحَ في ثني الـعنـــانِ وأطـمحَـــا

46 مَـرَتْ لـك في الهيجـاء مـاءَ شبـــابِـهِ
يـــدٌ فجّـرتْ منـــه جـــداولَ سُيّحَـــا

47 وأثـكَلْتَـــه مـنـــه القـضيـبَ تهـصّـــرَتْ
أعـاليه ، والـروضُ المفوَّفُ صَـوَّحَـا[2]

هٰذا الترحّم الخافت على الغصن المكسور والروضِ الذي جفّ دليلٌ على أنّ الشاعر قد تغلبُه العاطفة فيتكلّم بقلبه غيرَ آبهٍ لما يكون من ممدوحه من تساؤ ل أو استنكار .

ولكنّ الغنائيّة ليست بالضرورة متنفّساً للعاطفة المكبوتة . فحتّى في الإشادة بخصال الممدوح ، إذا كانت علاقة الشاعر به علاقَة ودّ صادق وولاءٍ مطلق ، يمكن أن تبرزَ غنائيّةٌ من نوع آخر : التعلّق المتين والخشوع الشبيه بعبادة المؤمن لربّه أو خضوع العاشق لمحبوبه ، كما يظهر من هٰذا الدعاء الذي ختم به آخر قصائده : [طويل]

171/47 فــلا بــرِحَت تتــرى عليكمْ من الـــورى
صـــلاةُ مُـــصـــلٍّ أو ســـلامُ مـــســلِّم

ومن هٰذا الالتزام الذي لم تسمح له المقادير بتحقيقه :

182/47 واني ، وإن شطّ المـزارُ، لراجـعٌ إلـى ودّ قلبٍ فـي ذُراك مخيّـم

---

(1) انظر الفصل الخامس ص 162 .

(2) مرى يمري (باب ضرب) الدم : أجراه وتهصّرت الأغصان : تهدّلت وانكسرت وَصَوَّحَ النبتُ : يبس .

183 بأنصحَ من جَيْب المُحبِّ على النوى   وأطهرَ من ثوب الحرامِ المهينِمِ[1]

الحقد على خصوم الإمام

ومن الغنائيّة كذلك، الضغينة على أعداء الفاطميّين ، وهي كراهيّة لم يسلم منها حتى الشيخان أبو بكر وعمر . وقد رأينا في حملته العنيفة على أصحاب السقيفة ومشركي بدر وسفّاكي كربلاء، حقداً لا يمكن أن يكون مكذوباً مفتعَلاً، بل هو صادر عن نفس لا تزال تستفظعُ التنكيل الذي سُلّطَ على آل البيت منذ وفاة الرسول :

144/47 وأَوْلى بلومٍ من أميّة كلّها
وإن جلّ أمرٌ من ملامٍ ولُوَّم
145 أُناسٌ همُ الداءُ الدفينُ الذي سَرَىٰ
إلى رِمَمٍ بالطفّ منكم وأعظُمِ
146 هم قَدَحُوا تلك الزنادَ التي وَرَتْ
ولو لم تُشَبَّ النارُ لم تتضَرَّمِ[2]

التهكّم بهم

ومن الغنائيّة أيضاً التندّر بالخصوم: المروانيّون الذين لا يعرفون من الدماء إلا دَمَ المحيض ، والعبّاسيّون في انحلالهم بين القيانِ والغلمانِ وعجزهم عن كلّ حركة كأنهم لحمٌ على وضم ، والروم الذين دأبُوا على تنفيل

---

(1) جيب المحبّ هنا قلبُه وصدرُه والرجل الحرامُ : المُحرِم والمهينم : الذي يناجي ربّه بالدعاء الخفيّ .

(2) انظر الفصل التاسع / 281 -284 .

المعزّ بالهدايا المتتالية من جيوش وعتاد حتى اضطرّ الشاعر إلى حثّ الإمام على قبولها من هٰذا الدمستق الجواد : [كامل]

46/40 ذَرْهُ يـجمِّـعْ ألـفَ ألفِ كـتيبـةٍ — فهـو النُّكـونُ وجمعُـهُ المفلولُ
65 وهـو الذي يُهْـدِي حُمَاة رجـالـه — نفـلاً إليك، فهـل لديـكَ قَبولُ؟

التأمّلاتُ الحـكـميّـةُ

تنطِقُ الغنائيّة أيضاً في الأبيات الحكميّة التي تتخلَّلُ المراثي وبعض المدائح، من تساؤ ل في الحياة والموت، وشكوى من الدهر وصروفه، وتحسّر على الشباب الذي يمضي، وهلعِ الإنسان أمام نهايتِه المحتومة. وهي معانٍ معروفة متداولة، وخاصّيّة الحكمة أن تنطق عن كلّ لسان في كل عصر ومكان، ولقد سبقَ اليها فحولٌ كلبيد بن ربيعة وأبي ذؤ يب الهذليّ. ولا يكتفِي شاعرنا بترديدها على وجه تقريريّ، بل يلتمس لها التمثيل والتصوير، كما فعل في هٰذه المشاهد الحيوانيّة التي تشعر بأنّ الفناء مكتوب على كلّ حيّ مهما كان قويًّا ومهما آعتصم وتحصَّنَ : [رمل]

66/14 لـو مُعـافىً من خـطوبٍ عـوفيَتْ — لَـقـوةٌ بـيـن هِـضـابٍ ونُـجُـدْ
67 تـرتبِي مـرهـوبَـةً تحـسَبُـهـا — كـوكبَ الليـلِ على الليـلِ رَصَـدْ
68 تـلك، أو مُغـفِـرَةٌ في حـالـقٍ — تـأمَنُ الإنسَ إذا الـوحشُ شَـرَدْ
70 . . . حيثُ لا النازلُ معهودٌ، ولا — المـاءُ مـورودٌ، ولا القلتُ ثَمَـدْ
71 تـلك، أو وحـشـيَّـةٌ أُدمَـانـةٌ — انبـتَـتْ أنـقَـاءُ رَمـلٍ وَعَـقَـدْ
74 . . . وهي في ظـلِّ أراكٍ مـائـدٍ — تـرتـدِي المَـرْدَ إذا ذابَ الـوَمَـدْ
82 . . . تلك، أو أيْمٌ خفيفٌ وطؤُهُ — يـربَـأُ القُفَّ كَـلُوءًا مَـا هَجَـدْ
83 بـات يُـدْنِي حُمَـةً مـن حُمَـةٍ — وهـو يـطوي مَسَـداً فـوقَ مَسَـدْ
87 . . ذاك، أو جبّـارُ غِيـلٍ أشِبٍ — طَـرَدَ الأسـادَ عـنـه وانـفَـرَدْ

88 نـــازِلٌ كُـــرسِيَّ أرضٍ، هـــابَـــهُ ملِكُ الخـابل فيهـا إذ مَرُدْ. . .[1]

لكنَّ هٰذه الخواطر ليست بعيدة الغور فلا يوصلها الشاعر الى التساؤ ل في كبرى القضايا الإنسانيّة كسبب وجوده في الكون ، ومنزلة أفعاله من حتميّة الأقدار ، وازدواجيّة الخير والشر في الحياة الدنيا . فابن هانىء ليس فيـلسـوفاً ماورائيًا، فكأنّه حصر أُفُقَه العقائديّ في الإيمان بالدعوة الشيعيّة ورَبَطَ مصيرَه بالأئمّة ، فلا نجاةَ إلّا بهم : [متقارب]

79/58 لـيعـرِفْــك مَـن أنتَ مـنجـاتُــه إذا مــا آتّـقَـىٰ الـلَّهَ حقّ الـتُّقَـىٰ
80 كـــأنّ الهُـــدَى لم يكن كــائـنــاً إلـى أن دُعيـتَ مُـعِــزَّ الـهُـــدىٰ

تــدَيّـنُـهُ

وهو مع ذلك لم يكن بعيداً عن الدين، فكثير من معانيه وصوره وحتى تعبيره مستَمَدٌّ من القرآن . وقد لا تكون هٰذه حجّةً على إيمانه ، إذ حفظُ القرآن ومعرفة علومِه جزءٌ لا يتجزّأ من ثقافة المسلم ، ولا سيّما في العصور المتقدّمة . ولكنّ التضمين القرآنيّ عنده يتكرّر ويتردّد بدرجةٍ تنفِي أن يكون مجرَّدَ استثمارٍ لرصيدٍ موروثٍ . نسمَعُه مثـلاً يُقسِمُ بالعصـرِ على ولائه للممدوح : [طويل]

19/18 فــلا تسـألانِي عن زمـــاني الـذي خـــلا
فـَوَالعصر ! إني قبـل يحيـىٰ لفي خُسرِ !

أو يشبّه حبّ المعزّ للخيل بحبّ سليمان لها فيضمّن الحادثة التي رواها

---

(1) اللقوة أنثى النّسر والمغفرة أنثى الوَعَل تيس الجبال والأُدمانة الظبية والأَيْمُ الأفعى وجبّار الغيل : الأسد . عدّد هذه الحيوانات ووصفها في وداعتها أو قوّتها أو خبثها ولكنّ ذلك لا يعصمها من الموت ولا يعافيها من الخطوب . وانظر في عينيّة أبي ذؤيب مشاهدَ مماثلةً .

القرآن[ص، 31 -33]: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ ! فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ . مع فارقٍ واحدٍ ، وهو أنّ المعزّ لا يطيبُ خاطره لمثل هٰذه التضحيةِ : [خفيف]

39/35 أنتَ أَصْفَيْتَهُنَّ حُبَّ سُلَيْمَا ... نَ قديماً للصّافِناتِ العِتاقِ
40 لو رأى ما رأيتَ منها إلى أنْ ... تتوارى شمسٌ بسجف الغَسَاقِ
41 لم يَقُلْ: رُدَّها عَلَيَّ! ولا يَطْـ ... ـفقُ مسحاً بالسوقِ والأعناقِ

وفي مناسبة أخرى ، يستشهد بالتضامن بين موسى وأخيه هارون لِحضّ الأخوَيْن الاميرَيْنِ على التفاهم والإخاءِ : ﴿قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، واَحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ (طه 25-32) فيقول : [طويل]

64/18 لعمري لقد أُيِّدْتَ يومَ الوَغَىٰ بِهِ ... كما أُيِّدَتْ كفَّاك بالأنملِ العَشرِ
65 لذلك ناجى اللَّهَ موسى نبيُّه ... فنادى أنِ ٱشرحْ ما يضيقُ به صدري
66 وهبْ لي وزيراً من أخي أستعِنْ بهِ ... وشُدَّ به أزري وأشرِكه في أمري !

التغنّي بالجمال

حاولنا فيما سبق أن نبيّن أنّ غنائيّةَ ابن هانىء قد تبرُزُ حتى في القصائد المدحيّة : الإشادةُ بفضائل الإمام قد تنبع من محبّة صادقةٍ ، والتحامل على الخصوم قد يترجم عن كراهيّة فطريّةٍ . وقد لفَتْنا النظَرَ الى ما يتخلّل الاستهلالات أحياناً من شعور بالجمال ، جمال دوحةٍ منتصبةٍ في الأرض

البراح ، أو جمال ناقةٍ قويّة القوائم وئيدة الخطوِ ، أو شعشعة البرق في سحابٍ بعيدٍ ، أو سكون ليلةٍ مقمِرَةٍ . ونريد أن نختتم هذا الفصل بأنموذج بديع من وصفه للخيل ، وله فيه باعٌ طويلٌ .

هذه الجياد يمثّلها بالحسان الواثقات من سلطانهنّ على القلوب بجمالهنّ الذي لا تغلبُه الأرديَةُ المفوّفة : [طويل]

6/23 يمشِّينَ مِشيَ الغانياتِ تهادِياً ... عليهنّ زِيُّ الغانياتِ مُشَهَّرَا
7 وجرَّرنَ أذيالَ الحسانِ سوابغاً ... فعلّمْنَ فيهنّ الحسانَ تبختُرَا

ثمّ يفصّلُ ألوانَهُنَّ في ثرَاءٍ لُغويٍّ عجيبٍ ، لعلّه مستمَدٌّ من المعاجِمِ ، ولكنّه رغم ذلك يعبّر عن إدراك حادٍّ لجمال الألوان والأشكال :

11/23 وما خِلتُ أنّ الروضَ يختال ماشياً ... ولا أن أرى في أظهُرِ الخيل عبقَرَا

هذا المشهدُ الإجماليّ ، ثُمّ يأتي التفصيل :

12/23 غداةَ غدَتْ عن أبلقٍ ، ومجزَّعٍ ... وَوَرْدٍ، ويَحموم ٍ، وأَصْدَى، وأشقَرَا
13 ومن أدرعٍ قد قُنِّعَ الليلَ حالكاً ... على أنّه قد سُربلَ الصّبحَ مسفِرَا
14 وأشعَلَ وَرْدِيٍّ، وأصفَرَ مُذْهَبٍ ... وأدهَمَ وَضَّاحٍ ، وأشهَبَ أقمَرَا
15 وذي كُمتةٍ قد نازَعَ الخمرَ لونَهَا ... فما تدّعيه الخمرُ إلا تنمُّرَا
16 مُحَجَّلَةً غُرًّا، وزُهراً نواصعاً ... كأنّ قُباطِيًّا عليها مُنشَّرَا

مثلُ هذا الحُسْنِ دليلٌ على حكمةِ الباري في خلقِهِ ، وهكذا يقودُنا تأمُّل الخليقة إلى الإيمان بالخالق :

20/23 أُفكِّهُ منها الطرفَ في كل شاهدٍ ... بأنّ دليلَ اللّهِ في كُلِّ ما بَرَى

الفصل الحادي عشر

تأثير ابن هانئ

من المتوقَّع أنّ شاعراً سياسيًّا مذهبيًّا مثل ابن هانىء ، سخّر طاقته الواسعة لخدمة دولة دخيلة ونحلة مارقةٍ ، سيلقى من أهل افريقيّة والمغرب السنّيين السخط والانتقاص . ويُخشى أن تكون الأحكامُ فيه مختلطةً فيغلب فيها العداء المذهبيُّ الحيادَ والإنصافَ . وقد بلغ التورّع ، كما رأينا، حدّ الطرح لبعض قصائده ، كالرابعة والعشرين الرائيّة ، من بعض نسخ الديوان .

وفي هٰذا الفصل نعتزم استعراض الأحكام التي قيلت في صاحبنا ، سواءً في معتقده أو في شاعريّته . وفي قسم ثانٍ نتتبّع سيرورة ديوانه في المغرب والمشرق. ثمّ ندرس ميراث الشاعر الأدبيّ، أي تأثيره في الشعراء المعاصرين له أو اللاحقين ، كما نحاول البحث عن ورثةٍ له بالفعل، أي : هل كانت له أسرة؟ هل خلّفَ عقِباً؟ وفي نهاية الفصل نشير إلى الصورة الهزليّة التي اتّخذتها شخصيّة ابن هانىء في بعض المصادر ، ونحاول تفسيرها .

الأحكام المذهبيّة

مرّ بنا حكم ابن شدّاد مؤرّخ القيروان، وقد يشمَل نقدُه المادح والممدوحَ معاً لأنّ المعزّ في نظرْه شجّع شعراءهُ على الغلوّ[1] . ونقلنا أيضاً

(1) انظر الفصل الثامن ، 241 .

حكم ابن شرف. وهو، في قساوته، لا يُستغرب من أديب قيروانيّ نشأ في بيئة تلهج بعداء الشيعة، خصوصاً بعد أن خلع الحكّام الصنهاجيّون الولاء الفاطميّ. والكتّاب الذين عابوا عليه غلوّه كثيرون، وأهواؤهم مختلفة ومشاغلهم؛ فلا يُتّهمون جميعاً بالتقرّب إلى أعداء الفاطميّين بالتهجّم على شاعر «المشارقة» المفضّل. هذا الحميدي في الجذوة وابن دحية في المغرب[1]، وهما أندلسيّان يكتبان في المشرق، يتّفقان على استنكار «غلوّه واستهتاره». وهذا ابن بسّام في الذخيرة[2] يعلّق على بيتٍ لابن مَقَانَا الأشبونيّ، وهو :[خفيف]

وإذا ما رُفِعَتْ رايتُه خفقَتْ بين جناحَيْ جبرئين

فيلاحظ الشبه بينه وبين بيت ابن هانىء الذي استفظعه الكثير من النقاد: [كامل]

29/41 أَمُديرَها من حيث دار، لشَدَّ ما زاحمتُ حول ركابه جبريلا

ويقول : « حَسَدَ ابنَ هانىء في هذيانه، وتقيَّله في خذلانِهِ » .

والمترجمون ليسُوا به أرفقَ وكذلك العلماء[3] . وابن خلّكان يأسف لما شاب الديوانَ « من الغلوّ في المدح والإفراط المفضي الى الكفر »[4] . وتبعه الذهبي وأبو الفداء ومُتَمِّمُه ابن الشحنة[5] .

وليس لدينا أحكام من مؤلّفين شيعيّين قدامى . غير أنّه من المفروض أنّ رأيهم فيه ، لو وصلنا ، ما كان يختلف كثيراً عن رأي الشيعة المعاصرين من إسماعيلية واثني عشريّة . فهم لا يرون في غلوّه كفراً ، ومعاني المدح في

---

(1) جذوة المقتبس ، ترجمة 157 . والمطرب ، 192 .

(2) 793/2 .

(3) الكامل ـ 46/7 .

(4) الوفيات ـ ترجمة 640 .

(5) روض المناظر ـ 31/2 . وتوفّي ابن الشحنة سنة 1412/815 .

نظرهم تصدر عن اعتقاد صادق راسخ بمبادىء الشيعة . هٰذا زاهد عليّ ، شارح الديوان ، ينزّهُه عن الكفر ، ويفسّر الغُلُوَّ بخصوصيّات التوحيد الإسماعيليّ الذي « ينزّه الباري المبدع عن جميع النّعُوت والصفات » ويُوقعونها « على المبدَع الأوّل ، وهو الأمر والكلمة » . والإمام يقوم مقام الأمر والكلمة ، فلا حرج أن يطلق الشاعر على الإمام صفَتَيْ الواحد والقهّار[1] . على أن هٰذا الباحث الرصين يعترف ضمنيّاً بإفراط الشاعر ، اذ يحتجّ بسُنّةِ الشعراء في المبالغة ، ولا سيّما المتنبّي .

وينحو الإسماعيليّ عارف تامر في دفاعه عنه نفس المنحى : فما يبدو للقارىء العاديّ مبالغة وغلوًّا ، ليس كذلك ، انّما هو صدى التكوين الفلسفيّ الذي يتلقّاه كل اسماعيليّ[2] .

كذلك حسن الصدر (ت 1934) يرى أنّه « صحيح الاعتقاد ، وهو بريء من كلّ سوءٍ وغلوّ . وأنّه رجل شيعيّ مُجاهرٌ بالتشيّع مبغض لخصوم عليّ عليه السلام . . . حتى قتل على التشيّع »[3] .

ومهما تباينت هٰذه الآراء ، فإنّ أصحابها يكادون يُجمعون على صدق الشاعر في ولائه واعتقاده . لم نرَ واحداً من القدماء اتّهمَه بالتزلُّف الكاذب جرياً وراء المال . ولكن هذه التهمة نجدها عند بعض الدارسين في عصرنا مثل حسن ابراهيم حسن في تأريخه للدولة الفاطميّة : « . . . إنّ ابن هانىء أصبح شيعيّاً متحمّساً لهٰذا المذهب استدراراً لكرم الفاطميّين ، لا حبّاً في عقائدهم واستمساكاً بها »[4] .

---

(1) تبيين المعاني ، المقدّمة 58 .

(2) عارف تامر : ابن هانىء ، دراسة ـ 62 وفصل ابن هانىء في دائرة معارف البستاني 112/4 .

(3) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، 206 .

(4) ص 441 . وقد أعاد الفكرة نفسها في الدراسة التي ألّفها مع طه أحمد شرف عن المعزّ ، ص 226 .

ومن يتفكّرْ في ندرة المطالب الماليّة في مدائحه ـ على عكس المتنبّي مثلاً ـ ثم في قَصْرِهِ مَدْحَهُ على المعزّ وقوّاده وولاته ، أي على قوم تجمعه بهم عقيدة واحدة ، ومن يدرسْ بالخصوص قصيدتَه الأخيرة ، تلك المطوّلة القويّة التي حمّلها وفاءَه ومحبّتَه ، لا يسعه إلا أن ينزّهَهُ عن الطمع والطموح والتظاهر بما لا يبطن .

الأحكام الأدبيّة

تتنزّه الأحكام في خصوص شاعريّته عن التّحامل المذهبيّ . فربّ ناعٍ عليه كفرَه يعترف له في المقابل بمتانة التعبير وسعة الخيال وجمال الصور . ويتميّز بالإنصاف والاعتدال النقاد المحترفون مثل ابن شرف، فلقد ذكر ما له وما عليه : « أما ابن هانىء . . . فرعدِيُّ الكلام ، سرديّ النظام ، متين المباني ، غير مكين المعاني . . . إلاّ أنّه إذا ظهرت معانيه ، في جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق ، يؤثّر في النّيق »[1] . فيعترف له بالإجادة إذا تمكّن من معالجة المعاني ، ويعيبُ عليه القعقعة اللفظيّة .

والجلبة اللفظيّة أيضاً مع التكلّف والصنعة ، هي ما عابه ابن رشيق : « وكانت عند أبي القاسمِ مع طبعه صنعة ؛ فإذا أخذ في الحلاوة والرقّة ، وعمل بطبعه وعلى سجيّته ، أشبه الناس ، ودخل في جملة الفضلاء ، وإذا تكلّف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة ، أضرّ بنفسِه ، وأتعب سامع شعره[2] » .

هٰذه المساوىء هي في نظر الفتح بن خاقان محاسن وفضائل ، فيُطريه بدون تحفّظ : «علق خطير ، وروض أدبٍ مطير . غاص في طلب الغريب حتى أخرج درّه المكنون ، وبهرج بافتنانه فيه كلّ الفنون . . . اعتمد فيه

---

(1) **مسائل الانتقاد**، 40 . وفي رواية : « نجديّ الكلام » . والنيق قمّة الجبل .

(2) العمدة 124/2 .

التهذيب والتحرير ، واتّبع في أغراضه الفرزدق مع جرير . فلذلك حسد العراقُ عليه المغربَ وأخذتِ الشرقَ الغصّة » . وإن في أسلوب الفتح نفسه لدليلاً على تغلّب نزعة البهرج والتعمّل بكامل أقطار المغرب . وكان ذلك بُعَيد وفاة ابن هانىء فنسبت اليه هٰذه الأساليب وأسندت اليه طريقتها . يقول ابن بسّام في ترجمة أحد شعراء المائة الخامسة : «وكان يميل الى طريقة محمد بن هانىء . على أن أكثر أهلِ وقتنا ، وجمهور شعراء عصرنا ، إليها يذهبون ، وعلى قالبه وجدتهم يضربون [1] » . وقد ذكر زميلنا الشاذلي بو يحيى هٰذه الطريقة وحدّد نشوءَها بزمن وفاة الشاعر ، فقال فيها وفي صاحبها : « ابتدَع هٰذا الشاعرُ أسلوباً جديداً سيتّبعه الإفريقيّون طيلة أجيال . . . وصار شعره المحورَ الذي يتجمّع حولَهُ الإنتاج الشعري ، وساعدت شهرتُه أهل المغرب على التخلّص من مركّب النقص إزاء المشرق [إذ] صار بمقدور المغاربة أن ينجبُوا مُتَنَبِّئاً »[2] .

هٰذا التحرّر من التبعيّة هو الذي عناه صاحب المطمح إذ ذكر غصّة الشرق وشرَقَه . ولكنه من جهة أخرى يعيب عليه تجرُّؤَهُ على الدين ، فيقول ، غيرَ آبهٍ بالفارق الزمنيّ بين طرفَي المقارنة : « سلك مسلك المعرّي ، وتجرّد من التديّن وعَري . وأبدى الغلوّ ، وتعدّى الحق المجلوّ ، فمجّته الأنفس ، وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار . . .[3] » وهكذا نظفر بسبب آخر لهجرته ـ أو طرده ـ من الأندلس : التطاول على الدين والإفراط في التحرّر العقلي ، على غرار صاحب اللزوميّات (الذي ولد بعد وفاته بعام) . وعلى ذكر أبي العلاء ، نذكّر بأنّه هو أيضاً عاب عليه المبالغة : « كان من شعرائهم المُجيدين ، وكان يغلو في مدح المعزّ غلواً عظيماً[4] » . كما عاب عليه ،

---

(1) الذخيرة 799/2 .
(2) . . . Vie littéraire ، المقدّمة ،31 .
(3) مطمح الأنفس ، 84 .
(4) رسالة الغفران ، 453 .

حسب روايات المترجمين ، الجلبة اللفظيّة ، كالرحى تطحن القرون[1] ، والإغراق في الصنعة مع قلّة المعنى فصارت أبياته أبعاراً ملفوفة في ورق الفضّة[2] .

فالطريقة التي نسبت اليه لم تعجب إذن جميع الناس . هٰذا الحميدي مثل ابن رشيق يعترف له بالموهبة القويّة ولكن يستقبح الجلبة ، وكذلك ابن دحية ، يغلّب مساوئه على المحاسن : « . . . ربّما صدرت عنه درر تُلحقُه بالشعراء الكبار . . . وبقيّة شعره قعاقع وجعاجع ، وثالثة الأثافي ، والرسوم البلاقع » .

هٰذا بخصوص اللفظ . فلننظر الآن في مواقفهم من صوره وخياله : ابن سعيد يعظّم صورة التفاحة والعقرب : [كامل] .

46/4 وكأنَّ صفحة خدّه وعذاره تفّاحةٌ رُمِيَتْ لتقتُلَ عقربَا

حتى جعل البيت في مختاراته المرقصات المطربات . ولكن ، في مختاراته الأخرى ، يفضّل عليه الشاعر الوزير ابن عمّار ويجري هٰذا التفضيل على ذكر القصيدة الفلكية ، فهو لم يستسغها ، رغم كثرة التشبيه فيها ، كما استساغ رائية ابن عمّار في عبّاد أمير اشبيلية[3] . والغريب في الأمر أن كثيراً من المصادر تجعل من ابن عمار تلميذاً ـ في الشعر ـ لابن هانىء[4] .

أحكام معاصِرة

نجد نفس القسمة عند الدارسين المعاصرين . فالذين ينقدونه يتّجهون

---

(1) ذكره ابن خلكان ، ترجمة 640 .

(2) ذكره الصفدي : الوافي ، عدد 240 . وقد فسّر الصفدي تحامل المعرّي عليه بتعصّبه للمتنبّي دون غيره .

(3) رايات المبرّزين . رقم 77 ص 55 .

(4) انظر عبد الواحد المراكشي ـ المعجب 111 .

الى مبالغاته وضجيج قاموسه وتكلّفه المفرط . ذاك موقف منير ناجي في الدراسة التي خصّصها له وناقشها بمدريد ، وهي والحقّ يقال ، أغزر مادّة وأنفذ بحثاً من دراسة الشيعيّ السوري عارف تامر ، الاّ أن منير ناجي غلّب السلبيّات ، أو اعتبر من السلبيّات ما لم يكن للشاعر فيه حيلة ، كقصر الشعر على المدح ،أو غلبة الرصيد الثقافي الموروث عن الشرق على معانيه وصوره، أو انحسار غنائيّتِه لأنّه لا همّ له إلا طلب المال[1] . وهي لعمري أحكام منحازة ، بدليل المقارنة الختاميّة التي يجريها بين ابن هانىء والمتنبّي ؛ فالفضل والغلبة للمتنبّي طبعاً ، وكأنّ الباحث لم يعر أي اهتمام للميزة الأساسيّة عند شاعرنا ، ألا وهي التحزّب .

والذين يطرونه يعتمدون على خياله الزاخر ، ولغته الثريّة وتراكيبه المتينة ولين التعبير أو شدّته بحسب الموضوع والغرض . ذاك ما يفهم من هذا النص لقسطاكي الحمصي [ت 1941] الذي علّق به على أبيات من القصيدة السابعة والعشرين في وصف جيش جوهر : « لا يصف هٰذا الوصفَ إلاَّ ابن هانىء متنبّي الغرب ، أو من هو مثله ، فيأتي على ذكر دقيق الموصوف وجليله ، ويقرّب بعيده ويحيط بمجموعه ، حتى يمثل لكل المشهودات كأنك تراها . . . بل يصف لك الأخلاق من لطيفة وكثيفة حتى تحسب أصحابها أشخاصاً ماثلةً بَيْنَ يديك . .[2] » .

واهتمّ فاسيلياف مؤرّخ الحرب بين بيزنطة والعرب ، بوصفه للأسطول ، فرأى فيه المبالغة والتوسّع[3] ، وكريمر في دراسته عنه لاحظ القوّة في التعبير ، ووفرة الخيالات مع تصنّع نادر المثيل[4] .

---

(1) منير ناجي : ابن هانىء 231 .

(2) من كتابه « منهل الورّاد في علم الانتقاد » ص 198 ، نقلاً عن : عبد الحيّ دياب : التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد القاهرة 1968 ص 110 .

(3) فاسيلياف : بيزنطة والعرب 303 .

(4) كريمر : ابن هانىء ZD MG 1924 .

أما فصل « ابن هانىء » بدائرة المعارف الإسلامية ، الذي كتبه زميلنا فرحات الدشراوي ، فيرفع الشاعر الى مرتبة « أوّل شاعر عظيم بالمغرب » ويؤكّد على ولائه الشّيعيّ الذي به تفسَّر رُمُوزُهُ ويُبرَّرُ ميلُهُ الى الإفراط والمغالاة . ويبدو أن صاحب الفصل لم يعلم بوجود طبعة زاهد عليّ للديوان . ومن جهة أخرى ، كنا نتوقّع من هذا الزميل وقد خصّص أطروحته للخلافة الفاطميّة بالمغرب ، أن يعمّق دراستَه لأغراض ابن هانىء ومعانيه حتى نزداد فهماً للأحداث والوقائع والسفارات والعلاقات في مدّة المعزّ ، لكنّه اهتمّ ـ وهو المؤرّخ ـ بالمصادر التاريخيّة خاصّة، وهذا في نظرنا ظلم للمصادر الأدبيّة ، فقد تعين المؤرّخ على استجلاء ما قد يغمض عند المؤرّخين ، وحتى على اكتشاف ما لم يذكروه ، كالذي افترضناه ـ ولعلّنا توهّمناه ـ من تعيين المعزّ لابنه عبد الله على ولاية افريقيّة[1] .

سيرورة الديوان

لا ندري هل جمع ابن هانىء شعره في حياته ، شأن معاصره المتنبّي . وإذا ما اعتبرنا أن أطول قصائده ، القصيدة السابعة والأربعين ، لم يفرغ من نظمها الاّ قبيلَ مقتله بقليل ، أمكننا الافتراضُ بأنّ مختلف القصائد والمقطوعات لم تُجمع وترتّب الاّ بعد وفاته بكثير ، خصوصاً وأنّ الوسط الإفريقيّ ، بعد رحيل المعزّ الى القاهرة وانتصاب الولاة الصنهاجيّين بديلاً من الدولة الشيعيّة ، كان ينتظر أن تقطع الدولة الجديدة الصلة العقائديّة مع الفاطميّين ، بل كان يحثّها على ذلك . وفي هذا الجوّ من العداء للشيعة والحنق عليهم ، لا نظنّ أن أحداً كان يجسر على جمع شعر داعيتهم ونصيرهم . فإذا اضطرّ الأديب المُنْتَقِي ، والمؤلّف الجامع ، الى الاستشهاد بشيء من شعره ، اختار ما لا غلوَّ فيه ولا تقديس : وهكذا لم ينتق منه الحصري في زهر الآداب إلّا أوصافاً بريئةً

---

(1) انظر الفصل الخامس 154 .

للخيل ، أو السّفن ، فجمع ستةً وثمانين بيتاً ، ولكنّ الأقلّ منها مأخوذ من المدائح المعزّية .

أوّل إشارة إلى حجم الديوان نجدها عند الحميدي ، ولكنه لا يشعرنا هل رأى ذلك الشعر مجموعاً في ديوان . ونستنتج من نادرة رواها المقري[1] أن الديوان كان معروفاً بالأندلس في أواخر القرن الخامس : فقد كان ابن رزين (ت 496) ملك السهلة يستمع إلى قراءة من ديوان ابن هانىء ، فتعثّر القارىء في فهم كلمة « حرام » فقسَمَها شطرين فضحك القوم .

وأوّل شهادة بوجود الديوان بإفريقيّة أَتَتْنَا من مخطوط تونس 1 . وقد ذكرنا مزايا هٰذه النسخة[2].وأهمّ مزيّة لها أنها نُقلَت عن نسختين : واحدة هي الأصل ، وتاريخها سنة 1211/608 . فهي أقدم نسخة تُذكر من الديوان . فقد جاء في خاتمة هٰذا المخطوط : « الحمد للّه . ذكر محمد بن القاسم كاتب الأصل المنقول منه السفر المقابل منه هٰذا ، أنّ هٰذا ما صحّ لديه ووقع اليه من شعر أبي القاسم في عجز ربيع الآخر الذي من سنة ثمان وستّمائة » .

والثانية نسخة تتضمّن قصائد ومقطوعات خلت منها النسخة الأصل ، نسخة 608 ، فضمّ كاتبُ المخطوط هٰذه الزوائد إلى ما نقله عن نسخة 608 وعنونَ كلّ إضافة بعبارة « وقال من غير الأصل المنقول عنه » . فلذلك جاءت مخطوطة تونس 1 أكمل من غيرها .

ولعلّ الإضافات والزيادات نُقلت من نسخة أندلسيّة كالتي كانت عند ابن رزين : ذلك أن البيت الذي تعثّر النديمُ في قراءته هو من إحدى المقطوعات الإضافيّة التي لا توجد في غير هٰذا المخطوط . فالنسخة الإفريقيّة ـ نسخة 608 ـ كانت ناقصة بالمقارنة مع نسخة ابن رزين : فهل يعني هذا أن النسخة ـ

---

(1) نفح الطيب 407/3 نادرة 198 .

(2) انظر الفصل الثاني ص 34 ، والحوليّات 1969/6 ص 79 -81.

أو النسخ ـ الأندلسيّة كانت تتضمّن شعراً لا يُوجدُ في النسخة ـ أو النسخ ـ الإفريقيّة ؟ فإن صحّ هٰذا يوماً باكتشافات جديدة ، فهل يُعزَى نقصان النسخة الإفريقيّة الى عمليّة تطهير من الشعر الماجن والأبيات المسفّة[1] ؟

أم هل نفسّر زيادة النسخة الأندلسيّة بافتراض أنّها ربّما تضمّنت شيئاً من الشعر الذي نظمه صاحبنا في الأندلس ، وهو هٰذا الشعر الخليع بالذات ؟

وبعد ، فهٰذا افتراض لا يمكن تحقيقه بما لدينا من وثائق . وهو ، على كل حال ، يدعو إلى التفكير والتمحيص بقدر ما دعانا إليه افتراض منير ناجي في أنّ الأقسام الخمريّة من قصائده إنما هي شعره الأندلسيّ[2] .

أما وجود الديوان بالمشرق ، فتشهد به ضمنيّاً عبارة ياقوت إذ يلاحظ ، في خصوص القصيدة الثالثة والخمسين، أنها أطول قصائده جميعاً ، فهي تربو على الثمانين بيتاً[3] . والعبارة تدلّ أيضاً على أن هٰذا الديوان كان ناقصاً : فنحن نعلم أنّه في صورته الحاليّة يتضمّن خمس عشرة قصيدة تتجاوز كل واحدة ثمانين بيتاً . وجميع الشواهد التي ساقها ياقوت من شعر ابن هانىء مستخرجة من قصائد لا تتجاوز ثمانين بيتاً ، وكذلك الشأن في خصوص المختارات التي نقلها ابن خلّكان وابن سعيد ، وجميع هؤلاء كانوا يكتبون في القرن السابع . ولكن لا نستنتج بالضرورة أنّ الشرق كان لا يعرف من الديوان الّا نسخاً جزئيّة . بل الأغلب على الظنّ أن ابن سعيد قد اطّلع على نسخة كاملة تامّة ـ أي مثل مخطوطة تونس 1 ـ لأنّه في مُغربه ينقل إحدى المقطوعات الإضافيّة التي انفرد بها مخطوط تونس 1 .

وفي القرن الموالي استخدم الدواداري وابن فضل اللّه العمري (ت 1348/748) نسخاً أكمل من نسخة ياقوت ، إذ ينقلان أبياتاً من القصيدة السابعة

---

(1) وهي التي نشرت بالحوليّات 1972/9 ص 75 .

(2) انظر الفصل الثاني ص 51 .

(3) معجم الأدباء ، ترجمة 27 .

والأربعين ، أطول القصائد على الإطلاق . ثمّ إنّ صاحب مسالك الأبصار ينقل[1] أبياتاً من القصيدة السبعين هي الأبيات التي نقلها الحصري في زهر الآداب . وكان الديوان يُعرض للبيع في أسواق القاهرة حسب خبر أورده ابن حجر (ت 1449/852) في خصوص فقيه تونسي يدعى ابن القوبع (ت 1337/738) كان يتصفّح نسخة من الديوان بسوق الكُتب[2] .

وليس وجود الديوان في المكتبات أو الأسواق هو وحده الدليل على شهرة صاحبه . فذكر اسمه أو نقل شيء من أبياته أو تضمين شطر أو بيت من أبياته في قصيدة ، كلّ هٰذا قد يعبّر أيضاً عن ذيوع صيته بين الأدباء والمتعلّمين . ويبدو أنّ شهرته بلغت أوجها في العصور التي يصطلح على تسميتها بـ « عصور الانحطاط » ، لندرة النبهاء والمبدعين فيها .

وقد تكون شهرةً سيّئة ، كَأَن يُستَشْهَد بصاحبنا في أمور انحرافيّة ماجنة . هٰذا ما يجيب به بعض شعراء مصر لائمهُ : [خفيف]

أنا دعني وما تراه فساداً   فإمامي فيما ارتكبتُ ابن هانى[3]

ولكنّ الأغلب أن يذكر اسمُه في معنى الإشادة والإطراء ، حتى يخيّل إلينا أنّ شعره أصبح منذ القرن الخامس مثلاً يحتذى ، كما يدلّ عليه هٰذا البيت الذي أورده ابن سعيد مع البيت السابق : [وافر]

وندمان ينادمني بشعر   يتيه به على شعر ابن هانىء

وصارت البلدان تتجاذبه بعد أن أزعجته ومجّته . فقد رأينا الفتح بن خاقان يرجعه إلى بلاده فيقول : « زهت به الأندلس وتاهت ، وحاسنت

---

(1) مسالك الأبصار مخطوط 2327 ورقة 7 وجه .

(2) الدرر الكامنة 491/4 ، ترجمة 491 . وقد نقل الخبر الوزير السرّاج في الحلل السندسيّة 3/1ص 699 .

(3) ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) 246 .

ببدائعه الأشمس وزاهت » . وكذلك يرى فيه الشُقندي مفخرة للأندلس . في حين أن ابن حزم يطبّق معياراً أكثر رصانة : ينسب الرجل إلى البلد الذي آواه حتى موته . فأبو علي القالي الوافد من المشرق الى الأندلس ، يعتبر أندلسيّاً . أما ابن هانىء فينسب الى ما هجر إليه[1] .

وغلبت شهرتُه صيت الملوك والأمراء الذين مدحهم ، فصاروا يعرَّفون به كأن يقول المقري معرّفاً جعفر بن حمدون : « وهو الذي مدحه ابن هانىء »[2] وهٰذا تفضيلٌ مشروع ، وإن كان لا يغني من جوع ، لأصحاب الأقلام على أصحاب السيوف .

وكذلك التقليد والمحاكاة ، هُمَا عنوان الشهرة : فكم قلّدُوا مثلاً القصيدة الحادية والثلاثين الفائيّة ! مثلما فعل أحد النسّاك في عصر المقري : نظم قصيداً مطوّلاً في نعل الرسول (صلى اللّٰه عليه وسلم) على وزن قصيدة النجوم ورويّها فقال في بعض أبياتها : [طويل]

وما أنا فيه كالـذي قال هـازلاً : أليلتنـــا إذ أرسلت وارِداً وحفـا[2]

ويقول ابن بسّام إن أهل الأندلس كانوا معجبين بها خاصّة ، فانبرى كثير من الشعراء للنسج على منوالها ،« منهم أبو الربيع القضاعي في تشبيهات كثيرة «بكأنّ» « احتذى فيها طريقة محمد بن هانىء الأندلسيّ وسلك سبيله فضلّ عنها »[3] . واعْتَذَر الشقندي بطولها الذي ثناه عن نقلها برمّتها[4] ونقل منها أبو البقاء الرندي (ت 1284/684) أبياتاً « من أحسن ما قيل في وصف البدر والهلال والنجوم »[5] .

---

(1) نفح الطيب 293/1 و 297 . و 164/3 .
(2) أزهار الرياض 275/3 .
(3) الذخيرة 508/3 .
(4) نفح الطيب 186/4 .
(5) قطعة من كتابه « الوافي بعلم القوافي » ، نشرها جعفر ماجد بالحوليّات 1969/6 ص 181 .

وذاع صيت القصيدة في المشرق أيضاً فنظم ابن سنان الخفاجي (1073/466) قصيدة في الموضوع نفسه ، فانتقلت هٰذه الفائيّة من المحاكاة الى المعارضات[1] . وصار يكتفى بذكرها إذا أشير إلى ابن هانىء . بل رأينا بعض المخطوطات تقتصر على نقلها دون غيرها .

وتليها في الشهرة القصيدة العشرون التي كثيراً ما استحسنوا مطلعها : [كامل]

1/20 فتقت لكم ريحُ الجلاد بعنبر وأمدّكم ريح الصباح المسفِر
2 وجنيتمُ ثمَرَ الوقائع يانعاً بالنصر، من ورق الحديد الأخضر

أُعجبوا بما فيها من استفراغ للصورة الحربيّة الممتزجة بمشهد الطبيعة : رؤوس الأعداء ثمارٌ أينعت ونضجت فقطفها الممدوح بسيوف عريضة كالورق النضر الأخضر ، مع المقابلة بين الثمر الناضج والحديد الذي لا يَزال أخضر أي قويًّا على قطوفٍ أخرى موالية ، مع تضمين الإشارة القرآنية البعيدة في البيت الأوّل : وهي تسخير الرياح لخدمة الجيش الغالب ، وهو معنى جارٍ على لسان شاعرنا ، لا سيّما في الإشادة بالأسطول الفاطميّ . هٰذا الرَّصف لصور بلاغيّة كثيرة في بيت أو بيتين هو الذي جعلهم يلهجون بمثل هٰذا الشعر ويتسابقون إلى محاكاتِه . وهو الذي جعل ابن حِجّة الحمويّ [ت 1433/837] يفضّلها حتى على «قفا نبكِ»[2] ، وحمل شاعراً حلبيّاً يدعى الكورانيّ (1646/1056) على أن يضمّنها في شعره :

فُتقَ العِذار بخدِّه فكأنّما فتقت لكم ريحُ الجِلاد بعنبر[3]

وصيت ابن هانىء بلغ الى شعراء عصرنا الحاضر : أحمد شوقي سمّى

(1) الدواداري ، كنز الدرر 241/6 .
(2) خزانة . . . 123 .
(3) المحبّي (ت 1700/1111) : ريحانة الالبّاء ، 617/2 .

بيته بالقاهرة « كرمة ابن هانىء » وهو الذي أصبح اليوم متحفاً يزارُ . والغناء الشعبيّ اتخذ شاعرنا مثالاً للحبّ الوفيّ وقرنَه بمجنون ليلى . يقول المغنيّ المغربيّ الحاج التهامي الهروشي في أغنيّة « محبوب القلب » :

نشبه في الحبّ قيس وابن سهل وابن هانىء

هذا ، وقد أشرنا إلى الشعراء الذين يتّبعون « طريقة » ابن هانىء وقد ذكر منهُمْ ابن بسّام طائفة مثل القضاعي والدارمي وابن البين ، كما ذكر المرّاكشي في المعجب أبا عبد اللّه محمد بن حبّوس الذي كان يطلب اللفظ الفخم والتراكيب المتينة والصور البليغة ، ولكنّه ، كما قال ، لا يصل إلى درجة ابن هانىء من الطبع والحلاوة[1] . وكذلك كان شاعر بني عبّاد ، ابن عمّار ، الذي مرّ ذكره .

عقب الشاعر

قلنا إن حياة هٰذا لرجل يكتنفُها الغموض : فلا شيءَ ثابتاً صحيحاً عن فترتها الأندلسيّة ، وشعره بألبيرة او غرناطة أو إشبيلية أهمِلَ أو مُحِيَ من الكتب ومن الذاكرة . ولسنا بأوفرَ حظاً في خصوص فترته المغربيّة والإفريقيّة : قبل كلّ شيءٍ ، أين كان يقطن ؟ أبالمسيلة ؟ أم بالقيروان ـ المنصوريّة مع الخليفة ؟ كنّا نأمل أن نجد شيئاً من أخباره عند القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسايرات الذي نُشر أخيراً ، وقلنا : هٰذا كتاب بمثابة المذكّرات التي يسجّل فيها كبيرُ قضاة الدولة أقوال الإمام وتحرّكاته الخاصّة والعامّة . ولكن خاب الأمل : لم يذكره مرّةً واحدةً ولا استشهد ببيت من شعره ! فحوّلنا أملنا الى كتاب الداعي ادريس « عيون الأخبار » الذي استخدم كتب النعمان كثيراً . فإذا به يورد كثيراً من شعر صاحبنا ، ولكن في غير ربط صحيح

---

(1) المعجب 183 .

بالأحداث : على سبيل المثال ، ينقل جانباً كبيراً من القصيدة الأربعين اللامية في الإشادَة بانتصار المجاز ، ولكنه يلصقها بالوقعة القديمة التي دارت سنة 956/345 ، والشاعر آنذاك لم يغادر بعدُ بلاده . ثمّ هو لا يذكر شيئاً عن حياته في البلاط ، لا حادثة ، ولا إنشاد ، ولا مكافأة ، ولا خصومة، ويقتصر على نقل التوطئات المبهمة التي نجدها في الديوان[1] .

وقد افترضنا ، بناء على أبياتٍ في قصيدته الأخيرة ، أنّه كان يقطن بالزاب بصفة مسترسلة ، إذ أنّه اعتذر على مفارقة المعزّ ببرقة ـ مؤقّتاً ـ بواجب الرجوع الى الزاب بسبب « قطين في قصيّ من النوى » وقلنا : لعلّه يعني عيالَه ، ولو كان يسكن القيروان ، فما حاجتُهُ بالرجوع إلى المسيلة ، خصوصاً وقد فارقها صاحباها منذ سنتين ؟

ثمّ ، هل كان له أسرة ؟ زوجة وأولاد وأهل ؟ نحن نعلم أن الشعراء والأدباء المتّصلين بأصحاب السلطان لا يتبسّطون في هٰذا الموضوع . فما علمنا مثلاً بأنّ المتنبّي أنجب ولداً إلاّ في حادثة قتله . أمّا شعره ، فلا شيءَ فيه من هٰذا ، وكذلك شعر صاحبنا .

فلذلك فوجئنا حين وجدنا في كتب الأدب أنّ له عقباً ، لا في معنى التلاميذ المقلّدين ، بل في معنى النسل ، وأن هٰذا النسل كان يحترف الشعر هو أيضاً : وأوّل ذكر لابن هانىء آخر ، نجده عند الثعالبيّ في تتمّة اليتيمة[2] حيث يورد بيتين منسوبين الى شاعر يُدعى جعفر بن هانىء الأندلسيّ . والبيتان مثبتان في مخطوط تونس 1 باسم محمد بن هانىء صاحبنا . فافترضنا أنّ الثعالبيّ قد يكون وهم وخلط بين جعفر بن هانىء هٰذا وشاعر مصري يدعى محمد (بن إبراهيم) بن هانىء ، خصوصاً وأنّ جعفر بن هانىء مجهول في جميع المصادر ، في حين أن محمد بن إبراهيم بن هانىء معروف ، نقل له

---

(1) عيون الأخبار ، السبع السادس الذي ننوي نشره عن قريب ان شاء اللّه .
(2) تتمّة اليتيمَة 34/1 .

العماد الأصفهاني في شعراء مصر طائفة غزيرة من الأبيات ، وهي أبيات على طريقة ابن هانىء ، لا سيّما قصيدة فائيّة من جنس القصيدة الفلكيّة رَصَّعها هو أيضاً بسلسلة من التشابيه المبدوءة بـ « كأنَّ » ، إلَّا أنّها لا تصف النجوم ، بل الأزهار[1] .

ومحمد بن إبراهيم هٰذا ليس من ورثتِه في الأدب فحسب ، بل هو من عقبه الفعليّ ، فهو ، حسب شهادة العماد ، سليل ابن هانىء الأندلسيّ المغربيّ ، مات في آخر مدّة الوزير ابن رزّيك ، أي قبل سنة 1164/560 . ويضيف صاحب الخريدة أنّه همّ بوضعه مع شعراء المغرب والأندلس ، ممّا يحملنا على الظنّ بأنّ هٰذا الشاعر المصري لم يكن مصريّ المولد والنشأة ، بل رحل الى خدمة الفاطميّين بالقاهرة من موطنه الأندلس . هٰذا الأصل الأندلسيّ يدعمه ما نجده عند ابن ظافر (1216/613) من صريح الإعلان بانتسابه إلى شاعرنا : « . . . ولو لم يكن لَهُ ممّا يمتُّ به إلا انتسابُـهُ إلى أبي القاسم بن هانىء شاعر هٰذه الدولة ، ومُظهِرِ مفاخرها ، وناظِم مآثِرها ، لكفى . فكيف ، وفيه هٰذا الأدب الغضُّ النضيرُ ، والشعرُ الذي لا ندَّ له ولا نظير ؟ »[2] . وهكذا يكون ابن هانىء الحفيد أو « المحدَث » كما يدعوه ابن ظافر ، قد حقّق ما رامِه جدّه الأعلى ، وهو الالتحاق بالدولة الفاطميّة بالقاهرة .

وهناك حفيد آخر لشاعرنا ، كشف لنا عن نسبه المؤرّخ ابن القنفذ القسنطيني (ت 1407/810) ، ألا وهو البهاء زهير شاعر الأيّوبيّين . قال : «وفي هذه السنة [1258/656] توفّي بالقاهرة الصاحب بهاء الدين زهير ابن محمد المهَلّبيّ ، الحجازيّ المولد والمنشأ ، المصريّ الدار . ويُذكر أنه من ولَد محمد بن هانىء الأندلسيّ شاعر بني عبيد المشهور ، وأن والده انتقل من سبتة إلى مكّة المشرَّفة ، وولد بها ، وبها نشأ وتأدّب ، وسار إلى الديار

---

(1) الخريدة (مصر) 248/1.

(2) بدائع البدائِه، بولاق 1860/1278 ، ص 224 .

المصريّة . . . »[1] وابن قنفذ هو الوحيد الذي ذكر له هٰذا النسب ، ولكنّ ذكر مدينة سبتة يحملنا على قبول قوله كما سيظهر بعد قليل ، بالرغم من أنّ مؤرّخي الدولة الأيّوبيّة ، ودارسي شعرائها مثل جودت الركابيّ[2] لم يؤيّدوه . ولكنّ البهاء زهير مهلّبيّ أزديّ مثل صاحبنا ، أفيكفي هٰذا الاشتراك لربطهما بنسبٍ مباشرٍ ؟

وهناك ابن هانىء ثالث ذكره المقريّ فيمن رحل من إشبيلية الى سبتة[3] ، وهو فقيه مؤرّخ يدعى أبا عبد اللّه محمد بن هانىء اللخميّ السبتيّ . فهو يمنيّ ـ لخميّ ـ وإشبيليّ الأصل مثل صاحبنا ، واستقرّ بسبتة التي عاش بها والد البهاء زهير حسب قول ابن قنفذ . فهل كان هٰذا الفقيه حفيداً أيضاً لشاعر المعزّ ؟ ونلاحظ بهٰذا الصدد أن المستشرق الإسبانيّ بونس بواقُس نسب إلى صاحبنا كتاباً في التاريخ ، وهو بدون شكّ من تأليف الفقيه السبتيّ[4] .

تـدهور شخصيّة ابن هانىء

بعد هٰذه الخواطر حول تأثير ابن هانىء الفعليّ ، يجدر بنا أن نتوقّف قليلاً عند الصور الخرافيّة أو المضحكة التي انحدرت اليها صورته في كتب الأدب وعند المترجمين الذين قد لا يمحّصون ما يقع اليهم من أخْبار فيقبلون ما يلفّقه الخيال الشعبيّ حول الأعلام الذين اشتهروا بخاصّيّة ما ، كالجاحظ وشغفه بالكتب ، وأبي نواس ومجونه ، وابن الرومي وطيرته ، والمعرّي وذاكرته العجيبة .

---

(1) الفارسيّة في مبادىء الدولة الحفصيّة ، 121 .

(2) في دراسته عن الشعر في العهد الأيوبيّ وفصل « بهاء الدين زهير » بدائرة المعارف الإسلامية .

(3) نفح الطيب 245/6 .

(4) . . . . Ensayo ترجمة 37 و 273 (محمد بن علي بن هانىء) .

ففي جانب الروايات الخياليّة ، نجد توطئة القصيدة الثالثة والخمسين التي يقول الديوان انها أوّل ما أنشده بالقيروان : [كامل]

1/53 هــل من أعقَّةِ عـالـجٍ يبـرينُ   أم منهمـا بَقَرُ الحـدوج العينُ؟[1]

ويضيف أنّ المعزّ أمر للشاعر « بدست قيمتُه ستة آلاف دينار . فقال : يـا امير المؤمنين، ما لي موضع يسع الدست إذا بسط، فأمر له ببناء قصر، فغرم عليه ستة آلاف دينار ، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتُها ثلاثة آلاف دينار » . فهٰذه خمسة عشر ألفاً من الدنانير المعزّيّة ، وكانت ثقيلة بالمقارنة مع غيرها . وأعجب من هٰذا المبلغ أن يكافىء الممدوح شاعره لا نقداً بل بضاعة . وأعجب منه أن يبدأ بالزرابيّ قبل الدار . وكنا نتوقّع بعد هٰذا أن يعطيه الجارية والغلمان ويعمر له الدار !

وبعد ، نقبل من التوطئة أنّ القصيدة أوّل شعر له أمام المعزّ ، فتكون القصائد السابقة ـ كالحادية عشرة ـ أرسلت إلى المعزّ من المسيلة ، ولكن لا نقبل بقيّة الخبر بسبب مسحته العجيبة التي لا تتّفق مع ما عرفناه من المعزّ ومن الشاعر معاً ، لا سيّما وأنّ الديوان انفرد وحده بهٰذه الخرافة .

توطئة أخرى تقدّم لنا منه عجيبة وغريبة، ولكن بقصد الإطراف ، هي توطئة القصيدة العشرين التي أعجبت الأدباء كثيراً كما بيّنا . ينفرد بهٰذه المقدّمة مخطوطا تونس ت 2 رقم 15850 وتونس 3 رقم 15890 فيقولان : « وهي [القصيدة] التي امتُحِنَ بها وأنشدها ارتجالاً ومات حال إنشادها رحمه اللّه تعالى » ويضيفان : « ولها قصّة » . وكنّا نودّ أن نعرف هٰذه القصّة الأخرى ، حتى نفهَمَ كيف حيِيَ بعدها حتى التحق بالمعزّ وعاشره مدّة ثم صاحبه حتى برقة حيث لقي حتفَه النهائيّ ، وحتّى نفهم بالخصوص الدوافع إلى اختلاق

---

(1) عالج ويبرين موضعان بجزيرة العرب ، والأعقّة ج عقيق : مسيل الماء . والبقرُ العِينُ : الحسناوات مثل البقر الوحشيّ والحدوج : هوادج الظعائن .

مثل هٰذه الخرافة : هل أراد صاحبُها أن يستدلّ على قدرة الشاعر في الارتجال ؟ ولكن ، أيّ قدرة ، إذا حمله الجهد إلى القبر بمثل هٰذه السرعة ؟ أم أراد أن يستنكر قساوة الامتحان ؟ ولكن هل فرض عليه الممدوح هٰذا المقدار القاتل : ثمانية وثلاثين بيتاً في الحين والحال ؟

والرأي عندنا أنّ الرواية ليست لا شيعيّة ولا سنّيّة ، وإنّما هي محاولة لتجسيم صورة الشاعر الباهتة وتلوينها بشيءٍ من السماكة والحركة ، إلاّ أنّ الراوي لم يقدّر المرمى فتجاوز الغرض .

أمّا الرواية الهزليّة ، فعند ابن سعيد وابن العماد . صاحب المغرب يصوّره لنا وهو يخاتل حاجب جعفر بن حمدون حتى يدخل على الأمير، فيضطرّ إلى التنكّر في زيّ بهلول فيستطرفه الحاجب ـ دون أن يعرفه ـ فيدفعه إلى مولاه حتى يُضحكه وهناك يخلع ابن هانىء حمقَه المستعار ويندفع منشداً قصيدة النجوم ، فيقول جعفر مبهوراً : أنت ابن هانىء ![1] واستظرف الخرافة الدواداري أيضاً فأثبتها في كنزه[2] .

ابن العماد يخبرنا بلقاء بين ابن هانىء والمتنبّي : هنا أيضاً يتنكّرُ مُواطنُنا في هيئة مسكين ذي أطمار يسوق أمامه شاة عجفاء ويعترض منافسَه وهو قاصد أميرَ قابس تاركً كافوراً فيقول له ، مشيراً إلى الدابّة الهزيلة : هٰذا ما كافأني به على مدحي .فيفهم المتنبّي أن هٰذا البحر الذي وصفوه له إنما هو ساقية، فيعود أدراجه ، فيفرح ابن هانىء وقد أمن المنافسة[3] . وقد بلغت الحكاية إلى مسمع اليافعيّ قبل أن تصل إلى صاحب الشذرات ، فاكتفى بأن قال : ما سمعنا أن المتنبّي دخل المغرب قطّ[4] ، ولكنه لم يستغرب الخرافة .

---

(1) المغرب ، ترجمة 409 .
(2) كنز الدرر 241/6 .
(3) شذرات الذهب 41/3 .
(4) مرآة الجنان 1/ ورقة 230 .

وهكذا فالصورة التي تقدّمها الحكايتان من شخص ابن هانىء هي وسط بين نوادر جحا وأخبار أبي نواس . وابن العماد ـ عن قصد أو غير قصد ـ يكنّي صاحبنا بكنية أبي نواس « مثل الشاعر العراقيّ » ، وبهٰذا الخلط يتّضح المسعى : شاعران يكنّيان بأبي نواس . وأبو نواس يحمل في الذهنيّة الشعبيّة شحنة من المُـلَحِ والنوادر ، فيتحوَّل هٰذا الجانب الهزليّ بصفة طبيعيّة إلى النواسيّ المكذوب ، أي صاحبنا .

ولا نتّهم أخيراً خصوماً له سنّيّين ولا أنصاراً شيعيّين ، كأن نقول : الصور المضحكة هي انتقام من مؤلّفين قيروانيّين مالكيّين من هٰذا الذي ألّهَ الدخلاء المشارقة المارقين . أو نقول : إنَّ الصور الخرافيّة كالهبات السنيّة أو الارتجال المتبوع بسكتة قلبيّة هي من صنع الشيعة ، تعظيماً لكرم المعزّ من جهة ولعبقريّة شاعره من جهة أخرى .

لا نتّهم أحداً ، بل نكتفي بالرأي الذي اقترحناه قبيل الساعة : هي محاولات مغالية ـ وبالتالي غير ناجحة ـ لإعطاء صورة محسوسة ملموسة فيها ألوان الحياة ، لهٰذا الشاعر الغامض المبهم الغريب .

الخاتمة

حين شرعنا في هٰذا العمل ، كانت تحدونا رغبتان : أن نلتمس أوّلاً من دراسة هٰذا الشعر المذهبيّ مزيداً من المعلومات عن الدولة التي نُظم في الإشادة بها ، وذلك اعتماداً على التواصل الوثيق بين الأدب والتاريخ ، وخاصّة في بيئتنا العربيّة الإسلاميّة .

ثمّ أن نبرّر ـ أو نزيّف ـ الشهرة الواسعة التي نالها هٰذا الشعر طيلة العصور التالية : فهل له من القيمة الذاتيّة ما يُثرِي الأدب العربيّ عامّة ، والمغربيّ خاصّة ؟ أم كان الإعجابُ بابن هانىء نتيجة لنزعة المباهاة الإقليميّة التي حاول بها المغاربة أن يتحرّروا من الشعور بالتبعيّة نحو الشرق ؟

وكنّا نأمل أيضاً ، علاوة على هاتين الغايتين ، أن نلقِيَ أضواءً جديدة على شخصيّة هٰذا الرجل الذي يَكتنفهُ الغموض بالرغم من وصوله الى منصب الداعية الرسميّ لأعظم دولة إسلاميّة في القرن الرابع .

والآن ، وقد وصل عملنا الى نهايته ، يحق لنا أن نقيّم النتائج :

في خصوص ترجمته ، نقول انها نتائج متفاوتة : لم نصل إلى جديد فيما يخصّ الفترة الأندلسيّة من حياته وبقينا ، مثل سابقينا ، في دائرة الظنّ والتخمين ، في كلّ ما يهمّ شبابه ، وأسرته ، وهانئاً أباه الداعي الغريب أو

المزعوم، وخروجه طوعاً أو كرهاً من إشبيلية . ولم نفهم بالخصوص كيفَ مُحِي شعره الأندلسيّ من الذاكرة حتى لم يبق لنا منه ، ولو بيت واحدٌ ثابت ، مع أنّ إنتاجه الشعري بموطنه الأوّل كان ولا شكّ غزيراً ، كما تشهد له به المدحةُ الجيّدة التي توجّه بها إلى جوهر حال وصوله الى برّ العدوة .

أمّا الفترة الإفريقيّة ، فلئن وضّحنا بعض جوانبها ، فإنّ مناطقَ كثيرة منها لا تزال مبهمةً : مثلاً ، كم دامت إقامتُه بالمسيلة ؟ أي ، متى دخل في خدمة المعزّ ، حتى نحدّد بالضبط المدّة التي صحب فيها الخليفة وعاصر الأحداث ؟ ثمّ ، ما هي حقيقة علاقته بالإمام ؟ هل كان يقطن بجانبه بالقيروان ، أم كان يَأتيه لماماً من المسيلة ؟ وهل كان له ما يشدّه إلى المسيلة ، أي أهلٌ ورهط وخلّان ؟

كما بقي بعض ممدوحيه مجهولينَ لدينا بصفة تامّة : الشيبانيّ وأحمد بن زائدة ، أو مفتقرين إلى مزيد من التعريف كأفلح الناشب أو طاهر والحسين الأميرين الفاطميّين .

وبقينا نستغرب عزوفه عن مدح ولاة وقوّاد مشهورين مقتدرين كالأمراء الكلبيّين بصقلّية والصنهاجيّين بأشير : أَلِبُعْدِ المسافة بين الزاب وصقليّة ؟ أم للعنصريّة الخفيّة والصريحة بين العرب والبربر ؟

وفي المقابل ، تمكّنا ، على ضوء ما أسعَفَنا به مخطوط تونس 1 من قطع ذاتيّة مجهولة ، من كشف الجوانب المخفيّة من شخصيّة الشاعر ، كالانحراف المكبوت ، والشذوذ الجنسِيّ ، والميل إلى اللهو ، والإسفاف في المطارحات الإخوانيّة ، ممّا يدعَم الرأي القائل بأنّ قتلَه كان « في مشربة على صبيّ » أو أنّ موته كان بعد سكر شديد ضلّ معه الطريق .

أمّا شعره ، فقد حَاوَلْنا أن نظهر خاصيّتَه الأساسيّة : وهي الجانب السياسيّ العقائدي الذي يرفعه ، في مضمار الدعاية الحزبيّة ، إلى مستوى المؤلّفات« النظريّة » المختصّة مثل كتب القاضي النعمان أو الداعي إدريس ،

ويجعل من صاحبه شاعراً مندرجاً عن جدارة في سلسلة الشعراء المذهبيّين الذين خَدمُوا قضيّة أو تعلّقُوا بفكرة ، ابتداءً من الثالوث الأمويّ وخصومهم الزبيريّين أو الخوارج ، إلى شعراء الوطنيّة والمقاومة اليوم ، وبرهنوا على أنّ الشعر قادرٌ على الدفاع عن فكرة سامية والإقناع بقضيّة مشروعة ، بقدر ما هو قادر على التعبير عن عواطف القلوب وأحاسيس النفس . فشعر ابن هانىء ، في دفاعه عن شرعيّة الدولة الفاطميّة ، واستدلاله على أحقّيَتها بإمرة المؤمنين ، وخصوصاً في حملته العنيفة ضدّ الأعداء والمنافسين ، أقوى لهجةً وأشدّ تأثيراً من قصائد التحسّر والتفجّع التي عرف بها الشعر الشيعيّ في أيّامه الأولى . ولقائل أن يقول إنّه كان في مأمنٍ من غضَبِ هؤلاء الخصوم لا يحتاج الى تقيّة أو مداراة لأنّه كان محروساً بدولة قويّة متألّقة منتصرة . ونجيب بأنّ مثلَ هٰذا الشاعر كان يصرخ بنفس الشعارات ويصدع بنفس المبادىء ، في نفس القوّة ونفس العنف ، لو قُدّر له أن يعيش تحت حكم عبّاسيّ أو أمويّ ، وقد فعل مع هؤلاء فأزعجوه ونفوه ، مثل اللاجئين السياسيّين اليوم .

وفيما عدا ذلك ، فانّ شعره يلفت الانتباه بخاصّيّتين : ميل الشاعر إلى الجزالة في اللفظ والقوّة في التعبير ، ممّا حمل إليه تهمة التقوقع والجلبة الفارغة ، وشغفه بالصور والخيالات وكلّ أصناف الصنعة البلاغيّة ، ممّا يجعل منه رائداً لمدرسة البديع في المغرب .

هٰذه الصنعة ، هٰذا التطبّع من جهة ، وهٰذه القعقعة اللفظيّة من جهة أخرى ـ وإن كانتا ظرفيّتين عابرتين ، لا تشوبان كافّة شعره ـ تطمسان في الأغلب غنائيّةَ الشاعر فتبهت الجوانب الذاتيّة الفطريّة الصادقة من حساسيّتِهِ وتفكيره .

رمضان 1404/ جوان ـ حزيران 1984

الفهارس العامة

١ - فهرس الآيات المضمنة في الأبيات

الصفحة	الآية	السورة
114	﴿ . . . آلآنَ حَصْحَصَ ٱلحَقُّ . . . ﴾	يوسف ، 51
343	﴿ إذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجِيَادُ . . . ﴾	صٓ ، 31-33
187، 343	﴿ قَالَ رَبِّ آشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . . . ﴾	طه ، 25-32
145	﴿ . . . كُتِبَ عَلَيْكُم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾	البقرة ، 183
333	﴿ هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إلَيْنَا . . . ﴾	يوسف ، 65
114	﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى . . مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ . . . ﴾	الأعراف ، 148
342	﴿ وَٱلْعَصْرِ ، إنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ! ﴾	العصر ، 1-2
128، 266	﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾	الرعد ، 7

2 ـ فهرس الأعـلام والمفاهـيم

أسقطنا عبارات « ابن » و « أبو » و « بنو » . فابن هانىء يطلب في الهاء وبنو حمدون في الحاء .

وأضربنا عن ذكر الأعلام الذين يتردّد ذكرهم كابن هانىء والمعزّ ، أو اكتفينا بالإحالة الى أهمّ الصفحات المتعلّقة بهم ، مثل جوهر وبني حمدون . وكذا نفعل بأسماء الأماكن .

وآقتصرنا على أسماء المتن دون الهوامش .

أ

خ

د

ذ

ر

ز

س

ش

ف

ق

ك

ل

م

3 - فهرس البلدان والأماكن

ك

م

ن

و

ي

4 - فهرس الكتب المذكورة في المتن

ن

و

5 - فهرس المراجع العَربيَة وَغير العربيـة

باللغة العربية

رتّبنا المراجع على أسماء مؤلّفيها ترتيباً أبجديّاً بقطع النظر عن « ابن » و« أبو » . فابن هانىء يأتي في الهاء ، وأبو الطيب في الطاء . وجعلنا بين قوسين سنة الوفاة .

أ

ابن الأبّار (1260/658) :

- التكملة لكتاب الصلة ، مدريد 1889 .
- الحلّة السيراء ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة 1963 ، في جزأين .

ابن الأثير (1233/630)

- الكامل في التاريخ ، القاهرة 1934/1353 في 9 مجلدات .

إدريس عماد الدين الداعي (872/ 1468) : عيون الأخبار ، السبع السادس ، مخطوط .

الاصطخري (957/346)

المسالك والممالك ، القاهرة 1961 .

الأعظمي (محمد حسن) : الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطميّة والأثنَي عشريّة ، القاهرة ، 1970 .

امرؤ القيس : ديوان ، نشر السندوبي ، القاهرة 1053 .

أمين (أحمد): ظهر الاسلام، 4 أجزاء، القاهرة 1957.

الأميني النجفي (عبد الحسين أحمد) : الغدير في الكتاب والسنة والأدب، بيروت 1977

أنيس (ابراهيم): موسيقى الشعر ، القاهرة ، 1965.

ب

الباخرزي (1074/467): دمية القصر، بغداد 1970.

البحتري: ديوان، نشر البرقوفي 1911/1329.

ـ ديوان، نشر حسن كامل الصيرفي ، دخائر العرب عدد 34.

ابن بسّام (1147/542):

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبّاس، تونس ـ ليبيا 1975.

البكري (1094/487)

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر 1857.

البلاذري: أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة 1959.

ت

تامر (عارف) : ـ ابن هانىء ، سلسلة الأعلام ، بيروت 1961.

ـ ابن هانىء ، فصل بدائرة معارف البستاني 112/4.

ابن تغري بردي (1470/874) : النجوم الزاهرة ، القاهرة 1933 .

أبو تمام : ديوان ، تحقيق محمد عبده عزّام ، ذخائر العرب رقم 5 .

تميم بن المعزّ الفاطميّ : ديوان ، القاهرة 1957.

ث

الثعالبيّ (1038/429): كتاب تتمّة اليتيمة ، تحقيق عبّاس اقبال ، طهران 1934/1352.

ـ يتيمة الدهر ، القاهرة 1934/1352.

ج

جوذر (سيرة الأستاذ) ، نشر محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيرة . القاهرة ، د.ت.

ح

ابن حجر العسقلاني (1448/852) :

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ـ حيدر آباد 1931/1350.

ابن حجّة الحموي(1433/837): خزانة الأدب وغاية الأدب ، القاهرة 1887/1304.

ابن أبي حجلة التلمساني (1375/776)

سكردان السلطان (مع كـ. المخلاة للعامليّ) القاهرة 1957.

حسن (حسن إبراهيم): تاريخ الدولة الفاطميّة، القاهرة 1967.

حسن (علي ابراهيم): تاريخ جوهر الصقلّي ، القاهرة 1933.

محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطميّة ، دار الفكر العربيّ ، 1970 .

الحصريّ (1022/413): زهر الآداب ، القاهرة 1953.

ابن حمّاد (1230/628): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، الجزائر 1927.

الحميدي (1095/488): جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت ، القاهرة 1952.

ابن حيّان (469 / 1076): المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، نشر عبد الرحمان الحجّي ثمّ محمود علي مكي (1973) ثم بدرو شلميتا (1979) .

خ

ابن خاقان (الفتح ـ (1134/529) :

ـ قلائد العقيان ، نشر سليمان الحريري ، باريس 1860 .

ـ مطمح الأنفس ، القاهرة 1905/1325.

ابن الخطيب (1375/776) لسان الدين :

ـ الإحاطة في أخبار غرناطة ، نشر عبدالله عنان ، القاهرة

ـ أعمال الأعلام ، قسم نشره ح.ح. عبد الوهاب ، بالـرمو 1910.

قسم نُشر بمدريد، 1956 (بتحقيق رفائيل مركاس).

الخفاجي (الشهاب ـ (1658/1069)

ريحانة الألباء ، نشر عبد الفتاح الحلو ، القاهرة 1967.
ابن خلدون (1406/808): كـ. العبر ، بيروت 1958.
ابن خلكان (1282/781): وفيات الأعيان ، القاهرة 1948 .
خلوصي (صفاء) : فن التقطيع الشعري والقافية ، بيروت 1966 .
ابن خير (1179/575) : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، مدريد 1894 .

د

الدبّاغ (1297/696)/ ابن ناجي : معالم الإيمان ، تونس 1902/1320 .
ابن دحية (1265/663) : المطرب من أشعار أهل المغرب ، القاهرة 1954 .
ابن الدواداري (1335/736) : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، نشر صلاح الدين المنجّد ، القاهرة 1961 .
ابن أبي دينار (1698/1110) : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تونس 1868/1236 .

ذ

الذهبي (1348/748)
- تاريخ الإسلام ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس، رقم 1581 .
- العِبَر في تاريخ من عَبر ، الكويت 1961 .

ر

ابن رشيق (1063/456)
- العمدة ، القاهرة 1955 .
- قراضة الذهب ، نشر الشاذلي بويحيىٰ، تونس 1972 .

ز

الزبيديّ (989/379) :

طبقات النحويّين واللغويّين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة 1954 .

ابن زيدون : ديوان ، نشر رشيد الكيلاني ، القاهرة 1956 .

س

السرّاج (الوزير) [1736/1149] :

الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة ، نشر محمد الحبيب الهيلة ، تونس 1970-1974 .

ابن سعيد المغربيّ (1286/685) :

- رايات المبرّزين : نشـر ڤارثيا قوميث ، مدريد 1942 .
- عنوان المرقصات ، نشر عبد القادر محداد ، الجزائر 1949 .
- المُغرب في حلى المَغرب ، نشر شوقي ضيف ، القاهرة 1955 .
- قسم منه خاص بمصر ، نشر زكي محمد حسن ، القاهرة 1953 .

ابن سهل الجيّاني : نوازل الأحكام . . . مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 18394 .

ش

ابن شاكر الكتبيّ (1362/764) :

- عيون التواريخ ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1588 .
- فوات الوفيات ، القاهرة 1957 .

ابن الشحنة (1412/813) : روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر (طُبع بَهامش مروج الذهب) القاهرة 1885/1303 .

ابن شرف القيرواني (1067/460) : مسائل الانتقاد ، نشر شارل بلاّ ، الجزائر 1953 .

ص

الصدر (السيد الحسن) : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، بيروت 1981 .

الصفديّ (1363/764) : الوافي بالوفيات ، نشر ريتّر ، فيسبادن 1962 ، ومخطوط دار الكتب الوطنية بتونس رقم 13318 .

الصنوبري : ديوان ، نشر إحسان عبّاس ، بيروت 1970 .

ض

الضبّيّ (1203/599) : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس نشر كوديرا ، مدريد 1884 .

ط

الطالبيّ (محمد) : تراجم أغلبيّة ، تونس 1968 .

الطرّازي (فيليب) : تاريخ الصحافة العربيّة ، بيروت 1914 .

الطرسوسيّ (مرضيّ) : ك. تبصرة الألباب ، نشر كلود كاهين ، صحيفة الدراسات الشرقيّة (B.E.O.) مجلّد 12 ، دمشق 1947-1948 .

ظ

ابن ظافر الأزدي (1216/613) : بدائع البدائه ، بولاق 1860/1278 .

ع

العامليّ (1622/1031) : كتاب المخلاة ، القاهرة 1957 .

عبد الوهاب (ح.ح.) : تاريخ الأدب التونسيّ ، تونس 1966 .

ابن عذارى (1312/712) : البيان المغرب ، نشر ليڤي بروفنسال وكولان ، ليدن 1948-1951 .

أبو العرب التميميّ (945/333) : طبقات علماء إفريقيّة ، نشر محمد بن أبي شنب ، الجزائر 1917/1332 .

العسكريّ (1010/400) : كـ . الصناعتين ، القاهرة 1971.
العماد الأصفهاني (1201/597): خريدة القصر ـ (قسم شعراء مصر) ، القاهرة 1959 .
ـ (قسْم شعراء المغرب) تونس 1972/1966 .
ابن العماد الحنبليّ (1678/1089) : شذرات الذهب ، القاهرة 1931 .
العمريّ (ابن فضل اللّه) [1348/748] :
ـ مسالك الأبصار ، نشر أحمد زكي ، القاهرة 1924 .
ـ قسم المغرب ، ترجمة ديمومبين ، باريس 1927 .
ـ الباب 17 : شعراء الجانب الغربيّ ، مخطوط المكتبة الوطنيّة باريس 1327 .
عليّ (زاهد) الحيدرابادي : تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هانىء ، القاهرة 1933/1352 .

ف

أبو الفداء (1331/732) : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة 1907/1325.
أبو فراس الحمداني : ديوان ، بيروت 1966 .
الفرزدق : ديوان ، نشر الصاوي ، القاهرة 1936/1354 .
ابن الفرضيّ (1013/403) : تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، القاهرة 1954 .

ق

ابن قتيبة (889/276) : الشعر والشعراء ، المقدّمة، نشر ديمومبين، دمشق.
القلقشندي (1418/821) : صبح الأعشى ، القاهرة 1963 -1972.
القمّي (عبّاس) : الكنى والألقاب ، النجف 1970 .
ابن قنفذ القسنطيني : الفارسيّة في مبادىء الدولة الحفصيّة ، تونس 1968 .
ـ الوفيات ، نشر بيريس 1939 .

ك

ابن كثير (1373/774) : البداية والنهاية ، القاهرة 1932 .

م

المالكي (1061/453) : رياض النفوس- ج 1 نشر حسين مؤنس ، القاهرة 1951 . ج 2 ، **مخطوط** القاهرة رقم 116 ، **مخطوط** باريس رقم 2153 .

- نشر البشير البكّوش في 3 أجزاء ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت 1981 -1984 .

المتنبّي : الديوان بشرح العكبري ، القاهرة 1956 .

مجهول : كـ . العيون والحدائق ، الجزء الرابع في قسمين ، تحقيق عمر السعيدي ، دمشق 1973 .

المحبّي : (1699/1111) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ، القاهرة 1967 .

- نفحة الريحانة ، نشر عبد الفتاح الحلو ، القاهرة 1967 .

المرّاكشي (عبد الواحد) (1250/647) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة 1949 .

المقدّسي (988/378) : أحسن التقاسيم ، نشر شارل بلاّ ـ الجزائر 1950 .

المقري (1631/1041) : أزهار الرياض في أخبار عياض ، القاهرة 1942 .

- نفح الطيب ، القاهرة 1949 .

- نفح الطيب نشر احسان عبّاس ، بيروت 1968 .

المقريزي (1441/845) :

- اتّعاظ الحنفاء ، نشر جمال الدين الشيّال ، القاهرة 1948 .

- الخطط (المواعظ والاعتبار) . بولاق 1898/1316 .

- ك . الذهب المسبوك فيمن حجّ من الخلفاء والملوك ، نشر الشيّال ، القاهرة 1955 .

المعرّي (1057/449) : اللزوميّات ، بيروت .

- رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطىء ، القاهرة 1950 .

مكي (محمود علي): التشيّع في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلاميّة بمدريد 2,1/1954 .

ابن منظور (1311/711) : أخبار أبي نواس ، القاهرة 1924 .

المنقري (نصر بن مزاحم) [828/212] : وقعة صفّين ، تحقيق عبد السلام هارون ، القاهرة 1365 .

ن

ناجي (منير) : ابن هانىء الأندلسيّ ، بيروت 1962 .

الناصريّ السلاويّ (أحمد) : ك. الاستقصاء ، الدار البيضاء ، 1954 .

القاضي **النعمان** (974/363) : - افتتاح الدعوة ، نشر وداد القاضي، بيروت 1970 .

- تأويل الدعائم ، نشر محمد حسن الأعظمي ، القاهرة 1969 .
- دعائم الإسلام ، نشر آساف فيضي ، القاهرة . .
- المجالس والمسايرات ، نشر كلية الآداب ، تونس 1978 .
- ك. الهمّة ، نشر محمد كامل حسين ، القاهرة 1951 .

أبو نواس : ديوان ، بيروت 1962 .

ي

اليافعيّ (عفيف الدين) [1367/768] :

مرآة الجنان . . . مخطوط دار الكتب الوطنية ، تونس رقم 13443 . 13444 . وطبعة بيروت الثانية ، 1970 .

ياقوت الحموي: (1230/627) :

- إرشاد الأريب (معجم الأدباء) نشر الرفاعي ، القاهرة 1939 .

باللغة الأجنبية

Amari (Michele): – B.A.S. (Biblioteca arabo-sicula), Leipzig 1957.
– Su i fuochi di guerra... Roma 1871.
Blachère (Régis): – Histoire de la littérature arabe, Paris 1952-1966.
Bouyahia (Chedli): – La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides,Tunis 1972.
Brunschvig (Robert): – Fiqh fatimide et Histoire de l'Ifriqiya, in Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, tome 2, Alger 1957.
– Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam; mélanges Gaudefroy-Demombynes, Paris 1945.
Canard (Marius):
– L'autobiographie d'un chambellan du Mahdi 'Ubayd Allah, Hespéris 1952.
– Cérémonial fatimide et cérémonial byzantin; Byzantion 21 (1951).
– Une famille de partisans puis adversaires des Fatimides en Afrique du Nord, in Mél. d'Hist. et d'Archéol. de l'Occ. musulman, t. 2, Alger 1957.
– Histoire de la dynastie des Hamdanides... Alger 1951.
– L'impérialisme des Fatimides et leur propagande, A.E.I.O.A. 6/156.
– La procession du Nouvel an chez les Fatimides, A.E.I.O.A. 1952.
– Vie de l'ustadh Jawdhar, Alger 1958.
Dachraoui (Farhat):
– Le califat fatimide au Maghreb, Tunis 1981.
– La captivité d'Ibn Wāsūl... in: Cahiers de Tunisie 1956.
– La Crète entre Byzance et mu'izz, in Cahiers de Tunisie, 1959.
– Contribution à l'Histoire des Fatimides en Ifriqiya, Arabica 8.
– Tentative d'infiltration chiite en Espagne musulmane, al-Andalus 23/1958.
Fournel (H.): – Les Berbers, Paris 1881.
Garcia-Comez (E.): – Poemas arabigo-andaluces, Madrid 1940.
– Mutanabbi et Ibn Hāni; Mélanges W. Marçais; 1950.
Guyard (St.): – Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, Paris 1874.
Idris (H.-R.): – La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris 1962.
– Contribution à l'Histoire de l'Ifriqiya, Revue des Etudes Islamiques 1935-36.
Ivanow (W.): – A guide to Ismaili literature, London 1933.
– Ismaili traditions concerning the rise of Fatimids, Bombay 1942.
Kremer (A. von): – Ibn Hāni', in Z.D.M.G. 24.

Lévi-Provençal (E.): – Fragments sur les Berbéres au moyen-âge, Rabat 1934.
– Histoire de l'Espagne musulmane; Paris 1950-53.
Luya (A.): – La Risāla d'al-Šaqundī, Hesperis 22/1936.
Marçais (G.): – La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen-âge, Paris 1946.
– Manuel d'art musulman, Paris 1926.
Massé (H.) – Le poème d'Ibn Hāni' sur la conquête de l'Egypte; Mélanges d'Hist. et d'Archéol. de l'Occident musulman, 1957.
Massiéra (P.): M'sila du 10[e] au 15[e] siècle, Cahiers de Tunisie no. 85/ 86.
Massignon (Louis): – Esquisse d'une bibliographic garmate, 1922.
Monès (Husayn): – Le malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya; Mél. Lévi-Provençal, Paris.
Pellat (Ch.):- Ibn Hazm, bibliographe et apologiste de l'Esp. musul. al-Andalus 19/1954.
Pérès (H.): – La poésie à Fés sous les Almoravides, Hespéris 18/1 (1934).
– La poésie andalouse en arabe classique au 11[e] siècle, Paris 1953.
Pons Boigues (F.): – Ensayo bio-bibliografico, Madrid 1898.
Quatremère (M.): – Mémoires historiques sur la dynastie des Fatimides Journal Asiatique, 1836.
– Vie du calife Moezz; Journal Asiatique 1836-37.
– Observations sur le feu grégeois, Journ. asiat. 1850.
Reinaud (H.): – De l'art militaire chez les Arabes, Paris 1848.
– Du feu grégeois; Mélanges H. Reinaud.
Rikābi (J.): – La poésie profane sous les Ayyubides, Paris 1949.
Scnlumberger (Gust): – Un empereur byzantin au 10[e] siècle: Nicéphore Phocas, Paris 1890.
Vassiliev (A.A.): – Byzance et les Arabes, Bruxelles 1935-50.
Zbiss (Mustapha-Sulaymān): – Mahdia et Sabra-Mansuriyya, Journal asiatique, 1956.

6 - فهرس المواضيع

دار الغرب الإسلامي / الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ــ الحمراء ــ بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 ــ ص.ب. 113-5787 بيروت ــ لبنان

الرقـــــم 85/1/3000/50

التنضيد: أبجد غرافيكس

الطباعة: مؤسسة نزيه كركي

